التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة الملك

لفضيلة

الدكتور محمد سيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

(الجزء التاسع والعشرون)

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

١ – سورة « الملك » من السور المكية الخالصة ، ومن السور ذات الأسماء المتعددة ، قال الآلوسى : وتسمى « تبارك » ، والمانعة ، والمنجية ، والمجادلة » . .

فقد أخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال : كنا نسميها على عهد رسول الله ﷺ . « المانعة » .

وأخرج الترمذى وغيره عن ابن عباس قال : ضرب بعض أصحاب النبى ﷺ - خباءه على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها . فأتى النبى - ﷺ فأخبره فقال ﷺ - : هى المانعة ، هى المنجية ، تنجيه من عذاب القبر .

وفى رواية عن ابن عباس أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به؟ قال : بلى . قال : اقرأ سورة : تبارك الذى بيده الملك ، وعلمها أهلك ، وجميع ولدك . . . فإنها المنجية والمجادلة يوم القيامة عند ربها لقارئها . . . »

وقد جاء فى فضلها أخبار كثيرة ، منها – سوى ما تقدم – ما أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى ، . . عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ – قال : إن سورة من كتاب الله ، ما هى إلا ثلاثون آية ، شفعت لرجل حتى غفر له . . « تبارك الذى بيده الملك ... »(١) .

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ٢ وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥ .

وكان نزولها بعد سورة «المؤمنون» وقبل سورة «الحاقة». وعدد آياتها إحدى وثلاثون آية فى المصحف المكى ... وثلاثون آية فى غيره.

٢ — والسورة الكريمة زاخرة بالحديث عن أدلة وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ـ وعن مظاهر فضله ورحمته بعباده، وعن بديع خلقه فى هذا الكون، وعن أحوال الكافرين، وأحوال المؤمنين يوم القيامة، وعن وجوب التأمل والتدبر فى ملكوت السموات والأرض...، وعن الحجج الباهرة التى لقنها — سبحانه — لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم — لكى يقذف بها فى وجوه المبطلين، والتى تبدأ فى بضع آيات بقوله ـ تعالى ـ «قل»،

ومن ذلك قوله — سبحانه — : «قل هو الرحمن آمنا به، وعليه توكلنا، فستعلمون من هو فى ضلال مبين. قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين».

وقد افتتح — سبحانه — السورة الكريمة بقوله — تعالى — :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾

ولفظ « تبارك » فعل ماض لا يتصرف . وهو مأخوذ من البَرَكة ، بمعنى الكثرة من كل خير . وأصلها النماء والزيادة . أى : كثر خيره وإحسانه ، وتزايدت بركاته .

أو مأخوذ من البركة بمعنى الثبوت . يقال : برك البعير ، إذا أناخ فى موضعه فلزمه وثبت فيه . وكل شىء ثبت ودام فقد برك . أى : ثبت ودام خيره على خلقه .

والملك ـ بضم الميم وسكون اللام ـ : السلطان والقدرة ونفاذ الأمر .

أى : جل شأن الله ـ تعالى ـ ، وكثر خيره وإحسانه ، وثبت فضله على جميع خلقه ، فهو ـ سبحانه ـ الذى بيده وقدرته التمكن والتصرف فى كل شىء ، على حسب ما يريد ويرضى ، وهو عز وجل ـ الذى لا يعجزه أمر فى الأرض أو فى السماء .

واختار ـ سبحانه ـ الفعل « تبارك » للدلالة على المبالغة فى وفرة العظمة والعطاء ، فإن هذه الصيغة ترد للكناية عن قوة الفعل وشدته . . كما فى قولهم : تواصل الخير ، إذا تتابع بكثرة مع دوامه . .

والتعريف فى لفظ « الملك » للجنس . وتقديم المسند وهو « بيده » على المسند إليه ، لإفادة الاختصاص . أى : بيده وحده لا بيد أحد سواه جميع أنواع السلطان والقدرة ، والأمر والنهى . .

قال الإمام الرازى : وهذه الكلمة تستعمل لتأكيد كونه ـ تعالى ـ ملكا ومالكا ، كما تقول : بيد فلان الأمر والنهى ، والحل والعقد . وذكر اليد إنما هو تصوير للإحاطة ولتمام قدرته ، لأنها محلها مع التنزه عن

الجارحة . . . »(١) .

وجملة « وهو على كل شيء قدير » معطوفة على قوله « بيده الملك » الذى هو صلة الموصول ، وذلك لإفادة التعميم بعد التخصيص ، لأن الجملة الأولى وهى « الذى بيده الملك » أفادت عموم تصرفه فى سائر الموجودات ، وهذه أفادت عموم تصرفه - سبحانه - فى سائر الموجودات والمعدومات ، إذ بيده - سبحانه - إعدام الموجود ، وإيجاد المعدوم .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ، مايدل على شمول قدرته ، وسمو حكمته ، فقال : « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا . . » .

والموت : صفة وجودية تضاد الحياة . والمراد بخلقه : إيجاده . أو هو عدم الحياة عما هى من شأنه . والمراد بخلقه على هذا المعنى : تقديره أزلا .

واللام فى قوله : « ليبلوكم . . . » متعلقة بقوله : « خلق » . وقوله : « يبلوكم » بمعنى يختبركم ويمتحنكم . . .

وقوله « أيكم » مبتدأ ، و « أحسن » خبره ، و « عملا » تمييز ، والجملة فى محل نصب مفعول ثان لقوله « يبلوكم » .

والمعنى : ومن مظاهر قدرته - سبحانه - التى لا يعجزها شيء ، أنه خلق الموت لمن يشاء إماتته ، وخلق الحياة لمن يشاء إحياءه ، ليعاملكم معاملة من يختبركم ويمتحنكم ، أيكم أحسن عملا فى الحياة ، لكى يجازيكم بما تستحقونه من ثواب . . .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ١٦٩ .

أو المعنى : خلق الموت والحياة ، ليختبركم أيكم أكثر استعدادا للموت ، وأسرع إلى طاعة ربه ـ عز وجل ـ .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله : ـ الذى خلق الموت والحياة .. « قيل : الذى خلقكم للموت والحياة ، يعنى : للموت فى الدنيا والحياة فى الآخرة .

وقدم الموت على الحياة ، لأن الموت إلى القهر أقرب ... وقيل : لأنه أقدم ، لأن الأشياء فى الابتداء ، كانت فى حكم الموت ... وقيل : لأن أقوى الناس داعيا إلى العمل ، من نصب موته بين عينيه ، فقدم لأنه فيما يرجع على الغرض الذى سيقت له الآية أهم .

قال قتادة : كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « إن الله ـ تعالى ـ أذل ابن آدم بالموت ، وجعل الدنيا دار حياة ، ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء .

وعن أبى الدرداء أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه : الفقر والمرض والموت ، وإنه مع ذلك لوثاب » .

وقال العلماء : الموت ليس بعدم محض ، ولا فناء صرف ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته ، وحيلولة بينهما ، وتبدل حال ، وانتقال من دار إلى دار ، والحياة عكس ذلك .... »(١) .

وأوثر بالذكر من المخلوقات الموتُ والحياةُ ، لأنهما أعظم العوارض

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٨ ص ٢٠٦ .

لجنس الحيوان ، الذى هو أعجب موجود على ظهر الأرض ، والذى الإنسان نوع منه ، وهو المقصود بالمخاطبة ، إذ هو الذى رضى بحمل الأمانة التى عجزت عن حملها السموات والأرض ...

والتعريف فى الموت والحياة للجنس . و « أحسن » أفعل تفضيل ، لأن الأعمال التى يقوم به الناس فى هـــذه الحياة متفاوتة فى الحسن من الأدنى إلى الأعلى .

وجملة « وهو العزيز الغفور » تذييل قصد به أن جميع الأعمال تحت قدرته وتصرفه .

أى : وهو — سبحانه — الغالب الذى لا يعجزه شىء ، الواسع المغفرة لمن شاء أن يغفر له ويرحمه من عباده ، كما قال — تعالى — : « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » .

ثم بين — سبحانه — مظهرا آخر من مظاهر قدرته التى لا يعجزها شىء فقال : « الذى خلق سبع سماوات طباقا . . . » .

والجملة الكريمة صفة للعزيز الغفور ، أو عطف بيان أو بدل ، أو خبر لمبتدأ محذوف .

وطباقا صفة لسبع سموات . وهى مصدر طابَق مطابقة وطباقا ، من قولك : طابق فلان النعل ، إذا جعله طبقة فوق أخرى ، وهو جمع طبَق ، كجبل وجبال ، أو جمع طبقة كرَحبة ورِحاب . . .

أى : هو — سبحانه — لا غيره الذى أوجد وخلق على غير مثال

سابق ، سبع سماوات متطابقة ، أى : بعضها فوق بعض ، بطريقة متقنة محكمة ... لا يقدر على خلقها بتلك الطريقة إلا هو ، ولا يعلم كنه تكوينها وهيئاتها ... أحد سواه — عز وجل — .

وقوله — سبحانه — : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، مؤكد لما قبله . والتفاوت مأخوذ من الفوت ، وأصله الفرجة بين الإصبعين . تقول : تفاوت الشيئان تفاوتا ، إذا حدث تباعد بينهما ، والجملة صفة ثانية لسبع سماوات ، أو مستأنفة لتقرير وتأكيد ما قبلها . . . والخطاب لكل من يصلح له .

أى : هو — سبحانه — الذى خلق سبع سماوات بعضها فوق بعض ، مع تناسقها ، وإتقان تكوينها ، وإحكام صنعها ... بحيث لا ترى - أيها العاقل - فى خلق السموات السبع شيئا من الاختلاف ، أو الاضطراب ، أو عدم التناسب ... بل كلها محكمة ، جارية على مقتضى نهاية النظام والإبداع .

وقال — سبحانه — : « ما ترى فى خلق الرحمن . . » ولم يقل : ما ترى فى خلق السموات السبع من تفاوت ، للإشعار بأن هذا الخلق البديع ، هو مما اقتضته رحمته - تعالى - بعباده ، لكى تجرى أمورهم على حالة تلائم نظام معيشتهم ... وللتنبيه - أيضا - على أن جميع مخلوقاته تسير على هذا النمط البديع فى صفتها وإيجادها ، كما قال - تعالى - : « صنع الله الذى أتقن كل شىء »(١) ، وكما قال - سبحانه - : « الذى أحسن كل شىء خلقه . . . »

---

(١) سورة النمل الآية ٨٨ .
(٢) سورة السجدة الآية ٧ .

قال صاحب الكشاف : قوله : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » أى : من اختلاف واضطراب فى الخلقة ولا تناقض ، إنما هى مستوية مستقيمة . وحقيقة التفاوت: عدم التناسب ، كأن بعض الشيء يفوت بعضا ولا يلائمه ، ومنه قولهم : خلق متفاوت . وفى نقيضه متناصف .

فإن قلت : ما موقع هذه الجملة مما قبلها ؟ قلت : هى صفة مشايعة لقوله « طباقا » . وأصلها : ما ترى فيهن من تفاوت ، فوضع مكان الضمير قوله : « خَلْق الرحمن » تعظيما لخلقهن ، وتنبيها على سبب سلامتهن من التفاوت وهو أنه خلق الرحمن ، وأنه بباهر قدرته هو الذى يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب . . . »(١) .

ثم ساق - سبحانه - بأسلوب فيه ما فيه من التحدى ، ما يدل على أن خلقه خال من التفاوت والخلل فقال : « فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » .

و « الفطور » جمع فطر ، وهو الشق والصدع . يقال : فطر فلان الشيء فانفطر ، إذا شقه ، وبابه نصر .

وقوله : « كرتين » مثنى كرَّة ، وهى المرة من الكَرّ ، وهو الرجوع إلى الشيء مرة أخرى . يقال : كر المقاتل على عدوه ، إذا عاد إلى مهاجمته بعد أن تركه . . .

والمراد بالكرتين هنا : معاودة النظر وتكريره كثيرا ، بدون الاقتصار

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٧٦ .

على المرتين ، فالتثنية هنا : كناية عن مطلق التكرير ، كما فى قولهم : لبيك وسعديك .

وقوله : « خاسئا » أى : صاغرا خائبا لأنه لم يجد ما كان يطلبه ويتمناه .

وقوله : «حسير» بمعنى كليل ومتعب، من حسر بصرُ فلان يحسر حسورا، إذا كل وتعب من طول النظر والتأمل والفحص ، وفعله من باب قعد .

والمعنى : ما ترى - أيها الناظر - فى خلق الرحمن من تفاوت أو خلل.. فإن كنت لا تصدق ما أخبرناك به ، أو فى أدنى شك من ذلك ، فكرر النظر فيما خلقنا حتى يتضح لك الأمر ، ولا يبقى عندك أدنى شك أو شبهه . . .

والاستفهام فى قوله : « هل ترى من فطور » للتقرير . أى : إنك مهما نظرت فى خلق الرحمن ، وشددت فى التفحص والتأمل . . . فلن ترى فيه من شقوق أو خلل أو تفاوت . . .

وقوله : « ثم ارجع البصر كرتين » تعجيز إثر تعجيز ، وتحد فى أعقاب تحد .. أى : ثم لا تكتف بإعادة النظر مرة واحدة ، فربما يكون قد فاتك شىء فى النظرة الأولى والثانية ... بل أعد النظر مرات ومرات .. فتكون النتيجة التى لا مفر لك منها ، أن بصرك - بعد طول النظر والتأمل - ينقلب إليك خائبا وهو كليل متعب . . . لأنه - بعد هذا النظر الكثير - لم يجد فى خلقنا شيئا من الخلل أو الوهن أو التفاوت .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله : « ينقلب إليك البصر » أى: إن رجعت البصر ، وكررت النظر ، لم يرجع إليك بصرك بما التمسته من

من رؤية الخلل، وإدراك العيب، بل يرجع إليه بالخسوء والحسور... ـ أى: بالبعد عن إصابة الملتمس.

فإن قلت: كيف ينقلب البصر خاسئا حسيرا برجعه كرتين اثنتين؟

قلت: معنى التثنية هنا التكرير بكثرة كقولك لبيك وسعديك...

فإن قلت: فما معنى ثم ارجع البصر؟ قلت: أمره برجع البصر، ثم أمره بأن لا يقتنع بالرجعة الأولى، وبالنظرة الحمقاء، وأن يتوقف بعدها، ويُجِم بصره ثم يعاود ويعاود، إلى أن يحسر بصرُه من طول المعاودة، فإنه لا يعثر على شيء من فطور»(١).

هذا، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة، يراها قد ساقت ما يدل على وحدانية الله - تعالى - وقدرته بأبلغ أسلوب، ودعت الغافلين الذين فسقوا عن أمر ربهم، إلى التدبر فى هذا الكون الذى أو جده - سبحانه - فى أبدع صورة وأتقنها، فإن هذا التدبر من شأنه أن يهدى إلى الحق، ويرشد إلى الصواب...

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك أدلة أخرى على وحدانيته وقدرته، وبين ما أعده للكافرين من عذاب، بسبب إصرارهم على كفرهم... فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٧٦.

وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ
ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ
ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾
إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ
ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟
بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى
ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ
ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن هذا هو الدليل الثانى على كونه ـ تعالى ـ قادرا عالما ، وذلك لأن هذه الكواكب نظرا إلى أنها محدثة ومختصة بمقدار معين ، وموضع خاص ، وسير معين ، تدل على أن صانعها قادر .

ونظرا إلى كونها محكمة متقنة موافقة لمصالح العباد ، ومن كونها زينة لأهل الدنيا ، وسببا لا نتفاعهم بها ، تدل على أن صانعها عالم .

ونظير هذه الآية قوله ـ تعالى ـ فى سورة الصافات : إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد »(١) .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ١٧٣ .

وقوله : « زينا » من التزيين بمعنى التحسين والتجميل . و « الدنيا » صيغة تفضيل من الدنو بمعنى القرب .

والمصابيح جمع مصباح وهو السراج المضيء . والمراد بها النجوم . وسميت بالمصابيح على التشبيه بها فى حسن المنظر ، وفى الإضاءة ليلا . .

والرجوم جمع رَجْم ، وهو فى الأصل مصدر رَجمه رَجْماً - من باب نصر - إذا رماه بالرِّجام أى : بالحجارة ، فهو اسم لما يُرجم به ، أى : ما يَرمى به الرامى غيرَه من حجر ونحوه ، تسمية للمفعول بالمصدر ، مثل الخَلْق بمعنى المخلوق .

وصدرت الآية الكريمة بالقسم ، لإبراز كمال العناية بمضمونها .

والمعنى : وبالله لقد زينا وجملنا السماء القريبة منكم بكواكب مضيئة كإضاءة السرج ، وجعلنا — بقدرتنا — من هذه الكواكب ، ما يرجم الشياطين ويحرقها ، إذا ما حاولوا أن يسترقوا السمع ، كما قال - تعالى - : وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا »(١) .

قال الإمام ابن كثير : قوله : «وجعلناها رجوما للشياطين » عاد الضمير فى قوله « وجعلناها » على جنس المصابيح لا على عينها ، لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها — والله أعلم — .

---

(١) سورة الجن الآيتان ٨ ، ٩ .

قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها زينة للسماء، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف مالا علم له به »(١) .

فالضمير فى قوله : « وجعلناها » يعود إلى المصابيح ، ومنهم من أعاده إلى السماء الدنيا ، على تقدير : وجعلنا منها رجوما للشياطين الذين يسترقون السمع .

وقوله — تعالى — : « وأعتدنا لهم عذاب السعير » بيان لسوء مصيرهم فى الآخرة ، بعد بيان سوء مصيرهم فى الدنيا عن طريق إحراقهم بالشهب.

أى : وهيأنا لهؤلاء الشياطين فى الآخرة — بعد إحراقهم فى الدنيا بالشهب — عذاب النار المشتعلة المستعرة .

فالسعير — بزنة فعيل — اسم لأشد النار اشتعالا . يقال : سعر فلان النار — كمنع — إذا أوقدها بشدة .

وكان السعير عذابا للشياطين — مع أنهم مخلوقون من النار — ، لأن نارجهنم أشد من النار التى خلقوا منها ، فإذا ألقوا فيها صارت عذابا لهم ، إذ السعير أشد أنواع النار التهابا واشتعالا وإحراقا . . .

وقوله : « وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير » معطوف على ما قبله .

أى : هيأنا للشياطين عذاب السعير ، وهيأنا — أيضا — للذين كفروا بربهم من الإنس عذاب جهنم ، وبئس المصير عذاب جهنم .

ثم بين — سبحانه — أحوالهم الأليمة حينما يلقون جميعا فى النار فقال : « إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور . . . »

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٠٤ .

والظرف « إذا » متعلق بقوله « سمعوا » . والشهيق : تردد النفس فى الصدر بصعوبة وعناء . . .

أى : أن هؤلاء الكافرين بربهم ، عندما يلقون فى النار ، يسمعون لها صوت فظيعا منكرا ، « وهى تفور » أى : وحالها أنها تغلى بهم غليان المرجل بما فيه ، إذ الفور : شدة الغليان ، ويقال ذلك فى النار إذا هاجت، وفى القدر إذا غلت . . .

« تكاد تميز من الغيظ » أى : تكاد النار تتقطع وينفصل بعضها عن بعض ، لشدة غضبها عليهم ، والتهامها لهم . وتميز أصله تتميز فحذفت إحدى التاءين تخفيفا .

والغيظ أشد الغضب . والجملة فى محل نصب على الحال ، أو فى محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف . أى : هى تكاد تتقطع من شدة غضبها عليهم . . .

وقوله : « كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها .. » كلام مستأنف لبيان حال أهلها .

الفوج : الجماعة من الناس . ولفظ « كلما » مركب من كل الدال على الشمول ، ومن ما المصدرية الظرفية .

أى : فى كل وقت وآن ، يلقى بجماعة من الكافرين فى النار ، يسألهم خزنتها من الملائكة ، سؤال تبكيت وتقريع ، بقولهم :

« ألم يأتكم نذير » أى : ألم يأتكم يامعشر الكافرين نذير فى الدنيا ،

ينذركم ويخوفكم من أهوال هذا اليوم، ويدعوكم إلى إخلاص العبادة لله — تعالى — وحده.

ثم حكى — سبحانه — ما رد به الكافرون على خزنة جهنم فقال:

« قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ... »

أي: قال الكافرون — على سبيل التحسر والتفجع — في ردهم على خزنة جهنم: بلى لقد جاءنا المنذر الذي أنذرنا وحذرنا من سوء عاقبة الكفر ... ولكننا كذبناه، وأعرضنا عن دعوته، بل وتجاوزنا ذلك بأن قلنا له على سبيل العناد والجحود والغرور: ما نزل الله على أحد من شيء من الأشياء التي تتلوها علينا، وتأمرنا بها، أو تنهانا عن مخالفتها.

وقوله: « إن أنتم إلا في ضلال كبير » يحتمل أنه من كلام الكافرين لرسلهم الذين أنذروهم وحذروهم من الإصرار على الكفر.

أي: جاءنا الرسل الذين أنذرونا .. فكذبناهم، وقلنا لهم: ما نزل الله من شيء من الأشياء على ألسنتكم ... وقلنا لهم - أيضا - ما أنتم إلا في ضلال كبير، أي: في ذهاب واضح عن الحق، وبعد شديد عن الصواب.

ويحتمل أن يكون من كلام الملائكة: أي: قال لهم الملائكة على سبيل التجهيل والتوبيخ: ما أنتم - أيها الكافرون - إلا في ضلال كبير، بسبب تكذيبكم لرسلكم، وإعراضكم عن حذركم وأنذركم.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: « إن أنتم إلا في ضلال كبير » من المخاطبون به؟

قلت: هو من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين، على أن النذير بمعنى

الإنذار . والمعنى : ألم يأتكم أهل نذير . أو وصف منذروهم لغلوهم فى الإنذار ، كأنهم ليسوا إلا إنذارا . . .

ويجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول : أرادوا حكاية ماكانوا عليه من ضلالهم فى الدنيا ، أو أرادوا بالضلال : الهلاك . . . »(١) .

وجمع – سبحانه – الضمير فى قوله « إن أنتم ... » مع أن الملائكة قد سألوهم « ألم يأتكم نذير » بالإفراد ، للإشعار بأن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بتكذيب النذير الذى أنذرهم ، بل كذبوه هو وأتباعه الذين آمنوا به .

فكأن كل فوج منهم كان يقول للرسول الذى جاء لهدايته ، أنت وأتباعك فى ضلال كبير .

ثم بين – سبحانه – جانبا آخر من حسراتهم فى هذا اليوم فقال : « وقالوا لوكنا نسمع أو نعقل ، ما كنا فى أصحاب السعير . . . » .

أى : وقال الكافرون بربهم – على سبيل الحسرة والندامة – لو كنا فى الدنيا نسمع ما يقال لنا على لسان رسولنا ، سماع طاعة وتفكر واستجابة ، أو نعقل ما يوجه إلينا من هدايات وإرشادات . . .

لوكنا كذلك ، ما صرنا فى هذا اليوم من جملة أصحاب النار المسعرة ، الذين هم خالدون فيها أبدا .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٧٨ .

وقدم ـ سبحانه ـ السماع على التعقل ، مراعاة للترتيب الطبيعى ، لأن السماع يكون أولا ، ثم يعقبه التعقل والتدبر لما يسمع .

والفاء الأولى فى قوله ـ تعالى ـ : « فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير » للإفصاح ، والثانية للسببية . والسحق : البعد ، يقال : سحق ـ ككرم وعلم ـ سحقا ، أى : بعد بعداً ، وفلان أسحقه الله ، أى : أبعده عن رحمته . وهو مصدر ناب عن فعله فى الدعاء ، ونصبه على أنه مفعول به لفعل مقدر . أى : ألزمهم الله سحقا ، أو منصوب على المصدرية ، أى : فسحقهم الله سحقا .

أى : إذا كان الأمر كما أخبروا عن أنفسهم ، فقد أقروا واعترفوا بذنوبهم ، وأن الله ـ تعالى ـ ما ظلمهم ، وأن ندمهم لن ينفعهم فى هذا اليوم . . . بل هم جديرون بالدعاء عليهم بالطرد من رحمة الله ـ تعالى ـ ، وبخلودهم فى نار السعير .

واللام فى قولة « لأصحاب » للتبيين ، كما فى قولهم : سقيالك

فالآية الكريمة توضح أن ما أصابهم من عذاب كان بسبب إقرارهم بكفرهم ، وإصرارهم عليه حتى الممات ، وفى الحديث الشريف : لن يدخل أحد النار ، إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة » . وفى حديث آخر : « لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم »(١) .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٠٥ .

وكعادة القرآن الكريم فى قرنه الترغيب بالترهيب أو العكس ، أخذت السورة فى بيان حسن عاقبة المؤمنين ، بعد بيان سوء عاقبة الكافرين ، وفى لفت أنظار الناس إلى نعم الله — تعالى — عليهم ، لكى يشكروه ويخلصوا له العبادة . . . قال — تعالى — :

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى السَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾

وقوله : « يخشون » من الخشية . وهى أشد الخوف وأعظمه . والغيب: مصدر غاب يغيب ، وكثيرا ما يستعمل بمعنى الغائب . وهو مالا تدركه الحواس ، ولا يعلم ببداهة العقل .

أى : إن الذين يخشون ربهم فيخافون عذابه ، ويعبدونه كأنهم يرونه ، مع أنهم لا يرونه بأعينهم . . هؤلاء الذين تلك صفاتهم ، لهم من

خالقهم — عز وجل — مغفرة عظيمة ، وأجر بالغ الغاية فى الكبر والضخامة .

وقوله « بالغيب » حال من الفاعل ، أى : غائبا عنهم . أو من المفعول . أى : غائبين عنه . أى : يخشون عذابه دون أن يروه — سبحانه — .

ويجوز أن يكون المعنى : يخشون عذابه حال كونهم غائبين عن أعين الناس ، فهم يراقبونه — سبحانه — فى السر ، كما يراقبونه فى العلانية ، كما قال الشاعر :

يتجنب الهفوات فى خلواته عف السريرة ، غيبه كالمشهد

والحق أن هذه الصفة ، وهى خوف الله — تعالى — بالغيب ، على رأس الصفات التى تدل على قـــوة الإيمان ، وعلى طهارة القلب ، وصفاء النفس . . .

ثم بين — سبحانه — بأبلغ أسلوب ، أن السر يتساوى مع العلانية بالنسبة لعلمه — تعالى — ، فقال : « وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ... » .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية ، أن المشركين كانوا ينالون من النبى — صلى الله عليه وسلم — ، فلما أطلعه الله — تعالى — على أمرهم ، قال بعضهم لبعض : أسروا قولكم كى لا يسمعه رب محمد(١) .

وصيغة الأمر فى قوله : « أسروا » و « اجهروا » مستعملة فى التسوية بين الأمرين ، كما فى قوله — تعالى — : « اصبروا أو لا تصبروا » . . .

أى : إن إسراركم — أيها الكافرون — بالإساءة إلى نبينا محمد ـ ﷺ ـ أو جهركم بهذه الإساءة ، يستويان فى علمنا ، لأننا لا يخفى علينا شىء من أحوالكم ، فسواء عندنا من أسر منكم القول ومن جهر به .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٨ ص ٢١٤ .

وجملة « إنه عليم بذات الصدور » تعليل للتسوية المستفادة من صيغة الأمر .

أى : سواء فى علمه — تعالى — إسراركم وجهركم ، لأنه - سبحانه - عليم علما تاما بما يختلج فى صدوركم ، وما يدور فى نياتكم التى هى بداخل قلوبكم .

وشبيه بهذه الآية قوله — تعالى — : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

ثم أكد — سبحانه — شمول علمه لكل شىء بقوله : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » .

واللطيف : من اللطف ، وهو العالم بخبايا الأمور ، والمدبر لها برفق وحكمة ويسر . . .

والخبير : من الخبْر ، وهو العلم بجزئيات الأشياء الخفية ، التى من شأنها أن يخبر الناس بعضهم بعضا بحدوثها ، لأنها كانت خافية عليهم .

ولفظ « مَنْ » فى قوله « مَنْ خلق » يصح أن يكون مفعولا لقوله « يعلم » ، والعائد محذوف أى : ألا يعلم الله — تعالى — شأن الذين خلقهم ، والحال أنه — سبحانه — هو الذى لطف علمه ودق ، إذ هو المدبر لأمور خلقه برفق وحكمة . العليم علما تاما بأسرار النفوس وخباياها وما توسوس به . . .

ويجوز أن يكون « من » فاعلا لقوله « يعلم » على أن المقصود به ذاته

— تعالى — ، ويكون مفعول يعلم محذوفا للعلم به . والمعنى : ألا يعلم السر ومضمرات القلوب اللهُ الذى خلق كل شىء وأوجده ، وهو — سبحانه — الموصوف بأنه لطيف خبير .

والاستفهام على الوجهين لإنكار مازعمه المشركون من انتفاء علمه — تعالى — بما يسرونه فيما بينهم ، حيث قال بعضهم لبعض : أسروا قولكم كى لا يسمعه رب محمد .

ثم ذكر — سبحانه — جانبا من مظاهر فضله على عباده فقال : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه وإليه النشور » .

والذلول : السهلة المذللة المسخرة لما يراد منها ، من مشى عليها ، أو غرس فيها ، أو بناء فوقها .. من الذل وهو سهولة الانقياد للغير ، ومنه قوله — تعالى — : قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول ... » أى : غير مذللة ولا مدربة على حرث الأرض . . .

والأمر فى قوله « فامشوا فى مناكبها » للإباحة . والمناكب جمع منكب ، وهو ملتقى الكتف مع العضد . والمراد به هنا : جوانبها أو طرقها وفجاجها أو أطرافها . . .

وهو مثل لفرط التذليل ، وشدة التسخير . . .

أى : هو — سبحانه — الذى جعل لكم — بفضله ورحمته — الأرض المتسعة الأرجاء .. مذللة مسخرة لكم ، لتتمكنوا من الانتفاع بها عن طريق المشى عليها ، أو البناء فوقها ، أو غرس النبات فيها . . .

وما دام الأمر كذلك فامشوا فى جوانبها وأطرافها وفجاجها... ملتمسين رزق ربكم فيها، وداوموا على ذلك، فنى الحديث الشريف: «التمسوا الرزق فى خبايا الأرض».

والمراد بقوله: «وكلوا من رزقه»: الانتفاع بما فيها من وجوه النعم. وعبر عنه بالأكل لأنه أهم وجوه الانتفاع.

فالآية الكريمة دعوة حارة للمسلمين لكى ينتفعوا بما فى الأرض من كنوز، حتى يستغنوا عن غيرهم فى مطعمهم ومشربهم وملبسهم وسائر أمور معاشهم... فإنه بقدر تقصيرهم فى استخراج كنوزها، تكون حاجتهم لغيرهم..

قال بعض العلماء: قال الإمام النووى فى مقدمة المجموع: «إن على الأمة الإسلامية أن تعمل على استثمار وإنتاج كل حاجياتها حتى الإبرة، لتستغنى عن غيرها، وإلا احتاجت إلى الغير بقدر ما قصرت فى الإنتاج..

وقد أعطى الله — تعالى — العالم الإسلامى الأولوية فى هذا كله، فعليهم أن يحتلوا مكانهم، ويحافظوا على مكانتهم، ويشيدوا كيانهم بالدين والدنيا معا»(١).

وقد أفاض بعض العلماء فى بيان معنى قوله — تعالى —: «هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا..».

فقال ما ملخصه: والناس لطول إلفهم لحياتهم على هذه الأرض،

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٨ ص ٤٠٦

وسهولة استقرارهم عليها . . ينسون نعمة الله فى تذليلها لهم وتسخيرها . والقرآن يذكرهم هذه النعمة الهائلة ، ويبصرهم بها ، فى هذا التعبير الذى يدرك منه كل أحد ، وكل جيل ، ما ينكشف له من علم هذه الأرض الذلول . . .

والله — تعالى — جعل الأرض ذلولا للبشر من حيث جاذبيتها . . . ومن حيث سطحها . . . ومن حيث تكوينها ، ومن حيث إحاطة الهواء بها . . ومن حيث حجمها . . . »(٢) .

وقوله : « وإليه النشور » معطوف على ما قبله ، لبيان أن مصيرهم — تعالى — إليه ، بعد قضائهم فى الأرض المذللة لهم ، مدة حياتهم . .

أى : وإليه وحده مرجعكم ، وبعثكم من قبوركم ، بعد أن قضيتم على هذه الأرض ، الأجل الذى قدره — سبحانه — لكم .

ثم حذر — سبحانه — من بطشه وعقابه فقال : « أأمنتم من السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور . . . »

والخسف : انقلاب ظاهر السطح من بعض الأرض فيصير باطنا ، والباطن ظاهرا .

والمَوْر : شدة الاضطراب والتحرك . يقال مار الشىء مَوْراً ، إذا ارتج واضطرب والمراد بمن فى السماء : الله — عز وجل — بدون تحيز

---

(٢) راجع فى ظلال القرآن جـ ٢٩ ص ١٩٣ نقلا عن كتاب : العلم يدعو للإيمان ص ٧٠

أو تشبيه أو حلول فى مكان قال الإمام الآلوسى : قوله : « أأمنتم من فى السماء ، وهو الله — عز وجل — كما ذهب إليه غير واحد ، فقيل على تأويل: من فى السماء أمره وقضاؤه ، يعنى أنه من التجوز فى الإسناد . أو أن فيه مضافا مقدرا ، وأصله : من فى السماء أمره ، فلما حذف وأقيم المضاف إليه مقامه ارتفع واستتر . وقيل على تقدير : خالق من فى السماء .

وقيل فى بمعنى على ، ويراد العلو بالقهر والقدرة . . .

وأئمة السلف لم يذهبوا إلى غيره — تعالى — والآية عندهم من المتشابه وقد قال — ﷺ — : آمنوا بمتشابهه ولم يقل أولوه . فهم مؤمنون بأنه — عز وجل — فى السماء ، على المعنى الذى أراده — سبحانه — مع كمال التنزيه ، وحديث الجارية — التى قال لها الرسول — ﷺ — أين الله ؟ فأشارت إلى السماء — من أقوى الأدلة لهم فى هذا الباب . وتأويله بما أول به الخلف ، خروج عن دائرة الإنصاف عند ذوى الألباب . . »(١)

والمعنى : أأمنتم — أيها الناس — من فى السماء وهو الله - عز وجل - أن يذهب الأرض بكم ، فيجعل أعلاها أسفلها . . فإذا هى تمور بكم وتضطرب ، وترتج ارتجاجا شديدا تزول معه حياتكم .

فالمقصود بالآية الكريمة تهديد الذين يخالفون أمره ، بهذا العذاب الشديد ، وتحذيرهم من نسيان بطشه وعقابه .

والباء فى قوله « بكم » للمصاحبة . أى : يخسفها وأنتم مصاحبون لها بذواتكم ، بعد أن كانت مذللة ومسخرة لمنفعتكم . .

ثم انتقل — سبحانه — من تهديدهم بالخسف إلى تهديدهم بعذاب

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ١٥

آخر فقال : «أم أمنتم من السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير» .

أى : بل أأمنتم — أيها الناس — من السماء ، وهو الله - عز وجل - بسلطانه وقدرته .. أن يرسل عليكم «حاصبا» أى : ريحا شديدة مصحوبة بالحصى والحجارة التى تهلك ، فحينئذ ستعلمون عند معاينتكم للعذاب ، كيف كان إنذارى لكم متحققا وواقعا وحقا . .

فالاستفهام فى الآيتين المقصود به التعجيب من أمنهم عذاب الله - تعالى - عند مخالفتهم لأمره ، وخروجهم عن طاعته .

وقدم — سبحانه — التهديد بالخسف على التهديد بإرسال الحاصب ، لأن الخسف من أحوال الأرض ، التى سبق أن بين لهم أنه خلقها مذللة لهم ، وفيها ما فيها من منافعهم ، فهذه المنافع ليس عسيرا على الله — تعالى — أن يحولها إلى عذاب لهم . . .

ثم ذكرهم — سبحانه — بما جرى للكافرين السابقين فقال : «ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير» . .

أى : ووالله لقد كذب الذين من قبل كفار مكة من الأمم السابقة ، كقوم نوح وعاد وثمود . . . فكان إنكارى عليهم ، وعقابى لهم ، شديدا ومبيرا ومدمرا لهم تدميرا تاما .

فالنكير بمعنى الإنكار ، والاستفهام فى قوله : «فكيف كان نكير» للتهويل .

أى : إن إنكارى عليهم كفرهم كان إنكارا عظيما ، لأنه ترتب عليه ، أن أخذتهم أخذ عزيز مقتدر .

كما قال — تعالى — : « فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا . وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »(١)

ثم تنتقل السورة بعد هذا التهديد والإنذار ، إلى دعوتهم إلى التأمل والتفكر ، فى مشهد الطير صافات فى الجو .. وفى أحوال أنفسهم عند اليأس والفقر ، وعند الهزيمة والإعراض عن الحق .. فيقول — سبحانه — :

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾

قال بعض العلماء : قوله : « أو لم يروا إلى الطير .. » عطف على جملة « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا .. » . استرسالا فى الدلائل على انفراد الله — تعالى — بالتصرف فى الموجودات ، وقد انتقل من دلالة أحوال البشر وعالمهم ، إلى دلالة أعجب أحوال العجماوات ، وهى أحوال

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٠

الطير فى نظام حركاتها فى حال طيرانها ، إذ لا تمشى على الأرض كما هو فى حركات غيرها على الأرض ، فحالها أقوى دلالة على عجيب صنع الله المنفرد به »(١) .

والاستفهام فى قوله — تعالى — : « أولم يروا .... » للتعجيب من حال المشركين ، لعدم تفكرهم فيما يدعو إلى التفكر والاعتبار ..

والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، « والطير : جمع طائر كصحب وصاحب ... »

والمعنى : أغفل هؤلاء المشركون ، وانطمست أعينهم عن رؤية الطير فوقهم ، وهن « صافات » أى : باسطات أجنحتهن فى الهواء عند الطيران فى الجو ، « ويقبضن » أى : ويضممن أجنحتهن تارة على سبيل الاستظهار بها على شدة التحرك فى الهواء .. « ما يمسكهن » فى حالتى البسط والقبض « إلا الرحمن » الذى وسعت رحمته وقدرته كل شىء ، والذى أحسن كل شىء خلقه ..

« إنه » — سبحانه — « بكل شىء بصير » أى : إنه — سبحانه — مطلع على أحوال كل شىء ، ومدبر لأمره على أحسن الوجوه وأحكمها .
قال صاحب الكشاف : « صافات » باسطات أجنحتهن فى الجو عند طيرانها ، لأنهن إذا بسطنها صففن قوادمها صفا « ويقبضن » أى : ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن .

فإن قلت : لم قيل « ويقبضن » ولم يقل : وقابضات ؟

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ٢٩ ص ٣٧ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور — رحمه الله — .

قلت : لأن الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة ، لأن الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء ، والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها . وأما القبض فطارىء على البسط ، للاستظهار به على التحرك ، فجىء بما هو طارىء غير أصل بلفظ الفعل ، على معنى أنهن صافات ، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح . . »(١) .

والمراد بإمساكهن : عدم سقوطهن إلى الأرض بقدرته وحكمته - تعالى - ، حيث أودع فيها من الخصائص ما جعلها تطير فى الجو ، كالسابح فى الماء .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله . . »(٢)

ثم لفت أنظارهم للمرة الثانية إلى قوة بأسه ، ونفاذ إرادته ، وعدم وجود من يأخذ بيدهم إذا ما أنزل بهم عقابا فقال : « أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن . .

والاستفهام للتحدى والتعجيز . و « أم » منقطعة بمعنى بل ، فهى للإضراب الانتقالى من غرض إلى آخر ، ومن حجة إلى أخرى .

و « من » اسم استفهام مبتدأ ، وخبره اسم الإشارة ، وما بعده صفته .

والمراد بالجند : الجنود الذين يهرعون لنصرة من يحتاج إلى نصرتهم . ولفظ « دون » أصله ظرف للمكان الأسفل . . ويطلق على الشىء المغاير .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٨١

(٢) سورة النحل الآية ٧٩ .

فيكون بمعنى غير كما هنا والمقصود بالآية تحقير شأن هؤلاء الجند، والتهوين من شأنهم . .

والمعنى : بل أخبرونى — أيها المشركون — بعد أن ثبتت غفلتكم وعدم تفكركم تفكيرا ينفعكم — من هذا الحقير الذى تستعينون به فى نصركم ودفع النصر عنكم، متجاوزين فى ذلك إرادة الرحمن ومشيئته ونصره . أو من هذا الذى ينصركم نصرا كائنا غير نصر الرحمن ، أو من ينصركم من عذاب كائن من عنده — تعالى — .

والجواب الذى لا تستطيعون جوابا سواه : هو أنه لا ناصر لكم يستطيع أن ينصركم من دون الله — تعالى — ، كما قال — سبحانه — « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو . وإن يردك بخير فلا راد لفضله . . . » .

وكما قال — عز وجل — : ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده . . . » .

وقوله — سبحانه — : « إن الكافرون إلا فى غرور » كلام معترض بين ما قبله وما بعده ، لبيان حالهم القبيح ، وواقعهم المنكر .

والغرور : صفة فى النفس تجعلها تعرض عن الحق جحودا أوعنادا وجهلا . . أى ليس الكافرون إلا فى غرور عظيم ، وفى جهل تام ، عن تدبر الحق ، لأنهم زين لهم الشيطان سوء أعمالهم ، فرأوها حسنة .

ثم انتقل — سبحانه — إلى إلزامهم بنوع آخر من الحجج فقال : « أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه . . . » .

أى : بل أخبرونى من هذا الذى يزعم أنه يستطيع أن يوصل إليكم

الرزق والخير، إذا أمسك الله — تعالى — عنكم ذلك، أو منع عنكم الأسباب التى تؤدى إلى نفعكم وإلى قوام حياتكم؛ كمنع نزول المطر إليكم، وكإهلاك الزروع والثمار التى تنبتها الأرض . .

إنه لا أحد يستطيع أن يرزقكم سوى الله — تعالى — .

وقوله: «بل لجوا فى عتو ونفور» جملة مستأنفة جواب لسؤال تقديره: فهل انتفع المشركون بتلك المواعظ، فكان الجواب كلا إنهم لم ينتفعوا، بل «لجوا» أى تمادوا فى اللجاج والجدال بالباطل وفى عتو» أى: وفى استكبار وطغيان، وفى «نفور» أى: شرود وتباعد عن الطريق المستقيم . . .

أى: أنهم ساروا فى طريق أهوائهم حتى النهاية، دون أن يستمعوا إلى صوت نذير أو واعظ أو مرشد . .

ثم ضرب — سبحانه — مثلا لأهل الإيمان وأهل الكفر، وأهل الحق وأهل الباطل، فقال — سبحانه —: أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى؛ أم من يمشى سويا على صراط مستقيم» .

والمكب: هو الإنسان الساقط على وجهه. يقال: كب فلان فلانا وأكبه، إذا صرعه وقلبه بأن جعل وجهه على الأرض . . ، فهو اسم فاعل من أكب . .

وقوله «أهدى» مشتق من الهدى، وهو معرفة طريق الحق والسير فيها، والمفاضلة هنا ليست مقصودة، لأن الذى يمشى مكبا على وجهه، لا شىء عنده من الهداية أو الرشد إطلاقا حتى يفاضل مع غيره. وفيه لون من التهكم بهذا المكب على وجهه .

و « السوى » هو الإنسان الشديد الاستواء والاستقامة ، فهو فعيل بمعنى فاعل .

ومنه قوله — تعالى — حكاية عما قاله إبراهيم — عليه السلام — لأبيه : « يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا » أى : مستويا .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى . . . » : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه ، كمثل من يمشى مكبا على وجهه ، أى : يمشى منحنيا لا مستويا على وجهه ، أى : لا يدرى أين يسلك . ولا كيف يذهب ، بل هو تائه حائر ضال ، أهذا أهدى « أمن يمشى سويا » أى : منتصب القامة « على صراط مستقيم » أى على طريق واضح بين ، وهو فى نفسه مستقيم ، وطريقه مستقيمة .

هذا مثلهم فى الدنيا ، وكذلك يكونون فى الآخرة ، فالمؤمن يحشر يمشى سويا على صراط مستقيم . . وأما الكافر فإنه يحشر يمشى على وجهه إلى النار . .

وروى الإمام أحمد عن أنس قال : قيل يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : أليس الذى أمشاهم على أرجلهم قادرا على أن يمشيهم على وجوههم »(١) ؟

وقال الجمل : هذا مثل للمؤمن والكافر ، حيث شبه — سبحانه — المؤمن فى تمسكه بالدين الحق ، ومشيه على منهاجه ، بمن يمشى فى الطريق المعتدل ، الذى ليس فيه ما يتعثر به . .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٠٧

وشبه الكافر فى ركوبه ومشيه على الدين الباطل ، بمن يمشى فى الطريق الذى فيه حفر وارتفاع وانخفاض ، فيتعثر ويسقط على وجهه ، وكلما تخلص من عثرة وقع فى أخرى .

فالمذكور فى الآية هو المشبه به ، والمشبه محذوف ، لدلالة السياق عليه . . . »(١) .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد لفتت أنظار الناس إلى التفكر والاعتبار ، ووبخت المشركين على جهالاتهم وطغيانهم ، وساقت مثالا واضحا للمؤمن والكافر ، « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة . . . »

ثم أمر الله – تعالى – رسوله – ﷺ – فى بضع آيات ، أن يذكر الكافرين بنعم الله – تعالى – عليهم ، وأن يرد على شبهاتهم وأكاذيبهم بما يدحضها ، وأن يعلم أمره وأمرهم إليه وحده – تعالى – فقال :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٣٨٠ .

قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ
إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً
سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ
مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ
أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين - على سبيل تبصيرهم بالحجج والدلائل الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا ، وعلى سبيل التنويع فى الإرشاد والتوجيه . . . - قل لهم : الرحمن - عز وجل - هو الذى أنشأكم وأوجدكم فى كل طور من أطوار حياتكم ، وهو - سبحانه - الذى أوجد لكم السمع الذى تسمعون به ، والأبصار التى تبصرون بها الكائنات ، والأفئدة أى والقلوب التى تدركون بها . .

ولكنكم - مع كل هذه النعم - «قليلا ما تشكرون» خالقكم - عز وجل - .

وجمع - سبحانه - الأفئدة والأبصار، وأفرد السمع، لأن القلوب تختلف باختلاف مقدار ما تفهمه مما يلقى إليها من إنذار أو تبشير، ومن حجة أو دليل، فكان عن ذلك تعدد القلوب بتعدد الناس على حسب استعدادهم.

وكذلك شأن الناس فيما تنتظمه أبصارهم من آيات الله فى كونه، فإن أنظارهم تختلف فى عمق تدبرها وضحولته، فكان من ذلك تعدد المبصرين، بتعدد مقادير ما يستنبطون من آيات الله فى الآفاق.

وأما المسموع فهو بالنسبة للناس جميعا شىء واحد، هى الحجة يناديهم بها المرسلون، والدليل يوضحه لهم النبيون.

لذلك كان الناس جميعا كأنهم سمع واحد، فكان إفراد السمع إيذانا من الله بأن حجته واحدة، ودليله واحد لا يتعدد.

وقوله: «قليلا ما تشكرون» صفة لمصدر محذوف. أى: شكرا قليلا، و«ما» مزيدة لتأكيد التقليل..

وعبر - سبحانه - بقوله «قليلا»، لحضهم على الإكثار من شكره - تعالى -، وذلك عن طريق إخلاص العبادة له - عز وجل -، ونبذ عبادة غيره.

ثم أمره - سبحانه - للمرة الثانية - أن يذكرهم بنعمة أخرى فقال: «قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون».

أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - الرحمن - تعالى - وحده « هو الذى ذرأكم فى الأرض » .

أى : هو الذى خلقكم وبثكم وكثركم فى الأرض ، إذ الذرء معناه: الإكثار من الموجود . .

وقوله : « وإليه تحشرون » بيان لمصيرهم بعد انتهاء آجالهم فى هذه الدنيا .

أى : وإليه وحده - لا إلى غيره - يكون مرجعكم للحساب والجزاء يوم القيامة .

ثم حكى - سبحانه - أقوالهم التى تدل على طغيانهم وجهالاتهم فقال : ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .

والوعد : مصدر بمعنى الموعود ، والمقصود به ما أخبرهم به - ﷺ - من أن هناك بعثا وحسابا وجزاء . . ومن أن العاقبة والنصر للمؤمنين

أى : ويقول هؤلاء الجاحدون للرسول - ﷺ - ولأصحابه ، على سبيل التهكم والاستهزاء متى يقع هذا الذى تخبروننا عنه « من البعث والحساب والجزاء ، ومن النصر لكم لا لنا . . ؟

وجواب الشرط محذوف والتقدير : إن كنتم صادقين فيما تقولونه لنا ، فأين هو ؟ إننا لا نراه ولا نحسه . .

وهنا يأمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - للمرة الثالثة ، أن يرد عليهم الرد الذى يكبتهم فيقول : « قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين » .

أى : قل لهم يا محمد علم قيام الساعة ، وعلم اليوم الذى سننتصر فيه عليكم . . عند الله - تعالى - وحده ، لأن هذا العلم ليس من وظيفتى .

وإنما وظيفتى أنى نذير لكم ، أحذركم من سوء عاقبة كفركم ، فإذا استجبتم لى نجوتم ، وإن بقيتم على كفركم هلكتم .

واللام فى قوله : « العلم » للعهد . أى : العلم بوقت هذا الوعد ، عندالله - تعالى وحده .

والمبين : اسم فاعل من أبان المتعدى . أى : مبين لما أمرت بتبليغه لكم بيانا واضحاً لا لبس فيه ولا غموض .

ثم حكى - سبحانه - حالهم عندما يرون العذاب الذى استعجلوه فقال : « فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ، وقيل هذا الذى كنتم به تدعون » .

والفاء فى قوله : « فلما رأوه زلفة . . » هى الفصيحة . و « لما » ظرف بمعنى حين . و « رأوه » مستعمل فى المستقبل ، وجىء به بصيغة الماضى لتحقق الوقوع ، كما فى قوله - تعالى - : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه . . »

و « زلفة » اسم مصدر لأزلف إزلافا ، بمعنى القرب . ومنه قوله - تعالى - : « وأزلفت الجنة . . » أى : قربت للمتقين ، وهو حال من مفعول « رأوه » .

والمعنى : لقد حل بالكافرين العذاب الذى كانوا يستعجلونه ، ويقولون : متى هذا الوعد . . فحين رأوه نازلا بهم ، وقريبا منهم « سيئت وجوه الذين كفروا » أى : ساءت رؤيته وجوههم ، وحلت عليها غبرة ترهقها قترة . .

« وقيل » لهم على سبيل التوبيخ والتأنيب «هذا الذى كنتم به تدعون» أى : هذا هو العذاب الذى كنتم تتعجلون وقوعه فى الدنيا ، وتستهزئون بمن يحذركم منه .

فقوله « تدعون » من الدعاء بمعنى الطلب ، أو من الدعوى .

و « سيئت » فعل مبنى للمجهول . وأسند ـ سبحانه ـ حصول السوء إلى الوجوه ، لتضمينه معنى كلحت وقبحت واسودت ، لأن الخوف من العذاب قد ظهرت آثاره على وجوههم .

وقال ـ سبحانه ـ « سيئت وجوه الذين كفروا » بالإظهار ، ولم يقل وجوههم ، لذمهم بصفة الكفر ، التى كانت السبب فى هلاكهم .

ومفعول « تدعون » محذوف . والتقدير : وقيل لهم هذا الذى كنتم تدعون عدم وقوعه ، قد وقع وها أنتم تشاهدونه أمام أعينكم .

والجار والمجرور فى قوله « به » متعلق بتدعون لأنه مضمن معنى تكذبون .

والقائل لهم هذا القول : هم خزنة النار ، على سبيل التبكيت لهم .

ثم أمر ـ سبحانه ـ رسوله ـ ﷺ ـ للمرة الرابعة ، أن يرد على ما كانوا يتمنونه بالنسبة له ولأصحابه فقال : « قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا ، فمن يجير الكافرين من عذاب أليم » .

ولقد كان المشركون يتمنون هلاك النبى ـ ﷺ ـ ، وكانوا يرددون ذلك فى مجالسهم ، وقد حكى القرآن عنهم ذلك فى آيات منها قوله ـ تعالى ـ : « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » . .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - « أرأيتم » أى : أخبرونى « إن أهلكنى الله » - تعالى - وأهلك « من معى » من أصحابى وأتباعى « أو رحمنا » بفضله وإحسانه بأن رزقنا الحياة الطويلة ، ورزقنا النصر عليكم ..

فأخبرونى فى تلك الحالة « من يجير الكافرين من عذاب أليم » أى : من يستطيع أن يمنع عنكم عذاب الله الأليم ، إذا أراد أن ينزله بكم ؟ مما لاشك فيه أنه لن يستطيع أحد أن يمنع ذلك عنكم

قال صاحب الكشاف : كان كفار مكة يدعون على رسول الله - ﷺ - وعلى المؤمنين بالهلاك ، فأمر بأن يقول لهم : نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسنيين : إما أن نهلك كما تتمنون ، فننقلب إلى الجنة ، أو نرحم بالنصرة عليكم ، أما أنتم فماذا تصنعون ؟ من يجيركم - وأنتم كافرون - من عذاب أليم لا مفر لكم منه ؟

يعنى : إنكم تطلبون لنا الهلاك الذى هو استعجال للفوز والسعادة ، وأنتم فى أمر هو الهلاك الذى لا هلاك بعده .. »(١) .

والمراد بالهلاك : الموت ، وبالرحمة : الحياة والنصر بدليل المقابلة ، وقد منح الله - تعالى - نبيه العمر المبارك النافع ، فلم يفارق - ﷺ - الدنيا إلا بعد أن بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وكانت كلمته هى العليا ..

والاستفهام فى قوله « أرأيتم » للإنكار والتعجيب من سوء تفكيرهم ، والرؤية علمية ، والجملة الشرطية بعدها سدت مسد المفعولين .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٨٣ .

وقال ـ سبحانه ـ « فمن يجير الكافرين » للإشارة إلى أن كفرهم هو السبب فى بوارهم وفى نزول العذاب الأليم بهم .

ثم أمره ـ سبحانه ـ للمرة الخامسة ، أن يبين لهم أنه هو واصحابه معتمدون على الله ـ تعالى ـ وحده ، ومخلصون له العبادة والطاعة ، فقال : « قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا . . . » .

أى : وقل يا محمد لهؤلاء الجاحدين : إذا كنتم قد أشركتم مع الله ـ تعالى ـ آلهة أخرى فى العبادة ، فنحن على النقيض منكم ؛ لاننا أخلصنا عبادتنا للرحمن الذى اوجدنا برحمته ؛ وآمنا به إيمانا حقا ؛ وعليه وحده توكلنا وفوضنا امورنا ..

وأخر ـ سبحانه ـ مفعول « آمنا » وقدم مفعول « توكلنا » ، للتعريض بالكافرين ، الذين أصروا على ضلالهم ، فكأنه يقول : نحن آمنا ولم نكفر كما كفرتم ، وتوكلنا عليه وحده « ولم نتوكل على ما أنتم متوكلون عليه من أصنامكم وأموالكم وأولادكم ..

وقوله « فستعلمون من هو فى ضلال مبين » مسوق مساق التهديد والوعيد أى : فستعلمون فى عاجل أمرنا وآجله ، أنحن الذين على الحق أم أنتم ؟ ونحن الذين على الباطل أم أنتم ؟

فالمقصود بالآية الكريمة التهديد والإنذار ، مع إخراج الكلام مخرج الإنصاف ، الذى يحملهم على التدبر والتفكر لو كانوا يعقلون .

ثم أمر ـ سبحانه = نبيه ـ ﷺ ـ للمرة السادسة ، أن يذكرهم بنعمة الماء الذى يشربونه فقال : « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين » .

وقوله « غورا » مصدر غارت البئر ، إذا نضب ماؤها وجف . يقال : غار الماء يغور غورا ، إذا ذهب وزال .

والمعين : هو الماء الظاهر الذى تراه العيون ، ويسهل الحصول عليه ، وهو فعيل من معن إذا قرب وظهر . .

أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التوبيخ وإلزام الحجة : أخبرونى إن أصبح ماؤكم غائرا فى الأرض ، بحيث لا يبقى له وجود أصلا ..

فمن يستطيع أن يأتيكم بماء ظاهر على وجه الأرض ، تراه عيونكم ، وتستعملونه فى شئونكم ومنافعكم .

إنه لا أحد يستطيع ذلك إلا الله - تعالى - وحده ، فعليكم أن تشكروه على نعمه ، لكى يزيدكم منها .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الملك » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

كتبه الراجى عفو ربه
محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر . صباح الأحد ٦ من ذى القعدة سنة ١٤٠٦ هـ
الموافق ١٣ / ٧ / ١٩٨٦ م

تفسير سورة

القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيـــد

١ — سورة « ن » أو « القلم » تعتبر من أوائل السور القرآنية ، التى نزلت على النبى ـ صلى الله عليـــه وسلم ـ ، فقد ذكر السيوطى فى كتابه « الإتقان » أنها السورة الثانية فى النزول ، بعد سورة « العلق » (١) .

ويرى بعض العلماء أنها السورة الرابعة فى النزول ، فقد سبقتها سور : العلق ، والمدثر ، والمزمل وعدد آياتها اثنتان وخمسون آية .

٢ — والمحققون على أنها من السور المكية الخالصة ، فقـد ذكر الزمخشرى ، وابن كثير . . . أنها مكية ، دون أن يذكرا فى ذلك خلافا .

وقال الآلوسى : هى من أوائل ما نزل من القرآن بمكة ، فقد نزلت على ماروى عن ابن عباس : «اقرأ باسم ربك . . .» ، ثم هذه ، ثم المزمل ، ثم المدثر ، وفى البحر أنها مكية بلا خلاف فيها ، بين أهل التأويل .

وفى الإتقان : استثنى منها : « إنا بلوناهم كما بلونا . . » إلى قـــوله ـ تعالى ـ « لو كانوا يعلمون » (٢)

٣ — والذى تطمئن إليه النفس ، أن سورة « ن » من السور المكية الخالصة ، لأنه لم يقم دليل مقنع ، على أن فيها آيات مدنية ، بجانب أن أسلوبها وموضوعاتها تشير إلى أنها من السور المكية الخالصة

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن جـ ١ صـ ٢٧

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ صـ ٢٢

كذلك نميل إلى أن بعض آياتها قد نزلت على النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد أن جهر بدعوته

٤ - وقد فصل هذا المعنى بعض العلماء فقال ما ملخصه « لا يمكن تحديد التاريخ الذى نزلت فيه هذه السورة ، سواء مطلعها أو جملتها

والروايات التى تقول : إن هذه السورة هى الثانية فى النزول بعد سورة العلق كثيرة ، ، ولكن سياق السورة وموضوعها وأسلوبها ، يجعلنا نرجح غير هذا ، حتى ليكاد يتعين أنها نزلت بعد فترة من الدعوة العامة ، التى جاءت بعد نحو ثلاث سنوات من الدعوة الفردية ، فى الوقت الذى أخذت فيه قريش تدفع هذه الدعوة وتحاربها ، وتصف الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما هو برىء منه ، ، كذلك ذكرت بعض الروايات أن فى السورة آيات مدنية ، ، ونحن نستبعد هذا كذلك ، ونعتقد أن السورة كلها مكية ، لأن طابع آياتها عميق فى مكيته

والذى نرجحه بشأن السورة كلها ، أنها ليست الثانية فى ترتيب النزول ، وأنها نزلت بعد فترة من البعثة النبوية ، ، بل بعد الجهر بالدعوة ، ، وبعد أن أخذت قريش فى محاربتها بصورة عنيفة

والسورة قد أشارت إلى شىء من عروض المشركين : «ودوا لو تدهن فيدهنون » وظاهر أن مثل هذه المحاولة لا تكون والدعوة فردية ، إنما تكون بعد ظهورها ، وشعور المشركين بخطرها » (١)

٥ - والذى يتدبر هذه السورة الكريمة ، يراها قد اشتملت على مقاصد من أبرزها : تحدى المشركين بهذا القرآن الكريم ، والثناء على النبى

---

(١) راجع فى « ظلال القرآن » ج ٢٩ ص ٢١٤

- صلى الله عليه وسلم - بأفضل أنواع الثناء « ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرا غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم . . . »

والتسلية الجميلة له - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من أعدائه « فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

ونهيه - صلى الله عليه وسلم - عن مهادنة المشركين أو ملاينتهم أو موافقتهم على مقترحاتهم الماكرة ، قال - تعالى - : « ودوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . . . »

ثم نراها تضرب . الأمثال لأهل مكة ، لعلهم يتعظون ويعتبرون ، ويتركون الجحود والبطر . . . « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ، إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . . . »

ثم نرى من مقاصدها كذلك : المقارنة بين عاقبة الأخيار والأشرار ، ليهلك من هلك عن بينه ، ويحيى من حى عن بينته .

وتسفيه أفكار المشركين وعقولهم ، بأسلوب مؤثر خلاب : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين . مالكم كيف تحكمون . أم لكم كتاب فيه تدرسون . . . »

وتهديدهم بأقسى ألوان التهديد : « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين . »

ثم تختتم بتكرار التسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وبأمره

بالصبر على أذى أعدائه : «فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت، إذ نادى وهو مكظوم ، لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ، فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ، وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين »

وبعد : فهذه فكرة مجملة عن سورة «القلم» تكشف عن زمان ومكان نزولها، وعن أهم المقاصد والأهداف . التى اشتملت عليها

ونسأل الله — تعالى — أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

القاهرة — مدينة نصر — مساء الأحد
٦ من ذى القعدة سنة ١٤٠٦ هـ ١٣ - ٧ سنة ١٩٨٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾
وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ
وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ
عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾
وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾
هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ
زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

افتتحت سورة « القلم » بأحد الحروف المقطعة ، وهى آخر سورة فى ترتيب المصحف ، افتتحت بواحد من هذه الحروف . أما بالنسبة لترتيب النزول ، فقد تكون أول سورة نزلت على النبى – صلى الله عليه وسلم – فى السور المفتتحة بالحروف المقطعة .

وقد قلنا عند تفسيرنا لسورة البقرة : وردت هذه الحروف المقطعة تارة مفردة بحرف واحد ، وتارة مركبة من حرفين أو ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة .

فالسور التى بدئت بحرف واحد ثلاثة ، وهى : سور ص ، ق ، ن ، والسور التى بدئت بحرفين تسعة وهى : طه ، يس ، طس ، و « حم »

فى ست سور ، وهى : غافر ، فصلت، الزخرف، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف .

والسور التى بدئت بثلاثة أحرف ، ثلاث عشرة سورة ، وهى « ألم » فى ست سور ، وهى : البقرة ، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان ، السجدة .

و « ألر » فى خمس سور ، وهى : يونس ، هود ، يوسف ، ابراهيم ، الحجر .

و « طسم » فى سورتين وهما : الشعراء ، والقصص .

وهناك سورتان بدئتا بأربعة أحرف وهما : الرعد ، « ألمر » ، والأعراف « ألمص » .

وهناك سورتان — أيضا — بدئتا بخمسة أحرف ، وهما : مريم « كهيعص » ، والشورى : « حم عسق » فيكون مجموع السور التى افتتحت بالحروف المقطعة : تسعا وعشرين سورة .

هذا ، وقد وقع خلاف بين العلماء فى المعنى المقصود بتلك الحروف المقطعة ، التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ويمكن إجمال خلافهم فى رأيين رئيسيين :

الرأى الأول يرى : أصحابه : أن المعنى المقصود منها غير معروف ، فهى من المتشابه الذى استأثر الله — تعالى — بعلمه .

وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس — فى بعض الروايات عنه — كما ذهب إليه الشعبى ، وسفيان الثورى وغيرهم من العلماء .

فقد أخرج ابن المنذر عن الشعبى أنه سئل عن فواتح السور فقال : إن لـ كل كتاب سراً ، وإن سر هذا القرآن فى فواتح السور » .

ويروى عن ابن عباس أنه قال . عجزت العلماء عن إدراكها .

وعن على بن أبى طالب أنه قال : « إن لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتب حروف التهجى » .

وفى رواية أخرى عن الشعبى أنه قال : « سر الله فلا تطلبوه » .

ومن الاعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى ، أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس ، لأنه من المتشابه ، فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل ، أو مثل ذلك كمثل المتكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .

وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ ، لم ينتف الإفهام عنها عند كل أحد ، فالرسول — صلى الله عليه وسلم — كان يفهم المراد منها ، وكذلك بعض أصحابه المقربين ، ولكن الذى ننفيه ، أن يكون الناس جميعاً فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور .

وهناك مناقشات أخرى للعلماء حول هذا الرأى ، يضيق المجال عن ذكرها .

أما الرأى الثانى فيرى أصحابه أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها ليست من المتشابه الذى استأثر الله — تعالى — بعلمه .

وأصحاب هذا الرأى قد اختلفوا فيما بينهم فى تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها ما يأتى :

(ا) أن هذه الحروف أسماء للسور ، بدليل قول النبى — صلى الله عليه وسلم — : « من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح » ، وبدليل اشتهار بعض السور بالتسمية بها كسورة « ص » وسورة « يس » .

ولا يخلو هذا القول من الضعف ، لأن كثيراً من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح ، والغرض من التسمية رفع الاشتباه .

(ب) وقيل : إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة ، للدلالة على

(جـ) وقيل : إنها حروف مقطعة ، بعضها من أسماء الله — تعالى — ، وبعضها من صفاته ، فمثلا : « ألم » أصلها : أنا الله أعلم .

(د) وقيل : إنها اسم الله الأعظم . إلى غير ذلك من الأقوال التى لا تخلو من مقال ، والتى أوصلها الإمام السيوطى فى كتابه « الإتقان » إلى أكثر من عشرين قولا .

(هـ) ولعل أقرب الآراء إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى الله به المشركين ، هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يعرفونها ، ويقدرون على تأليف الكلام منها ، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والبلاغة ، مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة .

وفضلا عن ذلك ، فإنه تصدير هذه السور بمثل هذه الحروف المقطعة ، يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم ، إلى الإنصات والتدبر ، لأنه يطرق أسماعهم فى أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة فى مجارى كلامهم ، وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يراد منها ، فيسمعوا حكما وحججا قد تكون سبباً فى هدايتهم واستجابتهم للحق .

هذه خلاصة لآراء العلماء فى الحروف المقطعة ، التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ومن أراد مزيداً لذلك فليرجع — مثلا — إلى كتاب «البرهان» للزركشى ، وكتاب « الإتقان» للسيوطى ، وتفسير « الآلوسى» .

ولفظ « ن » على الرأى الذى رجحناه ، يكون إشارة إلى إعجاز القرآن . . .

وقيل : هو من المتشابه الذى اس...

وقد ذكر بعض المفسرين أقوالا أخرى ، لا يعتمد عليها لضعفها ، ومن ذلك قولهم : إن « نون » اسم لحوت عظيم . . . أو اسم للدواة . . . وقيل : « ن » لوح من نور » ... (١) .

والواو فى قوله : « والقلم » للقسم ، والمراد بالقلم : جنسه ، فهو يشمل كل قلم يكتب به و « ما » فى قوله « وما يسطرون » موصولة أو مصدرية . و « يسطرون » مضارع سطر — من باب نصر — ، يقال : سطر الكتاب سطراً ، إذا كتبه . والسطر : الصف من الشجر وغيره ، وأصله من السطر بمعنى القطع ، لأن صفوف الكتابة تبدو وكأنها قطع متراصة .

وجواب القسم قوله : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .

أى : وحق القلم الذى يكتب به الكاتبون من مخلوقاتنا المتعددة ، إنك — أيها الرسول الكريم لبرأ مما اتهمك به أعداؤك من الجنون ، وكيف تكون مجنونا وقد أنعم الله — تعالى — عليك بالنبوة والحكمة .

فالمقصود بالآيات الكريمة تسلية النبى — صلى الله عليه وسلم — عما أصابه من المشركين ، ودفع تهمهم الباطلة دفعاً يأتى عليها من القواعد فيهدمها وإثبات أنه رسول من عنده — تعالى — .

وأقسم — سبحانه — بالقلم ، لعظيم شرفه ، وكثرة منافعه فيه تكتب الكتب السماوية ، وبه تكتب العلوم المفيدة . وبه يحصل التعارف بين الناس . . .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢١٣ . وتفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٢٢٣ .

وصدق الله إذ يقول : « إقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم . . . . » .

قال القرطبى : أقسم — سبحانه — بالقلم . لما فيه من البيان كاللسان ، وهو واقع على كل قلم مما يَكتبُ به مَن فى السماء ومَن فى الأرض ، ومنه قول أبى الفتح البستى :

إذا أقسم الأبطال يوما بسيفهم وعدوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب عزا ورفعة مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم(١)

والضمير فى قوله : « يسطرون » راجع إلى غير مذكور فى الكلام ، إلا أنه معلوم للسامعين ، لأن ذكر القلم يدل على أن هناك من يكتب به .

ونفى — سبحانه — عنه — صلى الله عليه وسلم — الجنون بأبلغ أسلوب ، لأن المشركين كانوا يصفونه بذلك ، قال — تعالى — : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ، لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون » .

قال الآلوسى : قوله : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » : جواب القسم والباء الثانية مزيدة لتأكيد النفى . ومجنون خبرما . والباء الأولى للملابسة والجار والمجرور فى موضع الحال من الضمير فى الخبر . والعامل فيها معنى النفى .

والمعنى : انتفى عنك الجنون فى حال كونك متلبسا بنعمة ربك . أى : منعما عليك بما أنعم من حصافة الرأى ، والنبوة . . . . » (٢) .

(١) تفسير القرطبى ج ١٨ ص ٢٢٥
(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ٢٤

وفى إضافته - صلى الله عليه وسلم - إلى الرب - عز وجل - مزيد إشعار بالتسلية والقرب والمحبة .. ومزيد إشعار - أيضا - بنفى ما افتراه الجاهلون من كونه - صلى الله عليه وسلم - مجنونا . لأن هذه الصفة لا تجتمع فى عبد أنعم الله - تعالى - عليه . وقربه . واصطفاه ، لحمل رسالته وتبليغ دعوته .

ثم بشره - سبحانه - ببشارة ثانية فقال : « وإن لك لأجرا غير ممنون » .

وقوله « ممنون » ، مأخوذ من المن بمعنى القطع ، تقول : مننت الحبل ، إذا قطعته . ويصح أن يكون من المن ، بمعنى أن يعطى الإنسان غيره عطية ثم يفتخر بها عليه . ومنه قوله - تعالى - :

« يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى .... » .

أى : وإن لك - أيها الرسول الكريم - عندنا ، لأجرا عظيما لا يعلم مقداره إلا نحن ، وهذا الأجر غير مقطوع بل هو متصل ودائم ، وغير ممنون به عليك .

وهذه الجملة الكريمة وما بعدها ، معطوفة على جملة جواب القسم ، لأنها من جملة المقسم عليه .

ثم أثنى - سبحانه - عليه ، بأجمل ثناء وأطيبه فقال : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

والخلق - كما يقول الإمام الرازى - : ملكة نفسانية ، يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال ، الجميلة ... و ....»(١) .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ١٧٥ .

والعظيم : الرفيع القدر ، الجليل الشأن ، السامى المنزلة . .

أى : وإنك — أيها الرسول الكريم — لعلى دين عظيم ، وعلى خلق كريم ، وعلى سلوك قويم ، فى كل ما تأتيه وما تتركه من أقوال وأفعال .

والتعبير بلفظ « على » يشعر بتمكنه — ﷺ — ورسوخه فى كل خلق كريم ، وهذا أبلغ رد على أولئك الجاهلين الذين وصفوه بالجنون ، لأن الجنون سفه لا يحسن معه التصرف ، أما الخلق العظيم . فهو أرقى منازل الكمال ، فى عظماء الرجال .

وإن القلم ليعجز عن بيان ما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة ، من ثناء من الله — تعالى — على نبيه - ﷺ - .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : قال قتادة : ذكر لنا أن سعد بن هشام سأل السيدة عائشة عن معنى هذه الآية فقالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قال : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله - ﷺ - كان القرآن » .

ومعنى هذا ، أنه - ﷺ - صار امتثال القرآن ، أمرا ونهيا ، سجية له ، وخلقا وطبعا ، فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق الكريم ، كالحكمة ، والعفة ، والشجاعة ، والعدالة . . . »(١) .

وكيف لا يكون - ﷺ - جماع كل خلق عظيم وهـــو القائل : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢١٢ .

ثم بشره - سبحانه - ببشارات أخرى فقال : فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » .

والفاء فى قوله : « فستبصر . . . » للتفريع على ما تقدم من قوله : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .

والفعل تبصر ويبصرون ، من الإبصار الذى هو الرؤية بالعينين ، وقيل : بمعنى العلم . . . والسين فى « فستبصر . . . » للتأكيد .

والباء فى قوله « بأيكم . . . » يرى بعضهم أنها بمعنى فى . والمفتون . اسم مفعول ، وهو الذى أصابته فتنة ، أدت إلى جنونه ! والعرب كانوا يقولون للمجنون : فتنته الجن . أو هو الذى اضطرب أمره ، واختل تكوينه وضعف تفكيره . . . كأولئك المشركين الذين قالوا فى النبى - ﷺ - أقوالا لا يقولها عاقل .

أى : لقد ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - أنك بعيد عما اتهمك به الكافرون ، وأنك لك عندنا المنزلة التى ليس بعدها منزلة . . . وما دام الأمر كذلك فسترى وستعلم ، وسيرى وسيعلم هؤلاء المشركون ، فى أى فريق منكم الإصابة بالجنون ؟ أفى فريق المؤمنين أم بفريق الكافرين . .

قال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : قوله : فستبصر ويبصرون) قال ابن عباس : فستعلم ويعلمون يوم القيامة حين يتميز الحق من الباطل ، وقيل فى الدنيا بظهور عاقبة أمرك . . .

(بأيكم المفتون) الباء مزيدة فى المبتدأ ، والتقدير : أيكم المفتون ، فزيدت الباء كزيادتها فى نحو : بحسبك درهم . . .

وقيل: الباء بمعنى فى الظرفية، كقولك: زيد بالبصرة. أى: فيها. والمعنى: فى أى فرقة منكم المفتون.

وقيل: المفتون مصدر جاء على مفعول كالمعقول والميسور. أى: بأيكم الفتون .....»(١).

وجملة: «إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ...» تعليل لما ينبىء عنه ما قبله من ظهور جنونهم بحيث لا يخفى على أحد، وتأكيد لوعده - ﷺ - بالنصر، ولو عيدهم بالخيبة والخسران.

أى: إن ربك - أيها الرسول الكريم - الذى خلقك فسواك فعدلك، هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وبمن أعرض عن طريق الحق والصواب ... وهو - سبحانه - أعلم بالمهتدين الذين اهتدوا إلى ما ينفعهم ويسعدهم فى دنياهم وآخرتهم ..

وما دام الأمر كذلك: فذرهم فى طغيانهم يعمهون، وسر فى طريقك، فستكون العاقبة لك ولأتباعك.

ثم أرشده - سبحانه - إلى جانب من مسالكهم الخبيثة، وصفاتهم القبيحة، وحذره من الاستجابة إلى شىء من مقترحاتهم، فقال: «فلا تطع المكذبين. ودوا لو تدهن فيدهنون».

وقوله: «ودوا» من الود بمعنى المحبة. وقوله: «تدهن» من الإدهان وهو المسايرة والمصانعة والملاينة للغير. وأصله أن يجعل على الشىء دهنا لكى يلين أو لكى يحسن شكله. ثم استعير للملاينة والمساهلة مع الغير.

---

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٣٨٣.

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - لا يخفى عليه شىء من أحوالك وأحوالهم ، وما دام الأمر كذلك ، فاحذر أن تطيع هؤلاء المكذبين فى شىء مما يقترحونه عليك ، فإنهم أحبوا وودوا أن تقبل بعض مقترحاتهم، وأن تلاينهم وتطاوعهم فيما يريدون منك . . وهم حينئذ يظهرون لك من جانبهم الملاينة والمصانعة . . حتى لكأنهم يميلون نحو الاستجابة لك ، وترك إيذائك وإيذاء أصحابك .

فالآية الكريمة تشير إلى بعض المساومات التى عرضها المشركون على النبى - ﷺ وما أكثرها - ومنها : ما ذكره ابن اسحاق فى سيرته من أن بعض زعماء المشركين قالوا للنبى - ﷺ - : يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيرا مما نعبد ، كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد ، كنت قد أخذت بحظك منه ، فنزلت سورة الكافرون .

ومنها : ما دار بينه - ﷺ - وبين الوليد بن المغيرة تارة ، وبينه وبين عتبة بن ربيعة تارة أخرى ... مما هو معروف فى كتب السيرة . .

ولقد قال الرسول - ﷺ - لعمه أبى طالب عندما نصحه بأن يترك المشركين وشأنهم ، وقال له : يا ابن أخى أشفق على نفسك وعلى ، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق . .

قال له - صلى الله عليه وسلم - : يا عماه ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك فيه . . .

والتعبير بقوله : « ودوا لو تدهن فيدهنون » يشير إلى أن الملاينة والمصانعة كانت منهم ، لا منه — صلى الله عليه وسلم — ، فهم الذين كانوا يحبون من أن يستجيب لمقترحاتهم ، لكي يقابلوا ذلك بالتظاهر بأنهم على صلة طيبة به وبأصحابه .

قال صاحب الكشاف ، قوله : « فلا تطع المكذبين » تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم ، وكانوا قد أرادوه على أن يعبد الله مدة ، وآلهتهم مدة ، ويكفوا عن غوائلهم .

وقوله : « لو تدهن » لو تلين وتصانع « فيدهنون » .

فإن قلت : لماذا رفع « فيدهنون » ولم ينصب بإضمار « أن » وهو جواب التمنى ؟ قلت : قد عدل إلى طريق آخر ، وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف . أى . فهم يدهنون ، كقوله : « فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا » على معنى : ودوا لو تدهن فهم يدهنون . . . » (١) .

ثم يكرر — سبحانه — النهى للنبى — صلى الله عليه وسلم — عن طاعة كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . . .

فيقول : « ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . . . » .

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآيات الكريمة ، نزلت في الوليد بن المغيرة . . . وقيل : إنها نزلت فى الأخنس بن شريق . . . .

والآيات الكريمة يشمل النهى فيها كل من هذه صفاته ، ويدخل فيها الوليد بن المغيرة ، والأخنس بن شريق . . دخولا أوليا .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٨٦

أى : ولا تطع — أيها الرسول الكريم — كل من كان كثير الحلف بالباطل ، وكل من كان مهينا ، أى : حقيرا ذليلا وضيعا . من المهانة ، وهم القلة فى الرأى والتمييز . . .

« هماز » أى : عياب للناس ، أو كثير الاغتياب لهـم ، من الهمز ، وأصله : الطعن فى الشىء بعود أو نحوه ، ثم استعير للذى يؤذى الناس بلسانه وبعينه وبإشارته ، ويقع فيهم بالسوء ، ومنه قوله — تعالى — : « ويل لكل همزة لمزة . . . » .

« مشاء بنميم » أى : نقال للحديث السىء لكى يفسد بين الناس . والنميم والنميمة مصدران بمعنى السعاية والإفساد . يقال : نم فلان الحديث — من بابى قتل وضرب — إذا بين الناس بالفتنة ، وأصل النم : الهمس والحركة الخفيفه ، ثم استعملت فى السعى بين الناس بالفساد على سبيل المجاز . . .

«مناع للخير معتد أثيم» أى : هو شديد المنع لكل مافيه خير، ولكل من يستحقه ، خصوصا إذا كان من يستحقه من المؤمنين . .

ثم هو بعد ذلك « معتد » أى : كثير العدوان على الناس « أثيم » أى : مبالغ فى ارتكابه للآثام ، لا يترك سيئة دون أن يرتكبها . .

وقد جاءت صفات الذم السابقة بصيغة المبالغة ، للإشعار برسوخه فيها ، وباقترانه لها بسرعة وشدة .

« عتل بعد ذلك زنيم » والعتل : هو الجاف الغليظ ، القاسى القلب ، الفظ الطبع ، الأكول الشروب . . بدون تمييز بين حلال وحرام . مأخوذ من عتله يعتله — بكسر التاء وضمها — إذا جره بعنف وغلظة . . .

« والزنيم » هو اللصيق بالقوم دون أن يكون منهم ، وإنما هو دعى فيهم ، حتى لكأنه فيهم كالزنمة ، وهى ما يتدلى من الجلد فى حلق المعز أو الشاة . . .

وقيل : الزنيم ، هو الشخص الذى يعرف بالشر واللؤم بين الناس ، كما تعرف الشاة بزنمتها ، أى . لعلامتها . . .

ومعنى : « بعد ذلك » : كمعنى « ثم » أى : ثم هو بعد كل تلك الصفات القبيحة السابقة : جاف غليظ ، ملصق بالقوم ، دعى فيهم . . .

فهذه تسع صفات ، كل صفة منها قد بلغت النهاية فى القبح والسوء ، ساقها — سبحانه — لذم الوليد بن المغيرة وأشباهه فى الكفر والفجور .

وقوله : « أن كان ذا مال وبنين . . . » متعلق بقوله قبل ذلك « ولا تطع كل حلاف . . . » أى : ولا تطع من كانت هذه صفاته لكونه ذا مال وبنين ، فإن ماله وولده لن يغنى عنه من الله — تعالى — شيئا.

وقوله : « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » كلام مستأنف جار مجرى التعليل للنهى عن طاعته ، والأساطير جمع أسطورة بمعنى أكذوبة . .

أى : لا تطعه — لأنه فضلا عما اتسم به من صفات قبيحة — تراه إذا تتلى عليه آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا . . . وعلى صدقك يا محمد فيما تبلغه عنا ، قال هذا العتل الزنيم ، هذه الآيات أكاذيب الأولين وترهاتهم . .

ثم ختمت هذه الآيات بأشد أنواع الوعيد لمن هذه صفاته فقال — تعالى — : سنسمه على الخرطوم » .

أى : سنبين أمره ونوضحه توضيحا يجعل الناس يعرفونه معرفة تامة لاخفاء معها ولا لبس ولا غموض ، كما لا تخفى العلامة الكائنة على الخرطوم ، الذى يراد به هنا الأنف . . الوسم عليه يكون بالنار .

أو سنلحق به عارا لايفارقه ، بل يلازمه مدى الحياة ، وكان العرب إذا أرادوا أن يسبوا رجلا سبة قبيحة . . قالوا : قد وسمَ فلان ميسم سوء . . أى : التصق به عار لايفارقه ، كالسمة التى هى العلامة التى لا يمحى أثرها . .

وذكر الوسم والخرطوم فيه مافيه من الذم ، لأن فيه جمعا بين التشويه الذى يترتب على الوسم السيء ، وبين الإهانة ، لأن كون الوسم فى الوجه بل فى أعلى جزء من الوجه وهو الأنف . . دليل على الإذلال والتحقير .

ومما لاشك فيه أن وقع هذه الآيات على الوليد بن المغيرة وأمثاله ، كان قاصما لظهورهم ، ممزقا لكيانهم ، هادما لما كانوا يتفاخرون به من أمجاد زائفة ، لأنه ذم لهم من رب الأرض والسماء ، الذى لا يقول إلا حقا وصدقا . .

كذلك كانت هذه الآيات تسلية للرسول — صلى الله عليه وسلم — ولأصحابه ، عما أصابهم من أذى ، من هؤلاء الحلافين بالباطل والزور ، المشائين بين الناس بالنميمة ، المناعين لكل خير وبر .

وبمناسبة الحديث السابق الذى فيه إشارة إلى المال والبنين ، اللذين كانا من أسباب بطر هؤلاء الكافرين وطغيانهم . . ساق القرآن بعد ذلك قصة أصحاب الجنة ، لتكون موعظة وعبرة لكل عاقل ، فقال تعالى :

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ
أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾
فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾
فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾
فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾
وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ
نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾
قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا
خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ
أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : هذا مثل ضربه الله — تعالى — لكفار قريش ، فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعم الجسيمة ، وهو بعثه محمدا — صلى الله عليه وسلم إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والمحاربة . . .

وقد ذكر بعض السلف ، أن أهـ

اليمن . . كانوا من قرية يقال لها ضروان ، على ستة أميال من صنعاء . . . وكان أبوهم قد ترك لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما استغله منها يأخذمنه ما يحتاج إليه ، ويدخر لعياله قوت سنتهم ، ويتصدق بالفاضل .

فلما مات وورثه أولاده ، قالوا : لقد كان أبونا أحمق ، إذ كان يصرف من هذه الجنة شيئا للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك لنا . فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ؛ فقد أذهب الله ما بأيديهم بالكلية : أذهب رأس المال ، والربح . . فلم يبق لهم شيء . . . » (١)

وقوله — سبحانه — « بلوناهم » أي : اختبرناهم وامتحناهم ، مأخوذ من البلوى ، التي تطلق على الاختبار . والابتلاء قد يكون بالخير وقد يكون بالشر ، كما قال — تعالى — « كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة . . » وكما في قوله — سبحانه — : « وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون » . .

والمراد بالابتلاء هنا : الابتلاء بالشر بعد جحودهم لنعمة الخير . .

أي : إنا امتحنا مشركي قريش بالقحط والجوع . حتى أكلوا الجيف، بسبب كفرهم بنعمنا ، وتكذيبهم لرسولنا — ﷺ — ، كما ابتلينا من قبلهم أصحاب الجنة ، بأن دمرناها تدميرا ، بسبب بخلهم وامتناعهم عن أداء حقوق الله منها . . .

ويبدو أن قصة أصحاب الجنة ، كانت معروفة لأهل مكة ، ولذا ضرب الله — تعالى — المثل بها ، حتى يعتبروا ويتعظوا . .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٢٢٣ .

ووجه المشابهة بين حال أهل مكة، وحال أصحاب الجنة .. يتمثل فى أن كلا الطرفين قد منحه الله — تعالى — نعمة عظيمة، ولكنه قابلها بالجحود وعدم الشكر . .

و « إذ » فى قوله : « إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . . » تعليلية ..

والضمير فى « أقسموا » يعود لمعظمهم، لأن الآيات الآتية بعد ذلك تدل على أن أوسطهم قد نهاهم عما اعتزموه من حرمان المساكين، ومن مخالفة ما يأمرهم شرع الله — تعالى — به . .

قال — تعالى — : « قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون . . »

وقوله : « ليصرمنها » من الصرم وهو القطع . يقال : صرم فلان زرعه — من باب ضرب — إذا جزه وقطعه، ومنه قولهم : انصرم حبل المودة بين فلان وفلان، إذا انقطع .

وقوله « مصبحين » أى : داخلين فى وقت الصباح المبكر .

أى : إنا امتحنا أهل مكة بالبأساء والضراء، كما امتحنا أصحاب البستان الذين كانوا قبلهم، لأنهم أقسموا بالأيمان المغلظة، ليقطعن ثمار هذا البستان فى وقت الصباح المبكر . .

« ولا يستثنون » أى : دون أن يجعلوا شيئا — ولو قليلا — من ثمار هذا البستان للمحتاجين، الذين أوجب الله — تعالى — لهم حقوقا فى تلك الثمار .

وقيل معنى « ولا يستثنون » : ولم يقولوا إن شاء الله، كما قال - تعالى - : « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله . . » .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله — تعالى — « ليصر منها » ، وهى فى الوقت نفسه مقسم عليه .

أى : أقسموا ليصر منها فى وقت الصباح المبكر ، وأقسموا كذلك على أن لا يعطوا شيئا منها للفقراء أو المساكين . .

ثم بين — سبحانه — ما ترتب على هذا القسم الذى لم يقصد به الخير ، وإنما قصد به الشر فقال : « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم » .

والطائف : مأخوذ من الطواف ، وهو المشى حول الشىء من كل نواحيه ، ومنه الطواف حول الكعبة . وأكثر ما يستعمل لفظ الطائف فى الشر كما هنا ، ومنه قوله — تعالى — : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » .

وعدى لفظ « طائف » بحرف « على » لتضمينه معنى : تسلط أو نزل .

والصريم — كما يقول القرطبى — : الليل المظلم . . أى : احترقت فصارت كالليل الأسود .

وعن ابن عباس : كالرماد الأسود . . أو : كالزرع المحصود . فالصريم بمعنى المصروم ، أى : المقطوع ما فيه . . »(١) .

أى : أقسم هؤلاء الجاحدون على أن لا يعطوا شيئا من جنتهم للمحتاجين . . فكانت نتيجة نيتهم السيئة ، وعزمهم على الشر . . أن نزل

---

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٨ ص ٢٤١

بهذه الحديقة بلاء أحاط بها فأهلكها، فصارت كالشيء المحترق الذي قطعت ثماره، ولم يبق منه شيء ينفع.

ولم يعين - سبحانه - نوع هذا الطائف، أو كيفية نزوله، لأنه لا يتعلق بذكره غرض، وإنما المقصود ما ترتب عليه من آثار، توجب الاعتبار.

وتنكير لفظ «طائف» للتهويل. و«من» في قوله «من ربك» للابتداء، والتقييد بكونه من الرب - عز وجل -، لإفادة أنه بلاء لا قبل لأحد من الخلق بدفعه قال القرطبي: في هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان، لأنهم عزموا على أن يفعلوا، فعوقبوا قبل فعلهم. ومثله قوله - تعالى -: «ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم». وفي الحديث الصحيح: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار. قيل: يارسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه»(1).

ثم يصور - سبحانه - أحاسيسهم وحركاتهم، وقد خرجوا لينفذوا ما عزموا عليه من سوء.. فيقول: فتنادوا مصبحين» أي: فنادى بعضهم بعضا في وقت الصباح المبكر، حتى لا يراهم أحد..

فقالوا في تناديهم «أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين» أي: قال بعضهم لبعض: هيا بنا لنذهب إلى بستاننا لكي نقطع ما فيه من ثمار، في هذا الوقت المبكر، حتى لا يرانا أحد، إذ الغدو هو الخروج إلى المكان في غدوة النهار. أي: في أوله.

---

(1) تفسير القرطبي ج ١٨ ص ٢٤١.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : اغدوا إلى حرثكم : وما معنى « على » ؟

قلت : لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه : كان غدوا عليه ، كما تقول : غدا عليهم العدو . ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال ، كقولهم : يغدى عليه بالجفنة ويراح . أي : فأقبلوا على حرثكم باكرين . . »(١) .

وجواب الشرط فى قوله : « إن كنتم صارمين » محذوف لدلالة ما قبله عليه . أى : إن كنتم صارمين فاغدوا « فانطلقوا وهم يتخافتون » أى : فانطلقوا مسرعين نحو جنتهم وهم يتسارون فيما بينهم ، إذ التخافت : تفاعل من خفت فلان فى كلامه ، إذا نطق به بصوت منخفض لا يكاد يسمع ..

وجملة : « أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » مفسرة لما قبلها لأن التخافت فيه معنى القول دون حروفه أى : انطلقوا يتخافتون وهم يقولون فيما بينهم : احذروا أن يدخل جنتكم اليوم وأنتم تقطعون ثمارها أحدا من المساكين .

وجملة : « وغدوا على حرد قادرين » حالية . والحرد : القصد . يقال : حرَد فلانٌ حرْد فلان — من باب ضرب — أى : قصد قصده .

قال الإمام الشوكانى : الحرد يكون بمعنى المنع والقصد .. لأن القاصد إلى الشىء حارد . يقال : حرد يحرد إذا قصد . . . وقال أبو عبيدة : « على حرد » أى : على منع ، من قولهم : حردت الإبل حردا ، إذا قلت ألبانها . والحرود من الإبل : القليلة اللبن .. وقال السدى : « على حرد » : أى : على غضب .. وقال الحسن : « على حرد » أى : على حاجة وفاقة ،

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٩٠ .

وقيل : « على حرد » أى : على انفراد . يقال حرد يحرد حردا .. إذا تنحى عن قومه ، ونزل منفردا عنهم دون أن يخالطهم . . . » .

أى : أن أصحاب الجنة ساروا إليها غدوة ، على أمر قد قصدوه وبيتوه .. موقنين أنهم قادرون على تنفيذه ، لأنهم قد اتخذوا له جميع وسائله ، من الكتمان والتبكير والبعد عن أعين المساكين . .

أو : ساروا إليها فى الصباح المبكر ، وهم ليس معهم أحد من المساكين أو من غيرهم ، وهم فى الوقت نفسه يعتبرون أنفسهم قادرين على قطع ثمارها ، دون أن يشاركهم أحد فى تلك الثمار . .

ثم صور — سبحانه — حالهم تصويرا بديعا عندما شاهدوا جنتهم ، وقد صارت كالصريم ، فقال : « فلما رأوها قالوا إنا لضالون » .

أى : فحين شاهدوا جنتهم — وهى على تلك الحال العجيبة — قال بعضهم لبعض : إنا لضالون عن طريق جنتنا ، تائهون عن الوصول إليها. .. لأن هذه الجنة الخاوية على عروشها ليست هى جنتنا التى عهدناها بالأمس القريب ، زاخرة بالثمار . .

ثم اعترفوا بالحقيقة المرة ، بعد أن تأكدوا أن ما أمامهم هى حديقتهم فقالوا : « بل نحن محرومون » أى : لسنا بضالين عن الطريق إليها ، بل الحقيقة أن الله — تعالى — قد حرمنا من ثمارها . . . بسبب إصرارنا على حرماننا المساكين من حقوقهم منها .

وهنا تقدم إليهم أوسطهم رأيا ، وأعدلهم وأمثلهم تفكيرا .. فقال لهم: أقل لكم لولا تسبحون » .

والاستفهام للتقرير . و «لولا» حرف تحضيض بمعنى هلا . والتسبيح هنا بمعنى : الاستغفار والتوبة ، وإعطاء كل ذى حق حقه .

أى : قال لهم – أعقلهم وأصلحهم – بعد أن شاهد ما شاهد من أمر الحديقة : قال لهم : لقد قلت لكم عندما عزمتم على حرمان المساكين حقوقهم منها . . اتقوا الله ولا تفعلوا ذلك ، وسيروا على الطريقة التى كان يسير عليها أبوكم ، وأعطوا المساكين حقوقهم منها ، ولكنكم خالفتمونى ولم تتابعوا أمرى ، فكانت نتيجة مخالفتكم لنصحى ، ما ترون من خراب الجنة ، التى أصابنى من خرابها ما أصابكم ..

وكعادة كثير من الناس الذين : لا يقدرون النعمة إلا بعد فوات الأوان . . . قالوا لأعقلهم وأصلحهم : « سبحان ربنا إنا كنا ظالمين » .

أى : قالوا وهم يعترفون بظلمهم وجرمهم . . « سبحان ربنا » أى : ننزه ربنا ونستغفره عما حدث منا ، فإننا كنا ظالمين لأنفسنا حين منعنا حق الله – تعالى – عن عباده .

ثم حكى – سبحانه – ما دار بينهم بعد أن أيقنوا أن حديقتهم قد دمرت فقال : « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » أى : يلوم بعضهم بعضا ، وكل واحد منهم يلقى التبعة على غيره ، ويقول له : أنت الذى كنت السبب فيما أصابنا من حرمان . .

« قالوا ياويلنا » أى : ياهلاكنا وياحسرتنا . . « إنا كنا طاغين » أى: إنا كنا متجاوزين لحدودنا ، وفاسقين عن أمر ربنا ، عندما صممنا على البخل بما أعطانا – سبحانه – من فضله . . « عسى ربنا » بفضله وإحسانه « أن يبدلنا خيرا منها » أى : أن يعطينا ما هو خير منها « إنا إلى ربنا » لا إلى غيره « راغبون » أى : راغبون فى عطائه ، راجعون إليه بالتوبة والنـــدم . . .

قال الآلوسى : قال مجاهد : إنهم تابوا فأبدلهم الله – تعالى – خيرا منها.

وحكى عن الحسن : التوقف . وسئل قتادة عنهم : أهم من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ فقال للسائل : لقد كلفتني تعبا . . . »(١) .

ثم ختم – سبحانه – قصتهم بقوله : « كذلك العذاب » أى : مثل الذى بلونا به أصحاب الجنة ، من إهلاك جنتهم بسبب جحودهم لنعمنا . . يكون عذابنا لمن خالف أمرنا من كفار مكة وغيرهم .

فقوله : « كذلك » خبر مقدم . و « العذاب » مبتدأ مؤخر ، والمشار إليه هو ما تضمنته القصة من إتلاف تلك الجنة ، وإذهاب ثمارها .

وقدم المسند وهو الخبر ، على المسند إليه وهو المبتدأ ، للاهتمام باحضار تلك الصورة العجيبة فى ذهن السامع .

وقوله « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » يدل على أن المراد بالعذاب السابق عذاب الدنيا .

أى : مثل ذلك العذاب الذى أنزلناه بأصحاب الجنة فى الدنيا ، يكون عذابنا لمشركى قريش ، أما عذاب الآخر فهو أشد وأبقى وأعظم . . . ولو كانوا من أهل العلم والفهم ، لعلموا ذلك ، ولأخذوا منه حذرهم عن طريق الإيمان والعمل الصالح . هذا ، والمتأمل فى هذه القصة ، يراها زاخرة بالمفاجآت ، وبتصوير النفس الإنسانية فى حال غناها وفى حال فقرها ، فى حال حصولها على النعمة وفى حال ذهاب هذه النعمة من بين يديها . .

كما يراها تحكى لنا سوء عاقبة الجاحدين لنعم الله ، إذ أن هذا الجحود يؤدى إلى زوال النعم ، ورحم الله القائل : « من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها » .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ٣٢ .

ثم تبدأ السورة بعد ذلك فى بيان حسن عاقبة المؤمنين ، وفى محاجة المجرمين ، وفى تحديهم بالسؤال تلو السؤال ، إلزاما لهم بالحجة ، وتقريعا لهم على غفلتهم ، وتذكيرا لهم بيوم القيامة الذى سيندمون عنده ، ولن ينفعهم الندم .

قال — تعالى — :

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾
أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ
كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ
عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم
بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟
صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ
إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

وقوله — سبحانه — : « إن للمتقين عند ربهم . . . » بيان لما وعد به — سبحانه — المؤمنين الصادقين ، بعد بيان وعيده للجاحدين المكذبين .

أى : إن للذين اتقوا ربهم ، وصانوا أنفسهم عما حرمه .. جنات ليس لهم فيها إلا النعيم الخالص ، والسرور التام ، والخير الذى لا ينقطع ولا يمتنع . . .

واللام فى قوله : « للمتقين » للاستحقاق ، وقال — سبحانه — « عند ربهم » للتشريف والتكريم .

أى : هذه الجنات اختص الرب — عز وجل — بها الذين اتقوه فى كل أحوالهم .

وإضافة الجنات إلى النعيم ، للإشارة إلى أن النعيم ملازم لها لا يفارقها فلا يكون فيها ما يكون فى جنات الدنيا من تغير فى الأحوال ، فهى تارة مثمرة ، وتارة ليست كذلك .

والاستفهام فى قوله : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » للنفى والإنكار . والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام .

أى : أنحيف فى أحكامنا فنجعل الذين أخلصوا لنا العبادة ، كالذين أشركوا معنا آلهة أخرى ؟ أو نجعل الذين أسلموا وجوههم لنا ، كالذين فسقوا عن أمرنا ؟

كلا ، لن نجعل هؤلاء كهؤلاء ، فإن عدالتنا تقتضى التفريق بينهم .

قال الجمل : لما نزلت هذه الآية وهى قوله : « إن للمتقين . . » قال كفار مكة للمسلمين : إن الله فضلنا عليكم فى الدنيا ، فلا بد وأن يفضلنا عليكم فى الآخرة ، فإذا لم يحصل التفضيل ، فلا أقل من المساواة . فأجابهم الله — تعالى — بقوله : أفنجعل المسلمين كالمجرمين » (١) .

ثم أضاف — سبحانه — إلى توبيخهم توبيخا آخر فقال : « مالكم كيف تحكمون » .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٨٨

وقوله « مالكم » جملة من مبتدأ وخبر ، وهى بمثابة تأنيب آخر لهم ، وقوله : « كيف تحكمون » تجهيل لهم ، وتسفيه لعقولهم .

أى . ما الذى حدث لعقولكم ، حتى ساويتم بين الأخيار والأشرار والأطهار والفجار ، ومن أخلصوا لله عبادتهم ، ومن كفروا به ؟

ثم انتقل — سبحانه — من توبيخهم على جهلهم ، إلى توبيخهم على كذبهم فقال : « أم لكم كتاب فيه تدرسون . إن لكم فيه لما تخيرون » .

و « أم » هنا وما بعدها للاضراب الانتقالى ، وهى بمعنى بل ، والضمير فى قوله « فيه » يعود على الكتب .

وقوله « تدرسون » أى : تقرءون بعناية وتفكير .

وقوله : « تخيرون » أصله : تتخيرون ، والتخير : تطلب ما هو خير . يقال : فلان تخير الشىء واختاره ، إذا أخذ خيره وجيده .

أى : بل ألكم — أيها المشركون — كتاب قرأتم فيه بفهم وتدبر ، المساواة بين المتقين والمجرمين ، وأخذتم منه ما اخترتموه من أحكام ، كلا ، إنه لا يوجد كتاب سماوى ، أو غير سماوى ، يوافقكم على التسوية بين المتقين والمجرمين . وأنتم إنما تصدرون أحكاما كاذبة . ما أنزل الله بها من سلطان .

ثم انتقل — سبحانه — إلى توبيخهم على لون آخر من مزاعمهم فقال : « أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة ، إن لكم لما تحكمون » .

أى : وقل لهم — يا محمد — على سبيل إلزامهم الحجة : بل ألكم « أيمان » أى : عهود ومواثيق مؤكدة « علينا » ، وهذه العهود « بالغة » أقصى مداها فى التوكيد ، وثابتة لكم علينا « إلى يوم القيامة » ، بأننا قد

سوينا بين المسلمين والمجرمين فى أحكامنا ، كما زعمتم أنتم ؟ إن كانت لكم علينا هذه الأيمان والعهود ، فأظهروها للناس ، وفى هذه الحالة يكون من حقكم أن تحكموا بما حكمتم به .

ومما لاشك فيه ، أنهم ليست لهم عهود عند الله بما زعموه من أحكام ، وإنما المقصود من الآية الكريمة ، بيان كذبهم فى أقوالهم ، وبيان أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بجواب يثبتون به مدعاهم .

وقوله : « إن لكم لما تحكمون » جواب القسم ، لأن قوله : « أم لكم أيمان علينا » بمعنى : أم أقسمنا لكم أيمانا موثقة إنا رضينا بأحكامكم التى تسوون فيها بين المسلمين والمجرمين .

ثم أمر — سبحانه — رسوله — صلى الله عليه وسلم — أن يسألهم سؤال تبكيت وتأنيب فقال : « سلهم أيهم بذلك زعيم » .

والزعيم : هو الضامن ، والمتكلم عن القوم ، والناطق بلسانهم . .

واسم الإشارة يعود على الحكم الباطل الذى حكموه ، وهو التسوية بين المسلمين والمجرمين .

أى : سل — أيها الرسول الكريم — هؤلاء المشركين ، سؤال تقريع وتوبيخ ، أى واحد منهم سيكون يوم القيامة ، كفيلا بتحمل مسئولية هذا الحكم ، وضامنا بأن المسلمين سيكونون متساوين مع المجرمين فى الأحكام عند الله — تعالى — .

ثم انتقل — سبحانه — إلى إلزامهم الحجة عن طريق آخر فقال : « أم لهم شركاء ، فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين » .

أى : بل ألهم شركاء يوافقونهم على هذا الحكم الباطل ، إن كان

عندهم ذلك ، فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين فى زعمهم التسوية بين المتقين والمجرمين .

والمراد بالشركاء هنا : الأصنام التى يشركونها فى العبادة مع الله — عز وجل — .

وحذف متعلق الشركاء ، لشهرته . أى : أم لهم شركاء لنا فى الألوهية يشهدون لهم بصحة أحكامهم .

والأمر فى قوله : «فليأتوا . . .» للتعجيز .

والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يرى أن الله — تعالى — قد وبخهم باستفهامات سبعة :

أولها قوله — تعالى — : «أفنجعل . . .» الثانى «مالكم . . .» ، الثالث : «كيف تحكمون» ، الرابع : «أم لكم كتاب» ، الخامس «أم لكم أيمان» ، السادس : «أيهم بذلك زعيم» ، السابع «أم لهم شركاء» .

قال الآلوسى : وقد نبه — سبحانه — فى هذه الآيات ، على نفى جميع ما يمكن أن يتعلقوا به فى تحقيق دعواهم ، حيث نبه — سبحانه — على نفى الدليل العقلى بقوله «مالكم كيف تحكمون» ، وعلى نفى الدليل النقلى بقوله «أم لكم كتاب . . .» ، وعلى نفى أن يكون الله وعدهم بذلك بقوله : «أم لكم أيمان . . .» ، وعلى نفى التقليد الذى هو أوهى من حبال القمر بقوله «أم لهم شركاء . . .» (١) .

ثم بين — سبحانه — جانبا من أهوال يوم القيامة ، ومن حال الكافرين فيه ، فقال : «يوم يكشف عن ساق ، ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون» .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ٣٤

والظرف «يوم» يجوز أن يكون متعلقا بقوله - تعالى - قبل ذلك «فليأتوا بشر كائهم . . .» ويصح أن يكون متعلقا بمحذوف تقديره . اذكر والمراد باليوم : يوم القيامة .

والكشف عن الساق معناه التشمير عنها وإظهارها ، وهو مثل لشدة الحال ، وصعوبة الخطب والهول ، وأصله أن الإنسان إذا اشتد خوفه ، أسرع فى المشى ، وشمر عن ثيابه ، فينكشف ساقه .

قال صاحب الكشاف : الكشف عن الساق ، والإبداء عن الخِدَام . - أى : الخلخال الذى تلبسه المرأة فى رجلها - وهو جمع خدمة كرقاب جمع رقبة - مثل فى شدة الأمر ، وصعوبة الخطب ، وأصله فى الروع والهزيمة وتشمير المخدرات عن سوقهن فى الهرب ، وإبداء خدامهن عند ذلك . . .

كما قال الشاعر :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن سوقها الحرب شمرا

فمعنى يوم يكشف عن ساق . يوم يشتد الأمر ويتفاقم ، ولا كشف ولا ساق ، كما تقول للأقطع الشحيح . يده مغلولة ، ولا يد ثم ولا غل ، وإنما هو مثل فى البخل . .

فإن قلت . فلم جاءت منكرة فى التمثيل ؟ قلت . للدلالة على أنه أمر مبهم فى الشدة ، فظيع خارج عن المألوف . . .» (١)

والمعنى اذكر لهم - أيها الرسول الكريم - لكى يعتبروا ويتعظوا أهوال يوم القيامة ، يوم يشتد الأمر ، ويعظم الهول . .

«ويدعون» هؤلاء الذين فسقوا عن أمر ربهم فى هـذا اليوم

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٩٤

« إلى السجود » لله – تعالى – على سبيل التوبيخ لهم ، لأنهم كانوا ممتنعين عنه فى الدنيا .

« فلا يستطيعون » أى : فلا يستطيعون ذلك ، لأن الله – تعالى – سلب منهم القدرة على السجود له فى هذا اليوم العظيم ، لأنه يوم جزاء وليس يوم تكليف والذين يدعونهم إلى السجود ، هم الملائكة بأمره – تعالى – .

وقوله : « خاشعة أبصارهم .. » حال من فاعل « يدعون » . وخشوع الأبصار : كناية عن الذلة والخوف الشديد . ونسب الخشوع إلى الأبصار ، لظهور أثره فيها .

أى : هم يدعون إلى السجود فلا يستطيعون ذلك ، لأنه – تعالى – سلب منهم القدرة عليه ، ثم يساقون إلى النار ، حالة كونهم ذليلة أبصارهم منخفضة رءوسهم ..

« ترهقهم ذلة » أى : تغشاهم وتعلوهم ذلة وانكسار . .

« وقد كانوا » فى الدنيا « يدعون إلى السجود » لله – تعالى – « وهم سالمون » أى : وهم قادرون على السجود له – تعالى – ، ومتمكنون من ذلك أقوى تمكن ... ، ولكنهم كانوا يعرضون عمن يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله – تعالى – ، ويستهزئون به . .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : « يوم يكشف عن ساق ... » يعنى يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأهوال ، والزلازل ، والبلابل ، والامتحان ، والأمور العظام . .

روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت النبى – ﷺ – يقول : يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من

كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره ، طبقاواحدا – أى : يصير ظهره كالشىء الصلب فلا يقدر على السجود – . .

وعن ابن عباس قال : « يوم يكشف عن ساق » : هو يوم كرب وشدة . . . »(١) .

ثم ختم – سبحانه – السورة الكريمة ، بالتهديد الشديد للكافرين ، وببيان جانب من تصرفه الحكيم معهم ، وبتسلية الرسول – ﷺ – عما أصابه منهم ، وبأمره بالصبر على أذاهم ، وعلى أحقادهم التى تنبىء عنها نظراتهم المسمومة إليه ، فقال – تعالى – :

فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٢٤ .

والفاء فى قوله : « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث . . . » لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

والفعل « ذرنى » من الأفعال التى يأتى منها الأمر والمضارع ، ولم يسمع لها ماض ، وهو بمعنى اترك . يقال : ذرْه يفعل كذا ، أى : اتركه . ومنه قوله — تعالى — « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » .

والمراد « بهذا الحديث . . . » ما أوحاه الله — تعالى — إلى نبيه - ﷺ - من قرآن كريم ، ومن توجيهات حكيمة ، لكى يبلغها للناس .

والاستدراج : استنزال الشىء من درجة إلى أخرى ، والانتقال به من حالة إلى أخرى ، والسين والتاء فيه للطلب . والمراد به هنا : التمهل فى إنزال العقوبة .

والإملاء : الإمداد فى الزمن ، والإمهال والتأخير ، مأخوذ من الملاوة والملوة ، وهى الطائفة الطويلة من الزمن . والملوان : الليل والنهار . والمراد به هنا : إمدادهم بالكثير من النعم . . .

يقال : أملى فلان لبعيره : إذا أرخى له فى الزمام ، ووسع له فى القيد ، ليتسع المرعى .

والكيد كالمكر ، وهو التدبير الذى يقصد به غير ظاهره ، بحيث ينخدع المكور به ، فلا يفطن لما يراد به ، حتى يقع عليه ما يسوءه . .

وإضافة الكيد إليه — تعالى — ، يحمل على المعنى اللائق به كإبطال مكر أعدائه ، وكإمدادهم بالنعم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

والمقصود بهاتين الآيتين الكريمتين : تسلية النبى — ﷺ — عما قد أصابه من أعدائه .

والمعنى : إذا كانت أحوال هؤلاء المشركين ، كما ذكرت لك - أيها الرسول الكريم - ، فكل أمرهم إلى . واترك أمر هؤلاء الذين يكذبونك فيما جئتهم به من عندنا إلى ربك ، ولا تشغل بالك بهم . . فإنى سأقربهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم ، ويضاعف عقابهم ، بأن أسوق لهم النعم ، حتى يفاجئهم الهلاك من حيث لا يعلمون أن صنعنا هذا معهم هو لون من الاستدراج ، ثم إنى أمدلهم فى أسباب الحياة الرغدة ، ليزدادوا إثما ، ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وهذا لون من ألوان كيدى الشديد القوى ، الذى لا يفطن إليه أمثال هؤلاء الجاهلين الأغبياء . .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذاهم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين »(١) . .

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

وقال الحسن البصرى : كم من مستدرج بالإحسان ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه .

قال الآلوسى : وقوله : « سنستدرجهم . . » استئناف مسوق لبيان كيفية التعذيب المستفاد من الكلام السابق إجمالا . .

وقوله : « من حيث لا يعلمون » أى : من حيث لا يعلمون أنه استدراج ، بل يزعمون أن ذلك إيثار لهم ، وتفضل على المؤمنين ، مع أنه سبب هلاكهم . .

---

(١) سورة الأنعام الآيتان ٤٤ ، ٤٥ .

وقوله : « وأملى لهم » أى : وأمهلهم ليزدادوا إثما . . « إن كيدى متين » أى : لا يدفع بشىء .

وتسمية ذلك كيدا - وهو ضرب من الاحتيال - لكونه فى صورته ، حيث إنه - سبحانه - يفعل معهم ما هو نفع لهم ظاهرا ، ومراده - عز وجل - به الضرر ، لما علم من خبث جبلتهم ، وتماديهم فى الكفر والجحود »(١) .

ثم عادت السورة الكريمة إلى إبطال معاذيرهم ، بأسلوب الاستفهام الإنكارى ، الذى تكرر فيها كثيرا ، فقال - تعالى - : « أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون . أم عندهم الغيب فهم يكتبون » ؟

والمغرم والغرامة : ما يفرض على المرء أداؤه من مال وغيره .

والمثقلون : جمع مثقل ، وهو من أثقلته الديون ، حتى صار فى حالة عجز عن أدائها .

والمراد بالغيب : علم الغيب ، وهو ما غاب عن علم البشر ، فالكلام على حذف مضاف .

والمعنى : بل أتسألهم - يا محمد - على دعوتك لهم إلى الحق والخير « أجرا » دنيويا « فهم » من أجل ذلك مثقلون بالديون المالية ، وعاجزون عن دفعها لك . . فترتب على هذا الغرم الثقيل ، أن أعرضوا عن دعوتك ، وتجنبوا الدخول فى دينك ؟

أم أن هؤلاء القوم عندهم علم الغيب ، بأن يكونوا قد اطلعوا على ما سطرناه فى اللوح المحفوظ من أمور غيبية لا يعلمها أحد سوانا . . فهم

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ٣٦ .

يكتبون ذلك ، ثم يصدرون أحكامهم ، ويجادلونك فى شأنها ؛ وكأنهم قد اطلعوا على بواطن الأمور !

الحق الذى لا حق سواه ؛ أن هؤلاء القوم ؛ أنت لم تطلب منهم أجرا على دعوتك إياهم إلى إخلاص العبادة لنا ، ولا علم عندهم بشيء من الغيوب التى لا يعلمها أحد سوانا ، وكل ما يزعمونه فى هذا الشأن فهو ضرب من الكذب والجهل . .

وما دام الأمر كما ذكرنا لك ، « فاصبر » - أيها الرسول الكريم - لحكم ربك ، ولقضائه فيك وفيهم ، وسر فى طريقك الذى كلفناك به ، وهو تبليغ رسالتنا إلى الناس . . وستكون العاقبة لك ولأتباعك .

« ولا تكن » - أيها الرسول الكريم - « كصاحب الحوت » ، وهو يونس - عليه السلام - .

أى : لا يوجد منك ما وجد منه ، من الضجر ، والغضب على قومه الذين لم يؤمنوا ، ومغادرة ديارهم . .

والظرف فى قوله : « إذ نادى وهو مكظوم » منصوب بمضاف محذوف ، وجملة « وهو مكظوم » فى محل نصب على الحال من فاعل « نادى » .

والمكظوم - بزنة مفعول - : المملوء غضبا وغيظا وكربا ، مأخوذ من كظم فلان السقاء إذا ملأه ، وكظم الغيظ إذا حبسه وهو ممتلىء به .

أى : لا يكن حالك كحال صاحب الحوت ، وقت ندائه لربه - عز وجل - وهو مملوء غيظا وكربا ، لما حدث منه مع قومه ، ولما أصابه من بلاء وهو فى بطن الحوت .

وهذا النداء قد أشار إليه - سبحانه - فى آيات منها قوله - تعالى - :

« وذا النون إذ ذهب مغاضبا ، فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين »(١) .

وقوله ـ سبحانه ـ : « لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . . » استئناف لبيان جانب من فضله ـ تعالى ـ على عبده يونس ـ عليه السلام ـ .

و « لولا » هنا حرف امتناع لوجود . و « أن » يجوز أن تكون مخففة من « أن » الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، وهو محذوف ، وجملة « تداركه نعمة من ربه » خبرها .

ويجوز أن تكون مصدرية : أى : لولا تدارك رحمة من ربه . .

والتدارك : تفاعل من الدرك ـ بفتح الدال ـ بمعنى اللحاق بالغير ، والمقصود به هنا : المبالغة فى إدراك رحمة الله ـ تعالى ـ لعبده يونس ـ عليه السلام ـ .

قال الجمل : قرأ العامة : « تداركه » ، وهو فعل ماض مذكر ، حمل على معنى النعمة ، لأن تأنيثها غير حقيقى . وقرأ ابن عباس وابن مسعود: تداركته ـ على لفظ النعمة ـ وهو خلاف المرسوم . . »(٢) .

والمراد بالنعمة : رحمته ـ سبحانه ـ بيونس ـ عليه السلام ـ ، وقبول توبته ، وإجابة دعائه . .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٩١ .

والنبذ : الطرح والترك للشيء . والعراء : الأرض الفضاء الخالية من النبات وغيره .

والمعنى : لولا أن الله ـ تدارك عبده يونس برحمته ، وبقبول توبته.. لطرح من بطن الحوت بالأرض الفضاء الخالية من النبات والعمران .. وهو مذموم ، أى : وهو ملوم ومؤاخذ منا على ما حدث منه . .

ولكن ملامته ومؤاخذته منا قد امتنعت ، لتداركه برحمتنا ، حيث قبلنا توبته ، وغسلنا حوبته ، ومنحناه الكثير من خيرنا وبرنا . .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان جانب من فضل الله ـ تعالى ـ على عبده يونس ـ عليه السلام ـ ، وبيان أن رحمته ـ تعالى ـ به ، ونعمته عليه، قد حالت بينه وبين أن يكون مذموما على ماصدر منه ، من مغاضبة لقومه ومفارقته لهم بدون إذن من ربه . .

قال الجمل ما ملخصه : قوله : « وهو مذموم »أى : ملوم ومؤاخذ بذنبه والجملة حال من مرفوع « نُبذ » ، وهى محط الامتناع المفاد بلولا ، فهى المنفية لا النبذ بالعراء . .

أى : « لنبذ بالعراء وهو مذموم ، لكنه رحمه فنبذ غير مذموم ..

فلولا ـ هنا ـ ، حرف امتناع لوجود ، وأن الممتنع القيد فى جوابها لا هو نفسه . . »(١) .

وقوله : « فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ، تأكيد وتفصيل لنعمة الله ـ تعالى ـ التى أنعم بها على عبده يونس ـ عليه السلام ـ ، وهو معطوف على مقدر .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٩١ .

أي : فتداركته النعمة فاصطفاه ربه - عز وجل - حيث رد عليه الوحى بعد انقطاعه ، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون من الناس ، وقبل توبته ، فجعله من عباده الكاملين فى الصلاح والتقوى ، وفى تبليغ الرسالة عن ربه.

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان ما كان عليه الكافرون من كراهية للنبى - ﷺ - ومن حقد عليه ، فقال - تعالى - : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ، لما سمعوا الذكر ، ويقولون إنه لمجنون. وما هو إلا ذكر للعالمين » .

وقوله : « ليزلقونك » من الزلق - بفتحتين - ، وهو تزحزح الإنسان عن مكانه ، وقد يؤدى به هذا التزحزح إلى السقوط على الأرض . يقال : زلقه يزلقه ، وأزلقه يزلقه إزلاقا ، إذا نحاه وأبعده عن مكانه واللام فيه للابتداء .

قال الشوكانى اقرأ الجمهور « ليزلقونك » بضم الياء من أزلقه ، أى : أزل رجله .. وقرأ نافع وأهل المدينة « ليزلقونك » - بفتح الياء - من زلق عن موضعه .

و « إن » هى المخففة من الثقيلة ، - واسمها ضمير الشأن محذوف لدلالة ما قبلها عليه . أى : لما سمعوا الذكر كاد وايزلقونك . . »(١) .

أى : وإن يكاد الذين كفروا ليهلكونك ، أو ليزلون قدمك عن موضعها ، أو ليصرعونك بأبصارهم من شدة نظرهم إليك شزرا ، بعيون ملؤها العداوة والبغضاء حين سمعوا الذكر ، وهو القرآن الكريم . .

« ويقولون » على سبيل البغض لك « إنه لمجنون » أى : إن الرسول - ﷺ - لمن الأشخاص الذين ذهبت عقولهم . .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٢٧٧ للشوكانى .

« وما هو » أى : القرآن الذى أنزلناه عليك « إلا ذكر للعالمين » أى : تذكير بالله - تعالى - وبدينه وبهداياته . . وشرف لهم وللعالمين جميعا .

وجاء قوله « يكاد » بصيغة المضارع ، للإشارة إلى استمرار ذلك فى المستقبل .

وجاء قوله « سمعوا » بصيغة الماضى ، لوقوعه مع « لما » ، وللإشعار بأنهم قد حصل منهم هذا القول السيء . .

وجاء قوله « ليزلقونك » بلام التأكيد ، للإشعار بتصميمهم على هذه الكراهية ، وحرصهم عليها .

وقوله - سبحانه - : « وما هو إلا ذكر للعالمين » رد على أكاذيبهم ، وإبطال لأقوالهم الزائفة ، حيث وصفوه - ﷺ - بالجنون ؛ لأنه إذا كان ما جاء به شرف وموعظة وهداية وتذكير بالخير للناس . . لم يكن معقولا أن يكون مبلغه مجنونا .

ومنهم من فسر قوله - تعالى - : « ليزلقونك بأبصارهم . . . » أى : ليحسدونك عن طريق النظر الشديد بعيونهم . .

قال الإمام ابن كثير : وقوله : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم » قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : « ليزلقونك » : لينفذونك بأبصارهم ، أى : ليعينوك بأبصارهم ، بمعنى ليحسدونك لبغضهم إياك ، لولا وقاية الله لك ، وحمايتك منهم .

وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله - عز وجل - ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة .

ثم ساق - رحمه الله - جملة من الأحاديث فى هذا المعنى ، منها ما رواه

أبو داود فى سننه ، عن أنس أن رسول الله - ﷺ - قال : لا رقية إلا من عين أو حُمَة - أى : سم - ، أودم لا يرقأ ».

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن ابن عباس ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « العين حق ، ولو كان شىء سابق القدر سبقت العين . . » .

وعن ابن عباس - أيضا - قال : كان رسول الله - ﷺ - يعوذ الحسن والحسين فيقول : أعيذ كما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة - والهامة كل ذات سم يقتل - ، ومن كل عين لامة » . .

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « العين حق حتى لتورد الرجل القبر ، والجمل القدر ، وإن أكثر هلاك أمتى فى العين »(١) .

وبعد : فهذا تفسير محرر لسورة « نون » ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر . كتبه الراجى عفو ربه
صباح السبت ١٢ من ذى القعدة سنة ١٤٠٦ هـ محمد سيد طنطاوى
الموافق ١٩ / ٧ / ١٩٨٦ م

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٢٦ وما بعدها .

تفسير سورة

« الحاقة »

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - سورة «الحاقة» من السور المكية الخالصة، وكان نزولها بعد سورة الملك، وقبل سورة «المعارج»، وعدد آياتها إحدى وخمسون آية، وعند بعضهم اثنتان وخمسون آية.

قال الآلوسى: ويدل على مكيتها ما أخرجه الإمام أحمد، عن عمر ابن الخطاب قال: خرجت أتعرض لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد، فوقفت خلفه، فاستفتح بسورة «الحاقة»، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت - أى: فى نفسى -: هذا والله شاعر، فقرأ «وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون» فقلت: كاهن، فقرأ «ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون. تنزيل من رب العالمين...» إلى آخر السورة. فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع (١).

وإذا صح هذا الحديث يكون نزولها فى السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة، لأن إسلام عمر - رضى الله عنه - كان - تقريبا - فى ذلك الوقت...

٢ - والسورة الكريمة زاخرة بالحديث عن أهوال يوم القيامة، وعن مصارع المكذبين، وعن أحوال أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وعن إقامة الأدلة المتعددة على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى -، وعلى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه عن ربه - عز وجل -.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ٣٨

وتمتاز هذه السورة بقصر آياتها، وبرهبة وقعها على النفوس، إذ كل قارىء لها بتدبر وتفكر، يحس عند قراءتها بالهول القاصم، وبالجد الصارم، وببيان أن هـذا الدين حق لا يشوبه باطل، وأن ما أخبر به الرسول — صلى الله عليه وسلم — صدق لا يحوم حوله كذب..

نرى ذلك كله فى اسمها، وفى حـديثها عن مصارع الغابرين، وعن مشاهد يوم القيامة التى يشيب لها الولدان..

وقد افتتح — سبحانه — السورة الكريمة بقوله:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ
ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ
فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ
أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾
فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ
بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾
إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً
وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾

وكلمة «الحاقة» مأخوذة من حق الشىء إذا ثبت وجوده ثبوتا لا يحتمل الشك... وهى من أسماء الساعة، وسميت الساعة بهذا الإسم لأن الأمور

تثبت فيها وبحق ، خلافا لما كان يزعمه الـكافرون من أنه لابعث ولا حساب ولا جزاء . .

والهاء فيها يصح أن تكون هاء التأنيث ، فيكون لفظ « الحاقة » صفة لموصوف محذوف ، أى : الساعة الحاقة .

ويصح أن تـكون هاء مصدر ، بزنة فاعلة ، مثل الـكاذبة للـكذب ، والباقية للبقاء ، والطاغية للطغيان . . .

وأصلها تاء المرة ، ولـكنها لما أريد بها المصدر ، قطع النظر عن المرة ، وصار لفظ « الحاقة » بمعنى الحق الثابت الموقوع .

ولفظ « الحاقة » مبتدأ ، و « ما » مبتدأ ثان ، ولفظ الحاقة الثانى ، خبر المبتدأ الثانى ؛ والجلة من المبتدأ الثانى وخبره ، خبر المبتدأ الأول .

قال القرطبي ما ملخصه : قوله — تعالى — : « الحاقة . ما الحاقة » يريد القيامة . سميت بذلك لأن الأمور تحق فيها . .

وقيل سميت بذلك : لأنها تكون من غير شك . أو لأنها أحقت لأقوام الجنة ، ولأقوام النار . أو لأن فيها يصير كل إنسان حقيقا بجزاء عمله . أو لأنها تحق كل محاق فى دين الله بالباطل . أى . تبطل حجة كل مخاصم فى دين الله بالباطل — يقال : حاققته فحققته فأنا أحقه ، إذا غالبته فغلبته . . والتحاق : التخاصم . والاحتقاق : الاختصام . . . »(1) .

و « ما » فى قوله « وما أدراك ما الحاقة » اسم استفهام المقصود به هنا التهويل والتعظيم ، وهى مبتدأ ، وخبرها جملة « أدراك ما الحاقة » وما الثانية وخبرها فى محل نصب سادة مسد المفعول الثانى لقوله « أدراك » لأن أدرى

(1) راجع تفسير القرطبي ج ١٨ ص ٢٥٧

يتعدى لمفعولين ، الأول بنفسه والثانى بالباء ، كما فى قوله — تعالى — : « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به . . . » (١) .

وهذا الأسلوب الذى جاءت به هذه الآيات الكريمة ، فيه ما فيه من التهويل من شأن الساعة ، ومن التعظيم لأمرها ، فكأنه — تعالى — يقول : يوم القيامة الذى يخوض فى شأنه الكافرون ، والذى تحق فيه الأمور وتثبت . . أتدرى أى شىء عظيم هو ؟ وكيف تدرى أيها المخاطب ونحن لم نحط أحدا بكنه هذا اليوم ، ولا بزمان وقوعه ؟

وإنك — أيها العاقل — مهما تصورت هذا اليوم . فإن أهواله فوق ما تتصور ، وكيفما قدرت لشدائده ، فإن هذه الشدائد فوق ما قدرت . .

ومن مظاهر هذا التهويل لشأن يوم القيامة ، افتتاح السورة بلفظ « الحاقة » الذى قصد به ترويع المشركين ، لأن هذا اللفظ يدل على أن يوم القيامة حق . .

كما أن تكرار لفظ « ما » ثلاث مرات ، مستعمل — أيضا — فى التهويل والتعظيم ، كما أن إعادة المبتدأ فى الجملة الواقعة خبرا عنه بلفظه ، بأن قال « ما الحاقة » ولم يقل ما هى ، يدل أيضا على التهويل ، لأن الإظهار فى مقام الإضمار يقصد به ذلك ، ونظيره قوله — تعالى — : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . . . وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . . . » .

والخطاب فى الآيات الكريمة ، لكل من يصلح له ، لأن المقصود تنبيه الناس إلى أن الساعة حق ، وأن الحساب والجزاء فيها حق ، لكى يستعدوا لها بالإيمان والعمل الصالح .

قال بعض العلماء ما ملخصه : واستعمال « ما أدراك » غير استعمال

(١) سورة يونس . الآية ١٦

« ما يدريك» . . فقد روى عن ابن عباس أنه قال : كل شىء من القرآن من قوله « ما أدراك » فقد أدراه ، وكل شىء من قوله : « وما يدريك » فقد طوى عنه . .

فإن صح هذا عنه فمراده أن مفعول « ما أدراك » محقق الوقوع ، لأن الاستفهام فيه للتهويل وأن مفعول «ما يدريك» غير محقق الوقوع لأن الاستفهام فيه للإنكار ، وهو فى معنى نفى الدراية .

قال — تعالى — : « وما أدراك ماهية . نار حامية » وقال - سبحانه - « وما يدريك لعل الساعة قريب » (١) .

ثم فصل — سبحانه — أحوال بعض الذين كذبوا بالساعة ، وبين ماترتب على تكذيبهم من عذاب أليم فقال : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ... » .

وثمود : هم قوم صالح — عليه السلام — ، سموا بذلك باسم جدهم ثمود . وقيل سموا بذلك لقلة المياه التى كانت فى مساكنهم ، لأن الثمد هو الماء القليل . .

وكانت مساكنهم بين الحجاز والشام ، ومازالت أماكنهم معروفة باسم قرى صالح ، بين مملكة شرق الأردن ، والمملكة العربية السعودية . . .

وقد ذكرت قصتهم فى سور : الأعراف ، وهود ، والشعراء ، والنمل والقمر . . . الخ .

وأما عاد فهم قبيلة عاد ، وسموا بذلك نسبة إلى جدهم الذى كان يسمى بهذا الاسم ، وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن — والأحقاف جمع حقف وهو الرمل الكثير المائل - . . وينتهى نسب عاد وثمود إلى نوح - عليه السلام -

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ٢٩ ص ١١٤ للشيخ ابن عاشور .

والقارعة : اسم فاعل من قرعه ، إذا ضربه ضربا شديدا ، ومنه قوارع الدهر ، أي : شدائده وأهواله . ويقال قرع فلان البعير ، إذا ضربه . ومنه قولهم : العبد يقرع بالعصا .

ولفظ القارعة ، من أسماء يوم القيامة ، وسمى يوم القيامة بذلك ، لأنه يقرع القلوب ويزجرها لشدة أهواله . وهو صفة لموصوف محذوف . أى: بالساعة القارعة . .

والطاغية من الطغيان وهــــو تجاوز الحد . والمراد بها هنا الصاعقة أو الصيحة التى أهلكت قوم ثمود ، كما قال — تعالى — : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . . »(١).

ولفظ الطاغية — أيضا — : صفة لموصوف محذوف .

والريح الصرصر العاتية : هى الريح الشديدة التى يكون لها صوت كالصرير ، كما قال — تعالى — : « فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات . . »(٢) .

والعاتية من العتو بمعنى الشدة والقوة وتجاوز الحد .

أى : كذبت قبيلة ثمود ، وقبيلة عاد ، بالقيامة التى تقرع القلوب ، وتزلزل النفوس ، فأما قبيلة « ثمود » فأهلكوا ، بالصيحة أو بالصاعقة ، أو بالرجفة ، التى تجاوزت الحد فى الشدة والهول والطغيان . .

وأما قبيلة عاد ، فأهلكت بالريح الشديدة ، التى لها صوت عظيم ، والتى تجاوزت كل حد فى قوتها .

---

(١) سورة هود الآية ٦٧ .

(٢) سورة فصلت . الآية ١٦

وابتدأ — سبحانه — بذكر ما أصاب هاتين القبيلتين ، لأنهما أكثر القبائل المكذبة معرفة لمشركى قريش ، لأنهما من القبائل العربية ، ومساكنهما كانتا فى شمال وجنوب الجزيرة العربية .

ثم بين — سبحانه — كيفية نزول العذاب بهم فقال : « سخرها عليهم سبع ليال ، وثمانية أيام حسوما . . . » .

والتسخير : التذليل عن طريق القهر والأمر الذى لا يمكن مخالفته . .

وحسوما : من الحسم بمعنى التتابع ، من حسمت الدابة ، إذا تابعت كيها على الداء مرة بعد مرة حتى ينحسم . . أو من الحسم بمعنى القطع ، ومنه سمى السيف حساما لأنه يقطع الرءوس ، وينهى الحياة . .

قال صاحب الكشاف : والحسوم : لا يخلو من أن يكون جمع حاسم ، كشهود وقعود . أو مصدرا كالشكور والكفور . فإن كان جمعا فمعنى قوله « حسوما » : نحسات حسمت كل خير ، واستأصلت كل بركة . أو : متتابعة هبوب الرياح ، ما خفتت ساعة حتى أتت عليهم ، تمثيلا لتتابعها بتتابع فعل الحاسم فى إعادة الكى على الداء ، كرة بعد كرة حتى ينحسم . .

وإن كان مصدراً ، فإما أن ينتصب بفعله مضمراً ، أى : تحسم حسوما ، بمعنى تستأصل استئصالا . أو يكون صفة كقولك : ذات حسوم . . . (١) .

أى : أرسل الله — تعالى — على هؤلاء المجرمين الريح التى لا يمكنها التخلف عن أمره ، فبقيت تستأصل شأفتهم ، وتخمد أنفاسهم . . . « سبع ليال وثمانية أيام حسوما » أى : متتابعة ومتوالية حتى قطعت دابرهم ، ودمرتهم تدميرا . .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٩٨

وقوله : « حسوما » يصح أن يكون نعتا لسبع ليال وثمانية أيام ، ويصح أن يكون منصوبا على المصدرية بفعل من لفظه ، أى : تحسمهم حسوما . .

ثم صور — سبحانه — هيئاتهم بعد أن هلكوا فقال : « فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » .

والخطاب فى قوله «فترى . . » لغير معين . والفاء للتفريع على ما تقدم والضمير فى قوله « فيها » يعود إلى الأيام والليالى . أو إلى مساكنهم . .

وقوله : « صرعى » أى : هلكى ، جمع صريع كقتيل وقتلى ، وجريح وجرحى . .

والأعجاز جمع عجز ، والمراد بها هنا جذوع النخل التى قطعت رءوسها . .

وخاوية ، أى : ساقطة ، مأخوذ من خوى النجم ، إذا سقط للغروب أو من خوى المكان إذا خلا من أهله وسكانه ، وصار قاعا صفصفا . بعد أن كان ممتلئا بعماره . .

أى : أرسل الله — تعالى — على هؤلاء الظالمين الريح المتتابعة لمدة سبع ليال وثمانية أيام ، فدمرتهم تدميرا ، وصار الرائى ينظر إليهم ، فيراهم وقد ألقوا على الأرض هلكى ، كأنهم فى ضخامة أجسادهم . . . جذوع نخل ساقطة على الأرض ، وقد انفصلت رءوسها عنها . .

وعبر — سبحانه — بقوله : « فترى القوم . . . » لاستحضار صورتهم فى الأذهان ، حتى يزداد المخاطب اعتبارا بأحوالهم ، وبما حل بهم . .

والتشبيه بقوله : « كأنهم أعجاز نخل خاوية » المقصود منه تشنيع

صورتهم، والتنفير من مصيرهم السيء، لأن من كان هذا مصيره؛ جدير بأن يتحامى؛ وأن تجتنب أفعاله التى أدت به إلى هذه العاقبة المهينة..

والاستفهام فى قوله: «فهل ترى لهم من باقية» للنفى، والخطاب – أيضا – لكل من يصلح له، وقوله «باقية» صفة لموصوف محذوف.. أى. فهل ترى لهم من فرقة أو نفس باقية.

ثم بين – سبحانه – النهاية السيئة لأقوام آخرين فقال: «وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة. فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية».

وفرعون: هو الذى قال لقومه – من بين ما قال – أنا ربكم الأعلى.. وقد أرسل الله – تعالى – إليه نبيه موسى – عليه السلام – ولكنه أعرض عن دعوته.. وكانت نهايته الغرق.

والمراد بمن قبله: الأقوام الذين سبقوه فى الكفر، كقوم نوح وإبراهيم – عليهما السلام –.

والمراد بالمؤتفكات: قرى قوم لوط – عليه السلام – التى اقتلعها جبريل – عليه السلام – ثم قلبها بأن جعل عاليها سافلها، مأخوذ من ائتفك الشيء إذا انقلب رأساً على عقب..

قال – تعالى – «فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود...» (١)

والمراد بالمؤتفكات هنا: سكانها وهم قوم لوط الذين أتوا بفاحشة ما سبقهم إليها أحد من العالمين.

(١) سورة هود. الآية ٨٢

وخصوا بالذكر، لشهرة جريمتهم وبشاعتها وشناعتها.. ولمرور أهل مكة على قراهم وهم فى طريقهم إلى الشام للتجارة، كما قال — تعالى — : «وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل. أفلا تعقلون..» (١)

أى: وبعد أن أهلكنا أقوام عاد وثمود.. جاء فرعون، وجاء أقوام آخرون قبله، وجاء قوم لوط، وكانوا جميعاً كافرين برسلنا، ومعرضين عن دعوة الحق، ومرتكبين للفعلات الخاطئة، والفواحش المنكرة.

ومن مظاهر ذلك أنهم «عصوا رسول ربهم» أى: كل آية من أمم الكفر تلك، عصت رسولها حين أمرها بالمعروف، ونهاها عن المنكر

فكانت نتيجة إصرارهم على ارتكاب المعاصى والفواحش.. أن أخذهم الله — تعالى — «أخذة رابية» أى: أخذة زائدة فى الشدة — لزيادة قبائحهم — على الأخذات التى أخذ بها غيرهم.

فقوله: «رابية» مأخوذ من ربا الشىء إذا زاد وتضاعف.

وقال — سبحانه — «فعصوا رسول ربهم» ولم يقل رسولهم، للإشعار بأنهم لم يكتفوا بمعصية الرسول الذى هو بشر مثلهم، وإنما تجاوزوا ذلك إلى الاستخفاف بما جاءهم به من عند ربهم وخالقهم وموجدهم.

والتعبير بالأخذ، للإشعار بسرعة الإهلاك وشدته، فإذا وصف هذا الأخذ بالزيادة عن المألوف، كان المقصود به الزيادة فى الاعتبار والاتعاظ لأن هؤلاء جميعاً قد أهلكهم — سبحانه — هلاك الاستئصال، الذى لم يبق منهم باقية.

ثم حكى — سبحانه — ما جرى لقوم نوح — عليه السلام — وبين جانباً

(١) سورة الصافات الآية ١٣٧ — ١٣٨

من منته ونعمه على المخاطبين ، فقال : « إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » .

وقوله : « طغى » من الطغيان وهو مجاوزة الحد فى كل شيء والجارية صفة لموصوف محذوف .

أى : اذكروا - أيها الناس - لتعتبروا وتتعظوا ، ما جرى للكافرين من قوم نوح - عليه السلام - فإنهم حين أصروا على كفرهم ، أغرقناهم بالطوفان ، وحين علا الماء واشتد فى ارتفاعه اشتداداً خارقاً للعبادة . . حملنا آباءكم الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - فى السفينة الجارية ، التى صنعها نوح بأمرنا . . وحفظناهم - بفضلنا ورحمتنا - فى تلك السفينة إلى أن انتهى الطوفان .

وقد فعلنا ذلك « لنجعلها لكم تذكرة » أى : لنجعل لكم هذه النعمة وهى إنجاؤكم وإنجاء آبائكم من الغرق - عبرة وعظة وتذكيرا بنعم الله - تعالى - عليكم .

وهذه النعمة والمنة « تعيها » وتحفظها « أذن واعية » أى : أذن من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه ، وتعى ما يجب وعيه .

فقوله : « واعية » من الوعى بمعنى الحفظ للشيء فى القلب . يقال : وعى فلان الشيء يعيه ، إذا حفظه أكمل حفظ .

وقال - سبحانه - وحملناكم فى الجارية، مع أن الحمل كان للآباء الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - ، لأن فى نجاة الآباء ، نجاة الأبناء ، ولأنه لو هلك الآباء لما وجد الأبناء .

قال صاحب الكشاف : قوله « حملناكم » أى : حملنا آباءكم فى الجارية » أى : فى السفينة الجارية ، لأنهم إذا كانوا من نسل المحمولين

الناجين ، كان حمل آبائهم منة عليهم ، وكأنهم هم المحمولون ، لأن نجاتهم سبب ولادتهم

« لنجعلها » الضمير للفعلة : وهى نجـــاة المؤمنين وإغراق الكفرة « تذكرة » عبرة وعظة .

« وتعيها أذن واعية » من شأنها أن تعى وتحفظ ، ولا تضيعه بترك العمل . .

فإن قلت : لم قيل : أذن واعية على التوحيد والتنكير ؛ قلت : للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعى منهم ، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله ، فهى السواد الأعظم عند الله ، وأن ما سواها لا يبالى بهم ، وإن ملئوا الخافقين . . »(١) .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت الناس بأهوال يوم القيامة بأبلغ أسلوب ، وبينت ما حل بالمكذبين بطريقة تبعث الخوف والوجل فى القلوب .

ثم أخذت السورة فى تفصيل أهوال يوم القيامة ، وفى بيان ما تكون عليه الأرض والسماء فى هذا اليوم ، وفى بيان ما أعده — سبحانه — لمن أوتى كتابه بيمينه فى هذا اليوم ، فقال — تعالى — :

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٠٠

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾
وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ
ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ
أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ
تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ
فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾
فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾
كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

والفاء فى قوله — تعالى — : « فإذا نفخ فى الصور . . . » للتفريع ، أى : لتفريع ما بعدها على ما قبلها ، وهو الحديث عن أهوال يوم القيامة.

والصور : هو البوق الذى ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله - تعالى -

قال الآلوسى : قوله : « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة » شروع فى بيان نفس الحاقة ، وكيفية وقوعها ، إثر بيان عظم شأنها ، بإهلاك مكذبيها.

والمراد بالنفخة الواحدة : النفخة الأولى ، التى عندها يكون خراب العالم .. وقيل هى النفخة الثانية ، والأول أولى ، لأنه هو المناسب لما بعده . . . »(١) .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ٤٣ .

وجواب الشرط قوله : « فيومئذ وقعت الواقعة » ، أو قوله : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » .

أى : فإذا نفخ إسرافيل فى الصور بأمرنا ، وقعت الواقعة التى لا مفر من وقوعها ، لكى يحاسب الناس على أعمالهم .

ووصفت النفخة بأنها واحدة ، للتأكيد على أنها نفخة واحدة وليست أكثر ، وللتنبيه على أن هذه النفخة ـ مع أنها واحدة ـ تتأثر بها السموات والأرض والجبال ، وهذا دليل على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » بيان لما ترتب على تلك النفخة الهائلة من آثار .

والمراد بحمل الأرض والجبال : إزالتهما من أماكنهما ، وتفريق أجزائهما . .

والدك : هو الدق الشديد الذى يترتب عليه التكسير والتفتيت للشىء .

أى : عندما ينفخ إسرافيل فى الصور بأمرنا نفخة واحدة ، وعندما تزال الأرض والجبال عن أماكنهما ، وتتفتت أجزاؤهما تفتتا شديدا . .

فيومئذ « وقعت الواقعة » أى : ففى هذا الوقت تقع الواقعة التى لا مرد لوقوعها ، والواقعة من أسماء يوم القيامه . كالحاقة والقارعه .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما تكون عليه السماء فى هذا اليوم فقال : « وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » .

والانشقاق : الانفطار والتصدع . . ومعنى : « واهيه » ضعيفة متراخية . .

يقال : وَهَى البناء يهي وهياً فهو واه ، إذا كان ضعيفاً جداً ، ومتوقعاً سقوطه . .

أى : وفى هذا الوقت — أيضاً — الذى يتم فيه النفخ فى الصور بأمرنا تتصدع السماء وتتفطر ، وتصير فى أشد درجات الضعف والاسترخاء ، والتفرق . . .

وقيد — سبحانه — هذا الضعف بهذا الوقت ، للإشارة إلى أنه ضعف طارىء ، قد حدث بسبب النفخ فى الصور ، أما قبل ذلك فكانت فى نهاية الصلابة والقوة .

وهذا كله للتهويل من شأن هذه النفخة ، ومن شأن المقدمات التى تتقدم قيام الساعة ، حتى يستعد الناس لها بالإيمان والعمل الصالح .

والمراد بالملك فى قوله - تعالى - : « والملك على أرجائها . . » جنس الملك ، فيشمل عدد مبهم من الملائكة . . . أو جميع الملائكة إذا أردنا بأل معنى الاستغراق .

والأرجاء : الأطراف والجوانب ، جمع رجا بالقصر ، وألفه منقلبة عن واو ، مثل : قفا وقفوان .

أى : والملائكة فى ذلك الوقت يكونون على أرجاء السماء وجوانبها ، ينفذون أمر الله — تعالى — « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » أى : والملائكة واقفون على أطراف السماء ، ونواحيها . . ويحمل عرش ربك فوق هؤلاء الملائكة فى هذا اليوم ، ثمانية منهم ، أو ثمانية من صفوفهم التى لا يعلم عددها إلا الله — تعالى — .

وعرش الله - تعالى - مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم ، فنحن نؤمن بأنه

لله – عز وجل – عرشا ، إلا أننا نفوض معرفه هيئته وكنهه . . . .
إلى الله – تعالى –

قال الآلوسى ما ملخصه . قوله : « والملك على أرجائها . . » أى : والجنس المتعارف بالملك ، وهم الملائكة . . . على جوانب السماء التى لم تنشقق . .

«ويحمل عرش ربك فوقهم» أى: فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء المدلول عليهم بالملك ، وقيل : فوق العالم كلهم .

« يومئذ ثمانية » أى : من الملائكه ، أو ثمانية صفوف لا يعلم عدتهم إلا الله – تعالى – . . » (١)

هذا ، وقد وردت فى صفة هؤلاء الملائكه الثمانية ، أحاديث ضعيفه لذا ضربنا صفحاً عن ذكرها .

ثم بين – سبحانه – ما يجرى على الناس فى هذا اليوم فقال : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . . »

والعرض أصله : إظهار الشىء لمن يريد التأمل فيه ، والحصول عليه ، ومنه عرض البائع سلعته على المشترى .

وهو هنا كناية عن لازمه وهو المحاسبه .

أى : فى هذا اليوم تعرضون للحساب والجزاء « لا تخفى منكم خافيه » أى تعرضون للحساب ، دون أن يخفى منكم أحد على الله – تعالى – ، أو دون أن تخفى منكم نفس واحدة على خالقها – عز وجل – .

قال الجمل . قوله : « يومئذ تعرضون » أى : تسألون وتحاسبون ،

---

(١) تفسير الالوسى ج ٢٩ ص ٤٥

وعبر عنه بذلك تشبيهاً له بعرض السلطان العسكر والجند، لينظر فى أمرهم. فيختار منهم المصلح للتقريب والإكرام، والمفسد للإبعاد والتعذيب» (١).

والفاء فى قوله - تعالى - : «فأما من أوتى كتابه بيمينه...» لتفصيل ما يترتب على العرض والحساب من جزاء.

والمراد بكتابه: ما سجلته الملائكة عليه من أعمال فى الدنيا، والمراد بيمينه: يده اليمنى، لأن من يعطى كتابه بيده اليمنى، يكون هذا الإعطاء دليلا على فوزه ونجاته من العذاب.

والعرب يذكرون التناول باليمين، على أنه كناية عن الاهتمام بالشىء المأخوذ، وعن الاعتزاز به، ومنه قول الشاعر.

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

وجملة «فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه» جواب «أما»، ولفظ «هاؤم». هنا: اسم فعل أمر بمعنى: خذوا، والهاء فى قوله «كتابيه وحسابيه» وما ماثلهما للسكت، والأصل كتابى وحسابى، فأدخلت عليهما هاء السكت لكى تظهر فتحة الياء.

والمعنى: فى هذا اليوم يعرض كل إنسان للحساب والجزاء، ويؤتى كل فرد كتاب أعماله، فأما من أعطى كتاب أعماله بيمينه، على سبيل التبشير والتكريم، «فيقول» على سبيل البهجة والسرور لكل من يهمه أن يقول له: «هاؤم اقرؤوا كتابيه» أى: هذا هو كتابى فخذوه واقرؤه فإنكم ستجدونه مشتملا على الإكرام لى، وتبشيرى بالفوز الذى هو نهاية آمالى، ومحط رجائى.

«وإنى ظننت» أى: تيقنت وعلمت «أنى ملاق حسابيه» أى: إنى

(١) حاشيه الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٥٩٧

علمت أن يوم القيامة حق ، وتيقنت أن الحساب والجزاء صدق ، فأعددت للأمر عدته عن طريق الإيمان الكامل ، والعمل الصالح .

قال الضحاك : كل ظن فى القرآن من المؤمن فهو يقين ، ومن الكافر فهو شك .

وهذه الجملة الكريمة بمنزلة التعليل للبهجه والمسرة التى دل عليها قوله — تعالى « هاؤم اقرأوا كتابيه » .

« فهو » أى : هـذا المؤمن الفائز برضا الله — تعالى — فى عيشة راضية » أى : فى حياة ذات رضا ، أى : ثابت دائم لها الرضا . فهى صيغة نسب ، كلابن وتامر لصاحب اللبن والتمر .

أو فهو فى عيشه مرضيه يرضى بها صاحبها ولا يبغضها ، فهى فاعل بمعنى مفعول ، على حد قولهم : ماء دافق بمعنى مدفوق .

وفى هذا التعبير مافيه من الدلالة على أن هذه الحياة التى يحياها المؤمن فى الجنة ، فى أسمى درجات الحبور والسرور ، حتى لكأنه لو كان للمعيشه عقل ، لرضيت لنفسها بحالتها ، ولفرحت بها فرحاً عظيما .

« فى جنة عالية » أى : هذا الذى أوتى كتابه بيمينه ، يكون — أيضاً — فى جنة مرتفعة على غيرها ، وهذا لون من مزاياها .

« قطوفها دانية » أى : ثمارها قريبه التناول لهذا المؤمن ، يقطفها كلما أرادها بدون تعب . فالقطوف جمع قطف بمعنى مقطوف ، وهو مايجتنيه الجانى من الثمار ، و « دانية » اسم فاعل ، من الدنو بمعنى القرب .

وجملة « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخاليه » مقول لقول محذوف .

أى : يقال لهؤلاء المؤمنين الصادقين ، الذين أعطوا كتابهم بأيمانهم

كلوا أكلا طيباً ، واشربوا شراباً هنيئاً مريئاً بسبب ماقدمتموه فى دنياكم من إيمان بالله — تعالى — ، ومن عمل صالح خالص لوجهه — تعالى — .

قال الإمام ابن كثير . أى : يقال لهم ذلك ، تفضلا عليهم ، وامتناناً وإنعاماً وإحساناً ، وإلا فقد ثبت فى الصحيح ، عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « اعملوا وسددوا وقاربوا ، واعلموا أن أحداً منكم لن يدخله عمله الجنه . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته وفضله » (١) .

وكعادة القرآن الكريم ، فى بيان سوء عاقبة الأشرار ، بعد بيان حسن عاقبة الأخيار ، أو العكس ، جاء الحديث عمن أوتى كتابه بشماله ، بعد الحديث عمن أوتى كتابه بيمينه ، فقال — تعالى — :

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧)

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٤٢

أى : «وأما من أوتى كتابه بشماله» أى : من الجهة التى يعلم أن الإتيان منها يؤدى إلى هلاكه وعذابه . .

« فيقول » على سبيل التحسر والتفجع «يا ليتنى لم أوت كتابيه» أى : فيقول يا ليتنى لم أعط هذا الكتاب ، لأن إعطائى إياه بشمالى دليل على عذابى وعقابى .

« ولم أدر ما حسابيه » أى : ويا ليتنى لم أعرف شيئاً عن حسابى ، فإن هذه المعرفة التى لم أحسن الاستعداد لها ، أوصلتنى إلى العذاب المهين .

« يا ليتها كانت القاضية » أى : يا ليت الموتة التى متها فى الدنيا ، كانت هى الموتة النهائية التى لا حياة لى بعدها .

فالضمير للموتة التى ماتها فى الدنيا ، وإن كان لم يجر لها ذكر ، إلا أنها عرفت من المقام .

والمراد بالقاضية : القاطعه لأمره ، التى لا بعث بعدها ولا حساب . . لأن ما وجده بعدها أشد مما وجده حلولها به .

قال قتادة : تمنى الموت ولم يكن عنده فى الدنيا شىء أكره منه ، وشر من الموت ما يطلب منه الموت . ثم أخذ هذا الذى أوتى كتابه بشماله يتحسر على تفريطه وغروره ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : « ما أغنى عنى مالية » أى : هذه الأموال التى كنت أملكها فى الدنيا ، وأتفاخر بها ؛ لم تغن عنى شيئاً من عذاب الله ، ولم تنفعنى ولو منفعة قليلة .

فما نافية ، والمفعول محذوف للتعميم ، ويجوز أن تكون استفهامية والمقصود بها التوبيخ .

أى : أى شىء أغنى عنى مالى ؟ إنه لم يغن عنى شيئاً .

« هلك عنى سلطانية » أى : ذهب عنى ، وغاب عنى فى هذا اليوم

ما كنت أتمتع به فى الدنيا من جاه وسلطان ، ولم يحضرنى شىء منه ، كما أن حججى وأقوالى التى كنت أخاصم بها المؤمنين ، قد ذهبت أدراج الرياح .

وعدى الفعل « هلك » بعن ، لتضمنه معنى غاب وذهب . . .

وخلال هذا التفجع والتحسر الطويل . . . يأتى أمر الله — تعالى — الذى لا يرد ، فيقول — سبحانه — للزبانية المكلفين بإنزال العذاب بالكافرين : « خذوه فغلوه » أى : خذوا هذا الكافر ، فاجمعوا يديه إلى عنقه . .

فقوله : « خذوه » معمول لقول محذوف ، وهو جواب عن سؤال نشأ مما سبق من الكلام ، فكأنه قيل : وماذا يفعل به بعد هذا التحسر والتفجع . . . فكان الجواب : أمر الله — تعالى — ملائكته بقوله : خذوه فغلوه . . . » .

وقوله : « فغلوه » من الغل — بضم الغين — وهو ربط اليدين إلى العنق على سبيل الإذلال . . .

« ثم الجحيم صلوه » أى : ثم بعد هذا التقييد والإذلال . . اقذفوا به إلى الجحيم ، وهى النار العظيمة ، الشديدة التأجج والتوهج . .

ومعنى « صلوه » : بالغوا فى تصليته النار ، بغمسه فيها مرة بعد أخرى . يقال : صلى فلان النار ، إذا ذاق حرها . وصلى فلان فلانا النار ، إذا أدخله فيها ، وقلبه على جمرها كما تقلب الشاة فى النار . .

ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ، والسلسلة : اسم لمجموعة من حلق الحديد ، يربط بها الشخص لكى لا يهرب ، أو لكى يزاد فى إذلاله وهو المراد هنا .

وقوله : « ذرعها » أى: طولها . والمراد بالسبعين : حقيقة هذا المقدار فى الطول . أو يكون هذا العدد كناية عن عظم طولها ، كما فى قوله -تعالى-: « استغفر لهم أولا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ... »(١) .

وقوله : « فاسلكوه » من السلك بمعنى الإدخال فى الشىء ، كما فى قوله — تعالى — : ما سلككم فى سقر » أى : ما أدخلكم فيها . . .

أى : خذوا هذا الكافر ، فقيدوه ، ثم أعدوه للنار المحرقة ، ثم اجعلوه مغلولا فى سلسلة طولها سبعون ذراعا ، بحيث تكون محيطة به إحاطة تامة . أى : القوا به فى الجحيم وهو مكبل فى أغلاله .

و « ثم » فى كل آية جىء بها للتراخى الرتبى ، لأن كل عقوبة أشد من سابقتها ، إذ إدخاله فى السلسلة الطويلة ، أعظم من مطلق إلقائه فىالجحيم، كما أن إلقاءه فى الجحيم ، أشد من مطلق أخذه وتقييده . .

وفى هذه الآيات ما فيها من تصوير يبعث فى القلوب الخوف الشديد ، ويحملها على حسن الاستعداد لهذا اليوم ، الذى لا تغنى فيه نفس عن نفس شيئا .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات بعض الأحاديث والآثار ، منها : ماروواه ابن أبى حاتم ، عن المنهال بن عمرو قال : « إذا قال الله — عز وجل — « خذوه ». . » ابتدره سبعون ألف ملك ، وإن الملك منهم ليقول هكذا — أى : ليفعل هكذا — ، فيلقى سبعين ألفا فى النار »(٢) .

---

(١) سورة التوبة الآية ٨٠ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ٢٤٣ .

ثم بين — سبحانه — الأسباب التى أدت بهذا الشقى إلى هذا المصير الأليم فقال : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . . . . » .

أى : إن هذا الشقى إنما حل به ما حل من عذاب . . . لأنه كان فى الدنيا ، مصرا على الكفر ، وعلى عدم الإيمان بالله الواحد القهار . .

وكان كذلك « ولا يحض » أى : لا يحث نفسه ولا غيره « على طعام المسكين » أى : على بذل طعامه أو طعام غيره للمسكين ، الذى حلت به الفاقة والمسكنة .

ولعل وجه التخصيص لهذين الأمرين بالذكر ، أن أقبح شىء يتعلق بالعقائد ، هو الكفر بالله — تعالى — ، وأن أقبح شىء فى الطباع ، هو البخل وقسوة القلب .

ثم ختم — سبحانه — هذه الآيات ، بزيادة البيان للمصير الأليم لهذا الشقى فقال : « فليس له اليوم » أى : يوم القيامة « هاهنا حميم » أى : ليس له فى هـذا اليوم من صديق ينفعه ، أو من قريب يشفق عليه ، أو يحميه ، أو يدفع عنه .

« ولا طعام إلا من غسلين » أى : وليس له فى جهنم من طعام سوى الغسلين ، وهو صديد أهل النار . . أو شجر يأكله أهل النار ، فيغسل بطونهم ، أى : يخرج أحشاءهم منها . أو ليس لهم إلا شر الطعام وأخبثه . .

« لا يأكله » أى : الغسلين « إلا الخاطئون » أى : إلا الكافرون الذين تعمدوا ارتكاب الذنوب ، وأصروا عليها . من خطىء الرجل - إذا تعمد ارتكاب الذنب .

فالخاطىء هو من يرتكب الذنب عن تعمد وإصرار . والمخطىء : هو من يرتكب الذنب عن غير إصرار وتعمد .

وهكذا ، نجد الآيات الكريمة قد ساقت أشد ألوان الوعيد والعذاب.. للكافرين ، بعد أن ساقت قبل ذلك ، أعظم أنواع النعيم المقيم ..للمؤمنين.

وبعد هذا العرض ــ الذى بلغ الذروة فى قوة التأثير ــ لأهوال يوم القيامة ، ولبيان حسن عاقبة المتقين ، وسوء عاقبة المكذبين . . بعد كل ذلك ، أخذت السورة فى أواخرها ، فى تقرير حقيقة هذا الدين ، وفى تأكيد صدق الرسول ــ ﷺ ــ فيما يبلغه عن ربه ، وفى بيان أن هذا القرآن من عنده ــ تعالى ــ وحده . . فقال ــ سبحانه ــ :

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا
لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ
قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ
مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾
لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم
مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا
لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾
وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

والفاء فى قوله : « فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون » للتفريع على مافهم مما تقدم ، من إنكار المشركين ليوم القيامة ، ولكون القرآن من عند الله . .

و « لا » فى مثل هذا التركيب يرى بعضهم أنها مزيدة ، فيكون المعنى : أقسم بما تبصرون من مخلوقاتنا كالسماء والأرض والجبال والبحار . . وبمالا تبصرون منها ، كالملائكة والجن . .

وقوله : « إنه لقول رسول كريم » جواب القسم ، وهو المحلوف عليه . أى : أقسم إن هذا القرآن لقول رسول كريم ، هو محمد - ﷺ -

وأضاف - سبحانه - القرآن إلى الرسول - ﷺ - ، باعتبار أنه هو الذى تلقاه عن الله - تعالى - ، وهو الذى بلغه عنه بأمره وإذنه . .

أى : أن الرسول - ﷺ - يقول هذا القرآن ، وينطق به ، على وجه التبليغ عن الله - تعالى - .

قال الإمام ابن كثير : قوله : « إنه لقول رسول كريم » يعنى محمداً - ﷺ - ، أضافه إليه على معنى التبليغ ، لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسِل ، ولهذا أضافه فى سورة التكوير إلى الرسول الملكى فقال : « إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين . . » وهو جبريل - عليه السلام - »(١) .

وبعضهم يرى أن « لا » فى مثل هذا التركيب ليست مزيدة ، وإنما هى أصلية ، ويكون المقصود من الآية الكريمة ، بيان أن الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى قسم ، إذ كل عاقل عند ما يقرأ القرآن ، يعتقد أنه من عند الله . .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٤٤ .

ويكون المعنى : فلا أقسم بما تبصرونه من مخلوقات، ولا بما لا تبصرونه . . لظهور الأمر واستغنائه عن القسم .

قال الشوكانى : قوله : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » هذا رد لكلام المشركين ، كأنه قال : ليس الأمر كما تقولون . و « لا » زائدة والتقدير : فأقسم بما تشاهدونه وبما لا تشاهدونه . .

وقيل إن « لا » ليست زائدة ، بل هى لنفى القسم . أى : لا أحتاج إلى قسم لوضوح الحق فى ذلك . والأول أولى »(١) .

وتأكيد قوله : « إنه لقول رسول كريم » بإن وباللام ، للرد على المشركين الذين قالوا عن القرآن الكريم : أساطير الأولين .

ثم أضاف – سبحانه – إلى هذا التأكيد تأكيدات أخرى فقال : « وما هو بقول شاعر . قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » .

والشاعر : هو من يقول الشعر . والكاهن : هو من يتعاطى الكهانة عن طريق الزعم بأنه يعلم الغيب .

وانتصب « قليلا » فى الموضعين على أنه صفة لمصدر محذوف ، و « ما » مزيدة لتأكيد القلة .

والمراد بالقلة فى الموضعين انتفاء الإيمان منهم أصلا . أو أن المراد بالقلة ، إيمانهم اليسير ، كإيمانهم بأن الله هو الذى خلقهم ، مع إشراكهم معه آلهة أخرى فى العبادة . . .

أى : ليس القرآن الكريم بقول شاعر ، ولا بقول كاهن ، وإنما هو

---

(١) تفسير القدير جـ ٥ ص ٢٨٥ .

تنزيل من رب العالمين ، على قلب نبيه محمد — ﷺ — ، لكي يبلغه إليكم، ولكي يخرجكم بواسطته من ظلمات الكفر ، إلى نور الإيمان . .

ولكنكم — أيها الكافرون — لا إيمان عندكم أصلا ، أو قليلا ما تؤمنون بالحق ، وقليلا ما تتذكرونه وتتعظون به .

ففى الآيتين رد على الجاحدين الذين وصفوا الرسول — ﷺ — بأنه شاعر أو كاهن .

وخص هذين الوصفين بالذكر هنا ، لأن وصفه — ﷺ — بأنه « رسول كريم » كاف لنفى الجنون أو الكذب عنه — ﷺ — ، أما وصفه بالشعر والكهانة فلا ينافى عندهم وصفه بأنه كريم ، لأن الشعر والكهانة كان معدودين عندهم من صفات الشرف ، لذا نفى — سبحانه — عنه — ﷺ — أنه شاعر أو كاهن ، وأثبت له أنه رسول كريم .

وقوله : تنزيل من رب العالمين ، تأكيد لكون القرآن من عند الله — تعالى — ، وأنه ليس بقول شاعر أو كاهن . .

أى : هذا القرآن ليس كما زعمتم — أيها الكافرون — ، وإنما هو منزل من رب العالمين ، لا من أحد سواه — عز وجل — .

ثم بين — سبحانه — ما يحدث للرسول — ﷺ — لو أنه — على سبيل الفرض — غيّر أو بدل شيئا من القرآن فقال : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين . . . » .

والتقول : افتراء القول ، ونسبته إلى من لم يقله ، فهو تفعل من القول يدل على التكلف والتصنع والاختلاق . .

والأقاويل : جمع أقوال ، الذى هو جمع قول ، فهو جمع الجمع . .

أى : ولو أن محمداً - ﷺ - افترى علينا بعض الأقوال ، أو نسب إلينا قولا لم نقله ، أو لم نأذن له فى قوله . . لو أنه فعل شيئا من ذلك على سبيل الفرض :

« لأخذنا منه باليمين » أى : لأخذنا منه باليد اليمنى من يديه ، وهو كناية عن إذلاله وإهانته .

أو : لأخذناه بالقوة والقدرة ، وعبر عنهما باليمين ، لأن قوة كل شىء فى ميامنه .

والمقصود بالجملة الكريمة : التهويل من شأن الأخذ ، وأنه أخذ شديد سريع لا يملك معه تصرفا أو هربا . .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا التهويل ما هو أشد منه فى هذا المعنى فقال : « ثم لقطعنا منه الوتين » .

أى : ثم بعد هـــذا الأخذ بقوة وسرعة ، لقطعنا وتينه ، وهو عرق يتصل بالقلب ، متى قطع مات صاحبه . .

وهذا التعبير من مبتكرات القرآن الكريم ، ومن أساليبه البديعة ، إذ لم يسمع عن العرب أنهم عبروا عن الإهلاك بقطع الوتين .

ثم بين - سبحانه - أن أحدا لن يستطيع منع عقابه فقال : « فما منكم من أحد عنه حاجزين » .

أى : فما منكم من أحد - أيها المشركون - يستطيع أن يدفع عقابنا عنه ، أو يحول بيننا وبين ما يريده ، فالضمير فى « عنه » يعود إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآيات : التقول : افتعال القول ، كأن فيه تكلفاً من المفتعل ، وسمى الأقوال المنقولة « أقاويل » ، تصغيراً بها وتحقيراً ، كقولك : الأعاجيب والأضاحيك ، كأنها جمع الأفعولة من القول .

والمعنى : ولو ادعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً ، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم ، معاجلة بالسخط والانتقام ، فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول ، وهو أن يأخذ بيده ، وتضرب رقبته .

وخص اليمين عن اليسار ، لأن القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب فى قفا المقتول أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه فى جيده وأن يكفحه بالسيف — وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف — أخذ بيمينه .

ومعنى : « لأخذنا منه باليمين » : لأخذنا بيمينه . كما أن قوله : « ثم لقطعنا منه الوتين » : لقطعنا وتينه ، والوتين : نياط القلب ، وهو حبل الوريد ، إذا قطع مات صاحبه » (١) .

وفى هذه الآيات الكريمة أقوى الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله — تعالى — لأنه لو كان — كما زعم الزاعمون أنه من تأليف الرسول — صلى الله عليه وسلم — لما نطق بهذه الألفاظ التى فيها ما فيها من تهديد ووعيد . . .

كما أنها كذلك فيها إشارة إلى أنه — صلى الله عليه وسلم — لم يقول شيئاً . . . وإنما بلغ هذا القرآن عن ربه — عز وجل — دون أن يزيد حرفاً أو ينقص حرفاً . . لأن حكمة الله — تعالى — قد اقتضت أن يهلك

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٠٧

كل من يفترى عليه الكذب ؛ ومن يزعم أن الله — تعالى — أوحى إليه ، مع أنه — سبحانه — لم يوح إليه .

وقوله — سبحانه — « وإنه لتذكرة للمتقين » معطوف على قوله : « إنه لقول رسول كريم » .

أى : إن هذا القرآن لقول رسول كريم يبلغه عن الله - تعالى - وإنه لتذكير وإرشاد لأهل التقوى ؛ لأنهم هم المنتفعون بهداياته .

وقوله - تعالى - : « وإنا لنعلم أن منكم مكذبين » تبكيت وتوبيخ لهؤلاء الكافرين ، الذين جحدوا الحق بعد أن تبين لهم أنه حق .

أى : وإنا لا يخفى علينا أن منكم - أيها الكافرون - من هو مكذب للحق عن جحود وعناد ، ولكن هذا لن يمنعنا من إرسال رسولنا بهذا الدين لكى يبلغه إليكم ، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر . وسنجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وقوله - سبحانه - : « وإنه لحسرة على الكافرين » بيان لما يكون عليه الكافرون من ندم شديد ، عندما يرون حسن مصير المؤمنين ، وسوء مصير المكذبين .

والحسرة : هى الندم الشديد المتكرر ، على أمر نافع قد مضى ولا يمكن تداركه . . .

أى : وإن هذا القرآن الكريم ؛ ليكون يوم القيامة ، سبب حسرة شديدة وندامة عظيمة ، على الكافرين ، لأنهم يرون المؤمنين به فى هذا اليوم فى نعيم مقيم ، أما هم فيجدون أنفسهم فى عذاب أليم .

وقوله : « وإنه لحق اليقين » معطوف على ما قبله ، أى : وإن هذا القرآن لهو الحق الثابت الذى لاشك فى كونه من عند الله - تعالى - ، وأن

محمداً - صلى الله عليه وسلم - قد بلغه إلى الناس دون أن يزيد فيه حرفا ، أو ينقص منه حرفا .

وإضافة الحق إلى اليقين ، من إضافة الصفة إلى الموصوف . أى : لهو اليقين الحق ، أو هو من إضافة الشىء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين ، كما فى قوله : « حبل الوريد » ، إذ الحبل هو الوريد .

والمقصود من مثل هذا التركيب : التأكيد .

وقد قالوا : إن مراتب العلم ثلاثة : أعلاها : حق اليقين ، ويليها : عين اليقين ، ويليها : علم اليقين . .

فحق اليقين : كعلم الإنسان بالموت عند نزوله به ، وبلوغ الروح الحلقوم وعين اليقين : كعلمه به عند حلول أماراته وعلاماته الدالة على قربه . . .
وعلم اليقين : كعلمه بأن الموت سينزل به لا محالة مهما طال الأجل . . .
والفاء فى قوله - تعالى - « فسبح باسم ربك العظيم » للإفصاح . أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك من أن هذا الدين حق ، وأن البعث حق ، وأن القرآن حق ، فنزه اسم ربك العظيم عما لا يليق به ، من النقائص ، فى الاعتقاد ، أو فى العبادة ، أو فى القول ، أو فى الفعل .

والباء فى قوله : « باسم ربك » للمصاحبة . أى : نزه ربك تنزيها مصحوبا بكل ما يليق به من طاعة وإخلاص ومواظبة على مراقبته وتقواه .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات - وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة — مدينة نصر
مساء الخميس ١٧ من ذى القعدة
سنة ١٤٠٦ هـ ٢٤ / ٧ / ١٩٨٦ م

تفسیر سورۃ

«المعارج»

١ — سورة « المعارج » هي السورة السبعون في ترتيب المصحف ، أما ترتيبها في النزول فهي السورة الثامنة والسبعون ، وكان نزولها بعد سورة « الحاقة » وقبل سورة « النبأ » .

وتسمى — أيضا — بسورة «سأل سائل» ، وذكر السيوطي في كتابه « الإتقان » أنها تسمى كذلك بسورة « الواقع » .

وهذه الأسماء الثلاثة قد وردت ألفاظها في السورة الكريمة . قال — تعالى — : « سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذي المعارج . . . » .

وهي من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها أربع وأربعون آيه في عامة المصاحف ، وفي المصحف الشامي ثلاث وأربعون آيه .

٢ — والسورة الكريمة نراها في مطلعها ، تحكى لنا جانباً من استهزاء المشركين بما أخبرهم به النبي — صلى الله عليه وسلم — من بعث وثواب وعقاب . وترد عليهم بما يكبتهم ، حيث تؤكد أن يوم القيامه حق ، وأنه واقع ، وأن أهواله شديدة .

قال — تعالى — . سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذي المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنه . فاصبر صبرا جميلا . إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريبا . يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميما . . . . . .

٣ — ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى تصوير طبيعة الإنسان ، وتمدح المحافظين على صلاتهم ، وعلى أداء حقوق الله ـ تعالى ـ في أموالهم ، كما تمدح

الذين يؤمنون بأن البعث حق ، ويستعدون لهذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح . . .

قال - تعالى - : « إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . . . » .

٤ — ثم أخذت السورة الكريمة فى أواخرها فى تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وفى توبيخ الكافرين على مسالكهم الخبيثة بإزاء الدعوة الإسلامية ، وفى بيان أن يوم القيامة الذى يكذبون به ، آت لاريب فيه .

قال - تعالى - : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون » .

٥ — هذا والمتدبر فى هذه السورة الكريمة ، يرى أن على رأس القضايا التى اهتمت بالحديث عنها : التذكير بيوم القيامة ، وبأهواله وشدائده ، وببيان ما فيه من حساب ، وجزاء ، وثواب وعقاب .

والحديث عن النفس الإنسانية بصفة عامة فى حال عسرها ويسرها ، وصحتها ومرضها ، وأملها ويأسها . . . واستثناء المؤمنين الصادقين ، من كل صفة لا يحبها الله - تعالى - وأنهم بسبب إيمانهم الصادق ، وعملهم الصالح ، سيكونون يوم القيامة « فى جنات مكرمين » .

كما أن السورة الكريمة اهتمت بالرد على الكافرين ، وبتسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما لحقه منهم ، وببيان مظاهر قدرة الله - تعالى - التى لا يعجزها شىء .

وقد افتتح - سبحانه - سورة « المعارج » بقوله — تعالى — :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾
مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ
كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ
يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾
وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ
يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ
وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ
يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ﴿١٨﴾

وقوله — تعالى — : « سأل سائل بعذاب واقع . . » قرأه الجمهور بإظهار الهمزة فى « سأل » .

وقرأه نافع وابن عامر « سال » بتخفيف الهمزة .

قال الجمل : قرأ نافع وابن عامر بألف محضة ، والباقون بهمزة محققة ، وهى الأصل .

فأما القراءة بالألف ففيها ثلاثة أوجه : أحدها : أنها بمعنى قراءة الهمزة ، وإنما خففت بقلبها ألفا . والثانى : أنها من سال يسال ، مثل خاف يخاف ، والألف منقلبة عن واو ، والواو منقلبة عن الهمزة :

والثالث : من السيلان ، والمعنى : سال واد في جهنم بعذاب ، فالألف منقلبة عن ياء . . »(١) .

وقد حكى القرآن الكريم عن كفار مكة ، أنهم كانوا يسألون النبي — صلى الله عليه وسلم — على سبيل التهكم والاستهزاء عن موعد العذاب الذي يتوعدهم به إذا ما استمروا على كفرهم ، ويستعجلون وقوعه . .

قال — تعالى — : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » وقال — سبحانه — : « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده . . » .

وعلى هذا يكون السؤال على حقيقته ، وأن المقصود به الاستهزاء بالنبي — ﷺ — وبالمؤمنين .

ومنهم من يرى أن سأل هنا بمعنى دعا . أي : دعا داع على نفسه بعذاب واقع . .

قال الآلوسي ما ملخصه : « سأل سائل بعذاب واقع » أي : دعا داع به، فالسؤال بمعنى الدعاء ، ولذا عدى بالباء تعديته بها في قوله « يدعون فيها بكل فاكهة آمنين » . والمراد : استدعاء العذاب وطلبه . . وقيل إنها بمعنى « عن كما في قوله : « فاسأل به خبيرا » . .

والسائل هو النضر بن الحارث — كما روى النسائي وجماعة وصححه الحاكم . . — حيث قال إنكارا واستهزاء اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم . . » وقيل السائل : أبو جهل ، حيث قال : فأسقط علينا كسفا من السماء . . »(٢) .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٠٣ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢٩ ص ٥٥ .

وعلى أية حال فسؤالهم عن العذاب ، يتضمن معنى الإنكار والتهكم، كما يتضمن معنى الاستعجال ، كما حكته بعض الآيات الكريمة . .

ومن بلاغة القرآن ، تعدية هذا الفعل هنا بالباء ، ليصلح لمعنى الاستفهام الإنكارى ، ولمعنى الدعاء والاستعجال . .

أى : سأل سائل النبى - ﷺ - سؤال تهكم ، عن العذاب الذى توعد به الكافرين ، إذا ما استمروا على كفرهم ، وتعجله فى وقوعه ، بل أضاف إلى ذلك - لتجاوزه الحد فى عناده وطغيانه - أن قال : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

وقال - سبحانه - « بعذاب واقع » ، ولم يقل بعذاب سيقع ، للإشارة إلى تحقق وقوع هذا العذاب فى الدنيا والآخرة .

أما الدنيا فمن هؤلاء السائلين من قتل فى غزوة بدر ، وهو النضر بن الحارث ، وأبو جهل وغيرهما . وأما فى الآخرة فالعذاب النازل بهم أشد وأبقى .

ثم وصف - سبحانه - العذاب بصفات أخرى ، غير الوقوع فقال : للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج . . . ، واللام فى قوله « للكافرين » بمعنى على ، أو للتعليل .

أى : سأل سائل عن عذاب واقع على الكافرين ، هذا العذاب ليس له دافع يدفعه عنهم ، لأنه واقع من الله - تعالى - « ذى المعارج » .

والمعارج جمع مِعْرَج ، وهو المصعد ، ومنه قوله - تعالى - ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ، لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من

فضة، ومعارج عليها يظهرون»(١).

وقد ذكر المفسرون فى المراد بالمعارج وجوها منها: أن المراد بها السموات، فعن ابن عباس أنه قال: أى: ذى السموات. وسماها معارج لأن الملائكة يعرجون فيها.

ومنها أن المراد بها: النعم والمنن. فعن قتادة أنه قال: ذى المعارج. أى: ذى الفواضل والنعم. وذلك لأن لأياديه ووجوه إنعامه مراتب، وهى تصل إلى الناس على مراتب مختلفة.

ومنها: أن المراد بها الدرجات التى يعطيها لأوليائه فى الجنة.

وفى وصفه - سبحانه - ذاته «بذى المعارج»: استحضار لصورة عظمة جلاله، وإشعار بكثرة مراتب القرب من رضاه وثوابه، فإن المعارج من خصائص منازل العظماء.

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هذا العذاب الواقع على الكافرين، بجملة من الصفات، لتكون ردا فيه ما فيه من التهديد والوعيد للجاحدين، الذين استهزؤا به وأنكروه.

والمراد بالروح فى قوله: تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»: جبريل — عليه السلام — وأفرد بالذكر لتميزه وفضله، فهو من باب عطف الخاص على العام.

والضمير فى «إليه» يعود إلى الله — تعالى —.

أى: تصعد الملائكة وجبريل - عليه السلام - معهم، إليه - تعالى -.

والسلف على أن هذا التعبير وأمثاله، من المتشابه الذى استأثر - سبحانه - بعلمه، مع تنزيهه - عز وجل - عن المكان والجسمية، ولوازم الحدوث، التى لا تليق بجلاله.

---

(١) سورة الزخرف الآية ٣٣.

وقيل: «إليه» أى: إلى عرشه - تعالى - أو إلى محل بره وكرامته.

قال القرطبي ما ملخصه قوله: «فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» أى: عروج الملائكة إلى المكان الذى هو محلهم فى وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد، خمسين ألف سنة.

وعن مجاهد: هذا اليوم هو مدة عمر الدنيا، من أول ما خلقت إلى آخر ما بقى منها، خمسون ألف سنة.

وقال ابن عباس: هو يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة.

ثم قال القرطبي، وهذا القول أحسن ما قيل فى الآية - إن شاء الله - بدليل ما رواه قاسم بن أصبغ من حديث أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»، فقلت: ما أطول هذا؟ فقال - صلى الله عليه وسلم -: «والذى نفسى بيده، إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا...».

وفى رواية عن ابن عباس - أيضا - أنه سئل عن هذه الآية فقال: أيام سماها الله - عز وجل -، وهو أعلم بها كيف تكون، وأكره أن أقول فيها مالا أعلم.

وقيل: ذكر خمسين ألف سنة تمثيل، لما يلقاه الناس فى موقف الحساب من شدائد، والعرب تصف أيام الشدة بالطول، وأيام الفرح بالقصر...»(١)

(١) راجع تفسير القرطبي جـ ١٨ ص ٢٨٢

وقال بعض العلماء : وقد ذكر — سبحانه — فى سورة السجدة أنه «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون» .

وقال فى سورة الحج : «وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون» .

وذكر هنا «فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» .

والجمع بين هذه الآيات من وجهين : أولهما : ما جاء عن ابن عباس من أن يوم الألف فى سورة الحج ، هو أحد الأيام الستة التى خلق الله — تعالى — فيها السموات والأرض .

ويوم الألف فى سورة السجدة ، هو مقدار سير الأمر وعروضه إليه — تعالى — .

ويوم الخمسين ألفا هنا : هو يوم القيامة .

وثانيهما : أن المراد بجميعها يوم القيامه ، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر .

ويدل لهذا الوجه قوله — تعالى — : «فذلك يوم عسير . على الكافرين غير يسير» (١) .

أى : أن يوم القيامه يتفاوت طوله بحسب اختلاف الشدة ، فهو يعادل فى حالة ألف سنة من سنى الدنيا ، ويعادل فى حالة أخرى خمسين ألف سنة

وقوله — تعالى — : «فاصبر صبرا جميلا . إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريبا . .» متفرع على قوله — سبحانه — . «سأل سائل . .» لأن السؤال كان سؤال استهزاء ، يضيق به الصدر ، وتغتم له النفس .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٦ ص ٥٣ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

والصبر الجميل: هو الصبر الذى لا شكوى معه لغير الله - عز وجل - ولا يخالطه شىء من الجزع، أو التبرم بقضاء الله وقدره.

أى: لقد سألوك - أيها الرسول الكريم - عن يوم القيامة، وعن العذاب الذى تهددهم به.. سؤال تهكم واستعجال.. فاصبر صبرا جميلا على غرورهم وجحودهم وجهالاتهم.

إنهم يرون هذا اليوم وما يصحبه من عذاب.. يرونه «بعيدا» من الإمكان، أو من الوقوع، ولذلك كذبوا ما جئتم به من عندنا، واستهزؤا بك.. ونحن نراه قريبا من الإمكان، بل هو كائن لا محالة فى الوقت الذى تقتضيه حكمتنا ومشيئتنا.

ثم بين - سبحانه - جانبا من أهوال هذا اليوم فقال: «يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن. ولا يسأل حميم حميما..».

ولفظ «يوم» متعلق بقوله: «قريبا» أو بمحذوف يدل عليه قوله: «واقع» أى: هو واقع هذا العذاب يوم تكون السماء فى هيئتها ومظهرها «كالمهل» أى: تكون واهية مسترخية.. كالزيت الذى يتبقى فى قعر الإناء...

«وتكون الجبال كالعهن» أى: كالصوف المصبوغ ألوانا، لاختلاف ألوان الجبال، فإن الجبال إذا فتتت وتمزقت فى الجو، أشبهت الصوف المنفوش إذا طيرته الرياح، قيل: أول ما تتغير الجبال تصير رملا مهيلا، ثم عهنا منفوشا، ثم هباء منبثا...

ووجه الشبه أن السماء فى هذا اليوم تكون فى انحلال أجزائها، كالشىء الباقى فى قعر الإناء من الزيت، وتكون الجبال تفرق أجزائها كالصوف المصبوغ الذى تطاير فى الجو.

وفى هذا اليوم – أيضا – « لا يسأل حميم حميما » أى : لا يسأل صديق صديقه النصرة أو المعونة ، ولا يسأل قريب قريبه المساعدة والمؤازرة . . لأن كل واحد منهما مشغول بهموم نفسه من شدة هول الموقف ، كما قال – تعالى – : « يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . . . » .

والحميم : هو الصديق الوفى القريب من نفس صديقه . .

وضمير الجمع فى قوله – سبحانه – « يبصرونهم » يعود إلى الحميمين، نظرا لعمومهما ، لأنه ليس المقصود صديقين مخصوصين ، وإنما المقصود كل صديق مع صديقه . .

والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ، أجابة عن سؤال تقديره : ولماذا لا يسأل الصديق صديقه فى هذا اليوم ؟ ألأنه لا يراه ؟ فكان الجواب : لا ، إنه يراه ويشاهده ، ويعرف كل قريب قريبه ، وكل صديق صديقه فى هذا اليوم . . ولكن كل واحد منهم مشغول بهمومه .

قال صاحب الكشاف: «يبصرونهم» أى: يبصر الأحماءُ الأحماءَ ، فلا يخفون عليهم ، فما يمنعهم من المساءلة أن بعضهم لا يبصر بعضا ، وإنما يمنعهم التشاغل . .

فإن قلت : ما موقع يبصرونهم ؟ قلت : هو كلام مستأنف ، كأنه لما قال : « ولا يسأل حميم حميما » قيل : لعله لا يبصره . فقيل فى الجواب : يبصرونهم ، ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا من تساؤلهم .

فإن قلت : لم جمع الضميرين فى « يبصرونهم » وهى للحميمين ؟ قلت : المعنى على العموم لكل حميمين ، لا لحميمين اثنين . . . »(١) .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٠٩ .

ثم بين — سبحانه — حالة المجرمين فى هذا اليوم فقال : « يود المجرم.. » أى : يحب المجرم فى هذا اليوم ويتمنى . .

« لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه » أى : يتمنى ويحب لو يفتدى نفسه من عذاب هذا اليوم بأقرب الناس إليه ، وألصقهم بنفسه . . وهم بنوه وأولاده .

ويود — أيضا — لو يفتدى نفسه بـ« صاحبته وأخيه » ، أى : بزوجته التى هى أحب الناس إليه ، وبأخيه الذى يستعين به فى النوائب .

« وفصيلته التى تؤويه » أى : ويود كذلك أن ينقذ نفسه ، من العذاب ، بأقرب الأقرباء إليه ، وهم أهله وعشيرته التى ينتسب إليها ، إذ الفصيلة هم الأقرباء الأدنون من القبيلة ، والذين هو واحد منهم .

ومعنى « تؤويه » : تضمه إليها ، وتعتبره فردا منها ، وتدافع عنه بكل وسيلة . .

وقوله : « ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه » داخـل فى إطار ما يتمناه ويوده .

أى . يود هذا المجرم أن يفتدى نفسه من عذاب هذا اليوم ، بأولاده ، وبصاحبته ، وبأخيه ، وبعشيرته التى هو فرد منها ، وبأهل الأرض جميعا من الجن والإنس . .

ثم يتمنى — أيضا — أن يقبل منه هذا الافتداء ، لكى ينجو بنفسه من هذا العذاب .

فقوله « ثم ينجيه » معطوف على قوله « يفتدى » ، أى : يود لو يفتدى

ثم لو ينجيه الافتداء . وكان العطف بثم ، للاشعار باستبعاد هذا الافتداء وأنه عسير المنال . .

وقوله : « ومن فى الأرض . . » معطوف على « بنيه » أى : ويفتدى نفسه بجميع أهل الأرض . .

وهكذا نرى الآيات الكريمة تحكى لنا بهذا الأسلوب المؤثر ، حالة المجرم فى هذا اليوم ، وأنه يتمنى أن يفتدى نفسه مما حل به من عذاب ، بأقرب وأحب الناس إليه ، بل بأهل الأرض جميعا . . ولكن هيهات أن يقبل منه شيء من ذلك . .

واذا جاء الرد الزاجر له عما تمناه فى قوله - تعالى - : « كلا إنها لظى . . » وكلا حرف ردع وزجر ، وإبطال الكلام سابق ، وهو هنا ما كان يتمناه ويحبه . . من أن يفتدى نفسه ببنيه ، وبصاحبته وأخيه . . الخ .

و « لظى » علم لجهنم ، أو لطبقة من طبقاتها . واللظى : اللهب الخالص ، والضمير للنار المدلول عنها بذكر العذاب .

أى : كلا - أيها المجرم - ليس الأمر كما وددت وتمنيت . . . وإنما الذى فى انتظارك ، هو النار التى هى أشد ما تكون اشتعالا . .

والتى من صفاتها كونها « نزاعة للشوى » : أى : قلاعة لجلدة الرأس وأطراف البدن ، كاليد والرجل ، ثم تعود هذه الجلدة والأطراف كما كانت .

فقوله : « نزاعة » صيغة مبالغة من النزع بمعنى القلع والفصل . والشوى : جمع شواة - بفتح الشين - ، وهى من جوارح الإنسان مالم يكن مقتلا . مثل اليد والرجل . والجمع باعتبار ما لكل أحد من جوارح

وأطراف . يقال : فـــلان رمى فأشوى ، إذا لم يصب مقتلا ممن رماه .

وقيل : الشواة : جلدة الرأس . والجمع باعتبار كثرة الناس .

وهذه النار الملتهبة من صفاتها — أيضا — أنها « تدعو من أدبر وتولى» أى : تدعو لدخولها والاصطلاء بحرها ، من أدبر وأعرض وتولى عن الحق والرشد ، ونأى بجانبه عن طريق الهدى والاستقامة .

قال ابن كثير : هذه النار تدعو إليها أبناءها الذين خلقهم الله — تعالى — لها وقدر لهم أنهم فى الدار الدنيا يعملون عملها ، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق — أى : فصيح بليغ — ، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر ، كما يلتقط الطير الحب ، وذلك أنهم كانوا كما قال — سبحانه — ممن أدبر وتولى . أى : ممن كذب بقلبه ، وترك العمل بجوارحه »(١) .

« وجمع فأوعى » أى : جمع المال بعضه على بعض فأوعاه ، أى : فأمسكه فى وعائه وكنزه ومنع حق الله — تعالى — فيه ، وبخل به على مستحقيه . . فقوله « فأوعى » أى : فجعله فى وعاء .

وفى الحديث الشريف ، يقول — ﷺ — : « لا توعى — أى لا تجمع مالك فى الوعاء على سبيل الكنز — فيوعى الله عليك — أى : فيمنع الله — تعالى — فضله عنك ، كما منعت وقترت .

وفى قوله — سبحانه — « وجمع » إشارة إلى الحرص والطمع . وفى قوله « فأوعى » إشارة إلى بخله وطول أمله .

قال قتادة : « جمع فأوعى » : كان جموعا للخبيث من المال . .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٢٥٢ .

وبعد هذا البيان المؤثر الحكيم عن طبائع المجرمين، وعن أهوال يوم الدين، وعن سوء عاقبة المكذبين . . اتجهت السورة الكريمة إلى الحديث عن سجايا النفوس البشرية فى حالتى الخير والشر، والغنى والفقر، والشكر والجحود . . . واستثنت من تلك السجايا نفوس المؤمنين الصادقين، فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

والمراد بالإنسان فى قوله - تعالى - : «إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . . .» جنسه، لا فرد معين منه، كما فى قوله - تعالى - : «والعصر، إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات . . » وكما فى قوله ـ سبحانه ـ : « خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون » .

ويدخل فيه الكافر دخولا أوليا ، لأن معظم الصفات التى استثنيت بعد ذلك من صفات المؤمنين الصادقين ، وعلى رأسها قوله ـ سبحانه ـ : « إلا المصلين . . . » .

وقوله : « هلوعا » صيغة مبالغة من الهلع ، وهو إفراط النفس وخروجها عن التوسط والاعتدال ، عند ما ينزل بها ما يضرها ، أو عند ما تنال ما يسرها .

والمراد بالشر : مايشمل الفقر والمرض وغيرهما مما يتأذى به الإنسان.

والمراد بالخير : ما يشمل الغنى والصحة وغير ذلك مما يتمناه الإنسان ، وتميل إليه نفسه .

والجزوع : هو الكثير الجزع . أى : الخوف . والمنوع : هو الكثير المنع لنعم الله ـ تعالى ـ ، وعدم إعطاء شىء منها للمحتاجين إليها .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : «إن الإنسان خلق هلوعا ..» الهلع : سرعة الجزع عند مس المكروه ، وسرعة المنع عند مس الخير ، من قولهم: ناقة هلوع ، أى : سريعة السير .

وسئل ابن عباس عن الهلوع فقال : هو كما قال الله ـ تعالى ـ : « إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا » .

ولا تفسير أبين من تفسيره ـ سبحانه ـ .

والإنسان : المراد به الجنس ، أو الكافر . . وأل فى الشر والخير للجنس ـ أيضا ـ . . » (١) .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٦١

والتعبير بقوله : « خلق هلوعا » يشير إلى أن جنس الإنسان - إلا من عصم الله - مفطور ومطبوع ، على أنه إذا أصابه الشر جزع ، وإذا مسه الخير بخل . . وأن هاتين الصفتين ليستا من الصفات التى يحبها الله - تعالى - بدليل أنه - سبحانه - قد استثنى المصلين وغيرهم من التلبس بهاتين الصفتين .

وبدليل أن من صفات المؤمن الصادق أن يكون شكورا عند الرخاء صبورا عند الضراء .

وفى الحديث الشريف ، يقول - صلى الله عليه وسلم - «شر ما فى الرجل : شح هالع ، وجبن خالع » .

وفى حديث آخر يقول - صلى الله عليه وسلم - : « عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير . إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » .

قال الجمل : وقوله : « جزوعا ومنوعا » فيهما ثلاثة أوجه : أحدها : أنهما منصوبان على الحال من الضمير فى « هلوعا » ، وهو العامل فيهما . والتقدير : هلوعا حال كونه جزوعا وقت مس الشر ، ومنوعا وقت مس الخير . الثانى : أنهما خبران لكان أو صار مضمرة . أى : إذا مسه الشر كان أو صار جزوعا ، وإذا مسه الخير كان أو صار منوعا . الثالث : أنهما نعتان لقوله : « هلوعا » (١) .

ثم وصف - سبحانه - من استثناهم من الإنسان الهلوع ، بجملة من الصفات الكريمة ، فقال : «إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون» .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٤٠٦ .

أى : إن الناس جميعا قد جبلوا على الجزع عند الضراء ، وعلى المنع عند السراء . . إلا المصلين منهم ، الذين يواظبون على أدائها مواظبة تامة، دون أن يشغلهم عن أدائها : عسر أو يسر ، أو غنى أو فقر ، أو إقامة أو سفر.

فهم ممن قال — سبحانه — فى شأنهم . « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار . . . » .

وقال — سبحانه — : « على صلاتهم دائمون » للإشارة إلى أنهم لا يشغلهم عنها شاغل ، إذ الدوام على الشىء عدم تركه .

وفى إضافة « الصلاة » إلى ضمير « المصلين » تنويه بشأنهم ، وإشعار باختصاصها بهم ، إذ هم أصحابها الملازمون لها .

ثم وصفهم — سبحانه — بصفة ثانية فقال : « الذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم » .

والمراد بالحق المعلوم : ما أوجبوه على أنفسهم من دفع جزء من أموالهم للمحتاجين ، على سبيل التقرب إلى الله — تعالى — ، وشكره على نعمه . ويدخل فى هذا الحق المعلوم دخولا أوليا ما فرضه — سبحانه — عليهم من زكاة أموالهم .

قالوا : ولا يمنع ذلك من أن تكون السورة مكية ، فقد يكون أصل مشروعية الزكاة بمكة ، ثم أتى تفصيل أحكامها بالمدينة ، عن طريق السنة النبوية المطلقة .

والسائل : هو الذى يسأل غيره الصدقة والمحروم : هو الذى لا يسأل غيره تعففا ، وإن كان فى حاجة إلى العون والمساعدة .

أى : ومن الذين استثناهم — سبحانه — من صفة الهلع : أولئك المؤمنون الصادقون الذين جعلوا فى أموالهم حقا معينا ، يخرجونه عن إخلاص وطيب خاطر ، لمن يستحقونه من السائلين والمحرومين . . . على سبيل الشكر لخالقهم على ما أنعم عليهم من نعم .

ووصف — سبحانه — ما يعطونه من أموالهم بأنه « حق » للإشارة إلى أنهم — لصفاء أنفسهم — قد جعلوا السائل والمحروم ، كأنه شريك لهم فى أموالهم ، وكأن مايعطونه له إنما هو بمثابة الحق الثابت عندهم له .

ثم وصفهم — سبحانه — بصفات كريمة أخرى فقال : « والذين يصدقون بيوم الدين » ، والتصديق بيوم الدين معناه : الإيمان الجازم باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء .

« والذين هم من عذاب ربهم مشفقون » ، أى : أن من صفاتهم : أنهم مع قوة إيمانهم ، وكثرة أعمالهم الصالحة ، لا يجزمون بنجاتهم من عذاب الله — تعالى — ، وإنما دائما أحوالهم مبنية على الخوف والرجاء ، إذ الإشفاق توقع حصول المكروه وأخذ الحذر منه .

وجملة « إن عذاب ربهم غير مأمون » تعليلية ، ومقررة لمضمون ما قبلها ، أى : إنهم مشفقون من عذاب ربهم . . . لأن العاقل لا يأمن عذابه — عز وجل — ، مهما أتى من طاعات ، وقدم من أعمال صالحة .

وشبيه بهذه الآية قوله — سبحانه — : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون » (١) .

ثم قال — تعالى — : « والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أوماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٦٠ .

أى : أن من صفاتهم — أيضا — أنهم أعفاء ، ممسكون لشهواتهم ، لا يستعملونها إلا مع زوجاتهم اللائى أحلهن — سبحانه — لهم ، أو مع ما ملكت أيمانهم من الإماء والسرارى .

وجملة « فإنهم غير ملومين » تعليل للاستثناء . أى : هم حافظون لفروجهم ، فلا يستعملون شهواتهم إلا مع أزواجهم . أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير مؤاخذين على ذلك ، لأن معاشرة الأزواج وما ملكت الأيمان مما أحله الله — تعالى — .

وقوله : « فمن ابتغى وراء ذلك . . » أى : فمن طلب خلاف ذلك الذى أحله - سبحانه - .

« فأولئك هم العادون » أى : فأولئك هم المعتدون المتجاوزون حدود خالقهم ، الوالغون فى الحرام الذى نهى الله - تعالى - عنه .

يقال : عدا فلان الشىء يعدوه عدوا ، إذا جاوزه وتركه . أى : أنهم تجاوزوا الحلال ، وتركوه خلف ظهورهم ، واتجهوا ناحية الحرام فولغوا فيه .

وقوله : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين ، الذين إذا مسهم الشر لا يجزعون ، وإذا مسهم الخير لا يمنعون . . . أنهم لا يخلون بشىء من الأمانات التى يؤتمنون عليها ، ولا ينقضون شيئا من العهود التى يعاهدون غيرهم عليها ، وإنما هم يرعون ذلك ويحفظونه حفظا تاما .

فقوله « راعون » جمع راع ، وهو الذى يرعى الحقوق والأمانات والعهود ويحفظها ويحرسها ، كما يحرس الراعى غنمه وإبله حراسة تامة .

وقوله : « والذين هم بشهاداتهم قائمون » أى : والذين هم من صفاتهم أنهم يؤدون الشهادة على وجهها الحق ، فلا يشهدون بالزور أو الباطل ، ولا يكتمون الشهادة إذا طلب منهم أن يؤدوها ، عملا بقوله – تعالى – : « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه . . . » .

فالشهادات : جمع شهادة . والمراد بالقيام بها : أداؤها على أتم وجه وأكمله وأعدله ، إذ القيام بها يشمل الاهتمام بشأنها ، وحفظها إلى أن يؤديها صاحبها على الوجه الذى يحبه – سبحانه – .

وكما افتتح – سبحانه – هذه الصفات الكريمة بمدح الذين هم على صلاتهم دائمون ، فقد ختمها بمدح الذين يحافظون عليها فقال : « والذين هم على صلاتهم يحافظون » أى : يؤدونها كاملة غير منقوصة

وهذا الافتتاح والختام ، يدل على شرفها وعلو قدرها ، واهتمام الشارع بشأنها . . .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قال : « على صلاتهم دائمون » ثم « على صلاتهم يحافظون » ؟

قلت : معنى دوامهم عليها ، أن يواظبوا على أدائها ، لا يخلون بها ، ولا يشتغلون عنها بشىء من الشواغل . . .

ومحافظتهم عليها : أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ، ومواقيتها ، وسننها ، وآدابها . . فالدوام يرجع إلى نفس الصلاة ، والمحافظة تعود إلى أحوالها »(١) .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦١٢ .

فأنت ترى أن الله — تعالى — قد وصف هؤلاء المؤمنين الصادقين ، الذين حماهم — سبحانه — من صفة الهلع . . وصفهم بثمان صفات كريمة ، منها : المداومة على الصلاة ، والمحافظة على الإنفاق فى وجوه الخير ، والتصديق بيوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب ، والحفظ لفروجهم ، وأداء الأمانات والشهادات . . .

ثم بين — سبحانه — ما أعده لهم من عطاء جزيل فقال : « أولئك فى جنات مكرمون » أى : أولئك المتصفون بذلك فى جنات عظيمة ، ويستقبلون فيها بالتعظيم والحفاوة . . حيث تقول لهم الملائكة : « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

وبعد هذه الصورة المشرقة لهؤلاء المكرمين . . أخذت السورة فى تصوير موقف المشركين من دعوة الرسول — صلى الله عليه وسلم — إياهم إلى الحق ، وفى تسليته عما لحقه منهم من أذى ، وفى بيان أحوالهم السيئة عندما يعرضون للحساب . . . فقال - تعالى - :

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ
مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ
مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ
خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ
يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ
سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ
تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : « فمال الذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين . . . » للتعجيب من حال هؤلاء الذين كفروا، ومن تصرفاتهم التى تدل على منتهى الغفلة والجهل .

و « ما » مبتدأ . و « للذين كفروا » خبره .

وقوله « مهطعين » من الإهطاع ، وهو السير بسرعة ، مع مد العنق ، واتجاه البصر نحو شىء معين . . .

و « عزين » جمع عزة - كفئة - وهى الجماعة . وأصلها عِزْوَة

ـ بكسر العين ـ من العزو ، لأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى ، فلامها واو . وقيل : لامها هاء . والأصل عزهة .

قال القرطبي : والعزين : جماعات متفرقة . ومنه الحديث الذي خرجه مسلم وغيره ، أن الرسول الله ـ ﷺ ـ خرج على أصحابه يوما فرآهم حلقا فقال : مالى أراكم عزين ، ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ قالوا : وكيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال : يتمون الصفوف الأول ، ويتراصون فى الصف »(١) .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآيات ، أن المشركين كانوا يجتمعون حول النبى ـ ﷺ ـ ، ويستمعون إليه ، ثم يكذبونه ويستهزئون به وبالمؤمنين ، ويقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد ـ ﷺ ـ ، فلندخلنها قبلهم ، وليكونن لنا فيها أكثر مالهم . . (٢) .

والمعنى : ما بال هؤلاء الكافرين مسرعين نحوك ـ أيها الرسول الكريم ـ وناظرين إليك بعيون لا تكاد تفارقك ، وملتفين من حولك عن يمينك وعن شمالك ، جماعات متعددة ، ومظهرين التهكم والاستهزاء بك وبأصحابك ؟

ما بالهم يفعلون ذلك مع علمهم فى قرارة أنفسهم بأنك أنت الصادق الأمين ؟

وقدم ـ سبحانه ـ الظرف « قبلك » الذى بمعنى جهتك ، على قوله « مهطعين » ، للاهتمام به ، حيث إن مقصدهم الأساسى من الإسراع هو الاتجاه نحو النبى ـ ﷺ ـ ، للاستهزاء به وبأصحابه . .

(١) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٢٩٣ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٦٤ .

والمراد بقوله : « عن اليمين وعن الشمال » : جميع الجهات ، إلا أنه عبر بهاتين الجهتين ، لأنهما الجهتان اللتان يغلب الجلوس فيهما حول الشخص .

وقوله : « عزين » تصوير بديع لا لتفافهم من حوله جماعات متفرقة فى مشاربها ، وفى مآربها ، وفى طباعها . . .

والاستفهام فى قوله — تعالى — : « أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم . . . » للنفى والإنكار .

أى : أيطمع كل واحد من هؤلاء الكافرين أن يدخل الجنة التى هى محل نعيمنا وكرامتنا بدون إيمان صادق ، وبدون عمل نافع . . . ؟

وقوله — سبحانه — « كلا » ردع لهم وزجر عن هذا الطمع . أى : كلا ليس الأمر كما يزعمون من أنهم سيدخلون الجنة قبل المؤمنين أو معهم أو بعدهم . . . وإنما هم سيكون مأواهم جهنم وبئس المصير .

وقال — سبحانه — : « أيطمع كل امرىء منهم . . . » ولم يقل : أيطمعون أن يدخلوا الجنة ، للإشعار بأن كل واحد من هؤلاء الكافرين كان طامعا فى دخولها ، لاستيلاء الغرور والجهالة على قلبه . .

وجملة « إنا خلقناهم مما يعلمون » تأكيد لهذا الردع والزجر ، وتهوين من شأنهم ، وإبطال لغرورهم ، وتنكيس لخيلائهم بأسلوب بديع مهذب.. لأن مما لاشك فيه أنهم يعلمون أنهم قد خلقوا من ماء مهين ، ومن كان كذلك فلا يليق به — متى كان عاقلا — أن يغتر أو يتطاول . .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : ويجوز أن يراد بقوله : «إنا خلقناهم مما يعلمون » أى : من النطفة المذرة ، وهى منصبهم الذى لا منصب أوضع منه . ولذلك أبهم وأخفى : إشعارا بأنه منصب يستحيا من ذكره ، فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم ، ويقولون : لندخلن الجنة قبلهم .

وقيل : معناه ، إنا خلقناهم من نطفة كما خلقنا بنى آدم كلهم ، ومن حكمنا أن لا يدخل أحد الجنة ، إلا بالإيمان والعمل الصالح ، فكيف يطمع فى دخولها من ليس له إيمان وعمل . . »(١) .

ثم ساق — سبحانه — ما يدل على كمال قدرته ، وعلى زيادة التهوين من شأن هؤلاء الكافرين ، والتحقير من أمرهم فقال : فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين . . . .

وجمع — سبحانه — هنا المشارق والمغارب ، باعتبار أن لها فى كل يوم من أيام السنة مشرقا معينا تشرق منه ، ومغربا معينا تغرب فيه .

وقال فى سورة الرحمن « رب المشرقين ورب المغربين » أى : مشرق ومغرب الشتاء والصيف .

وقال فى سورة المزمل : « رب المشرق والمغرب . . » والمراد بهما هنا : جنسهما ، فهما صادقان على كل مشرق من مشارق الشمس ، وعلى كل مغرب من مغاربها . .

وبذلك يتبين أنه لا تعارض بين مجىء هذه الألفاظ تارة مفردة وتارة بصيغة المثنى ، وتارة بصيغة الجمع .

وجملة « إنا لقادرون » : جواب القسم . أى : أقسم بالله — تعالى — الذى هو رب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها . إنا لقادرون قدرة تامة ، على أن نبدل خيرا منهم ، أى : على أن نخلق خلقا آخر خيرا منهم ونهلك هؤلاء المجرمين إهلاكا تاما . . أو على أن نبدل ذواتهم ، فنخلقهم خلقا جديدا يكون خيرا من خلقهم الذى هم عليه . . . فإن قدرتنا لا يعجزها شىء .

وقوله « وما نحن بمسبوقين » معطوف على جواب القسم ومؤكد له .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦١٤ .

أى : إنا لقادرون على ذلك ، وما نحن بمغلوبين أو عاجزين عن أن نأتى بقوم آخرين خير منهم .

وشبيه بهذه الآية قوله — تعالى — : « يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز . . . »(١) .

وقوله - سبحانه - : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم . ثم لا يكونوا أمثالكم »(٢) والمقصود بهذه الآيات الكريمة تهديد المشركين ، وبيان أن قدرته — تعالى — لا يعجزها شىء .

والفاء فى قوله : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا . . . » للتفريع على ما تقدم . والخوض يطلق على السير فى الماء والمراد به هنا : الكلام الكثير الذى لا نفع فيه .

واللعب : اشتغال الإنسان بشىء لا فائدة من ورائه . والمراد به هنا : استهزاؤهم بالحق الذى جاء به النبى — ﷺ — .

أى : ما دام الأمر كما ذكرنا لك — أيها الرسول الكريم — فاترك هؤلاء الكافرين ، ليخوضوا فى باطلهم ، ويلعبوا فى دنياهم ، ولا تلتفت إليهم . .

ودعهم فى هزلهم ولهوهم « حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » وهو يوم القيامة الذى لاشك فى إتيانه ووقوعه .

وقوله « يوم يخرجون من الأجداث سراعا » بدل من « يومهم » . والأجداث جمع جدث — بفتح الجيم والدال — وهو القبر .

---

(١) سورة فاطر الآيات ١٥ ، ١٧

(٢) سورة محمد الآية ٣٨

أى : اتركهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم المحتوم ، وهو اليوم الذى يخرجون فيه من قبورهم مسرعين إلى الداعى . .

«كأنهم إلى نصب يوفضون» والنصب — بضمتين — : حجارة كانوا يعظمونها . وقيل : هى الأصنام ، وسميت بذلك لأنهم كانوا ينصبونها ويقيمونها للعبادة . .

ويوفضون . أى : يسرعون . يقال : وفض فلان يفض وفضاً - كوعد - ، إذا أسرع فى سيره .

أى : يخرجون من قبورهم مسرعين إلى الداعى ، مستبقين إليه ، كما كانوا فى الدنيا يسرعون نحو أصنامهم وآلهتهم لكى يستلموها ، ويلتمسوا منها الشفاعة .

«خاشعة أبصارهم» أى : يخرجون من قبورهم ، حالة كونهم ذليلة خاضعة أبصارهم ، لا يرفعونها لما هم فيه من الخزى والهوان .

«ترهقهم ذلة» أى : تغشاهم ذلة شديدة ، وهوان عظيم . يقال : رهقه الأمر يرهقه رهقا ، إذا غشيه بقهر وغلبة لا يمكن له دفعها . .

«ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون» أى : ذلك الذى ذكرناه من الأهوال ، هو اليوم الذى كانوا يوعدونه فى الدنيا على ألسنة الرسل ، والذى كانوا ينكرون وقوعه ، وهاهو ذا فى حكم الواقع ، لأن كل ما أخبر - تعالى - عنه ، فهو متحقق الوقوع ، كما قال - سبحانه - فى أول السورة : «سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . . .»

وهكذا فتحت السورة بإثبات أن يوم القيامة حق ، واختتمت كذلك بإثبات أن يوم القيامة حق . . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر . مساء الإثنين

٢١ من ذى القعدة سنة ١٤٠٦ هـ

٢٨ من يوليو سنة ١٩٨٦م

تفسیر سورة

« نوح »

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة « نوح » — عليه السلام —

١ — سورة « نوح » — عليه السلام — من السور المكية الخالصة ، وسميت بهذا الاسم لا شتمالها على دعوته — عليه السلام — ، وعلى مجادلته لقومه ، وعلى موقفهم منه ، وعلى دعائه عليهم . . .

وكان نزولها بعد سورة « النحل » ، وقبل سورة « ابراهيم » . . .

وعدد آياتها ثمان وعشرون آية فى المصحف الكوفى ، وتسع وعشرون فى المصحف البصرى والشامى ، وثلاثون آية فى المصحف المكى والمدنى .

٢ — وهذه السورة الكريمة من أولها إلى آخرها ، تحكى لنا ما قاله نوح لقومه ، وما ردوا به عليه ، كما تحكى تضرعه إلى ربه — عز وجل — وما سلكه مع قومه فى دعوته لهم إلى الحق ، تارة عن طريق الترغيب ، وتارة عن طريق الترهيب ، وتارة عن طريق دعوتهم إلى التأمل والتفكر فى نعم الله — تعالى — عليهم ، وتارة عن طريق تذكيرهم بخلقهم . .

كما تحكى أنه — عليه السلام — وبعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما — دعا الله — تعالى — أن يستأصل شأفتهم ، فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا . رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تبارا » .

وقد افتتح — سبحانه — السورة الكريمة بقوله — تعالى — .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

وقصة نوح ــ عليه السلام ــ مع قومه ، قد وردت فى سور متعددة، منها : سور الأعراف ، ويونس ، وهود والشعراء ، والعنكبوت . .

وينتهى نسب نوح ــ عليه السلام ــ إلى شيث بن آدم ، وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاث وأربعين موضعا .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام ، فأرسل الله ــ تعالى ــ إليهم نوحا ليدلهم على طريق الرشاد .

وقد افتتحت السورة هنا بالأسلوب المؤكد بإن ، للاهتمام بالخبر ، وللاتعاظ بما اشتملت عليه القصة من هدايات وإرشادات .

وأن فى قوله « أن أنذر قومك » تفسيرية ، لأنها وقعت بعد أرسلنا ، والإرسال فيه معنى القول دون حروفه . فالجملة لا محل لها من الإعراب .

ويصح أن تكون مصدرية ، أى : بأن أنذر قومك . . والإنذار : هو الإخبار الذى معه تخويف .

وقوم الرجل : هم أهله وخاصته الذين يجتمعون معه فى جد واحد . وقد يقيم الرجل بين الأجانب ، فيسميهم قومه على سبيل المجاز للمجاورة .

أى : إنا قد اقتضت حكمتنا أن نرسل نوحا - عليه السلام - إلى قومه، وقلنا له يا نوح : عليك أن تنذرهم وتخوفهم من عذابنا ، وأن تدعوهم إلى إخلاص العبادة لنا ، من قبل أن ينزل بهم عذاب مؤلم ، لا طاقة لهم بدفعه ، لأن هذا العذاب من الله - تعالى - الذى لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

وقال - سبحانه - « أن أنذر قومك » ولم يقل : أن أنذر الناس ، لإثارة حماسته فى دعوته ، لأن قوم الرجل يحرص الإنسان على منفعتهم، أكثر من حرصه على منفعة غيرهم .

والآية الكريمة صريحة فى أن ما أصاب قوم نوح من عذاب أليم ، كان بسبب إصرارهم على كفرهم ، وعدم استماعهم إلى إنذاره لهم . .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله نوح لقومه فقال : « قال يا قوم إنى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله ، واتقوه ، وأطيعون . . . » .

أى : قال نوح لقومه - على سبيل التلطف فى النصح ، والتقرب إلى قلوبهم - ياقوم ويا أهلى وعشيرتى : إنى لكم منذر واضح الإنذار ، ولا أسألكم على هذا الإنذار الخالص أجرا ، وإنما ألتمس أجرى من الله . .

وإنى آمركم بثلاثة أشياء : أن تخلصوا لله - تعالى - العبادة ، وأن تتقوه فى كل أقوالكم وأفعالكم ، وأن تطيعونى فى كل ما آمركم به وأنهاكم عنه .

وافتتح كلامه معهم بالنداء « ياقوم » ، أملا فى لفت أنظارهم إليه ، واستجابتهم له ، فإن النداء من شأنه التنبيه للمنادى .

ووصف إنذاره لهم بأنه « مبين » ، ليشعرهم بأنه لا لبس فى دعوته لهم إلى الحق ، ولا خفاء فى كونهم يعرفونه ، ويعرفون حرصه على منفعتهم . . .

وقال : « إنى لكم . . » ، للإشارة إلى أن فائدة استجابتهم له ، تعود عليهم لا عليه ، فهو مرسل من أجل سعادتهم وخيرهم .

وأمرهم بطاعته ، بعد أمرهم بعبادة الله وتقواه ، لأن طاعتهم له هى طاعة لله ـ تعالى ـ ، كما قال ـ تعالى ـ : « من يطع الرسول فقد أطاع الله . . »

ثم بين لهم ما يترتب على إخلاص عبادتهم لله ، وخشيتهم منه ـ سبحانه ـ ، وطاعتهم لنبيهم فقال : « يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى . . . . » .

وقوله : « يغفر » مجزوم فى جواب الأوامر الثلاثة . و « من » للتبعيض . أى : يغفر لكم بعض ذنوبكم ، وهى تلك التى اقترفوها قبل إيمانهم وطاعتهم لنبيهم . . أو الذنوب التى تتعلق بحقوق الله ـ تعالى ـ ، دون حقوق العباد . .

ويرى بعضهم أن « من » هنا زائدة لتوكيد هذه المغفرة . أى : يغفر لكم جميع ذنوبكم التى فرطت منكم ، متى آمنتم واتقيتم ربكم ، وأطعتم نبيكم . .

« ويؤخركم إلى أجل مسمى » أى : ويؤخر آجالكم إلى وقت معين عنده ـ سبحانه ـ ، ويبارك لكم فيها ، بأن يجعلها عامرة بالعمل الصالح ، وبالحياة الآمنة الطيبة .

فأنت ترى أن نوحا ـ عليه السلام ـ قد وعدهم بالخير الأخروى وهو مغفرة الذنوب يوم القيامة ، وبالخير الدنيوى وهو البركة فى أعمارهم، وطول البقاء فى هناء وسلام .

قال ابن كثير : « ويؤخركم إلى أجل مسمى » أى : ويمد فى أعماركم ، ويدرأ عنكم العذاب ، الذى إذا لم تنزجروا عما نهاكم عنه : أوقعه ـ سبحانه ـ بكم .

وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم ، يزاد بها في العمر حقيقة ، كما ورد به الحديث : « صلة الرحم تزيد في العمر »(١) .

وقوله : « إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون » بمنزلة التعليل لما قبله . أى : يغفر لكم – سبحانه – من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل معين عنده – تعالى – ، إن الوقت الذى حدده الله - عز وجل - لانتهاء أعماركم ، متى حضر ، لا يؤخر عن موعده ، « لو كنتم تعلمون » . أى : لو كنتم من أهل العلم لاستجبتم لنصائحى ، وامتثلتم أمرى ، وبذلك تنجون من العقاب الدنيوى والأخروى .

قال الآلوسى : قوله « لو كنتم تعلمون » : أى : لو كنتم من أهل العلم لسارعتم لما آمركم به ، لكنكم لستم من أهله فى شىء ، لذالم تسارعوا . فجواب لو مما يتعلق بأول الكلام .

ويجوز أن يكون مما يتعلق بآخره . أى : لو كنتم من أهل العلم لعلمتم ذلك ، أى : عدم تأخير الأجل إذا جاء وقته المقدر له . والفعل فى الوجهين منزل منزلة اللازم . . . »(٢) .

ثم قصت علينا الآيات الكريمة بعد ذلك ، ما قاله نوح لربه ، على سبيل الشكوى والضراعة ، وما وجهه إلى قومه من نصائح فيها ما فيها من الترغيب والترهيب ، ومن الإرشاد الحكيم ، والتوجيه السديد . . . قال – تعالى – :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٥٨ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٧١ .

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيٓ
إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ
ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ
إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾
فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم
مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل
لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ
أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾
وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم
مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ
جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

وقوله – تعالى – : « قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى إلا فرارا . . . » بيان للطرق والمسالك التى سلكها نوح مع قومه ، وهو يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله – تعالى – ، بحرص شديد ومواظبة تامة . . . وموقف قومه من دعوته لهم .

والمقصود بهذا الخبر لازم معناه ، وهو الشكاية إلى ربه ، والتمهيد

لطلب النصر منه — تعالى — عليهم ، لأنه — سبحانه — لا يخفى عليه أن نوحا — عليه السلام — لم يقصر فى تبليغ رسالته .

أى : قال نوح متضرعا إلى ربه : يارب إنك تعلم أننى لم أقصر فى دعوة قومى إلى عبادتك ، تارة بالليل وتارة بالنهار ، من غير فتور ولا توان .

« فلم يزدهم دعائى لهم » إلى عبادتك وطاعتك « إلا فرارا » أى : إلا تباعدا من الإيمان وإعراضا عنه . والفرار : الزوغان والهرب . يقال فرفلان فرارا ، فهو فرور ، إذا هرب من طالبه ، وزاغ عن عينه .

والتعبير بقوله : « دعوت قومى ليلا ونهارا » ، يشعر بحرص نوح القام على دعوتهم ، فى كل وقت ، يظن فيه أن دعوته لهم قد تنفع . .

كما أن التعبير بقوله : « فلم يزدهم دعائى إلا فرارا » يدل دلالة واضحة على إعراضهم التام عن دعوته . أى : فلم يزدهم دعائى شيئا من الهدى ، وإنما زادهم بعداً عنى ، وفرارا منى .

وإسناد الزيادة إلى الدعاء ، من باب الإسناد إلى السبب ، كما فى قولهم: سرتنى رؤيتك .

وقوله « فرارا » مفعول ثان لقوله « فلم يزدهم » والاستثناء مفرغ من عموم الأحوال . والمثنى منه مقدر . أى : فلم يزدهم دعائى شيئا من أحوالهم التى كانوا عليها إلا الفرار .

ويصح أن يكون الاستثناء منقطعا . أى : فلم يزدهم دعائى قربا من الحق ، لكن زادهم فرارا منه .

ثم أضاف إلى فرارهم منه ، حالة أخرى ، تدل على إعراضهم عنه ، وعلى كراهيتهم له ، فقال : « وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا » .

وقوله : « كلما » معمول لجملة : « جعلوا » التى هى خبر إن ، واللام فى قوله « لتغفرلهم » للتعليل .

والمراد بأصابعهم : جزء منها . واستغشاء الثياب معناه : جعلها غشاء ، أى : غطاء لرءوسهم ولأعينهم حتى لا ينظروا إليه ، ومتعلق الفعل « دعوتهم » محذوف لدلالة ما تقدم عليه ، وهو أمرهم بعبادة الله وتقواه . . .

والمعنى : وإنى — يامولاى — كلما دعوتهم إلى عبادتك وتقواك وطاعتى فيما أمرتهم به ، لكى تغفر لهم ذنوبهم . . ما كان منهم إلا أن جعلوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا قولى ، وإلا أن وضعوا ثيابهم على رءوسهم وأبصارهم حتى لا يرونى ، وإلا أن « أصروا » إصرارا تاما على كفرهم « واستكبروا استكبارا » عظيما عن قبول الحق ، فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة ، قد صورت عناد قوم نوح ، وجحودهم للحق ، تصويرا بلغ الغاية فى استحبابهم العمى على الهدى .

فهى — أولا — جاءت بصيغة « كلما » الدالة على شمول كل دعوة وجهها إليهم نبيهم نوح — عليه السلام — أى : فى كل وقت أدعوهم إلى الهدى يكون منهم الإعراض . .

وهى — ثانيا — عبرت عن عدم استماعهم إليه بقوله — تعالى — : « جعلوا أصابعهم فى آذانهم » . وعبر عن الأنامل بالأصابع على سبيل المبالغة فى إرادة سد المسامع ، فكأنهم لو أمكنهم إدخال أصابعهم جميعها فى آذانهم لفعلوا ، حتى لا يسمعوا شيئا مما يقوله نبيهم لهم .

فإطلاق اسم الأصابع على الأنامل من باب المجاز المرسل ، لعلاقة البعضية ، حيث أطلق — سبحانه — الكل وأراد البعض ، مبالغة فى كراهيتهم لسماع كلمة الحق .

وهى — ثالثا — عبرت عن كراهيتهم لنبيهم ومرشدهم بقوله — تعالى — : « واستغشوا ثيابهم » أى : بالغوا فى التغطى بها ، حتى لكأنهم قد طلبوا منها أن تلفهم بداخلها حتى لا يتسنى لهم رؤيته إطلاقا .

وهذا كناية عن العداوة الشديدة ، ومنه قول القائل : لبس لى فلان ثياب العداوة .

وهى — رابعاً — قد بينت بأنهم لم يكتفوا بكل ذلك ، بل أضافوا إليه الاصرار على الكفر ، — وهو التشدد فيه ، والامتناع من الإقلاع عنه مأخوذ من الصرة بمعنى الشدة — والاستكبار العظيم عن الاستجابة للحق .

فقد أفادت هذه الآية ، أنهم عصوا نوحا وخالفوه مخالفة ليس هناك ما هو أقبح منها ظاهرا ، حيث عطلوا أسماعهم وأبصارهم ، وليس هناك ما هو أقبح منها باطنا ، حيث أصروا على كفرهم ، واستكبروا على اتباع الحق .

ومع كل هذا الإعراض والعناد . . فقد حكت لنا الآيات بعد ذلك ، أن نوحا — عليه السلام — قد واصل دعوته لهم بشتى الأساليب ، فقال — كما حكى القرآن عنه — : « ثم إنى دعوتهم جهارا » .

وقوله : « جهارا » صفة لمصدر محذوف ، أى : دعوتهم دعاء جهارا . أى : مجاهرا لهم بدعوتى ، بحيث صارت دعوتى لهم أمامهم جميعا .

« ثم إنى أعلنت لهم » تارة « وأسررت لهم إسرارا » تارة أخرى .

أى : أنه — عليه السلام — توخى ما يظنه يؤدى إلى نجاح دعوته ، وراعى أحوالهم فى ذلك ، فهو تارة يدعوهم جهرا ، وتارة يدعوهم سرا ، وتارة يجمع بين الأمرين .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ذكر أنه دعاهم ليلا ونهارا ،

ثم دعاهم جهارا ، ثم دعاهم فى السر والعلن ، فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصح العطف ؟

قلت : قد فعل — عليه السلام — كما يفعل الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فى الابتداء بالأهون والترقى فى الأشد ، فافتتح بالمناصحة فى السر ، فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة ، فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان .

ومعنى « ثم » : الدلالة على تباعد الأحوال ، لأن الجهار أغلظ من الإسرار ، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما . . . »(١) .

ثم حكى — سبحانه — جانبا من إرشادات نوح لقومه فقال : « فقلت استغفروا ربكم . . . » .

أى : فقلت لهم — على سبيل النصح والإرشاد إلى ما ينفعهم ويغريهم بالطاعة — : « استغفروا ربكم » بأن تتوبوا إليه ، وتقلعوا عن كفركم وفسوقكم « إنه » — سبحانه — « كان غفارا » .

أى : كثير الغفران لمن تاب إليه وأناب .

« يرسل السماء عليكم مدرارا » ، والمراد بالسماء هنا : المطر لأنه ينزل منها وقد جاء فى الحديث الشريف أن من أسماء المطر السماء ، فقد روى الشيخان عن زيد بن خالد الجهنى أنه قال : صلى لنا رسول الله — ﷺ — صلاة الصبح بالحديبية ، على إثر سماء كانت من الليل . . » أى : على إثر أمطار كانت نازلة بالليل . . .

ومنه قول بعض الشعراء :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

والمدرار : المطر الغزير المتتابع . يقال : درت السماء بالمطر ،

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦١٦ .

إذا نزل منها بكثرة وتتابع ، والدر ، والدرور معناه : السيلان . فقوله « مدرارا » صيغة مبالغة منهما .

أي : استغفروا ربكم وتوبوا إليه ، فإنكم إذا فعلتم ذلك أرسل الله — تعالى — عليكم بفضله ورحمة ، أمطارا غزيرة متتابعة ، لتنتفعوا بها في مختلف شئون حياتكم .

وفضلا عن ذلك : « ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات » أي : بساتين عظيمة ، « ويجعل لكم أنهارا » جارية تحت أشجار هذه الجنات ، لتزداد جمالا ونفعا . .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : إن قوم نوح لما كذبوه زمانا طويلا ، حبس الله عنهم المطر ، وأعقم أرحام نسائهم . . فرجعوا إلى نوح فقال لهم : استغفروا ربكم من الشرك ، حتى يفتح عليكم أبواب نعمه .

واعلم أن الاشتغال بالطاعة ، سبب لانفتاح أبواب الخيرات ، ويدل عليه وجوه : أحدها : أن الكفر سبب لخراب العالم . . والإيمان سبب لعمارة العالم . وثانيها : الآيات الكثيرة التي وردت في هذا المعنى ، ومنها قوله — تعالى — : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . . وثالثها : أن عمر خرج يستسقى فما زاد على الاستغفار . فقيل له ما رأيناك استسقيت ؟ فقال : لقد استسقيت لكم بمجاديح السماء — والمجاديح : جمع مِجدَح — بكسر فسكون — وهو نجم من النجوم المعروفة عند العرب . .

وشكا رجل إلى الحسن البصرى الفاقة ، وشكا إليه آخر الجدب ، وشكا إليه ثالث قلة النسل . . فأمر الجميع بالاستغفار . . فقيل له : أتاك رجال يشكون إليك أنواعا من الحاجة ، فأمرتهم جميعا بالاستغفار ؟ فتلا الحق هذه الآيات الكريمة »(١) .

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٨ ص ٢١٥ .

وما قاله الإمام الرازى ــ رحمه الله ــ ، يؤيده القرآن الكريم فى كثير من آياته ، ويؤيده واقع الحياة التى نحياها ونشاهد أحداثها . .

أما آية القرآن الكريم فمنها قوله ــ تعالى ــ : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا »(١) .

وقوله ــ سبحانه ــ : على لسان هود ــ عليه السلام ــ : « وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم . . »(٢) .

وقال ـ عز وجل ـ : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة . . »(٣) .

وأما واقع الحياه ، فإننا نشاهد بأعيننا الأمم التى تطبق شريعة الله ــ تعالى ــ ، وتعمل بما جاء به النبى ــ ﷺ ــ ، من آداب وأحكام وهدايات . . .

نرى هذه الأمم سعيدة فى حياتها ، آمنة فى أوطانها ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، وإذا أصابها شىء من النقص فى الأنفس أو الثمرات . . فذلك من باب الامتحان الذى يمتحن الله ــ تعالى ــ به عباده ، والذى لا يتعارض مع كون العاقبة الطيبة إنما هى لهذه الأمم الصادقة فى إيمانها . .

وما يجرى على الأمم والشعوب ، يجرى ــ أيضا ــ على الأفراد والجماعات ، فتلك سنة الله التى لا تتغير .

أما الأمم الفاسقة عن أمر ربها ، فإنها مهما أوتيت من ثراء وبسطة فى الرزق . . فإن حياتها دائما تكون متلبسة بالقلق النفسى ، والشقاء

(١) سورة الجن . الآية ١٦ .
(٢) سورة هود . الآية ٥٢
(٣) سورة النحل الآية ٩٧

القلبى ، والاكتئاب الذى يؤدى إلى فساد الحال ، واضطراب البال .

وقوله - سبحانه - بعد ذلك حكاية عن نوح - عليه السلام - : « ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا » : بيان لما سلكه نوح فى دعوته لقومه ، من جمعه بين الترغيب والترهيب .

فهو بعد أن أرشدهم إلى أن استغفارهم وطاعتهم لربهم ، تؤدى بهم إلى البسطة فى الرزق . . أتبع ذلك بزجرهم لسوء أدبهم مع الله - تعالى - ، منكرا عليهم استهتارهم واستخفافهم بما يدعوهم إليه .

وقوله : « ما لكم » مبتدأ وخبر ، وهو استفهام قصد به توبيخهم والتعجيب من حالهم .

ولفظ « ترجون » يرى بعضهم أنه بمعنى تعتقدون . والوقار معناه : التعظيم والإجلال . .

والأطوار : جمع طور ، وهو المرة والتارة من الأفعال والأزمان . .

أى : ما الذى حدث لكم - أيها القوم - حتى صرتم لا تعتقدون لله - تعالى - عظمة أو إجلالا ، والحال أنه - سبحانه - هو الذى خلقكم وأوجدكم فى أطوار متعددة ، نطفة ، فعلقة ، فمضغة . .

كما قال - سبحانه - : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين »(١) .

وكما قال - تعالى - « الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء ، وهو العليم القدير »(٢) .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١٢ ، ١٤

(٢) سورة الروم . الآية ٥٤

قال القرطبى ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : « ما لكم لا ترجون لله وقارا . . » قيل الرجاء هنا بمعنى الخوف .

أى : ما لكم لا تخافون لله عظمة وقدرة على أحدكم بالعقوبة . .
وقيل المعنى : ما لكم لا تعلمون لله عظمة . . أو لا ترون لله عظمة .. أو لا تبالون أن لله عظمة . . والوقار : العظمة ، والتوقير : التعظيم .. »(١)

وبعد هذا الترغيب والترهيب والتوبيخ . . أخذ فى لفت أنظارهم إلى صنع الله فى خلقه ، فقال : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا » .

والاستفهام فى قوله : « ألم تروا . . » للتقرير . والرؤية : بصرية وعلمية ، لأنهم يشاهدون مخلوقات الله ـ تعالى ـ ويعلمون أنه ـ سبحانه ـ هو الخالق . و « طباقا » : أى : متطابقة كل طبقة أعلى من التى تحتها .

أى : لقد علمتم ورأيتم أن الله ـ تعالى ـ هو الذى خلق « سبع سماوات » متطابقة ، بعضها فوق بعض « وجعل القمر فيهن نورا » أى : وجعل ـ سبحانه ـ بقدرته القمر فى السماء الدنيا نورا للأرض ومن فيها .

وإنما قال « فيهن » مع أنه فى السماء الدنيا ، لأنها محاطة بسائر السموات فما فيها يكون كأنه فى الكل . أو لأن كل واحدة منها شفافة ، فيرى الكل كأنه سماء واحدة ، فساغ أن يقال : فيهن .

وقوله : « وجعل الشمس سراجا » أى : كالسراج فى إضاءتها وتوهجها وإزالة ظلمة الليل إذ السراج هو المصباح الزاهر نورا ، الذى يضىء ما حوله . . .

قال الآلوسى : قوله : « وجعل القمر فيهن نورا » أى : منور لوجه الأرض فى ظلمة الليل ، وجعله فيهن مع أنه فى إحداهن ـ وهى السماء

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٨ ص ٣٠٣

الدنيا - كما يقال : زيد فى بغداد وهو فى بقعة منها ، والمرجح له الإيجاز والملابسة بالكلية والجزئية ، وكونها طباقا شفافة .

« وجعل الشمس سراجا » يزيل الظلمة . . . . وتنوينه للتعظيم ، وفى الكلام تشبيه بليغ ، ولكون السراج أعرف وأقرب ، جعل مشبها به ، ولاعتبار التعدى إلى الغير فى مفهومه بخلاف النور ، كان أبلغ منه . » (١) .

وقال بعض العلماء : وفى جعل القمر نورا ، إيماء إلى أن ضوء القمر ليس من ذاته ، فإن القمر مظلم ، وإنما يستضىء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه ، بحسب اختلاف ذلك الاستقبال من تبعض وتمام ، هو أثر ظهوره هلالا . . ثم بدرا .

وبعكس ذلك جعلت الشمس سراجا ، لأنها ملتهبة ، وأنوارها ذاتية فيها ، صادرة عنها إلى الأرض وإلى القمر ، مثل أنوار السراج تملأ البيت . . » (٢) .

ثم انتقل نوح — عليه السلام — من تنبيههم إلى ما فى خلق السموات والشمس والقمر من دلالة على وحدانية الله وقدرته .. إلى لفت أنظارهم إلى التأمل فى خلق أنفسهم ، وفى مبدئهم وإعادتهم إلى الحياة مرة أخرى بعد موتهم ، فقال - كما حكى القرآن عنه - : «والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا » .

والمراد بأنبتكم : أنشأكم وأوجدكم ، فاستعير الإنبات للإنشاء للمشابهة بين إنبات النبات ، وإنشاء الإنسان ، من حيث إن كليهما تكوين وإيجاد للشىء بقدرته — تعالى — .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى حـ ٢٩ صـ ٧٥

(٢) راجع تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور حـ ٢٩ صـ ٢٠٤

والمراد بأنبتكم : أنبت أصلكم وهو أبوكم آدم ، فأنتم فروع عنه . و « نباتا » مصدر لأنبت على حذف الزوائد ، فهو مفعول مطلق لأنبتكم ، جيء به للتوكيد ، ومصدره القياسي « إنباتا » ، واختير « نباتا » لأنه أخف

قال الجمل : قوله « نباتا » يجوز أن يكون مصدرا لأنبت على حذف الزوائد ، ويسمى اسم مصدر ، ويجوز أن يكون مصدرا لنبتم مقدرا . أي : فنبتم نباتا ، فيكون منصوبا بالمطاوع المقدر . » (١) .

أي : والله — تعالى — هو الذي أوجد وأنشأ أباكم آدم من الأرض إنشاء ، وجعلكم فروعا عنه ، ثم يعيدكم إلى هذه الأرض بعد موتكم لتكون قبورا لكم ، ثم يخرجكم منها يوم البعث للحساب والجزاء .

وعبر — سبحانه — عن الإنشاء بالإنبات ، لأن هذا التعبير يشعر بأن الإنسان مخلوق محدث ، وأنه مثل النبات يحصد ثم يعود إلى الحياة مرة أخرى .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : استعير الإنبات للإنشاء كما يقال : زرعك الله للخير . وكانت هذه الاستعارة أدل دليل على الحدوث لأنهم إذا كانوا نباتا كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات . » (٢) .

ثم ختم نوح — عليه السلام — إرشاداته لقومه ، بلفت أنظارهم إلى نعمة الأرض التي يعيشون عليها ، فقال : « والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا » .

أي : والله — تعالى — وحده هو الذي جعل لكم - بفضله ومنته -

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٤ صـ ٤١٢

(٢) تفسير الكشاف حـ ٤ صـ ٦١٨

الأرض مبسوطة ، حيث تتقلب عليها كما يتقلب النائم على البساط .

وجعلها لكم كذلك « لتسلكوا منها سبلا » أى : لكى تتخذوا منها لأنفسكم طرقا « فجاجا » أى : متسعة جمع فج وهو الطريق الواسع .

وقوله : « بساطا » تشبيه بليغ . أى : جعلها لكم كالبساط ، وهذا لا يتنافى مع كون الأرض كروية ، لأن الكرة إذا عظمت جدا ، كانت القطعة منها كالسطح والبساط فى إمكان الانتفاع بها ، والتقلب على أرجائها

وهكذا نرى أن نوحا — عليه السلام — قد سلك مع قومه مسالك متعددة ، لإقناعهم بصحة ما يدعوهم إليه ، ولحملهم على طاعته ، والإيمان بصدق رسالته .

لقد دعاهم بالليل والنهار ، وفى السر وفى العلانية ، وبين لهم أن طاعتهم لله — تعالى — تؤدى إلى إمدادهم بالأموال والأولاد ، والجنات والأنهار ووبخهم على عدم خشيتهم من الله — تعالى — ، وذكرهم بأطوار خلقهم ، ولفت أنظارهم إلى بديع صنعه — سبحانه — فى خلق السموات والشمس والقمر ، ونبههم إلى نشأتهم من الأرض ، وعودتهم إليها ، وإخراجهم منها للحساب والجزاء ، وأرشدهم إلى نعم الله — تعالى — فى جعل الأرض مبسوطة لهم .

وهكذا حاول نوح - عليه السلام - أن يصل إلى آذان قومه وإلى عقولهم وقلوبهم . بشتى الأساليب الحكيمة ، والتوجيهات القويمة . فى صبر طويل وإرشاد دائم .

ولكن قومه كانوا قد بلغوا الغاية فى الغباء والجهالة والعناد والطغيان الذى نرى السورة الكريمة تحكى عن نوح - عليه السلام - ضراعته إلى ربه ، والتماسه منه - تعالى - استئصال شأفتهم ، وقطع دابرهم ، ولنستمع فى تدبر إلى قوله - تعالى - :

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ
إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ
وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا
كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا
فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ
نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن
تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ
لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

وقوله — سبحانه — : « قال نوح رب إنهم عصونى ، واتبعوا . . . » كلام مستأنف ، لأن ما سبقه يستدعى سؤالا تقديره : ماذا كانت عاقبة قوم نوح بعد أن نصحهم ووعظهم بتلك الأساليب المتعددة ؟ فكان الجواب : « قال نوح » — عليه السلام — بعد أن طال نصحه لقومه ، وبعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وبعد أن يئس من إيمانهم وبعد أن أخبره — سبحانه — أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن .

« قال » متضرعا إلى ربه « رب إنهم عصونى » أى : إن قومى قد عصونى وخالفوا أمرى ، وكرهوا صحبتى ، وأصروا واستكبروا استكبارا عظيما عن دعوتى .

« واتبعوا من يزده ماله وولده إلا خسارا » أى : إنهم أصروا على معصيتى ، ولم يكتفوا بذلك بل بجانب إعراضهم عنى ، اتبعوا غيرى . . . اتبعوا رؤساءهم أهل الأموال والأولاد ، الذين لم تزدهم النعم التى أنعمت بها عليهم إلا خسرانا وجحودا ، وضلالا فى الدنيا ، وعقوبة فى الآخرة.

فالمراد بالذين لم يزدهم مالهم وولدهم إلا خسارا : أولئك الكبراء والزعماء الذين رزقهم الله المال والولد ، ولكنهم استعملوا نعمه فى معصيته لا فى طاعته .

وقوله : « ومكروا مكرا كبارا » صفة أخرى من صفاتهم الذميمة . وهو معطوف على صلة « من » ، والجمع باعتبار معناها ، كما أن الإفراد فى الضمائر السابقة باعتبار اللفظ .

والمكر : هو التدبير فى خفاء لإنزال السوء بالممكور به .

أى : أن هؤلاء الزعماء الذين استعملوا نعمك فى الشر ، لم يكتفوا بتحريض أتباعهم على معصيتى ، بل مكروا بى وبالمؤمنين مكرا قد بلغ النهاية فى الضخامة والعظم .

فقوله : « كبارا » مبالغة فى الكبر والعظم . أى : مكرا كبيرا جدا لا تحيط بحجمه العبارة .

وكان من مظاهر مكرهم : تحريضهم لسفلتهم على إنزال الأذى بنوح ـ عليه السلام ـ وبأتباعه ، وإيهامهم لهؤلاء السفلة أنهم على الحق ، وأن نوحا ومن معه على الباطل .

وكان من مظاهر مكرهم ـ أيضا ـ ما حكاه القرآن بعد ذلك عنهم فى قوله : « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . . . » .

أى : ومن مظاهر مكر هؤلاء الرؤساء أنهم قالوا لأتباعهم : احذروا

أن تتركوا عبادة آلهتكم . التي وجدتم على عبادتها آباءكم ، واحذروا أيضا أن تتركوا عبادة هذه الأصنام الخمسة بصفة خاصة ، وهى : ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر . .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : وهذه أسماء أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله . فقد روى البخارى عن ابن عباس صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد ، أما «ود» فكانت لقبيلة بنى كلب بدومة الجندل . وأما «سواع» فكانت لهذيل وأما «يغوث» فكانت لبنى غطيف ، وأما «يعوق» فكانت لهمدان ، وأما «نسر» فكانت لحمير .

وهى أسماء رجال صالحين من قوم نوح — عليه السلام — ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم ، أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون عليها أنصابا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا . . .

وقال ابن جرير : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون ، دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر . فعبدوهم . . »(١) .

وقوله — تعالى — : «وقد أضلوا كثيرا ، ولا تزد الظالمين إلا ضلالا» معمول لقول مقدر ، وهذا القول المقدر معطوف على أقوال نوح السابقة .

أى : قال نوح منا جيا ربه بعد أن يئس من إيمان قومه ، يارب ، إن قومى قد عصونى ، وإنهم قد اتبعوا رؤساءهم المغرورين ، وإن هؤلاء الرؤساء قد مكروا بى وبأتباعى مكرا عظيما ، ومن مظاهر مكرهم أنهم حرضوا السفهاء على العكوف على عبادة أصنامهم ، . . وأنهم قد أضلوا خلقا كثيرا ، بأن حببوهم فى الكفر وكرهوا إليهم الإيمان .

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٦٢ .

وقال نوح - أيضاً - وأسالك يارب أن لا تزيد الكافرين إلا ضلالا على ضلالهم، فأنت الذى أخبرتنى بأنه «لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن».

وإذا قد عاء نوح - عليه السلام - عليهم بالازدياد من الضلال الذى هو ضد الهدى، إنما كان بعد أن يئس من إيمانهم، وبعد أن أخبره ربه أنهم لن يؤمنوا..

قال صاحب الكشاف: قوله: «وقد أضلوا كثيرا» الضمير للرؤساء، ومعناه: وقد أضلوا كثيرا قبل هؤلاء الذين أمروهم بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام.. ويجوز أن يكون الضمير للأصنام، كقوله - تعالى «إنهن أضللن كثيرا من الناس».

فإن قلت: علام عطف قوله: «ولا تزد الظالمين إلا ضلالا»؟ قلت: على قوله «رب إنهم عصون» على حكاية كلام نوح.. ومعناه: قال رب إنهم عصون، وقال: ولا تزد الظالمين إلا ضلالا...

فإن قلت: كيف جاز أن يريدلهم الضلال، ويدعو الله بزيادته؟ قلت: لتصميمهم على الكفر، ووقوع اليأس من إيمانهم.. ويجوز أن يريد بالضلال، الضياع والهلاك...»(١).

وقوله - سبحانه -: «مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا» كلام معترض بين ضراعات نوح إلى ربه، والمقصود به التعجيل ببيان سوء عاقبتهم، والتسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه.

و«من» فى قوله «مما خطيئاتهم» للتعليل، و«ما» مزيدة لتأكيد هذا التعليل.

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٢٠.

والخطيئات جمع خطيئة ، والمراد بها هنا : الإشراك به — تعالى — وتكذيب نوح — عليه السلام — ، والسخرية منه ومن المؤمنين . .

أى : بسبب خطيئاتهم الشنيعة ، وليس لسبب آخر « أغرقوا فأدخلوا نارا » يصلون سعيرها فى قبورهم إلى يوم الدين ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

وهم عند ما نزل بهم الطوفان الذى أهلكهم ، وعندما ينزل بهم عذاب الله فى الآخرة ، لن يجدوا أحدا ينصرهم ويدفع عنهم عذابه — تعالى — لا من الأصنام التى تواصوا فيما بينهم بالعكوف على عبادتها ، ولا من غير هذه الأصنام . .

فالآية الكريمة تعريض بمشركى قريش ، الذين كانوا يزعمون أن أصنامهم ستشفع لهم يوم القيامة ، والذين حكى القرآن عنهم قولهم : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

والتعبير بالفاء فى قوله : « أغرقوا فأدخلوا نارا ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » للإشعار بأن دخولهم النار كان فى أعقاب غرقهم بدون مهلة ، وبأن صراخهم وعويلهم كان بعد نزول العذاب بهم مباشرة ، إلا أنهم لم يجدوا أحدا ، يدفع عنهم شيئا من هذا العذاب الأليم .

ثم واصلت السورة الكريمة حكاية ما ناجى نوح به ربه ، فقالت : « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . . . » .

أى : وقال نوح متابعا حديثه مع ربه ، ومناجاته له ، يارب ، لا تترك على الأرض من هؤلاء الكافرين « ديارا » أى : واحدا يسكن دارا ، أو واحدا منهم يدور فى الأرض ويتحرك عليها ، بل خذهم جميعا أخذ عزيز مقتدر .

فقوله «ديارا» مأخوذ من الدار، أو من الدوران، وهو التحرك. والمقصود: لا تذر منهم أحدا أصلا، بل اقطع دابرهم جميعا.

قالوا: والديار من الأسماء التى لا تستعمل إلا فى النفى العام. يقال: ما بالدار ديار، أى: ليس بها أحد ألبتة. وهو اسم بزنة فيعال...

وقوله «إنك إن تذرهم يضلوا عبادك...» تعليل لدعائه عليهم جميعا بالهلاك. أى: يارب لا تترك منهم أحدا سالما، بل اهلكهم جميعاً لأنك إن تترك منهم أحدا على أرضك بدون إهلاك، فإن هؤلاء المتروكين من دأبهم – كما رأيت ذلك منهم زمانا طويلا – إضلال عبادك عن طريق الحق...

وقوله: «ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا» زيادة فى ذمهم وفى التشنيع عليهم والفاجر: هو المتصف بالفجور، الملازم له ملازمة شديدة، والفجور: هو الفعل البالغ النهاية فى الفساد والقبح.

والكفار: هو المبالغ فى الكفر، والجحود لنعم الله – تعالى –

أى: إنك يا إلهى إن تتركهم بدون إهلاك، يضلوا عبادك عن كل خير، وهم فوق ذلك، لن يلدوا إلا من هو مثلهم فى الفجور والكفران، لأنهم قد نشأوا أولادهم على كراهية الحق، وعلى محبه الباطل.

قال الجمل: فإن قيل: كيف علم نوح أن أولادهم يكفرون؟ أجيب، بأنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعرف طباعهم وأحوالهم، وكان الرجل منهم ينطلق إليه بابنه ويقوله: احذر هذا – أى نوحا – فإنه كذاب، وإن أبى حذرنى منه، فيموت الكبير، وينشأ الصغير على ذلك»(١).

وعلى أية حال فالذى نعتقده أن نوحا – عليه السلام – مادعا عليهم

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤١٥.

بهذا الدعاء ، وما قال فى شأنهم هذا القول ـ وهو واحد من أولى العزم من الرسل ــ إلا بعد أن يئس من إيمانهم ، وإلا بعد أن أخبره ربه « أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » ، وإلا بعد أن رأى منهم ــ بعد ألف سنة إلا خمسين عاماً عاشها معهم ــ أنهم قوم قد استحبوا العمى على الهدى ، وأن الأبناء منهم يسيرون على طريقة الآباء فى الكفر والفجور . . . وإلى جانب دعاء نوح ــ عليه السلام ــ على الكافرين بالهلاك الساحق . . . نراه يختتم دعاءه بالمغفرة والرحمة للمؤمنين ، فيقول: « رب اغفر لى ولوالدى . . . » .

أى : يارب أسالك أن تغفر لى ذنوبى ، وأن تغفر لوالدى ــ أيضاً ــ ذنوبهما ، ويفهم من هذا الدعاء أنهما كانا مؤمنين ، وإلا لما دعا لهما بهذا الدعاء . .

« ولمن دخل بيتى مؤمنا » أى : واغفر يا إلهى لكل من دخل بيتى وهو متصف بصفة الإيمان ، فيخرج بذلك من دخله وهو كافر كامرأته وابنه الذى غرق مع المغرقين .

« وللمؤمنين والمؤمنات » أى : واغفر يارب ذنوب المؤمنين والمؤمنات بك إلى يوم القيامة .

« ولا تزد الظالمين إلا تبارا » أى : ولا تزد الظالمين إلا هلاكا وخسارا ودمارا . يقال : تبره يتبره ، إذا أهلكه . ويتعدى بالتضعيف فيقال : تبره الله تتبيرا ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : « إن هؤلاء متبر ماهم فيه » .

وهكذا اختتمت السورة الكريمة بهذا الدعاء الذى فيه طلب المغفرة للمؤمنين ، والهلاك للكافرين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة ـ مدينة نصر ـ صباح الجمعة ٢٦ من ذى القعدة سنة ١٤٠٦

١ / ٨ / ١٩٨٦

تفسير سورة

«الجن»

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة «الجن»

١ — سورة «الجن» من السور المكية الخالصة، وتسمى بسورة «قل أوحى...»، وعدد آياتها ثمان وعشرون آية بلا خلاف، وكان نزولها بعد سورة «الأعراف» وقبل سورة «يس» وقد سبقها في ترتيب النزول ثمان وثلاثون سورة، إذ هي السورة التاسعة والثلاثون — كما ذكر السيوطي —

أما ترتيبها في المصحف، فهي السورة الثانية والسبعون.

٢ — والمتدبر لهذه السورة الكريمة، يراها قد أعطتنا صورة واضحة عن عالم الجن، فهي تحكي أنهم أعجبوا بالقرآن الكريم، وأن منهم الصالح ومنهم غير الصالح، وأنهم لا يعلمون الغيب، وأنهم أهل للثواب والعقاب، وأنهم لا يملكون النفع لأحد، وأنهم خاضعون لقضاء الله — تعالى — فيهم..

كما أن هذه السورة قد ساقت لنا ألوانا من سنن الله التي لا تتخلف، والتي منها: أن الذين يستقيمون على طريقه يحيون حياة طيبة في الدنيا والآخرة...

كما أنها لقنت النبي — صلى الله عليه وسلم — الإجابات التي يرد بها على شبهات المشركين وأكاذيبهم، وساقت له ما يسليه عن سفاهاتهم، وما يشرح صدره، ويعينه على تبليغ رسالة ربه..

ويبدو أن نزول هذه السورة الكريمة كان في حوالى السنة العاشرة، أو الحادية عشرة، من البعثة — كما سنرى ذلك من الروايات —، وأن نزولها كان دفعة واحدة..

وقد افتتحت هذه السورة بقوله — تعالى —:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا
عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾
وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ
سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ
مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ
ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا
وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ
لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ
أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ
كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ
بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا
ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات روايات منها ما أخرجه الشيخان والترمذى، عن ابن عباس أنه قال : انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم - فى طائفة من أصحابه، عامدين إلى سوق عكاظ بنخلة، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا : ما ذاك إلا لشىء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر - من الجن - الذين أخذوا نحو تهامة، عامدين إلى سوق عكاظ، فوجدوا الرسول — صلى الله عليه وسلم — بنخلة يصلى بأصحابه صلاة الصبح، فلما سمعوا القرآن، استمعوا إليه وقالوا : هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء.

فرجعوا إلى قومهم فقالوا : يا قومنا، إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا، وأنزل الله — تعالى — على نبيه « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن . . . ».

وروى أبو داود عن علقمة عن ابن مسعود عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : أتانى داعى الجن، فذهبت معهم، فقرأت عليهم القرآن . . .

وهناك رواية ثالثة لابن إسحاق ملخصها : أنه لما مات أبو طالب، خرج النبى — صلى الله عليه وسلم — إلى الطائف يلتمس النصرة من أهلها ويدعوهم إلى الإيمان . . فأغروا به سفهاءهم، يسبونه ويستهزئون به . .

فانصرف — صلى الله عليه وسلم — عنهم، حتى إذا كان ببطن نخلة - وهو موضع بين مكة والطائف - قام يصلى من الليل، فمر به نفر من جن نصيبين - وهو موضع قرب الشام - فاستمعوا إليه، فلما فرغ من صلاته

ولوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا ، فقص الله - تعالى - خبرهم عليه . . » .

وهناك روايات أخرى فى عدد هؤلاء الجن ، وفى الأماكن التى التقوا فيها مع النبى - صلى الله عليه وسلم - وفيما قرأه الرسول - صلى الله عليه وسلم - عليهم ، وفيمن كان معه من الصحابة خلال التقائه بهم . . .

ويبدو لنا من مجموع الروايات ، أن لقاء النبى - صلى الله عليه وسلم - بالجن قد تعدد ، وأنهم تارة استمعوا إليه - صلى الله عليه وسلم - دون أن يراهم ، وتارة التقى بهم وقرأ عليهم القرآن (١) .

قال الآلوسى : وقد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن كانت ست مرات ، ويجمع بذلك بين اختلاف الروايات فى عددهم وفى غير ذلك . وذكر ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : صرفت الجن إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مرتين . . » (٢) .

قال القرطبى : واختلف أهل العلم فى أصل الجن . فعن الحسن البصرى . أن الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون ، وهم شركاء فى الثواب والعقاب ، فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولى الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان . . .

وعن ابن عباس : أن الجن هم ولد الجان وليسوا بشياطين ، ومنهم المؤمن الكافر ، والشياطين هم ولد إبليس ، لا يموتون إلا مع إبليس . (٣)

---

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٦ ص ٢١٠ و ج ١٩ ص ٢ ، وتفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٧٢

(٢) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ٣٠ و ج ٢٩ ص ٨٣

(٣) راجع تفسير القرطبى ج ١٩ ص ٥

وقال بعض العلماء : عالم الجن من العوالم الكونية ، كعالم الملائكة وقد أخبر الله ـ تعالى ـ أنه خلقه من مارج من نار ، أى : أن عنصر النار فيه هو الغالب ؛ وأنه يرى الأناسى وهم لا يرونه ، أى : بصورته الجبلية ، وإن كان يرى حين يتشكل بأشكال أخرى ، كما رئى جبريل حين تشكل بشكل آدمى .

وأخبر ـ سبحانه ـ بأنه قادر على الأعمال الشاقة . وأنه سخر الشياطين لسليمان يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل .

وأخبر بأن من الجن مؤمنين ، ومنهم شياطين متمردين ، ومن هؤلاء إبليس اللعين .

ولم يختلف أهل الملل فى وجودهم ، بل اعترفوا به كالمسلمين ، وإن اختلفوا فى حقيقتهم ، ولا تلازم بين الوجود والعلم بالحقائق ، ولا بينه وبين الرؤية بالحواس ، فكثير من الأشياء الموجودة لا تزال حقائقها مجهولة ، وأسرارها محجبة ، وكثير منها لا يرى بالحواس . ألا ترى الروح وهى مما لا شك فى وجودها فى الإنسان والحيوان ـ لم يدرك كنهها أحد ولم يرها أحد ، وغاية ما علم من أمرها بعض صفاتها وآثارها . .

وقد بعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى الجن ، كما بعث إلى الإنس ، فدعاهم الى التوحيد ، وأنذرهم وبلغهم القرآن ، وسيحاسبون على الأعمال يوم الحساب كما يحاسب الناس ، فمؤمنهم كمؤمنهم ، وكافرهم ككافرهم ، وكل ذلك جاء صريحاً فى القرآن والسنة . . » (١)

وقد افتتح ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يقول للناس ما حدث من الجن عند سماعهم للقرآن . فقال : « قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن . . . » .

---

(١) صفوة البيان حـ ٢ ص ٤٧٠ لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف .

وفى هذا الأمر دلالة على أن المأمور به شىء هام ، يستدعى من السامعين التيقظ والانتباه ، والامتثال للمأمور ، وتصديقه - ﷺ - فيما أخبر به .

والنفر : الجماعة من واحد إلى عشرة . وأصله فى اللغة الجماعة من الإنس فأطلق على الجماعة من الجن على وجه التشبيه .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس ، إن الله - تعالى - قد أخبرك عن طريق أمين وحيه جبريل ، أن جماعة من الجن قد استمعوا إليك وأنت تقرأ القرآن . . .

فقالوا - على سبيل الفرح والإعجاب بما سمعوا - : « إنا سمعنا » من الرسول - ﷺ - « قرآنا عجبا » أى : إنا سمعنا قرآنا جليل الشأن بديع الأسلوب ، عظيم القدر . .

هذا القرآن « يهدى إلى الرشد » أى : إلى الخير والصواب والهدى « فآمنا به » إيمانا حقاً ، لا يخالطه شك أو ريب « ولن نشرك بربنا أحدا » أى : فآمنا بما اشتمل عليه هذا الكتاب من دعوة إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، ولن نشرك معه فى العبادة أحدا كائنا من كان هذا الأحد .

والمقصود من أمره - ﷺ - بذلك ، دعوة مشركى قريش إلى الإيمان بالحق الذى جاء به - ﷺ - ، كما آمن جماعة من الجن به ، وإعلامهم بأن رسالته - ﷺ - تشمل الجن والإنس .

وضمير « أنه » للشأن ، وخبر « أن جملة « استمع نفر من الجن » ، وتأكيد هذا الخبر بأن ، للاهتمام به لغرابته . ومفعول « استمع » محذوف لدلالة قوله : « إنا سمعنا قرآنا عجباً » عليه .

ووصفهم للقرآن بأنه « قرآنا عجباً يهدى إلى الرشد » يدل على تأثرهم به تأثرا شديدا ، وعلى إعجابهم العظيم بنظمه المتقن ، وأسلوبه الحكيم ،

ومعانية البديعة . . . ولذا أعلنوا إيمانهم به بدون تردد ، كما يشعر بذلك التعبير بالفاء فى قوله : « فآمنا به . . . » .

والتعبير بقوله ــ تعالى ــ : « فقالوا إنا سمعنا . . » يحتمل أنهم قالوا ذلك فيما بينهم ، أولإ خوانهم الذين رجعوا إليهم ، كما فى قوله ـ تعالى ـ فى سورة الأحقاف : « قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ... » ويحتمل أنهم قالوا ذلك فى أنفسهم على سبيل الإعجاب ، كما فى قوله ـ تعالى : « ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول » بل اننا نرجح أن قولهم هذا قد شمل كل ذلك ، لأن هذا هو الذى يتناسب مع اعجابهم بالقرآن الكريم ، ومع حرصهم على ايمان أكبر عدد منهم به .

ثم حكى ــ سبحانه ــ أن هذا النفر من الجن بعد استماعهم إلى القرآن وإيمانهم به ، أخذوا فى الثناء على الخالق ــ عز وجل ــ ، فقال حكاية عنهم : « وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » .

ولفظ « وأن » قد تكرر فى هذه السورة الكريمة أكثر من عشر مرات تارة بالإضافة إلى ضمير الشأن ، وتارة بالإضافة إلى ضمير المتكلم . .

ومن القراء السبعة من قرأه بفتح الهمزة ، ومنهم من قرأه بكسرها .

فمن قرأ « وأنه ـ تعالى ـ جد ربنا . . » بالفتح فعلى أنه معطوف على محل الجار والمجرور فى قوله « فآمنا به » فكأنه قيل : فصدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا . ومن قرأ بالكسر فعلى أنه معطوف على المحكى بعد القول . أى . قالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً ، وقالوا إنه تعالى جد ربنا . . .

قال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : قوله ــ تعالى ــ : « وأنه تعالى جد ربنا . . » قرأه حمزة والكسائى وأبو عامر وحفص بفتح « أن » ، وقرأه الباقون بالكسر . . .

وتلخيص هذا أن « أن » المشددة فى هذه السورة على ثلاثة أقسام : قسم ليس معه واو العطف ، فهذا الاختلاف بين القراء فى فتحه أو كسره ، على حسب ما جاءت به التلاوة ، واقتضته العربية ، كقوله : « قل أوحى إلى أنه استمع . . . لا خلاف فى فتحه لوقوعه موقع المصدر ، وكقوله : « إنا سمعنا قرآنا عجباً » لا خلاف فى كسره لأنه محكى بالقول .

القسم الثانى أن يقترن بالواو ، وهو أربع عشرة كلمة ، إحداها : لا خلاف فى فتحها ، وهى قوله : « وأن المساجد لله . . » وهذا هو القسم الثالث . والثانية وهى قوله « وأنه لما قام عبد الله . . . » كسرها ابن عامر وأبو بكر وفتحها الباقون .

والاثنتا عشرة الباقية ، فتحها بعضهم ، وكسرها بعضهم وهى قوله ـ تعالى ـ : « وأنه تعالى جد ربنا » وقوله . «وأنه كان يقول .. وأنا ظننا .. وأنه كان رجال . . وأنهم ظنوا .. وأنا لمسنا .. وأنا كنا .. وأنا لا ندرى .. وأنا منا الصالحون .. وأنا لما سمعنا الهدى . . وأنا منا المسلمون . . . »(١) .

وقوله : « تعالى ـ من التعالى وهو شدة العلو . و « الجد » ـ بفتح الجيم ـ العظمة والجلال .

قال القرطبى : الجد فى اللغة : العظمة والجلال ، ومنه قول أنس : كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جد فى عيوننا . أى : عظم فمعنى « جد ربنا : عظمته وجلاله . .

وقيل معنى « جد ربنا . . . » : غناه ، ومنه قيل للحظ جد . ورجل مجدود ، أى : محظوظ ، وفى الحديث : « ولا ينفع ذا الجد منك الجد » أى : ولا ينفع ذا الغنى منك غناه ، إنما تنفعه الطاعة . . . »(٢) .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٤١٥ .

(٢) راجع تفسير القرطبى ج ١٩ ص ٨ .

وجملة « ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » بيان وتفسير لما قبله .

أى : آمنا به — سبحانه — إيمانا حقاً ، وصدقنا نبيه فيما جاءنا به من عنده ، وصدقنا — أيضاً — أن الحال والشأن أنه تعالى وتعاظم جلال ربنا ، وتنزه فى ذاته وصفاته ، عن أن يكون له شريك فى ملكه ، أو أن تكون له صاحبة ، أو أن يكون له ولد ، كما زعم الزاعمون من الكافرين الجاهلين .

وفى هذا القول من هذا النفر من الجن ، رد على أولئك المشركين الذين كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله — تعالى — ، وأنهم — أى : الملائكة — جاءوا عن طريق مصاهرته — سبحانه — للجن ، كما حكى عنهم — سبحانه — ذلك فى قوله : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون . سبحانه الله عما يصفون » .

ثم حكى — سبحانه — أقوالا أخرى لهؤلاء المؤمنين من الجن فقال : « وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا . . » والمراد بالسفيه هنا : إبليس — لعنه الله — ، وقيل المراد به الجنس فيشمل كل كافر ومتمرد من الجن .

والشطط : مجاوزة الحدود العدل فى كل شىء أى : أننا ننزه الله — تعالى — عما كان يقوله سفهاؤنا — وعلى رأسهم إبليس — من أن لله — عز وجل — صاحبة أو ولدا ، فإن هذا القول بعيد كل البعد عن الحق والعدل والصواب .

وقوله « وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا » اعتذار منهم عن كفرهم السابق ، فكأنهم يقولون بعد أن استمعوا إلى القرآن ، وآمنوا بالله — تعالى — وحده : إننا ننزه الله — تعالى — عما قاله السفهاء فى شأنه . . وإذا كنا قد اتبعناهم قبل إيماننا ، فسبب ذلك أننا صدقنا هؤلاء السفهاء فيما قالوه لنا ، وما كنا نعتقد أو نتصور أو نظن أن هؤلاء السفهاء يصل بهم الفجور والكذب . . إلى هذا الحد الشنيع .

وقوله « كذبا » مفعول به ليقول ، أو صفة لمصدر محذوف ، أى : قولا مكذوبا .

ثم حكى - سبحانه - عنهم تكذيبهم لما كان متعارفا عليه فى الجاهلية من أن للجن سلطانا على الناس ، وأن لهم قدرة على النفع والضر . . . فقال - تعالى - : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » .

وقوله : « يعوذون » من العوذ بمعنى الاستجارة بالشىء ، والالتجاء إليه طلبا للنجاة .

والرهق : الإثم وغشيان المحارم . . .

قال صاحب الكشاف : والرهق : غشيان المحارم . والمعنى : أن الإنس باستعاذتهم بهم — أى بالجن — زادوهم كفرا وتكبرا . وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى فى واد قفر فى بعض مسايره ، وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه ، يريد الجن وكبيرهم ، فإذا سمعوا ذلك استكبروا وقالوا : سدنا الجن والإنس ، فذلك رهقهم . أو : فزاد الجن الإنس رهقا بإغوائهم وإضلالهم لاستعاذتهم بهم . . . » (١) .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان فساد ما كان شائعا فى الجاهلية - بل وفى بعض البيئات حتى الآن — من أن الجن لهم القدرة على النفع والضر وأن بعض الناس كانوا يلجأون إليهم طلبا لمنفعتهم وعونهم على قضاء مصالحهم . . .

وإطلاق اسم الرجال على الجن ، من باب التشبيه والمشاكلة ، لوقوعه مع رجال من الإنس ، فإن الرجل اسم للذكر البالغ من بنى آدم .

وقوله — سبحانه — : « وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا »

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٢٤

بيان لما استنكره هؤلاء النفر المؤمنون من الجن على قومهم الكافرين ، وعلى من يشبهونهم فى الكفر من الإنس .

أى : وأنهم — أى الإنس — ظنوا واعتقدوا « كما ظننتم » واعتقدتم أيها الجن ، أن الله — تعالى — لن يبعث أحدا بعد الموت ، وهذا الظن منهم ومنكم ظن خاطىء فاسد ، فإن البعث حق ، وإن الحساب حق ، وإن الجزاء حق . . .

وفى هذا القول من مؤمنى الجن ، تعريض بمشركى قريش ، الذين نكروا البعث ، وقالوا : « ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر . . . » .

ثم حكى - سبحانه - عنهم ما قالوه عند اقترابهم من السماء ، طلبا لمعرفة أخبارها . . . قبل أن يؤمنوا فقال : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » .

وقوله : « لمسنا » من اللمس ، وحقيقته الجس باليد ، واستعير هنا ، لطلب أخبار السماء ، لأن الماس للشىء فى العادة ، إنما يفعل ذلك طلبا لاختباره ومعرفته .

والحرس : اسم جمع للحراس ، ولا واحد له من لفظه كخدم وكخدام والشهب : جمع شهاب ، وهو القطعة التى تنفصل عن بعض النجوم ، فتسقط فى الجو أو على الأرض أو البحر .

أى : وأنا طلبنا أخبار السماء كما هى عادتنا قبل أن نؤمن ، فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، أى : فوجدناها قد امتلأت بالحراس الأشداء من الملائكة الذين يحرسونها من استراق السمع ... كما أنا قد وجدناها قد امتلأت بالشهب التى تنقض على مسترقى السمع فتحرقهم .

« وأنا كنا نقعد منها » أى : من السماء « مقاعد للسمع » أى : كنا نقعد منها مقاعد كائنة للسمع ، خالية من الحرس والشهب . .

« فمن يستمع الآية » بعد نزول القرآن ، الذى هو معجزة النبى -ﷺ- والذى آمنا به وصدقناه .

« يجد له شهابا رصدا » أى : فمن يجلس الآن ليسترق السمع من السماء يجد له شهابا معدا ومهيأ للانقضاض عليه فيهلكه .

فالرصد : جمع راصد ، وهـــو الحافظ للشىء ، وهو وصف لقوله « شهابا » .

والفاء فى قوله : « فمن يستمع الآن . . » للتفريع على محذوف ، وكلمة « الآن » فى مقابل كلمة « كنا » الدالة على هذا المحذوف . .

والتقدير : كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فنستمع أشياء . . وقد انقضى ذلك ، وصرنا من يستمع الآن منا يجد له شهابا رصدا ، ينقض عليه فيحرقه .

والمقصود من هاتين الآيتين : تأكيد إيمانهم بالله - تعالى - ، وبرسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وحض غيرهم على اتباعهم ، وتحذيرهم من التعرض لاستراق السمع .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين الآيتين : يخبر - تعالى - عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً - ﷺ - وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وحفظت من سائر أرجائها ، وطردت الشياطين عن مقاعدها التى كانت تقعد فيها قبل ذلك ، لئلا يسترقوا شيئا من القرآن . فيلقوه على ألسنة الكهنة ، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق ، وهذا من لطف الله بخلقه ، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز ، ولهذا قالت الجن : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها

ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ، أى : من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابا مرصدا ، لا يتخطاه ولا يتعداه ، بل يمحقه ويهلكه »(١) .

وقال بعض العلماء : والصحيح أن الرجم كان موجودا قبل المبعث ، فلما بعث - ﷺ - كثر وازداد ، كما ملئت السماء بالحرس والشهب . وليس فى الآية دلالة على أن كل ما يحدث من الشهب إنما هو للرجم ، بل إنهم إذا حاولوا استراق السمع رجموا بالشهب . وإلا فالشهب الآن وفيما مضى قد تكون ظواهر طبيعية ولأسباب كونية »(٢) .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه على سبيل الاقرار بأنهم لا يعلمون شيئا من الغيوب فقال : وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا » .

أى : وقال هؤلاء الجن المؤمنون - على سبيل الاعتراف بأن مرد علم الغيوب إلى الله - تعالى - وحده - : قالوا وإنا لا ندرى ولا نعلم الآن ، بعد هذه الحراسة المشددة للسماء ، أأريد بأهل الأرض ما يضرهم ، أم أراد الله - تعالى - بها ما ينفعهم ؟

قال الآلوسى : ولا يخفى ما فى قولهم هذا من الأدب ، حيث لم يصرحوا بنسبة الشر إلى الله - تعالى - ، كما صرحوا به فى الخير ، وإن كان فاعل الكل هو الله - تعالى - ، ولقد جمعوا بين الأدب وحسن الاعتقاد »(٣) .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه فى وصف حالهم وواقعهم فقال : «وأنا منا الصالحون . . » أى : منا الموصوفون بالصلاح والتقوى . . وهم الذين

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٦٧ .
(٢) تفسير صفوة البيان ج ٢ ص ٤٧٢ لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف .
(٣) تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ٨٨ .

آمنوا بالله — تعالى — إيمانا حقا، ولم يشركوا معه فى العبادة أحدا . .

« ومنا دون ذلك » أى : ومنا قوم دون ذلك فى الصلاح والتقوى . . وهم الذين فسقوا عن أمر ربهم، ولم يستقيموا على صراطه ودينه .

وقوله : « كنا طرائق قددا » تشبيه بليغ . والطرائق : جمع طريقة، وهى الحالة والمذهب .

وقددا : جمع قدة، وهى الفرقة والجماعة من الناس، الذين تفرقت مشاربهم وأهواؤهم .

والجملة الكريمة بيان وتفسير لما قبلها .

أى : وأنا فى واقع أمرنا منا الصالحون الأخيار . . ومنا من درجته ورتبته أقل من ذلك بكثير أو بقليل . . فنحن فى حياتنا كنا قبل سماعنا للقرآن كالمذاهب المختلفة فى حسنها وقبحها، وكالطرق المتعددة فى استقامتها واعوجاجها . . أما الآن فقد وفقنا الله — تعالى — إلى الإيمان به، وإلى إخلاص العبادة له . .

ومن وجوه البلاغة فى الآية الكريمة، أنهم قالوا : « ومنا دون ذلك »، ليشمل التعبير من هم دون الكمال فى الصلاح، ومن هم قد انحدروا فى الشرور الآثام إلى درجة كبيرة، وهم الأشرار .

والمقصود من الآية الكريمة، مدح الصالحين، وذم الطالحين، ودعوتهم إلى الاقتداء بأهل الصلاح والتقوى والإيمان .

ثم حكى — سبحانه — ما قالوه بشأن عجزهم المطلق أمام قدرة خالقهم فقال : « وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض، ولن نعجزه هربا » .

والظن هنا بمعنى العلم واليقين . وقوله : « نعجزه » من الإعجاز، وهو جعل الغير عاجزا عن الحصول على ما يريد . . وقوله « فى الأرض وهربا » فى موضع الحال .

أي : وأننا قد علمنا وتيقنا بعد إيماننا وبعد سماعنا للقرآن . . أننا في قبضة الله — تعالى — وتحت قدرته ، ولن نستطيع الهرب من قضائه سواء أكنا في الأرض أم في غيرها .

فقوله « في الأرض » إشارة إلى عدم قدرتهم على النجاة من قضائه ـ تعالى ـ مهما حاولوا اللجوء إلى أية بقعة من بقاعها ، ففي أي بقعة منها يكونون ، يدركهم قضاؤه وقدره .

وقوله : « ولن نعجزه هربا » إشارة إلى أن هربهم إلى السماء لا إلى الأرض ، لن ينجيهم مما يريده — سبحانه — بهم .

فالمقصود بالآية الكريمة : إظهار عجزهم المطلق أمام قدرة الله ـ تعالى ـ وعدم تمكنهم من الهرب من قضائه ، سواء ألجـــأوا إلى الأرض ، أم إلى السماء .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله — تعالى — : وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » .

ثم حكى — سبحانه — حالهم عندما سمعوا ما يهديهم إلى الرشد . . فقال — تعالى — : وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا . . . . .

أي : وأننا لما سمعنا الهدى ، أي : القرآن من النبي — ﷺ — « آمنا به » بدون تردد أو شك ، فمن يؤمن بربه ، وبما أنزله على نبيه — ﷺ — فلا يخاف بخسا ، أي : نقصا في ثوابه ، ولا رهقا ، أي : ولا يخاف — أيضاً — ظلما يلحقه بزيادة في سيئاته ، أو إهانة تذله وتجعله كسير القلب ، منقبض النفس .

فالمراد بالبخس : الغبن في الأجر والثواب . والمراد بالرهق : الإهانة والمذلة والمكروه .

والمقصود بالآية الكريمة إظهار ثقتهم المطلقة فى عدالة الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - : وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ، تأكيد وتفصيل لما قبله .

والقاسطون : هم الجائرون الظالمون ، جمع قاسط ، وهو الذى ترك الحق واتبع الباطل ، اسم فاعل من قسط الثلاثى بمعنى جار . بخلاف المقسط فهو الذى ترك الباطل واتبع الحق .

مأخوذ من أقسط الرباعى ، بمعنى عدل .

أى : وأنا - معاشر الجن - « منا المسلمون » الذين أسلموا وجوههم لله وأخلصوا له العبادة .

« ومنا القاسطون » أى : الجائرون العادلون عن الحق إلى الباطل .

« فمن أسلم » منا « فأولئك » المسلمون « تحروا رشدا » أى : توخوا وقصدوا الرشد والحق .

« وأما القاسطون » وهم الذين آثروا الغى على الرشد « فكانوا لجهنم حطبا » أى : وقودا لجهنم ، كما توقد النار بما يلقى فيها من حطب ومايشبهه .

وإلى هنا نرى الآيات الكريمة قد حكت أقوالا متعددة ، لهؤلاء النفر من الجن ، الذين استمعوا إلى القرآن ، فآمنوا به ، وقالوا لن نشرك بربنا أحدا .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف ، وهى أن الاستقامة على طريقه توصل إلى السعادة ، وأن الإعراض عن طاعته - تعالى - يؤدى إلى الشقاء ، وأمر رسوله - صلى الله عليه وسلم -

أن يعلن للناس حقائق دعوته، وخصائص رسالته، وإقراره أمامهم بأنه لا يملك لهم ضرا ولا نفعاً، وأن علم الغيب مرده إلى الله — تعالى — وحده، فقال — سبحانه — :

وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم
مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ
عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ
لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ
أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا
وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ
مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ
فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا
تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ
غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ
وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

وقوله — سبحانه — : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا . . . » معطوف على قوله — تعالى — : « أنه استمع نفر من الجن . . . » فهو من جملة الموحى به ، وهو من كلام الله — تعالى — لبيان سنة من سننه فى خلقه ، واسم « أن » المخففة ضمير الشأن ، والخبر قوله : « لو استقاموا . . . » ، والضمير يعود على القاسطين سواء أكانوا من الإنس أم من الجن .

والماء الغدق : هو الماء الكثير . يقال : غدقَتْ عين فلان غَدقا — كفرح — ، إذا كثر دمعها فهو غدقة ، ومنه الغيداق للماء الواسع الكثير ، والمراد : لأعطيناهم نعما كثيرة .

أى : ولو أن هؤلاء العادلين عن طريق الحق إلى طريق الباطل استقاموا على الطريقة المثلى ، التى هى طريق الإسلام ، والتزموا بما جاءهم به النبى — صلى الله عليه وسلم — من عند ربه . . .

لو أنهم فعلوا ذلك ، لفتحنا عليهم أبواب الرزق ، ولأعطيناهم من بركاتنا وخيراتنا الكثير . . . وخص الماء الغدق بالذكر ، لأنه أصل المعاش والسعة .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله — تعالى — : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . . . » وقوله — سبحانه — : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . . . » وقوله — تعالى — : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . . . » .

ثم بين — سبحانه — الحكمة فى هذا العطاء لعباده فقال : « لنفتنهم فيه » وأصل الفتن الامتحان والاختبار . تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى : اختبرته لتعرف مقدار جودته .

والمعنى : نعطيهم ما نعطيهم من خيراتنا ، لنختبرهم ونمتحنهم ، ليظهر للخلائق موقفهم من هذه النعم ، أيشكروننا عليها فنزيدهم منها ، أم يجحدون ويبطرون فنمحقها من بين أيديهم . . . ؟

والجملة الكريمة معترضة بين ما قبلها ، وبين قوله — تعالى — بعد ذلك : « ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا » .

وقوله : « يسلكه » من السلك بمعنى إدخال الشيء في الشيء ومنه قوله — تعالى — : « كذلك نسلكه في قلوب المجرمين » . والصعد : الشاق . يقال : فلان في صعد من أمره ، أي : في مشقة وتعب ، وهو مصدر صَعِد — كفرح — صعداً وصعودا .

أي : ومن يعرض عن طاعة ربه ومراقبته وخشيته . . . يدخله — سبحانه — في عذاب شاق أليم ، لا مفر له منه ، ولا مهرب له عنه .

ومن الحقائق والحكم التي نأخذها من هاتين الآيتين ، أن الاستقامة على أمر الله ، تؤدي إلى السعادة التي ليس بعدها سعادة ، وأن رخاء العيش وشظافته هما لون من ألوان الابتلاء والاختبار ، كما قال — تعالى — : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ، وأن الإعراض عن ذكر الله . . . عاقبته الخسران المبين ، والعذاب الأليم . .

قال القرطبي ما ملخصه : قوله : « لنفتنهم فيه » أي لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم .

وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية : أينما كان الماء كان المال ، وأينما كان المال كانت الفتنة . فمعنى « لأسقيناهم » : لوسعنا عليهم في الدنيا ، وضرب الماء الغدق الكثير لذلك مثلا ، لأن الخير والرزق كله بالمطر يكون ، فأقيم مقامه . . .

وفي صحيح مسلم ، عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله — صلى الله

عليه وسلم ـ قال : أخوف ما أخاف عليكم ، ما يخرج لكم من زهرة الدنيا . قالوا : وما زهرة الدنيا؟ قال : بركات الأرض . . . » .

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : والله ما الفقر أخشى عليكم ، وإنما أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من قبلكم ، فتنافسوها ، كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » (١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن المساجد التي تقام فيها الصلاة والعبادات ، يجب أن تنسب إلى الله ـ تعالى ـ وحده ، فقال : « وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا » .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك « أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن . . . . » .

والمساجد : جمع مسجد ، وهو المكان المعد لإقامة الصلاة والعبادة فيه . واللام في قوله « لله » ، للاستحقاق .

أي : وأوحى إلى ـ أيضاً ـ أن المساجد التي هي أماكن الصلاة والعبادة لا تكون إلا لله ـ تعالى ـ وحده ، ولا يجوز أن تنسب إلى صنم من الأصنام ، أو طاغوت من الطواغيت .

قال الإمام ابن كثير : قال قتادة : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم ، أشركوا بالله ، فأمر الله نبيه والمؤمنين ، أن يوحدوه وحده . . .

وقال سعيد بن جبير : نزلت في أعضاء السجود ، أي : هي لله فلا تسجدوا بها لغيره . . . وفي الحديث أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : أمرت أن أسجد على سبعة أعظم : على الجبهة ـ وأشار بيده إلى أنفه ـ واليدين ، والركبتين ، وأطراف القدمين » (٢) .

(١) تفسير القرطبي جـ ١٩ ص ١٨

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٧٠

ويبدو لنا أن المراد بالمساجد هنا: الأماكن المعدة للصلاة والعبادة، لأن هذا هو المتبادر من معنى الآية، وأن المقصود بها توبيخ المشركين الذين وضعوا الأنصاب والأصنام، فى المسجد الحرام، وأشركوها فى العبادة مع الله — تعالى — .

وأضاف — سبحانه — المساجد إليه، على سبيل التشريف والتكريم وقد تضاف إلى غيره — تعالى — على سبيل التعريف فحسب، وفى الحديث الشريف: الصلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فى غيره، إلا المسجد الحرام.

ثم بين — سبحانه — حال الصالحين من الجن، عندما استمعوا إلى النبى — ﷺ — وهو يقرأ القرآن، ويتقرب إلى الله - تعالى - بالعبادة. فقال: «وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا».

أى: وأوحى الله - تعالى - فيما أوحى من شأن الجن، أنه لما قام عبد الله، وهو محمد — ﷺ —، «يدعوه» أى: يدعو الله - تعالى - ويعبده فى الصلاة، «كادوا» أى: الجن «يكونون عليه لبدا» أى: كادوا من شدة التزاحم عليه، والتكتل حوله.. يكونون كاللبد، أى: كالشىء الذى تلبد بعضه فوق بعض. ولفظ «لبدا» جمع لبده، وهى الجماعة المتزاحمة. ومنه لبدة الأسد للشعر المتراكم فى رقبته.

ووضع — سبحانه — الاسم الظاهر موضع المضمر، إذ مقتضى الظاهر أن يقال: وأنه لما قمت تدعو الله.. أو لما قمت أدعو الله.. تكريما للنبى — ﷺ —، حيث وصفه بأنه «عبد الله» لما فى هذه الإضافة من التشريف والتكريم.

والجن إنما ازدحموا حول الرسول - ﷺ - وهو يصلى ويقرأ القرآن.. تعجبا مما شاهدوه من صلاته، ومن حسن قراءته، ومن كمال

اقتداء أصحابه ، قياماً ، وركوعاً ، وسجوداً . . . ومنهم من يرى أن الضمير فى « كادوا » يعود لكفار قريش ، فيكون المعنى : وأنه لما محمد - صلى الله عليه وسلم - قام يدعو ربه ... كادوا من تزاحمهم عليه ، يكونون كاللبد ، لا لكى ينتفعوا بما يسمعون ، ولكن لكى يطفئوا نور الله بأفواههم ، والحال أن الله — تعالى — قد رد كيدهم فى نحورهم ، وأبى إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .

قال صاحب الكشاف : « عبد الله » هو النبي — صلى الله عليه وسلم — . فإن قلت : هلا قيل : رسول الله أو النبى ؟ قلت : لأن تقديره وأوحى إلى أنه لما قام عبد الله . فلما كان واقعاً فى كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم — عن نفسه ، جىء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل . أو لأن المعنى أن عبادة عبد الله ، لله — تعالى — ليست بأمر مستبعد عن العقل ولا مستنكر ، حتى يكونوا عليه لبدا .

ومعنى « قام يدعوه » : قام يعبده . يريد : قيامه لصلاة الفجر بنخلة حين أتاه الجن ، فاستمعوا لقراءته ، وتزاحموا عليه .

وقيل معناه : لما قام رسولا يعبد الله وحده ، مخالفاً المشركين فى عبادتهم ، كاد المشركون لتظاهرهم عليه ، وتعاونهم على عداوته ، يزدحمون عليه متراكبين . . . » (١)

ويبدو لنا أن عودة الضمير فى « كادوا » على مؤمنى الجن أرجح ، لأن هذا هو الموافق لإعجابهم بالقرآن الذى سمعوه من النبى — صلى الله عليه وسلم — ، لأن هذا هو الظاهر من سياق الآيات ، حيث إن الحديث عنهم ، ولأن الآثار قد وردت فى أن الجن قد التفوا حول النبى - صلى الله عليه وسلم — حين سمعوه يقرأ القرآن .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٣٠

ومن هـذه الآثار قول الزبير بن العوام : هم الجن حين استمعوا القرآن من النبى — صلى الله عليه وسلم — كادوا يركب بعضهم بعضا ازدحاماً عليه . . .(١)

ثم أمر الله — تعالى — نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يعلن لجميع من أرسل إليهم ، أنه لايعبد أحداً سواه - عز وجل - فقال : «قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لجميع من أرسلناك إليهم من الجن والإنس : إنى أعبد ربى وحده ، وأتوجه إليه وحده بالدعاء والطلب ، ولا أشرك معه أحدا فى عبادتى أو صلاتى أو نسكى . . .

وقل لهم - كذلك : «إنى لا أملك لكم ضراً» أي : لاأملك مايضركم «ولا نفعا » أى : ولا أملك ما ينفعكم ، وإنما الذى يملك ذلك هو الله - تعالى - وحده .

وقل لهم للمرة الثالثة : « إنى لن يجيرنى من الله أحد » أى : إنى لن يمنعنى أحد من الله - تعالى - إن أرادنى بسوء .

« ولن أجد من دونه ملتحدا » أى : ولن أجد من دونه ملجأ أركن إليه . يقال : التحد فلان إلى كذا ، أى : مال إليه . .

فالآية الكريمة بيان لعجزه - صلى الله عليه وسلم - عن شئون نفسه أمام قدرة خالقه - عز وجل - بعد بيان عجزه عن شئون غيره .

وقوله - سبحانه - : « إلا بلاغا من الله ورسالاته . . . . . » استثناء من مفعول « لا أملك » وهما قوله قبل ذلك : « ضرا ولا رشدا » وما بينهما اعتراض مؤكد لنفى الاستطاعة .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - إنى لا أملك ما يضركم

(١) راجع تفسير القرطبى جـ١٩ ص٤٣ . وتفسير ابن كثير جـ٧ ص ٢٧١

ولا أملك ما ينفعكم ، وإنما الذى أملكه هو تبليغ رسالات ربى إليكم ، بأمانة واجتهاد .

والبلاغ : مصدر بلغ ، وهو إيصال الكلام أو الحديث إلى الغير ، ويطلق على الكلام المبلغ من إطلاق المصدر على المفعول ، مثل : « هذا خلق الله » ، و « من » ابتدائية صفة لقوله : « بلاغا » أى : بلاغاً كائناً من جهة الله — تعالى — وأمره . والرسالات : جمع رسالة ، وهى ما يرسل إلى الغير من كلام أو كتاب . والمراد بها هنا : تبليغ ما أوحاه الله - تعالى - إلى نبيه للناس .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : « إلا بلاغاً من الله . . . » استثناء من مفعول لا أملك . . . وما بينهما اعتراض . . . فإن كان المعنى : لا أملك أن أضركم ولا أن أنفعكم ، كان استثناء متصلا ، كأنه قيل : لا أملك شيئاً إلا بلاغاً ، وإن كان المعنى : لا أملك أن أقسركم على الغى والرشد كان منقطعاً ، أو من باب : لاعيب فيهم غير أن سيوفنا . . . أى : أنه من أسلوب تأكيد الشىء بما يشبه ضده - وقوله « ورسالاته » عطف على قوله « بلاغاً » ، وقوله : « من الله » متعلق بمحذوف وقع صفة له . أى : « بلاغاً كائناً من الله . . . » (١)

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك سوء عاقبة من يخالف أمره فقال : « ومن يعص الله ورسوله » فيما أمرا به ، أو نهيا عنه .

« فإن له » أى : لهذا العاصى « نار جهنم خالدين فيها أبدا » أى : فحكمه أن له نار جهنم ، وجمع - سبحانه - خالدين باعتبار معنى « من » ، كما أن الإفراد فى قوله « فإن له » باعتبار لفظها .

وقوله : « أبدا » مؤكد لمعنى الخلود . أى : خالدين فيها خلوداً أبدياً لانهاية له .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٩٤

وقوله - سبحانه - : «حتى إذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا» تهديد ووعيد للكافرين بسبب استهزائهم بالمؤمنين، فقد حكى القرآن عن الكفار أنهم قالوا : «نحن جميع منتصر» «وقالوا نحن أكثر أموالا وأموالا ومانحن بمعذبين» وقالوا : «متى هذا الوعد إن كنتم صادقين» .

و «حتى» هنا حرف ابتداء . وهى متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام، وهو سخرية الكافرين من المؤمنين . و «إذا» اسم زمان للمستقبل مضمن معنى الشرط، وهى فى محل نصب بجوابه الذى هو قوله : «فسيعلمون» .

والمعنى : أن هؤلاء الكفار لا يزالون على ماهم عليه من غرور وعناد وجحود . . . حتى إذا رأوا ما يوعدون من العذاب فى الدنيا والآخرة «فسيعلمون» حينئذ من هو أضعف جنداً وأقل عدداً ، أهم المؤمنون - كما يزعم هؤلاء الكافرون - ؟ أم أن الأمر سيكون على العكس ؟ لاشك أن الأمر سيكون على العكس ، وهو أن الكافرين فى هذا اليوم هم الذين سيكونون فى غاية الضعف والذلة والهوان .

وجىء بالجملة التى أضيف إليها لفظ «إذا» فعلا ماضيا، للتنبيه على تحقق الوقوع .

والآية الكريمة تشير إلى خيبة هؤلاء الكافرين، وتلاشى آمالهم . . فإنهم فى هذا اليوم سيفقدون الناصر لهم، كما أنهم سيفقدونه من جهة أنفسهم، لأنهم مهما كثر عددهم، فهم مغلوبون .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله للمرة الرابعة ، أن يعلن للناس أن هذا اليوم الذى يأتى فيه نصر الله للمؤمنين لا يعلمه إلا هو ، فقال - تعالى - : «قل إن أدرى أقريب ما توعدون . أم يجعل له ربى أمدا . . »

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين إن نصر الله لنله

آت لا ريب فيه ، وعذاب الله لكم آت - أيضاً - لا ريب فيه ، ولكنى لا أدرى ولا أعلم أيتحقق ذلك فى الوقت العاجل القريب ، أم يجعل الله - تعالى - لذلك « أمدا » أى : غاية ومدة معينة من الزمان ، لا يعلم وقتها إلا هو - سبحانه - .

والمقصود من الآية الكريمة : بيان أن العذاب نازل بهم قطعاً ولكن موعده قد يكون بعد وقت قريب ، وقد يكون بعد وقت بعيد ، لأن تحديد هذا الوقت مرده إلى الله - تعالى - وحده .

وقوله - تعالى - بعد ذلك : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا » تعليل لما قبله . أى : أنا لا أدرى متى يكون عذابكم - أيها الكافرون - ، لأن مرد علم ذلك إلى الله - تعالى - الذى هو عليم بكل شىء من الظواهر والبواطن ، والذى اقتضت حكمته أن لا يطلع أحدا على غيوبه ، وعلى ما استتر وخفى من أمور خلقه .

وقوله : « إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا » استثناء من النفى فى قوله « فلا يظهر على غيبه أحدا » .

أى : عالم هو - سبحانه - الغيب ، فلا يطلع على غيبه أحدا من خلقه ، إلا الرسول الذى ارتضاه واختاره من خلقه ، فإنه - سبحانه - قد يطلعه على بعض غيوبه ، ليكون ذلك معجزة له ، دالة على صدقه أمام قومه .

فإذا ما أراد - سبحانه - إطلاع رسوله المصطفى لحمل رسالته على بعض غيوبه ، سخر له من جميع جوانبه حرساً من الملائكة يحرسونه من وسوسة الشيطان ونوازعه ، ومن كل ما يتعارض مع توصيل وحيه - سبحانه - إلى رسله ، بكل أمانة وصيانة .

ومعنى : « من ارتضى . . . » : من اختار واصطفى واجتبى ، وعبر عن ذلك بقوله « من ارتضى » ، للإشعار بأنه - سبحانه - يخص هؤلاء الذين

رضى عنهم ورضوا عنه بالاطلاع على بعض غيوبه ، على سبيل التأييد والتكريم لهم .

و « من » فى قوله : « من رسول » للبيان . والمراد بالرسول هنا : ما يشمل كل رسول اختاره — سبحانه — لحمل رسالته ، سواء أكان من البشر أم من الملائكة . .

والضميران فى قوله — تعالى — « فإنه » و « يسلك » يعودان على الله — عز وجل — ، وأطلق السلك على إيصال الخبر إلى الرسول المرتضى ، للإشعار بأن هذا الخبر الذى أطلع الله - تعالى - رسوله عليه ، قد وصل إليه وصولا مؤكدا ، ومحفوظا من كل تحريف ، كما يدخل الشىء فى الشىء دخولا تاما بقوة وضبط ، إذ حقيقة السلك : إدخال الشىء فى الشىء بشدة وعناية . .

والمراد بقوله : « من بين يديه ومن خلفه » جميع الجهات ، وعبر عن جميع الجهات بذلك ، لأن معظم ما يتعرض له الإنسان يكون من هاتين الجهتين .

والرصد : جمع راصد ، وهو ما يحفظ الشىء ، ويصونه من كل مالا يريده . أى : إلا من ارتضى — سبحانه — من رسول ، فإنه — عز وجل — يطلعه على ما يشاؤه من غيوبه ، ويجعل له حراسا من جميع جوانبه ، يحفظونه من كل سوء .

قال الآلوسى : قوله : « إلا من ارتضى من رسول . . » أى : لكن الرسول المرتضى يظهره — جل وعلا — على بعض الغيوب المتعلقة برسالته ... إما لكون ، بعض هــذه الغيوب من مباديها ، بأن يكون معجزة .

وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعامة التكاليف الشرعية ،

وكيفيات الأعمال وأجزيتها ، ونحو ذلك من الأمور الغيبية ، التى بيانها من وظائف الرسالة ، بأن يسلك من جميع جوانبه عند اطلاعه على ذلك ، حرساً من الملائكة يحرسونه من تعرض الشياطين ، لما أريد اطلاعه عليه . . . »(١) .

واللام فى قوله — تعالى — : « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم . . » متعلقة بقوله « يسلك » .

والضمير فى « يعلم » يعود إلى الله — تعالى — ، والمراد بالعلم : علم المشاهدة الذى يترتب عليه الجزاء ، أى : أطلع الله - تعالى - من ارتضاهم على بعض غيوبه ، وحرسهم من وصول الشياطين إلى هذا الذى أظهرهم عليه من غيوب . . ليعلم - تعالى - علم مشاهدة يترتب عليه الجزاء ، أن الرسل قد أبلغوا رسالته - سبحانه - إلى خلقه ، وأنه — تعالى - قد « أحاط بما لديهم » أى : أحاط علمه — تعالى — بكل ما لدى الرسل وغيرهم من أقوال وأفعال ، « وأحصى كل شىء عددا » أى : وأحصى كل شىء فى هذا الكون إحصاء تاماً ، وعلما كاملا .

قال الشوكانى قوله : « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم . . . » اللام متعلقة بيسلك ، والمراد به العلم المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل ، وأن هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، والخبر الجملة ، والرسالات عبارة عن الغيب الذى أريد إظهاره لمن ارتضاه الله من رسول . . .

وقال قتادة : ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو ، وفيه حذف تتعلق به اللام ، أى : أخبرناه - صلى الله عليه وسلم - بحفظنا الوحى ، ليعلم أن الرسل قبله كانوا على حالته من التبليغ بالحق والصدق .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٩٦ .

وقيل : ليعلم الرسل أن الملائكة قد بلغوا رسالات ربهم . . . »(١) .

ويبدو لنا أن عودة الضمير فى « ليعلم » إلى الله - تعالى - هو الأظهر ، أى : ليعلم الله - تعالى - أن رسله قد أبلغوا رسالاته علم مشاهدة كما علمه غيبا ، لأن علم الله بذلك لا يكون إلا على وفق ما وقع . . .

وهكذا ساقت لنا سورة « الجن » الكثير من الحقائق التى تتعلق بإصلاح العقائد والأخلاق والسلوك والأفكار التى طغى كثير منها على العقول والأفهام . . .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - صباح الأربعاء - مدينة نصر

٣٠ من ذى القعدة سنة ١٤٠٦ هـ / ٨ / ١٩٨٦ م

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٥ ص ٣١٣ للشوكانى .

تفسير سورة

«المزمل»

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — سورة « المزمل » هى السورة الثالثة والسبعون فى ترتيب المصحف . أما ترتيبها فى النزول على النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فهى السورة الثالثة أو الرابعة ، إذ يرى بعضهم أنه لم يسبقها فى النزول سوى سورتى العلق والمدثر ، بينما يرى آخرون أنه لم يسبقها سوى سورتى العلق ونون ، والمدثر .

وعدد آياتها عشرون آية عند الكوفيين ، وتسع عشرة آية عند البصريين وثمانى عشرة آية عند الحجازيين .

٢ — وجمهور العلماء على أن سورة « المزمل » من السور المكية الخالصة ، فابن كثير - مثلا - عند تفسيره لها قال : تفسير سورة « المزمل » ، وهى مكية .

وحكى بعضهم أنها مكية سوى آيتين ، فقد قال القرطبى : مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : هى مكية إلا آيتين منها ، وهما قوله — تعالى — : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا . وذرنى والمكذبين ... »

وقال الثعلبى هى مكية إلا الآية الأخيرة منها وهى قوله — تعالى — : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه .... » فإنها نزلت بالمدينة » (١) .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٩ ص ٣١

وقال الشيخ ابن عاشور ما ملخصه : وقال فى الإتقان : إن استثناء قوله — تعالى — : «إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل . . . . إلى آخر السورة ، يرده ما أخرجه الحاكم عن عائشة أنها قالت : نزلت هذه الآية بعد نزول صدر السورة بسنة . . . . .

ثم قال الشيخ ابن عاشور : وهذا يعنى أن السورة كلها مكية ، والروايات تظاهرت على أن هذه الآية قد نزلت منفصلة عما قبلها ، بمدة مختلف فى قدرها ، فعن عائشة أنها سنة . . . ومن قال بأن هذه الآية مدنية ، يكون نزولها بعد نزول ما قبلها بسنين . .

والظاهر أن هذه الآية مدنية ، لقوله — تعالى — «وآخرون يقاتلون فى سبيل الله» — ومن المعروف أن القتال لم يفرض إلا فى المدينة — ، إن لم يكن ذلك إنباء بغيب على وجه المعجزة» (١)

٣ — والسورة الكريمة : زاخرة بالحديث الذى يدخل التسلية والصبر على قلب النبى — صلى الله عليه وسلم — ، ويعلى من شأن القرآن الكريم ، ويرشد المؤمنين إلى ما يسعدهم ويصلح بالهم ، ويهدد الكافرين بسوء المصير إذا ما استمروا فى طغيانهم ، ويذكر الناس بأهوال يوم القيامة . . . ويسوق لهم ألوانا من يسر شريعته ، ورأفته — عز وجل — بعباده ، وإثابتهم بأجزل الثواب على أعمالهم الصالحة .

وقد افتتح — سبحانه — السورة الكريمة ، بقوله — تعالى — :

---

(١) راجع تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٩ ص ٢٥٢ للشيخ ابن عاشور .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ
مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ
قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ
لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ
تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ
وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِى
وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا
وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ
ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ
رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ
فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن
كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ
مَفْعُولًا ۝١٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝١٩

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه السورة الكريمة روايات منها ما رواه البزار والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الدلائل عن جابر - رضى الله عنه - قال : اجتمعت قريش فى دار الندوة فقالوا : سموا هذا الرجل اسما تصدوا الناس عنه . فقالوا : كاهن . قالوا : ليس بكاهن قالوا : مجنون . قالوا : ليس بمجنون . قالوا : ساحر . قالوا : ليس بساحر . . . فتفرق المشركون على ذلك . فبلغ ذلك النبى — صلى الله عليه وسلم — فتزمل فى ثيابه وتدثر فيها . فأتاه جبريل فقرأ عليه : « يأيها المزمل - يأيها المدثر . . . »

وقيل : إنه - صلى الله عليه وسلم - كان نائما بالليل متزملا فى قطيفة . . فجاءه جبريل بقوله — تعالى — . « يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا . . . »

وقيل : إن سبب نزول هذه الآيات ما رواه الشيخان وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى ، هبطت ، فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا . . . فرفعت رأسى فإذا الذى جاءنى بحراء ، جالس على كرسى بين السماء والأرض . . . فرجعت فقلت . دثرونى دثرونى ، وفى رواية : فجئت أهلى فقلت : زملونى زملونى ، فأنزل الله — تعالى — : « يأيها المدثر . . . » (١)

وجمهور العلماء يقولون : وعلى أثرها نزلت : « يأيها المزمل . . »

و « المزمل » : اسم فاعل من تزمل فلان بثيابه ، إذا تلفف فيها ، وأصله المتزمل ، فأدغمت التاء فى الزاى والميم .

وافتتح الكلام بالنداء ، للتنبيه على أهمية ما سيلقى على المخاطب من أوامر أو نواه .

وفى ندائه — صلى الله عليه وسلم — بلفظ « المزمل » ، تلطف معه ، وإيناس لنفسه ، وتحبيب إليه ، حتى يزداد نشاطا ، وهو يبلغ رسالة ربه .

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٩ ص ٣٢ وتفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ١٠١

والمعنى: يأيها المتزمل بثيابه، المتلفف فيها، رهبة مما رآه من عبدنا جبريل، أو هما وغما مما سمعه من المشركين، من وصفهم له بصفات هو برىء منها..

«قم الليل إلا قليلا»، أى: قم الليل متعبدا لربك، «إلا قليلا» منه، على قدر ما تأخذ من راحة لبدنك. فقوله: «إلا قليلا» استثناء من الليل...

وقوله «نصفه» بدل من «قليلا»، بدل كل من كل، على سبيل التفصيل بعد الإجمال.

أى: قم نصف الليل للعبادة لربك، واجعل النصف الثانى من الليل لراحتك ونومك.

ووصف — سبحانه — هذا النصف الكائن للراحة بالقلة فقال «إلا قليلا» للإشعار بأن النصف الآخر، العامر بالعبادة والصلاة... هو النصف الأكثر ثوابا وقربا من الله — تعالى — بالنسبة للنصف الثانى المتخذ للراحة والنوم.

وقوله — سبحانه —: «أو انقص منه قليلا. أوزد عليه....» تخيير له — صلى الله عليه وسلم — فيما يفعله، وإظهار لما اشتملت عليه شريعة الإسلام من يسر وسماحة..

فكأنه — تعالى — يقول له — على سبيل التلطف والإرشاد إلى ما يشرح صدره — يأيها المتلفف بثيابه: قم الليل للعبادة والصلاة، إلا وقتا قليلا منه يكون لراحتك ونومك، وهذا الوقت القليل المتخذ للنوم والراحة قد يكون نصف الليل، أو قد يكون أقل من النصف بأن يكون فى حدود ثلث الليل، ولك — أيها الرسول الكريم — أن تزيد على ذلك، بأن تجعل ثلثى الليل للعبادة، وثلثه للنوم والراحة..

فأنت ترى أن الله — تعالى — قد خص لنبيه — صلى الله عليه وسلم — فى أن يجعل نصف الليل أو ثلثه، أو ثلثه للعبادة والطاعة، وأن يجعل المقدار الباقى من الليل للنوم والراحة.

وخص — سبحانه — الليل بالقيام، لأنه وقت سكون الأصوات..

فتكون العبادة فيه أكثر خشوعا ، وأدعى لصفاء النفس ، وطهارة القلب ، وحسن الصلة بالله - عز وجل - .

هذا ، وقد استمر وجوب قيام الليل على الرسول - ﷺ - حتى بعد فرض الصلوات الخمس عليه وعلى أمته ، تعظيما لشأنه ، ومداومة له على مناجاة ربه ، خصوصا فى الثلث الأخير من الليل ، يدل على ذلك قوله - تعالى - : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا »(١) .

وقد كان المسلمون يقتدون بالرسول - ﷺ - فى قيام الليل ، وقد أثنى - سبحانه - عليهم بسبب ذلك فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، جزاء بما كانوا يعملون »(٢) .

وقد ذكر الإمام أحمد حديثا طويلا عن سعيد بن هشام ، وفيه أنه سأل السيدة عائشة عن قيامه - ﷺ - بالليل ، فقالت له : ألست تقرأ هذه السورة « ياأيها المزمل . . . » ؟

إن الله افترض قيام الليل فى أول هذه السورة ، فقام رسول الله - ﷺ - وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم . وأمسك الله ختامها فى السماء اثنى عشر شهراً . ثم أنزل التخفيف فى آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعا من بعد فريضة . . . »(٣) .

قال القرطبى ما ملخصه : واختلف : هل كان قيام الليل فرضا وحتما ، أو كان ندبا وحضا ؟ والدلائل تقوى أن قيامه كان حتما وفرضا ، وذلك أن الندب والحض ، لا يقع على بعض الليل دون بعض ، لأن قيامه ليس مخصوصا به وقتا دون وقت . . .

(١) سورة الإسراء . الآية ٧٩ . (٢) سورة السجدة . الآية ١٦ ، ١٧ .
(٣) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٧٨ .

واختلف — أيضاً — هل كان فرضاً على النبي — ﷺ — وحده ؟ أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء ؟ أو عليه وعلى أمته ؟ ثلاثة أقوال.. أصحها ثالثها للحديث المتقدم الذي رواه سعيد بن هشام عن عائشة — رضي الله عنها — (١) .

وقال بعض العلماء بعد أن ساق أقوال العلماء في هذه المسألة بشيء من التفصيل : والذي يستخلص من ذلك أن أرجح الأقوال ، هو القول القائل بأن التهجد كان فريضة على النبي — ﷺ — وعلى أمته ، إذ هو الذي يمكن أن تأتلف عليه النصوص القرآنية السابقة ، ويشهد له ما تقدم من الآثار عن ابن عباس وعائشة وغيرهما .

ويرى بعض العلماء أن وجوب التهجد باق على الناس جميعا ، وأنه لم ينسخ ، وإنما الذي نسخ هو وجوب قيام جزء مقدر من الليل ، لا ينقص كثيراً عن النصف . . .

ويرد على هـــذا القول بما ثبت في الصحيحين ، من أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — قال للرجل الذي سأله عما يجب عليه من صلاة ؟ قال : « خمس صلوات في اليوم والليلة . قال : هل على غيرها ؟ قال : لا إلا أن تطوع .

ويرى فريق آخر ، أن قيام الليل نسخ عن الرسول وعن أمته بآخر سورة المزمل ، واستبدل به قراءة القرآن ، على ما يعطيه قوله — تعالى — « علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرؤا ما تيسر من القرآن» . ويدل عليه — أيضاً — ظاهر ما روى عن عائشة ، من قولها : « فصار قيام الليل تطوعا من بعد الفريضة » ، دون أن تقيد ذلك بقيد .

---

(١) راجع تفسير القرطبي جـ ١٩ ص ٣٤ .

ويرى فريق ثالث : أن وجوب التهجد استمر على النبى وعلى الأمة ، حتى نسخ بالصلوات الخمس ليلة المعراج .

ويرى فريق رابع : أن قيام الليل نسخ عن الأمة وحدها ، وبقى وجوبه على النبى - ﷺ - على ما يعطيه ظاهر آية الإسراء .

ولعل أرجح هذه الأقوال هو القول الرابع ... فإن آية سورة الإسراء وهى قوله - تعالى - « ومن الليل فتهجد به نافلة لك . . . » تدل على أن وجوب التهجد قد بقى عليه - ﷺ - »(١) .

وقوله - تعالى - : « ورتل القرآن ترتيلا » ارشاد له - ﷺ - ولأمته إلى أفضل طريقة لقراءة القرآن الكريم ، حتى يستمروا عليها ، وهم فى أول عهدهم بنزول هذا القرآن الكريم .

والترتيل : جعل الشيء مرتلا ، أى : منسقا منظما ، ومنه قولهم : ثغر مرتل ، أى : منظم الأسنان ، لم يشذ بعضها عن بعض . . .

أى : قم - أيها الرسول الكريم - الليل إلا قليلا منه ... متعبدا لربك مرتلا للقرآن ترتيلا جميلا حسنا ، تستبين معه الكلمات والحروف ، حتى يفهمها السامع ، وحتى يكون ذلك أعون على حسن تدبره ، وأثبت لمعانيه فى القلب . . .

قال الإمام ابن كثير : وكذلك كان يقرأ - ﷺ - ، فقد قالت عائشة . كان رسول الله - ﷺ - يقرأ السورة فيرتلها . . وسئل أنس عن قراءته - ﷺ - فقال : كانت مدا . . . » .

وقال - ﷺ - زينوا القرآن بأصواتكم » . . .

---

(١) راجع تفسير آيات الأحكام ج ٤ ص ١٩٠ للشيخ محمد على السايس - رحمه الله -

وقال عبد الله بن مسعود : لا تنثروه نثر الرمل ، ولا تهذوه هذ الشعر وقفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب(١) — أى لا تسرعوا فى قراءته كما تسرعوا فى قراءة الشعر . والهذ : سرعة القطع — هذا ، وليس معنى قوله — سبحانه — : ورتل القرآن ترتيلا ، أن يقرأ بطريقة فيها تلحين أو تطريب ، يغير من ألفاظ القرآن ، ويخل بالقراءة الصحيحة من حيث الأداء ، ومخارج الحروف ، والغن والمد ، والإدغام والإظهار . . وغير ذلك مما تقتضيه القراءة السليمة للقرآن الكريم . .

وإنما معنى قوله — تعالى — : « ورتل القرآن ترتيلا » أن يقرأه بصوت جميل ، وبخشوع وتدبر ، وبالتزام تام للقراءة الصحيحة ، من حيث مخارج الحروف ، ومن حيث الوقف والمد والإظهار والإخفاء . . وغير ذلك .

وقد بسط القول فى هذه المسألة بعض العلماء ، فارجع إليه إن شئت(٢) .

وقوله — تعالى — : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » تعليل للأمر بقيام الليل ، وهو كلام معترض بين قوله — سبحانه — « قم الليل . . . » وبين قوله — تعالى — بعد ذلك : « إن ناشئة الليل . . . » .

والمراد بالقول الثقيل : القرآن الكريم الذى أنزله — سبحانه — على قلب نبيه — ﷺ — .

ويشهد لثقل القرآن على النبى - ﷺ - أحاديث كثيرة ، منها : ما رواه الإمام البخارى من أن السيدة عائشة قالت : « ولقد رأيته -ﷺ- ينزل عليه الوحى ، فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا » .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٧٦

(٢) راجع تفسير آيات الأحكام ج ٤ ص ١٩٣ للشيخ السايس .

ومنها قوله — ﷺ — : « ما من مرة يوحى إلى ، إلا ظننت أن نفسى تفيض — أى : تخرج . . . » .

ومنها قول زيد بن ثابت : أنزل على رسول الله — ﷺ — شىء من القرآن — وفخذه على فخذى . فكادت ترض فخذى — أى : تتكسر — .

ومنها ما رواه هشام بن عروة عن أبيه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم — كان إذا أوحى عليه وهو على ناقته ، وضعت جرانها — أى : باطن عنقها — فما تستطيع أن تتحرك ، حتى يسرى عنه »(١) .

أى : قم — أيها الرسول الكريم — الليل إلا قليلا منه متعبدا لربك ، متقربا إليه بألوان الطاعات ، فإنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ، وهذا القول هو القرآن الكريم ، الثقيل فى وزنه ، وفى ميزان الحق ، وفى أثره فى القلوب ، وفيما اشتمل عليه من تكاليف ، وصدق الله إذ يقول : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله . . . »

قال الجمل : قوله : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » أى : كلاما عظيما جليلا ذا خطر وعظمة ، لأنه كلام رب العالمين ، كل شىء له خطر ومقدار فهو ثقيل . . .

أو هو ثقيل لما فيه من التكاليف ، والوعد والوعيد ، والحلال والحرام ، والحدود والأحكام .

قال قتادة : ثقيل والله فى فرائضه وحدوده . . وقال محمد بن كعب : ثقيل على المنافقين ، لأنه يهتك أسرارهم . . وقال السدى : ثقيلا بمعنى كريم ، مأخوذ من قولهم : فلان ثقل على ، أى كرم على . . وقال ابن المبارك هو والله ثقيل مبارك ، كما ثقل فى الدنيا ، ثقل فى الميزان يوم القيامة . . .

وقيل : ثقيلا بمعنى أن العقل الواحد لا يفى بإدراك فوائده ومعانيه ،

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٧٧ .

فالمتكلمون غاصوا فى بحار معقولاته . والفقهاء بحثوا فى أحكامه . . .
والأولى أن جميع هذه المعانى فيه .

وقيل : المراد بالقول الوحى ، كما فى الخبر ، أن النبى — صلى الله عليه وسلم — كان إذا أوحى إليه ، وهو على ناقته وضعت جرانها — أى : وضعت صدرها على الأرض — فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه . . . (١)

ويبدو لنا أن وصف القرآن بالثقل وصف حقيقى ، لما ثبت من ثقله على النبى — صلى الله عليه وسلم — وقت نزوله عليه . . . وهذا لا يمنع أن ثقله يشمل ما اندرج فيه من علوم نافعة ، ومن هدايات سامية ، ومن أحكام حكيمة ، ومن آداب قويمة ، ومن تكاليف جليلة الشأن .

وعبر — سبحانه — عن إيحائه بالقرآن إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — بالإلقاء ، للإشعار بأنه يلقى إليه على غير ترقب منه - صلى الله عليه وسلم - ، بل ينزل إليه فى الوقت الذى يريده — سبحانه — ، وللإشارة من أول الأمر إلى أن ما يوحى إليه شىء عظيم وشديد الوقع على النفس .

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك الحكمة من أمره له - صلى الله عليه وسلم - بقيام الليل إلا قليلا منه للعبادة والطاعة فقال : «إن ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا» .

وقوله : « ناشئة » : وصف من النشء وهو الحدوث ، وهو صفة لموصوف محذوف . وقوله : « وطأ » بمعنى مواطأة وموافقة ، وأصل الوطأ : وضع الرجل على الأرض بنظام وترتيب ، ثم استعير للموافقة ، ومنه قوله - تعالى - : «ليواطئوا عدة ما حرم الله» ، ومنه قولهم : وطأته

---

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٤٢٨

خلانا على كذا ، إذا وافقته عليه . وهو منصوب على التمييز . وقوله : « قيلا » بمعنى قولا .

وقوله : « أقوم » بمعنى أفضل وأنفع .

والمعنى : يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا منه للعبادة والطاعة ، فإن العبادة الناشئة بالليل ، هى أشد مواطأة وموافقة لإصلاح القلب ، وتهذيب النفس ، وأقوم قولا ، وأنفع وقعا ، وأفضل قراءة من عبادة النهار ، لأن العبادة الناشئة بالليل يصحبها ما يصحبها من الخشوع والإخلاص ، لهدوء الأصوات بالليل ، وتفرغ العابد تفرغا تاما لعبادة ربه .

قال الشوكانى ما ملخصه : قوله : « إن ناشئة الليل . . . » أى : ساعاته وأوقاته ، لأنها تنشأ أولا فأولا ، ويقال : نشأ الشىء ينشأ ، إذا ابتدأ وأقبل شيئا بعد شىء ، فهو ناشىء . . . قال الزجاج : ناشئة الليل ، كل ما نشأ منه ، أى : حدث منه . . والمراد ساعات الليل الناشئة ، فاكتفى بالوصف عن الاسم الموصوف .

وقيل : إن ناشئة الليل ، هى النفس التى تنشأ من مضجعها للعبادة ، أى : تنهض ، من نشأ من مكانه ، إذا نهض منه .

وهى أشد وطاء قرأ الجمهور « وطأ » بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة وقرأ بعضهم « وطاء » بكسر الواو وفتح الطاء ممدودة .

والمعنى على القراءة الأولى : أن الصلاة الناشئة فى الليل ، أثقل على المصلى من صلاة النهار ، لأن الليل للنوم . . ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم اشدد وطأتك على مضر » .

والمعنى على القراءة الثانية : أنها أشد مواطأة وموافقة بين السمع والبصر ، والقلب واللسان ، لانقطاع الأصوات والحركات ، ومنه قوله - تعالى - : « ليواطئوا عدة ما حرم الله » أى : ليوافقوا .

« وأقوم قيلا » أى : وأشد مقالا ، وأثبت قراءة ، لحضور القلب فيها ، وهدوء الأصوات ، وأشد استقامة واستمرارا على الصواب..»(١)

وقوله - سبحانه - : « إن لك فى النهار سبحا طويلا» تقرير للأمر بقيام الليل إلا قليلا منه للعبادة والطاعة والتقرب إليه - سبحانه - .

والسبح مصدر سبح ، وأصله الذهاب فى الماء والتقلب فيه ، ثم استعير للتقلب والتصرف المتسع ، الذى يشبه حركة السابح فى الماء .

أى : إنا أمرناك بقيام الليل للعبادة والطاعة ، لأن لك فى النهار - أيها الرسول الكريم - تقلبا وتصرفا فى مهماتك ، واشتغالا بأعباء الرسالة ، يجعلك لا تستطيع التفرغ لعبادتنا ، أما فى الليل فتستطيع ذلك لأنه وقت السكون والراحة والنوم .

فالمقصود من الآية الكريمة التخفيف والتيسير عليه - صلى الله عليه وسلم - وبيان الحكمة من أمره بقيام الليل - إلا قليلا منه - للعبادة ، حيث لم يجمع - سبحانه - عليه الأمر بالتهجد فى الليل والنهار ، وإنما يسر عليه الأمر ، فجعله بالليل فحسب ، أما النهار فهو لمطالب الحياة ، ولتبليغ رسالاته - سبحانه - إلى الناس .

ثم أمره - سبحانه - بعد ذلك بالمداومة على ذكره ليلا ونهارا فقال : « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا . رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا » .

وقوله - سبحانه - : « وتبتل » من التبتل ، وهو الاشتغال الدائم بعبادة الله - تعالى - ، والانقطاع لطاعته . ومنه قولهم ابتل فلان الحبل ، إذا قطعه ، وامرأة بتول . أى : منقطعة من الزواج ، ومتفرغة لعبادة الله

---

(١) راجع تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٣١٧ للشوكانى

ـ تعالى ـ . والمراد به هنا : التفرغ لما يرضى الله ـ تعالى ـ ، والاشتغال بذلك عن كل شىء سواه .

أى : وداوم ـ أيها الرسول الكريم ـ على ذكر الله ـ تعالى ـ عن طريق تسبيحه ، وتحميده ، وتكبيره ، وتفرغ لعبادته وطاعته تفرغا تاما ، دون أن يشغلك عن ذلك شاغل .

فربك ـ عز وجل « هو رب المشرق والمغرب » ، أى : هو ـ سبحانه ـ رب جهتى الشروق والغروب للشمس .

« لا إله إلا هو » مستحق للعبادة والطاعة ، وما دام الأمر كذلك « فاتخذه وكيلا » .

أى : فاتخذه وكيلك الذى تفوض إليه أمرك ، وتلجأ إليه فى كل أحوالك . . إذ الوكيل هو الذى توكل إليه الأمور ، ويترك له التصرف فيها . . .

وليس المراد بقوله ـ تعالى ـ : « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا » الانقطاع التام عن الأعمال ، لأن هذا يتنافى مع قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : « إن لك فى النهار سبحا طويلا » ، وإنما المراد التنبيه إلى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينبغى له أن لا يشغله السبح الطويل بالنهار ، عن طاعته ـ عز وجل ـ ، وعن المداومة على مراقبته وذكره .

ومما لا شك فيه أن ما كان يقوم به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الاشتغال بأمر الدعوة إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ ، ومن تعليم الناس العلم النافع ، والعمل الصالح . . . كل ذلك يندرج تحت المواظبة على ذكر الله ـ تعالى ـ ، وعلى التفرغ لعبادته .

وقال ـ سبحانه ـ « وتبتل إليه تبتيلا » ، ولم يقل تبتلا حتى يكون الفعل موافقا لمصدره ، للإشارة إلى أن التبتل والانقطاع إلى الله يحتاجان

إلى عمل اختيارى منه - صلى الله عليه وسلم - ، بأن يجرد نفسه عن كل ما سوى الله - تعالى - ، وبذلك يحصل التبتل الذى هو أثر للتبتيل ، بمعنى : ترويض النفس وتعويدها على العبادة والطاعة .

ووصف - سبحانه - ذاته بأنه « رب المشرق والمغرب » ، لمناسبة الأمر بذكره فى الليل والنهار ، وهما وقت ابتداء طلوع الشمس وغروبها ، فكأنه - سبحانه - يقول : داوم على طاعتى لأنى أقارب جميع جهات الأرض ، التى فيها تشرق الشمس وتغرب .

والمراد بالمشرق والمغرب هنا : جنسهما ، فهما صادقان على كل مشرق من مشارق الشمس ، التى هى ثلاثمائة وستون مشرقا - كما يقول العلماء - وعلى كل مغرب من مغاربها التى هى كذلك .

والمراد بالمشرقين والمغربين كما جاء فى سورة الرحمن : مشرق ومغرب الشتاء والصيف .

والمراد بالمشارق والمغارب كما جاء فى سورة المعارج - مشرق ومغرب كل يوم للشمس والكواكب .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك بالصبر الجميل ، على أذى قومه فقال : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا . . . . » .

أى : اجعل يا محمد اعتمادك وتوكلك على وحدى ، واصبر على ما يقوله أعداؤك فى حقك من أكاذيب وخرافات . . واهجرهم هجرا جميلا ، أى : واعتزلهم وابتعد عنهم ، وقاطعهم مقاطعة حسنة ، بحيث لا تقابل السيئة بمثلها ، ولا تزيد على هجرهم ، بأن تسبهم ، أو ترميهم بالقبيح من القول . . .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والمعنى أنك لما اتخذتنى وكيلا فاصبر

على ما يقولون ، وفوض أمرهم إلى ، فإنى لما كنت وكيلالك أقوم بإصلاح أمرك ، أحسن من قيامك بإصلاح نفسك .

واعلم أن مهمات العباد محصورة فى أمرين : فى كيفية معاملتهم مع الله ، وقد ذكر - سبحانه - ذلك فى الآيات السابقة ، وفى كيفية معاملتهم مع الخلق ، وقد جمع - سبحانه - كل ما يحتاج إليه فى هذا الباب فى هاتين الكلمتين ، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطا للناس ، أو مجانبا لهم. فإن كان مخالطهم فعليه أن يصبر على إيذائهم . . . وإما أن يكون مجانبا لهم ، فعليه أن يهجرهم هجرا جميلا . . . بأن يجانبهم بقلبه وهواه ، ويخالفهم فى أفعالهم ، مع المداراة والإغضاء . . . »(١) .

وقوله — سبحانه — : « وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا » أى : ودعنى وشأنى مع هؤلاء المكذبين بالحق ، ولا تهتم أنت بأمرهم ، فأنا خالقهم ، وأنا القادر على كل شىء يتعلق بهم .

وقوله . « أولى النعمة » وصف لهم جىء به على سبيل التوبيخ لهم ، والتهكم بهم ، حيث جحدوا نعم الله ، وتوهموا أن هذه النعم من مال أوولد ستنفعهم يوم القيامة .

والنعمة - بفتح النون مع التشديد - : تطلق على التنعم والترفه وغضارة العيش فى الدنيا .

وأما النعمة - بكسر النون - فاسم للحالة الملائمة لرغبة الإنسان من غنى أو عافية أو نحوهما .

وأما النعمة - بالضم - فهى اسم للمسرة . يقال : فلان فى نعمة - بضم النون - أى : فى فرح وسرور .

---

(١) تفسير مفخر الرازى جـ ٨ ص ٢٤٠ .

وقوله : « ومهلهم قليلا » أى : واتركهم ودعهم فى باطلهم وقتا قليلا، فسترى بعد ذلك سوء عاقبة تكذيبهم للحق .

وقوله - سبحانه - : « إن لدينا أنكالا وجحيما . . . » تعليل لما قبله . والأنكال : جمع نكل - بكسر النون وسكون الكاف - وهو القيد الثقيل ، يوضع فى الرجل لمنع الحركة . وسميت القيود بذلك لأنها تجعل صاحبها موضع عبرة وعظة ، أو لأنها تجعل صاحبها ممنوعا من الحركة ، والتقلب فى مناكب الأرض .

أى : إن لدينا ما هو أشد من ردك عليهم . . . وهو تلك القيود التى تقيد حركتهم بها ، وإن لدينا « جحيما » أى : طعاما يلتصق فى الحلوق ، فلا هو خارج منها ، ولا هو نازل عنها ، بل هو ناشب فيها لبشاعته ومرارته .

وهذا الطعام ذو الغصة ، يشمل ما يتناولونه من الزقوم ومن الغسلين ومن الضريع ، كما جاء فى آيات أخرى . والغصة : ما ينشب فى الحلق من عظم أو غيره . وجمعه غصص .

وإن لدينا فوق كل ذلك « عذابا أليما » أى : عذابا شديد الإيلام لمن ينزل به .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد توعدت هؤلاء المكذبين بألوان من العقوبات الشديدة ، توعدتهم بالقيود التى تشل حركتهم ، وبالنار المشتعلة التى تحرق أجسادهم ، وبالطعام البشع الذى ينشب فى حلوقهم ، وبالعذاب الأليم الذى يشقيهم ويفزعهم .

والظرف فى قوله - تعالى - : « يوم ترجف الأرض والجبال . . . » منصوب بالاستقرار العامل فى الدنيا ، الذى هو الخبر فى الحقيقة .

أى : استقر لهم ذلك العذاب الأليم لدينا، يوم القيامة، يوم تضطرب وتتزلزل الأرض والجبال .

« وكانت الجبال » فى هذا اليوم « كثيبا مهيلا » أى : رملا مجتمعا ، بعد أن كانت قبل ذلك الوقت أحجارا صلبة كبيرة .

فقوله : « كثيبا » من كثب الشيء يكثبه ، إذا جمعه من قرب ثم صبه ، وجمعه كثب وكثبان ، وهى تلال الرمال المجتمعة كالربوة .

وقوله « مهيلا » اسم مفعول من هال الشيء هيلا ، إذا نثره ، وفرقه بعد اجتماعه .

والشيء المهيل : هو الذى يحرك أسفله فينهار أعلاه ويتساقط بسرعة .

ثم يذكر ـ سبحانه ـ بعد ذلك هؤلاء المكذبين بما حل بالمكذبين من قبلهم ، فيقول : « إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم ، كما أرسلنا إلى فرعون رسولا . فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا » .

أى : إنا أرسلنا إليكم ـ أيها المكذبون » ـ « رسولا » عظيم الشأن ، رفيع القدر ، هو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، « شاهدا عليكم » أى : سيكون يوم القيامة شاهدا عليكم ، بأنه قد بلغكم رسالة الله ـ تعالى ـ دون أن يقصر فى ذلك أدنى تقصير .

والكاف فى قوله ـ تعالى ـ : «كما أرسلنا إلى فرعون رسولا» للتشبيه . أى : أرسلنا إليكم ـ يا أهل مكة ـ رسولا شاهدا عليكم هو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، كما أرسلنا من قبلكم إلى فرعون رسولا شاهدا عليه ، هو موسى ـ عليه السلام ـ .

وأكد الخبر فى قوله ـ تعالى ـ : « إنا أرسلنا . . » لأن المشركين ، كانوا ينكرون نبوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ونكر رسولا ، لأنهم كانوا يعرفونه حق المعرفة ، وللتعظيم من شأنه

ـ صلى الله عليه وسلم ـ . أى : أرسلنا إليكم رسولا عظيم الشأن ، سامى المنزلة ، جامعا لكل الصفات الكريمة .

والفاء فى قوله : « فعصى فرعون الرسول » للتفريع . أى : أرسلنا إليكم رسولا كما أرسلنا إلى فرعون رسولا قبل ذلك ، فكانت النتيجة أن عصى فرعون أمر الرسول الذى أرسلناه إليه ، واستهزأ به ، وتطاول عليه فكانت عاقبة هذا التطاول ، أن أخذناه « أخذا وبيلا » .

أى : أهلكنا فرعون إهلاكا شديدا ، وعاقبناه عقابا ثقيلا . فوبيل بزنة فعيل ـ صفة مشبهة ، مأخوذة من وَبلَ المكان ، إذا وخم هواؤه وكان ثقيلا رديئا . ويقال مرعى وبيل ، إذا كان وخما رديئا .

وخص ـ سبحانه ـ موسى وفرعون بالذكر ، لأن أخبارهما كانت مشهورة عند أهل مكة .

و « أل » فى قوله « فعصى فرعون الرسول » للعهد ، أى فعصى فرعون الرسول المعهود عندكم ، وهو موسى ـ عليه السلام ـ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم نكر الرسول ثم عرف ؟ قلت : لأنه أراد : أرسلنا إلى فرعون بعض الرسل ، فلما أعاده وهو معهود بالذكر ، أدخل لام التعريف ، إشارة إلى المذكور بعينه(١) » .

وأظهر ـ سبحانه ـ اسم فرعون مع تقدم ذكره فقال « فعصى فرعون الرسول » ، دون أن يؤتى بضميره ، للإشعار بفظاعة هذا العصيان ، وبلوغه النهاية فى الطغيان .

والمقصود من هاتين الآيتين ، تهديد المشركين ، بأنهم إذا ما استمروا فى تكذيبهم لرسولهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقد يصيبهم من العذاب ما أصاب فرعون عندما عصى موسى ـ عليه السلام ـ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٤١ .

ثم ذكرهم — سبحانه — بأهوال يوم القيامة ، لعلهم يتعظون أو يرتدعون فقال : « فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء منفطر به كان وعده مفعولا » .

والاستفهام فى قـوله : فكيف » مستعمل فى التوبيخ والتعجيز . و « تتقون » بمعنى تصونون أنفسكم من العذاب . ومعنى « إن كفرتم » إن بقيتم على كفركم وأصررتم عليه . وقوله « يوما » : منصوب على أنه مفعول به لقوله : « تتقون » .

وقوله : « السماء منفطر به » صفة ثانية لهذا اليوم .

والمراد بالولدان : الأطفال الصغار . وبه بمعنى فيه .

والمقصود بهاتين الآيتين — أيضاً — تأكيد التهديد للمشركين ، حتى يقلعوا عن شركهم وكفرهم .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لكم من سوء عاقبة المكذبين ، فكيف تصونون أنفسكم ، إذا ما بقيتم على كفركم ، من عذاب يوم هائل شديد ، هذا اليوم من صفاته أنه يحول الشعر الشديد السواد للولدان ، إلى شعر شديد البياض . . .

وهذا اليوم من صفاته — أيضاً — أنه اشدة هوله ، أن السماء - مع عظمها وصلابتها - تصير شيئا منفطرا - أى : متشققا « به » أى : فيه والضمير يعود إلى اليوم .

وصدر — سبحانه — الحديث عن يوم القيامة ، بلفظ الاستفهام « كيف » للإشعار بشدة هوله ، وأنه أمر يعجز الواصفون عن وصفه .

ووصف — سبحانه — هذا اليوم بأنه يشيب فيه الولدان ، ثم وصفه بأن السماء مع عظمها تتشقق فيه ، للارتقاء فى الوصف من العظيم إلى الأعظم ، إذ أن تحول شعر الأطفال من السواد إلى البياض — مع شدته وعظمه — ، أشد منه وأعظم ، انشقاق السماء فى هذا اليوم . . .

قال صاحب الكشاف : وقوله : «يجعل الولدان شيبا» : مثل فى الشدة . يقال فى اليوم الشديد : يوم يشيب نواصى الأطفال . والأصل فيه أن الهموم والأحزان ، إذا تفاقمت على الإنسان ، أسرع فيه الشيب ، كما قال أبو الطيب :

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبى ويهرم

ويجوز أن يوصف اليوم بالطول ، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب .

وقوله : السماء منفطر به ، وصف لليوم بالشدة - أيضا - ، وأن السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه ، فما ظنك بغيرها من الخلائق..»(١).

ووصف - سبحانه - السماء بقوله : «منفطر» بصيغة التذكير ، حيث لم يقل منفطرة ، لأن هذه الصيغة ، صيغة نسب . أى : ذات انفطار ، كما فى قولهم : امرأة مرضع وحائض ، أى : ذات إرضاع وذات حيض . أو على تأويل أن السماء بمعنى السقف ، كما فى قوله - تعالى - : «وجعلنا السماء سقفا محفوظا» أو على أن السماء اسم جنس واحده سماوة ، فيجوز وصفه بالتذكير والتأنيث . . .

وقوله «كان وعده مفعولا» الضمير فيه يعود إلى الخالق - عز وجل - والوعد مصدر مضاف لفاعله . أى : كان وعد ربك نافذا ومفعولا ، لأنه - سبحانه - لا يخلف موعوده .

ويجوز أن تكون هذه الجملة صفة ثالثة لليوم ، والضمير فى وعده يعود إليه ، ويكون من إضافة المصدر لمفعوله . أى : كان الوعد بوقوع يوم القيامة نافذا ومفعولا .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٤٢ .

ثم ختم - سبحانه - هذه التهديدات بقوله : « إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » .

واسم الإشارة « هذه » يعود إلى الآيات المتقدمة ، المشتملة على الكثير من القوارع والزواجر .

والتذكرة : اسم مصدر بمعنى التذكير والاتعاظ والاعتبار . ومفعول « شاء » محذوف .

والمعنى : إن هذه الآيات التي سقناها لكم تذكرة وموعظة ، فمن شاء النجاة من أهوال يوم القيامة ، فعليه أن يؤمن بالله - تعالى - إيمانا حقا ، وأن يتخذ بسبب إيمانه وعمله الصالح ، طريقا وسبيلا إلى رضا ربه ورحمته ومغفرته .

والتعبير بقوله : « فمن شاء اتخذ . . . » ليس من قبيل التخيير ، وإنما المقصود به الحض والحث على سلوك الطريق الموصل إلى رضا الله - تعالى - بدليل قوله — تعالى — قبل ذلك : « إن هذه تذكرة » . أي : هذه الآيات تذكرة وموعظة ، فمن ترك العمل بها ساءت عاقبته ، ولم يكن من الذين سلكوا طريق النجاة .

وشبيه بهذه الآية قوله — تعالى — : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » هذا ، والمتأمل في هذه الآيات الكريمة ، - من أول السورة إلى هنا - ، يراها قد نادت الرسول - صلى الله عليه وسلم - نداء فيه ما فيه من الملاطفة والمؤانسة ، وأمرته بأن يقوم الليل إلا قليلا متعبدا لربه ، كما أمرته بالصبر على أذى المشركين ، حتى يحكم الله - تعالى - بينه وبينهم . . .

كما يراها قد هددت المكذبين بأشد أنواع التهديد ، وذكرتهم بأهوال يوم القيامة ، وبما حل بالمكذبين من قبلهم ، وحضتهم على سلوك الطريق المستقيم . . .

وبعد هذه الإنذارات المتعددة للمكذبين ، عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن قيام الليل لعبادة الله - تعالى - وطاعته ... فقال - سبحانه - :

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ (٢٠)

والمراد بالقيام فى قوله - تعالى - : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه . . . » التهجد بالليل عن طريق الصلاة تقربا إلى الله - تعالى .

وقوله : « أدنى » بمعنى أقرب ، من الدنو بمعنى القرب ، تقول : رأيت فلانا أدنى إلى فعل الخير من فلان . أى : أقرب . واستعير هنا للأقل ،

لأن المسافة التى بين الشيء والشيء إذا قربت كانت قليلة ، وهو منصوب على الظرفية بالفعل « تقوم » .

وقوله : « ونصفه وثلثه » قرأه بعض القراء السبعة بالجر عطفا على « ثلثى الليل » ، وقرأه الجمهور بالنصب عطفا على أدنى .

والمعنى على قراءة الجمهور : إن ربك — أيها الرسول الكريم — يعلم أنك تقوم من الليل ، مدة قد تصل تارة إلى ثلثى الليل ، وقد تصل تارة أخرى إلى نصفه أو إلى ثلثه . . . على حسب ما يتيسر لك ، وعلى حسب أحوال الليل فى الطول والقصر . .

والمعنى على قراءة غير الجمهور : إن ربك يعلم أنك تقوم تارة أقل من ثلثى الليل وتارة أقل من نصفه ، وتارة أقل من ثلثه . . . وذلك لأنك لم تستطع ضبط المقدار الذى تقومه من الليل ، ضبطا دقيقا ، ولأن النوم تارة يزيد وقته وتارة ينقص ، والله — تعالى — قد رفع عنك المؤاخذة بسبب عدم تعمدك القيام أقل من ثلث الليل . .

فالآية الكريمة المقصود منها بيان رحمة الله — تعالى — بنبيه — ﷺ — حيث قبل منه قيامه بالليل متهجدا ، حتى ولو كان هذا القيام أقل من ثلث الليل . . .

وافتتاح الآية الكريمة بقوله — سبحانه — : « إن ربك يعلم . . . » يشعر بالثناء عليه — صلى الله عليه وسلم — .

وبالتلطف معه فى الخطاب ، حيث إنه — صلى الله عليه وسلم — كان مواظبا على قيام الليل ، على قدر استطاعته ، بدون تقصير أو فتور .

وفى الحديث الشريف ، أنه — صلى الله عليه وسلم — : قام الليل حتى تورمت قدماه » .

والتعبير بقوله - تعالى - : « أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه » يدل على أن قيامه - صلى الله عليه وسلم - كان متفاوتا فى طوله وقصره ، على حسب ما تيسر له - صلى الله عليه وسلم - ، وعلى حسب طول الليل وقصره.

وقوله - سبحانه - : « وطائفة من الذين معك » معطوف على الضمير المستتر فى قوله : « تقوم » .

أى : أنت - أيها الرسول الكريم - تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ، وتقوم معك طائفة من أصحابك للصلاة معك ، أما بقية أصحابك فقد يقومون للتهجد فى منازلهم .

روى البخارى فى صحيحه عن عائشة ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم صلى ذات ليلة فى المسجد ، فصلى بصلاته ناس ، ثم صلى من القابلة فكثر الناس ، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة ، فلم يخرج إليهم رسول الله - ﷺ - ، فلما أصبح قال : قد رأيت الذى صنعتم ، ولم يمنعنى من الخروج إليكم ، إلا أنى خشيت أن تفرض عليكم » .

قال بعض العلماء : قوله : « وطائفة من الذين معك » معطوف على الضمير المستكن فى « تقوم » .

وهو - وإن كان ضمير رفع متصل - ، قد سوغ العطف عليه الفصل بينه وبين المعطوف .

والمعنى : أن الله يعلم أنه كان يقوم كذلك جماعة من الذين آمنوا بك ، واتبعوا هداك .

وقد يقال : إن هذا يدل على أن قيام الليل لم يكن فرضا على جميع الأمة ، وهو خلاف ما تقرر تفسيره فى أول السورة ، ويخالف - أيضا - مادلت عليه الآثار المتقدمة هناك .

والجواب : أنه ليس فى الآية ما يفيد أن الصحابة - رضوان الله

عليهم – كانوا جميعا يصلون مع النبى – ﷺ – صلاة التهجد فى جماعة واحدة ، فلعل بعضهم كان يقيمها فى بيته . فلاينا فى ذلك فرضية القيام على الجميع »(١) .

وقوله – سبحانه – : « والله يقدر الليل والنهار » بيان لشمول علمه – تعالى – ولنفاذ إرادته .

أى : والله – تعالى – وحده ، هو الذى يعلم مقادير ساعات الليل والنهار ، وهو الذى يحدد زمانهما – طولا وقصرا – ، على حسب ما تقتضيه مشيئته وحكمته .

فالجملة الكريمة تفيد الحصر والاختصاص ، عن طريق سياق الكلام ، ودلالة المقام .

وقوله – تعالى – : « علم أن لن تحصوه فتاب عليكم » مؤكد لما قبله . وإحصاء الأشياء : عدها والإحاطة بها .

والضمير المنصوب فى قوله « تحصوه » يعود على المصدر المفهوم من قوله : « يقدر » فى الجملة السابقة .

والتوبة فى قوله – سبحانه – : « فتاب عليكم » يصح أن تكون بمعنى المغفرة ، وعدم المؤاخذة ، أو بمعنى قبولها منهم ، والتيسير عليهم فى الأحكام ، وتخفيفها عنهم .

أى : والله – تعالى – هو الذى يقدر أجزاء الليل والنهار ، وهو الذى يعلم – دون غيره – أنكم لن تستطيعوا تقدير ساعاته تقديرا دقيقا . . . ولذلك خفف الله عنكم فى أمر القيام ، ورفع عنكم المقدار المحدد ، وغفر لكم ما فرط منكم من تقصير غير مقصود ، ورخص لكم أن تقوموا المقدار الذى تستطيعون قيامه من الليل ، مصلين ومتهجدين . .

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٤ ص ٢٠٠ للشيخ محمد على السايس .

فالجملة الكريمة تقرر جانبا من فضل الله — تعالى — على عباده، ومن رحمته بهم . . .

والفاء فى قوله — تعالى — : « فاقرءوا ما تيسر من القرآن » للإفصاح، والمراد بالقراءة الصلاة، وعبر عنها بالقراءة لأنها من أركانها . . أى : إذا كان الأمر كما وضحت لكم، فصلوا ما تيسر لكم من الليل . . .

قال الآلوسى : قوله : « فاقرءوا ما تيسر من القرآن » أى : فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، وعبر عن الصلاة بالقراءة، كما عبر عنها بسائر أركانها . وقيل : الكلام على حقيقته، من طلب قراءة القرآن بعينها وفيه بعد عن مقتضى السياق .

ومن ذهب إلى الأول قال : إن الله — تعالى — افترض قيام مقدار معين من الليل، لقوله : « قم الليل إلا قليلا . نصفه . . . الخ »، ثم نسخ بقيام مقدار ما منه، فى قوله : « فتاب عليكم . فاقرءوا ما تيسر من القرآن . . . » فالأمر فى الموضعين للوجوب، إلا أن الواجب أولا كان معينا من معينات، وثانيا كان بعضا مطلقا، ثم نسخ وجوب القيام على الأمة مطلقا بالصلوات الخمس .

ومن قال بالثانى . ذهب إلى أن الله — تعالى — رخص لهم فى ترك جميع القيام للصلاة، وأمر بقراءة شىء من القرآن ليلا، فكأنه قيل : فتاب عليكم ورخص لكم فى الترك، فاقرءوا ما تيسر من القرآن، إن شق عليكم القيام . . . » (١)

وقال الإمام ابن كثير : وقوله : « فاقرءوا ما تيسر من القرآن » أى : من غير تحديد بوقت، أى : لكن قوموا من الليل ما تيسر . وعبر عن

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ١١١

الصلاة بالقراءة ، كما قال فى آية أخرى : « ولا تجهر بصلاتك » أى : بقراءتك « ولا تخافت بها » .

وقد استدل الأحناف بهذه الآية على أنه لا يتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ، ولو بآية ، أجزأه ، واعتضدوا بحديث المسىء صلاته الذى فى الصحيحين ، وفيه : « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » .

وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة ابن الصامت ، وهو فى الصحيحين - أيضا - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : «كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج . . . غير تمام » وفى صحيح ابن خزيمة عن أبى هريرة مرفوعا : « لا تجزىء صلاة من لم يقرأ بفاتحة الكتاب » (١) .

وقوله - سبحانه - بعد ذلك : « علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، فاقرءوا ما تيسر منه . . . » بدل اشتمال من جملة : « علم أن لن تحصوه فتاب عليكم . . . » ، أو هو كلام مستأنف لبيان الحكمة التى من أجلها خفف الله على المسلمين قيام الليل .

أى : صلوا من الليل على قدر استطاعتكم من غير تحديد بوقت ، فالله - تعالى - يعلم أنكم لا تستطيعون ضبط ساعات الليل ولا أجزائه ، فخفف عنكم لذلك ، ولعلمه - أيضا - أن منكم المرضى الذين يعجزون عن قيام ثلثى الليل أو نصفه أو أقل من ذلك بقليل .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٨٤

ومنكم - أيضا - الذين « يضربون فى الأرض » أى : يسافرون فيها للتجارة وللحصول على مطالب الحياة ، وهم فى كل ذلك يبتغون ويطلبون الرزق من فضله - تعالى - .

ومنكم - أيضا - الذين يقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله ، ويجاهدون من أجل نشر دينه وما دام الأمر كذلك ، فقد أبحت لكم - بفضلى وإحسانى - أن تصلوا من الليل ما تيسر لكم .

وقد جمع - سبحانه - بين السعى فى الأرض لطلب الرزق ، وبين الجهاد فى سبيله ، للإشعار بأن الأول لا يقل فى فضله عن الثانى ، متى توفرت فيه النية الطيبة ، وعدم الانشغال به عن ذكر الله - تعالى - .

قال الإمام القرطبى : سوى الله - تعالى - فى هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال ، للنفقة على النفس والعيال . . . فكان هذا دليلا على أن كسب المال بمنزلة الجهاد فى سبيل الله .

وفى الحديث الشريف : ما من جالب يجلب طعاما من بلد إلى بلد ، فيبيعه بسعر يومه ، إلا كانت منزلته عند الله كمنزلة الشهداء . ثم قرأ - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية . . . (١)

وأعيدت جملة « فاقرءوا ما تيسر منه » لتأكيد التيسير والتخفيف وتقريره ، وليعطف عليه ما بعده من بقية الأوامر ، وهى قوله - تعالى - : « وأقيموا الصلاة » أى : وأدوها كاملة الأركان والخشوع والسنن . . . فى وقتها بدون تأخير .

« وآتوا الزكاة » أى : قدموها لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهما . . .

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ٥٥

قال ابن كثير : أى : أقيموا الصلاة الواجبة عليكم ، وآتوا الزكاة المفروضة ، وهذا يدل لمن قال : إن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصاب لم تبين إلا بالمدينة »(١) .

وقوله : « واقرضوا الله قرضا حسنا » . والقرض : ما قدمته لغيرك من مال ، على أن يرده إليك بعد ذلك . والمراد من إقراض الله - تعالى - : إعطاء الفقراء والمساكين ما يحتاجونه على سبيل المعاونة والمساعدة .

وشبه - سبحانه - إعطاء الصدقة للمحتاج ، بقرض يقدم له - تعالى - ، للإشعار بأن ما سيعطى لهذا المحتاج ، سيعود أضعافه على المعطى ، لأن الله - تعالى - قد وعد أن يكافىء على الصدقة بعشر أمثالها ، وهو - سبحانه - بعد ذلك يضاعف لمن يشاء الثواب والعطاء ،

ووصف القرض بالحسن ، لحض النفوس على الإخلاص وعلى البعد عن الرياء والأذى . .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : « وما تقدموا لأنفسكم من خير » أى : «أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأقرضوا الله قرضا حسنا ، وافعلوا ما تستطيعونه - بعد ذلك - من وجوه الخير ، وما تقدموا لأنفسكم من هذا الخير الذى يحبه - سبحانه - « تجدوه عند الله » .

أى : تجدوا ثوابه وجزاءه عند الله - تعالى - ، ففى الكلام إيجاز بالحذف ، وقد استغنى عن المحذوف بذكر الجزاء عليه . والهاء فى قوله « تجدوه » هو المفعول الأول .

والضمير المنفصل فى قوله : « هو خيرا وأعظم أجرا » هو ضمير الفصل . . .

و « خيرا » هو المفعول الثانى . أى : كل فعل موصوف بأنه خير ،

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٨٦

تقدمونه عن إخلاص لغيركم ، لن يضيع عند الله — تعالى — ثوابه ، بل ستجدون جزاءه وثوابه مضاعفا عند الله — تعالى — .

« واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » أى : وواظبوا على الاستغفار وعلى التوبة النصوح ، وعلى التضرع إلى الله - تعالى - أن يغفر لكم ما فرط منكم ، فإنه - سبحانه - واسع المغفرة والرحمة ، لمن تاب إليه وأناب . . .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « المزمل » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

الإسكندرية - العجمى : ظهر الاثنين ٦ من ذى الحجة سنة ١٤٠٦م
١١ / ٨ / ١٩٨٦ م

تفسير سورة

«المدثر»

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة « المدثر »

١ — سورة « المدثر » من أوائل السور التي نزلت على النبي - ﷺ - ويغلب على الظن أن نزولها كان بعد نزول صدر سورة اقرأ .

ويشهد لذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة - رضي الله عنها -: أن النبي — ﷺ — جاءه الوحي وهـــو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال له : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . .

وروى الشيخان — أيضاً — وغيرهما ، عن يحي بن أبي كثير قال : سألت أباسلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ؟ فقال : يأيها المدثر . قلت : يقولون : اقرأ باسم ربك . .

فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، فقال : يأيها المدثر لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله — ﷺ — ، قال : جاورت بحراء ، فلما قضيت جواري ، هبطت الوادي ، فنوديت عن يميني فـــلم أرشيئا ، ونظرت عن شمالي فلم أرشيئا . فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرجعت على أهلي فقلت : دثروني فدثروني . فنزلت يأيها المدثر ، قم فأنذر . .

قال الآلوسي ماملخصه : وظاهر هذا الحديث يقتضي نزول هذه السورة قبل سورة اقرأ ، مع أن المروي في الصحيحين عن عائشة أن سورة اقرأ أول ما نزل على الإطلاق ، وهو الذي ذهب إليه أكثر الأمة ، حتى قال بعضهم هو الصحيح . .

وللجمع بين هذين الحديثين وجوه منها : أن مراد جابر بالأولية أولوية مخصوصة ، بما نزل بعد فترة الوحي ، لا أولية مطلقة كما هو الحال

بالنسبة لسورة اقرأ. أو أن السؤال فى حديث جابر، كان عن نزول سورة كاملة، فبين أن سورة المدثر نزلت بكمالها. أو أن جابر قد قال ذلك باجتهاده، ويقدم على هذا الاجتهاد ما ذكرته عائشة من أن أول ما نزل على الإطلاق، هو صدر سورة اقرأ . . .»(١)

وعلى أية حال فسورة المدثر تعتبر من أوائل ما نزل على النبى - ﷺ - من قرآن، كما يرى ذلك من تدبر آياتها التى تحض الرسول - ﷺ - على إنذار الناس بدعوته.

وعدد آياتها: ست وخمسون آية فى المصحف الكوفى، وخمس وخمسون فى البصرى.

٢ - ومن أهم مقاصدها: تكريم النبى - ﷺ -، وأمره بتبليغ ما أوحاه الله - تعالى - إليه إلى الناس، وتسليته عما أصابه من أذى، وتهديد أعدائه بأشد ألوان العقاب، وبيان حسن عاقبة المؤمنين، وسوء عاقبة المكذبين، والرد عليهم بما يبطل دعاواهم . .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٨٩.
وتفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١١٥.

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ
فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ
فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾
عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ
لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ
صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ
كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾
فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾
سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾
لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾

افتتح الله - تعالى - سورة المدثر ، بالملاطفة والمؤانسة فى النداء والخطاب ، كما افتتح سورة المزمل ، والمدثر اسم فاعل من تدثر فلان ، إذا لبس الدثار ، وهو ما كان من الثياب فوق الشعار الذى يلى البدن . ومنه حديث : « الأنصار شعار والناس دثار » .

قال القرطبى : قوله - تعالى - يا أيها : المدثر : ملاطفة فى الخطاب من الكريم إلى الحبيب ، إذ ناداه بحاله ، وعبر عنه بصفته ، ولم يقل يا محمد ويافلان ، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه ، كما تقدم فى سورة المزمل . ومثله قول النبى - ﷺ - لعلى إذ نام فى المسجد « قم أبا تراب » .

وكان قد خرج مغاضبا لفاطمة - رضى الله عنها - ، فسقط رداءه وأصابه التراب . ومثله قوله - ﷺ - لحذيفة بن اليمان ليلة الخندق « قم يانومان »(١) .

والمراد بالقيام فى قوله - تعالى - : « قم فأنذر » المسارعة والمبادرة والتصميم على تنفيذ ما أمره - سبحانه - به . والإنذار هو الإخبار الذى يصاحبه التخويف .

أى : قم - أيها الرسول الكريم - وانهض من مضجعك ، وبادر بعزيمة وتصميم ، على إنذار الناس وتخويفهم من سوء عاقبتهم ، إذا ما استمروا فى كفرهم ، وبلغ رسالة ربك إليهم دون أن تخشى أحدا منهم ، ومرهم بأن يخلصوا له - تعالى - العبادة والطاعة .

والتعبير بالفاء فى قوله : « فأنذر » ، للإشعار بوجوب الإسراع بهذا الإنذار بدون تردد .

وقال : فأنذر ، دون فبشر ، لأن الإنذار هو المناسب فى ابتداء تبليغ الناس دعوة الحق ، حتى يرجعوا عما هم فيه من ضلال .

ومفعول أنذر محذوف . أى : قم فأنذر الناس ومرهم بإخلاص العبادة له .

وقوله « وربك فكبر » أمر آخر له - ﷺ - ، ولفظ « وربك » منصوب على التعظيم لفعل « كبر » ، قدم على عامله لإفادة التخصيص .

أى : يأيها المدثر بثيابه لخوفه مما رآه من ملك الوحى ، لا تخف ، وقم فأنذر الناس من عذاب الله ، إذا ما استمروا فى شركهم ، واجعل تكبيرك وتعظيمك وتبجيلك لربك وحده ، دون أحد سواه ، وصفه بما هو أهله من تنزيه وتقديس .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٩ ص ٦١ .

والمراد بتطهير الثياب فى قوله - تعالى - : « وثيابك فطهر » : تطهيرها من النجاسات .

والمقصود بالثياب حقيقتها ، وهى ما يلبسه الإنسان لستر جسده ..

ومنهم من يرى أن المقصود بها ذاته ونفسه - ﷺ - ، أى : ونفسك فطهرها من كل ما يتنافى مع مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم .

قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - : « وثيابك فطهر » أمر بأن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات ، لأن طهارة الثياب شرط فى الصلاة ، ولا تصح إلا بها ، وهى الأولى والأحب فى غير الصلاة . وقبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثا ..

وقيل : هو أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الأفعال ، ويستهجن من العادات . يقال : فلان طاهر الثياب ، وطاهر الجيب والذيل والأردان ، إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ، ومدانس الأخلاق . ويقال : فلان دنس الثياب ، للغادر - والفاجر - ، وذلك لأن الثوب يلابس الإنسان ، ويشتمل عليه ... »(١) .

وسواء أكان المراد بالثياب هنا معناها الحقيقى ، أو معناها المجازى المكنى به عن النفس والذات ، فإن الرسول - ﷺ - كان مواظبا على الطهارة الحسية والمعنوية فى كل شئونه وأحواله ، فهو بالنسبة لثيابه كان يطهرها من كل دنس وقذر ، وبالنسبة لذاته ونفسه ، كان أبعد الناس عن كل سوء ومنكر من القول أو الفعل .

إلا أننا نميل إلى حمل اللفظ على حقيقته ، لأنه لا يوجد ما يوجب حمله على غير ذلك .

ثم أمره - سبحانه - بأمر رابع فقال : « والرجز فاهجر » والأصل فى

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٤٥ .

كلمة الرجز أنها تطلق على العذاب . قال - تعالى - : « فلما كشفنا عنهم الرجز - أى العذاب - إلى أجل هم بالغوه ، إذا هم ينكثون » .

والمراد به هنا : الأصنام والأوثان ، أو المعاصى والمآثم التى يؤدى اقترافها إلى العذاب . أى : وداوم - أيها الرسول الكريم - على ما أنت عليه من ترك عبادة الأصنام والأوثان ، ومن هجر المعاصى والآثام .

فالمقصود بهجر الرجز : المداومة على هجره وتركه ، لأنه - صلى الله عليه وسلم - لم يتلبس بشىء من ذلك .

ثم نهاه - سبحانه - عن فعل ، لا يتناسب مع خلقه الكريم - صلى الله عليه وسلم - فقال : « ولا تمنن تستكثر » والمن : أن يعطى الإنسان غيره شيئاً ، ثم يتباهى به عليه . والاستكثار : عد الشىء الذى يعطى كثيرا .

أى : عليك - أيها الرسول الكريم - أن تبذل الكثير من مالك وفضلك لغيرك ، ولا تظن أن ما أعطيته لغيرك كثيرا - مهما عظم وجل - ، فإن ثواب الله وعطاءه أكثر وأجزل . . .

ويصح أن يكون المعنى : ولا تعط غيرك شيئا ، وأنت تتمنى أن يرد لك هذا الغير أكثر مما أعطيته ، فيكون المقصود من الآية : النهى عن تمنى العوض . . .

قال ابن كثير : قوله : « ولا تمنن تستكثر » قال ابن عباس : لا تعط العطية تلتمس أكثر منها . .

وقال الحسن البصرى : لا تمنن بعملك على ربك تستكثره . وعن مجاهد : لا تضعف أن تستكثر من الخير .

وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس ، تستكثرهم بها ، تأخذ على ذلك عوضا من الدنيا .

فهذه أربعة أقوال، والأظهر القول الأول - المروى عن ابن عباس وغيره - (١).

وقوله - سبحانه - : «ولربك فاصبر» أى : وعليك - أيها الرسول الكريم - أن توطن نفسك على الصبر، على التكاليف التى كلفك بها ربك، وأن تتحمل الآلام والمشاق فى سبيل دعوة الحق، بعزيمة صادقة، وصبر جميل، وثبات لا يخالطه تردد أو ضعف.

فهذه ست وصايا قد اشتملت على ما يرشد إلى التحلى بالعقيدة السليمة، والأخلاق الكريمة.

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك جانبا من أهوال يوم القيامة فقال: «فإذا نقر فى الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير».

والفاء فى قوله : «فإذا نقر فى الناقور» للسببية. والناقور بزنة فاعول من النقر، وهو اسم لما ينقر فيه، أى : لما ينادى فيه بصوت مرتفع. والمراد به هنا : الصور أو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله - تعالى - النفخة الثانية التى يكون بعدها الحساب والجزاء..

والفاء فى قوله : «فذلك» واقعة فى جواب «إذا»، واسم الإشارة يعود إلى مدلول النقر وما يترتب عليه من حساب وجزاء. وقوله «يومئذ» بدل من اسم الإشارة، والتنوين فيه عوض عن جملة وقوله : «عسير» و«غير يسير» صفتان لليوم.

أى : أنذر - أيها الرسول الكريم - الناس، وبلغهم رسالة ربك، واصبر على أذى المشركين، فإنه إذا نفخ إسرافيل بأمرنا النفخة الثانية، صار ذلك النفخ وما يترتب عليه من أهوال، وقتا وزمانا عسيرا أمره على الكافرين، وغير يسير وقعه عليهم.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٧ ص ٢٩٠.

ووصف اليوم بالعسير ، باعتبار ما يقع فيه من أحداث يشيب من هولها الولدان .

وقوله : « غير يسير » تأكيد لمعنى «عسير» ، كما يقال : هذا أمر عاجل غير آجل .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما فائدة قوله : « غير يسير» وقوله : « عسير » مغن عنه ؟ قلت : لما قال « على الكافرين » فقصر العسر عليهم ، قال : « غير يسير » ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيرا هينا ، ليجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم ، وبين بشارة المؤمنين وتسليتهم . ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيرا ، كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا » (١) .

ثم ذكر — سبحانه — جانبا من قصة زعيم من زعماء المشركين ، افترى الكذب على الله — تعالى — وعلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - فكانت عاقبته العذاب المهين ، فقال — تعالى — : « ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا . . . » .

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى شأن الوليد بن المغيرة المخزومى ، وذكروا فى ذلك روايات منها : أن المشركين عندما اجتمعوا فى دار الندوة ، ليتشاوروا فيم يقولونه فى شأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفى شأن القرآن الكريم - قبل أن تقدم عليهم وفود العرب للحج . فقال بعضهم : هو شاعر ، وقال آخرون بل هو كاهن . . . أو مجنون . . . وأخذ الوليد يفكر ويرد عليهم ، ثم قال بعد أن فكر وقدر : ما هذا الذى

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٤٧

يقوله محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا سحر يؤثر ، أما ترونه يفرق بين الرجل وامرأته ، وبين الأخ وأخيه . . . (١) .

قال الآلوسى : نزلت هذه الآيات فى الوليد بن المغيرة المخزومى ، كما روى عن ابن عباس وغيره . بل قيل كونها فيه متفق عليه . . . وقوله : « وحيدا » حال من الياء فى « ذرنى » أى : ذرنى وحدى معه فأنا أغنيك فى الانتقام منه ، أو من التاء فى خلقت . أى : خلقته وحدى ، لم يشركنى فى خلقه أحد ، فأنا أهلكه دون أن أحتاج إلى ناصر فى إهلاكه . أو من الضمير المحذوف العائد على « من » ، أى : ذرنى ومن خلقته وحيدا فريدا لا مال له ولا ولد . . . وكان الوليد يلقب فى قومه بالوحيد - لتفرده بمزايا ليست فى غيره - ، فتهكم الله - تعالى - به وبلقبه ، أو صرف هذا اللقب من المدح إلى الذم . . . » (٢) .

أى : اصبر - أيها الرسول الكريم - على ما يقوله أعداؤك فيك من كذب وبهتان ، واتركنى وهذا الذى خلقته وحيدا فريدا لا مال له ولا ولد ثم أعطيته الكثير من النعم ، فلم يشكرنى على ذلك .

والتعبير بقوله : « ذرنى » للتهديد والوعيد ، وهذا الفعل يأتى من الأمر والمضارع فحسب ، ولم يسمع منه فعل ماض .

وقوله : « وجعلت له مالا ممدودا » أى : وجعلت له مالا كثيرا واسعا ، يمد بعضه بعضا . فقوله : « ممدودا » اسم مفعول من مد الذى بمعنى أطال ، بأن شبهت كثرة المال ، بسعة مساحة الجسم .

أو من مد الذى هـــو بمعنى زاد فى الشىء من مثله ، ومنه قولهم : مد الوادى النهر ، أى : مده بالماء زيادة على ما فيه .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٩٢

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١٢٢

قالوا : وكان الوليد من أغنى أهل مكة ، فقد كانت له أموال كثيرة من الإبل والغنم والعبيد والبساتين وغير ذلك من أنواع الأموال .

« وبنين شهودا » أى : وجعلت له — بجانب هذا المال الممدود — أولادا يشهدون مجالسه ، لأنهم لاحاجة بهم إلى مفارقته فى سفر أو تجارة، إذ هم فى غنى عن ذلك بسبب وفرة المال فى أيدى أبيهم .

فقوله : « شهودا » جمع شاهد بمعنى حاضر ، وهو كناية عن كثرة تنعمهم واستئناسه بهم .

قيل كانوا عشرة ، وقيل ثلاثة عشر ، منهم : الوليد ، وخالد ، وعمارة وهشام ، والعاصى ، وعبد شمس .

وقد أسلم منهم ثلاثة ، وهم : خالد ، وهشام ، وعمارة . (١)

« ومهدت له تمهيدا » والتمهيد مصدر مهد ، بمعنى سوى الشىء ، وأزال منه ما يجعله مضطربا متنافرا . ومنه مهد الصبى . أى : المكان المعد لراحته والمراد بالتمهيد هنا . تيسير الأمور ، ونفاذ الكلمة ، وجمع وسائل الرياسة له .

أى : جعلت له مالا كثيرا ، وأولادا شهودا ، وفضلا عن ذلك ، فقد هيأت له وسائل الراحة والرياسة تهيئة حسنة ، أغنته عن الأخذ والرد مع قومه ، بل صار نافذ الكلمة فيهم بدون عناء أو تعب .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت أن الله — تعالى — قد أعطى الوليد بن المغيرة ، جماع ما يحتاجه الإنسان فى هذه الحياة ، فقد أعطاه المال الوفير ، والبنين الشهود ، والجاه التام الذى وصل إليه بدون جهد أو تعب .

وقوله — سبحانه — : « ثم يطمع أن أزيد » بيان لما جبل عليه هذا

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٤٣٧

الإنسان من طمع وشره . . . أى : مع إمدادى له بكل هذه النعم ، هو لا يشبع ، بل يطلب المزيد منها لشدة حرصه وطمعه . . .

و « ثم » هنا للاستبعاد والاستنكار والتأنيب ... فهى للتراخى الرتبى، والجملة معطوفة على قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : « جعلت ومهدت ... » أى : أعطيته كل هذه النعم ، ثم بعد ذلك هو شره لا يشبع ، وإنما يطلب المزيد منها ثم المزيد . . .

وقوله ـ تعالى ـ : « كلا » زجر وردع وقطع لرجائه وطمعه ، وحكم عليه بالخيبة والخسران . أى : كلا ، لن أعطيه شيئا مما يطمع فيه ، بل سأمحق هذه النعم من بين يديه ، لأنه قابلها بالجحود والبطر ، ومن لم يشكر النعم يعرضها للزوال ، ومن شكرها زاده الله ـ تعالى ـ منها ، كما قال ـ سبحانه ـ : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » .

وقوله : « إنه كان لآياتنا عنيدا » تعليل للزجر والردع وقطع الرجاء . أى : كلا لن أمكنه مما يريده ويتمناه . . لأنه كان إنسانا شديد المعاندة والإبطال لآياتنا الدالة على وحدانيتنا ، وعلى صدق رسولنا فيما يبلغه عنا . ومن مظاهر ذلك أنه وصف رسولنا ـ ﷺ ـ بأنه ساحر . . .

قال مقاتل : مازال الوليد بعد نزول هذه الآية فى نقص من ماله وولده حتى هلك .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما أعده له من عذاب أليم فقال : « سأرهقه صعودا » . والإرهاق : الإتعاب الشديد ، وتحميل الإنسان مالا يطيقه . يقال : فلان رهقه الأمر يرهقه ، إذا حل به بقهر ومشقة لا قدرة له على دفعها . ومنه قوله ـ تعالى ـ : « ولا ترهقنى من أمرى عسرا » .

وقوله ـ سبحانه ـ : « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما . . . » .

والصعود : العقبة الشديدة ، التى لا يصل الصاعد نحوها إلا بمشقة كبيرة ، وتعب قد يؤدى إلى الهلاك والتلف . وهذه الكلمة صيغة مبالغة من الفعل صعد .

وهذه الآية الكريمة فى مقابل قوله — تعالى — قبل ذلك : «ومهدت له تمهيدا» أى : أن هذا الجاه الذى أتاه فى الدنيا بدون تعب .. سيلقى فى الآخرة ما هو نقيضه من تعب وإذلال . . .

قال صاحب الكشاف قوله : «سأرهقه صعودا» أى . سأغشيه عقبة شاقة المصعد .

وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعد الذى لا يطاق . وعن النبى — ﷺ — : يكلف أن يصعد عقبة فى النار ، كلما وضع عليها يده ذابت، فإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله عليها ذابت ، فإذا رفعها عادت » . وعنه — ﷺ — : الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى فيه كذلك أبدا »(١) .

ثم صور — سبحانه — حال هذا الشقى تصويرا بديعا يثير السخرية منه ومن تفكيره فقال : «إنه فكر وقدر» أى : إن هذا الشقى ردد فكره وأداره فى ذهنه .

وقدر وهيأ فى نفسه كلاما شنيعا يقوله فى حق الرسول — ﷺ — وفى حق القرآن الكريم .

يقال : قدر فلان الشىء فى نفسه ، إذا هيأه وأعده . . .

والجملة الكريمة تعليل للوعيد والزجر ، وتقرير لا ستحقاقه له ، أو بيان لظاهر عناده . . .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٤٨ .

وقوله - سبحانه - : « فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر » تعجيب من تفكيره وتقديره ، وذم شديد له على هذا التفكير السيء . . .

أى : إنه فكر مليا ، وهيأ نفسه طويلا للنطق بما يقوله فى حق الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفى حق القرآن ، «فقتل» أى : فلعن : أو عذب ، وهو دعاء عليه « كيف قدر » أى : كيف فكر هذا التفكير العجيب البالغ النهاية فى السوء والقبح .

وقوله : « ثم قتل كيف قدر » تكرير للمبالغة فى ذمه ، والتعجيب من سوء تقديره ، وفى الدعاء عليه باللعن والطرد من رحمته - تعالى - .

والعطف بثم لإفادة التفاوت فى الرتبة ، وأن الدعاء عليه والتعجيب من حاله فى الجملة الثانية ، أشد منه فى الجملة الأولى .

وقوله - تعالى - بعد ذلك : « ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . . . » تصوير آخر لحالة هذا الشقى ، يرسم حركات جسده ، وخلجات قلبه ، وتقاطيع وجهه ... رسما بديعا ، يثير فى النفوس السخرية من هذا الشقى .

أى : إنه فكر تفكيرا مليا ، وقدر فى نفسه ما سيقوله فى شأن النبى - صلى الله عليه وسلم - تقديرا طويلا ، . . . ولم يكتف بكل ذلك ، بل فكر وقدر «ثم نظر» أى : ثم نظر فى وجوه من حوله نظرات يكسوها الجد المصطنع المتكلف ، حتى لكأنه يقول لهم : اسمعوا وعوا لما سأقوله لكم . . .

« ثم عبس وبسر » أى : ثم قطب ما بين عينيه حين استعصى عليه أن يجد فى القرآن مطعنا ، وكلح وجهه ، وتغير لونه ، وارتعشت أطرافه ، حين ضاقت عليه مذاهب الحيل ، فى أن يجد فى القرآن مطعنا .

يقال : عبس فلان يعبس عبوسا ، إذا قطب جبينه . وأصله من العبس

وهو ما تعلق بأذناب الإبل من أبوالها وأبعارها بعـد أن جف عليها .

ويقال : بسر فلان يبسر بسورا ، إذا قبض ما بين عينيه كراهية للشيء .

ومنه قوله ــ تعالى ــ : « ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة . . . » .

« ثم أدبر واستكبر » أى : ثم إنه بعد هذا التفكير والتقدير ، وبعد هذا العبوس والبسور ، بعد كل ذلك أدبر عن الحق ، واستكبر عن قبوله .

« فقال » ــ على سبيل الغرور والجحود ــ « إن هذا إلا سحر يؤثر » أى : ما هذا القرآن الذى يقرؤه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ علينا ، إلا سحر مأثور أى : مروى عن الأقدمين ، ومنقول من أقوالهم وكلامهم .

وجملة « إن هذا إلا قول البشر » بدل مما قبلها . أى : ما هذا القرآن إلا سحر مأثور عن السابقين ، فهو من كلام البشر ، وليس من كلام الله ــ تعالى ــ كما يقول محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى « ثم » الداخلة فى تكرير الدعاء ؟ قلت : الدلالة على أن الكرة الثانية أبلغ من الأولى ، ونحوه قوله : ألا يا اسلمى ثم اسلمى ، ثمت اسلمى .

فإن قلت : ما معنى المتوسطة بين الأفعال التى بعدها ؟ قلت : الدلالة على أنه قد تأنى فى التأمل والتمهل ، وكأن بين الأفعال المتناسقة تراخ وتباعد . .

فإن قلت : فلم قيل : « فقال إن هذا . . . » بالفاء ، بعد عطف ما قبله بثم ؟ قلت . لأن الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلب ، لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث .

فإن قلت : فلم لم يوسط حرف العطف بين الجملتين ؟ قلت : لأن الأخرى جرت من الأولى مجرى التوكيد من المؤكد(١) .

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك الوعيد الشديد الذى توعد به هذا الشقى الأثيم فقال : سأصليه سقر ، وسقر : اسم لطبقة من طبقات جهنم والجملة الكريمة بدل من قوله : « سأرهقه صعودا » . أى : سأحرقه بالنار المتأججة الشديدة الاشتعال . .

وقوله : « وما أدراك ما سقر » تهويل من حال هذه النار ، وتفظيع لشدة حرها .

أى : وما أدراك ما حال سقر ؟ إن حالها وشدتها لا تستطيع العبارة أن تحيط بها .

وجملة « لا تبقى ولا تذر » بدل اشتمال من التهويل الذى أفادته جملة « وما أدراك ما سقر » .

أى : هذه النار لا تبقى شيئا يلقى فيها إلا أهلكته ، ولا تترك من يلقى فيها سليما ، بل تمحقه محقا ، وتبلعه بلعا ، وتعيده — بأمر الله — تعالى — إلى الحياة مرة أخرى ليزداد من العذاب ، كما قال — تعالى — : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب . . . » .

وقوله : « لواحة للبشر » صفة ثالثة من صفات سقر .

ومعنى : « لواحة » مغيرة للبشرات ، مسودة للوجوه ، صيغة مبالغة من اللوح بمعنى تغيير الشىء . يقال : فلان لوحته الشمس : إذا سودت ظاهره وأطرافه . والبشر : جمع بشرة ، وهى ظاهر الجلد .

أى : أن هذه النار من صفاتها — أيضاً — أنها تغير ألوان الجلود ،

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٥٠ .

فتجعلها مسودة بعد أن كانت على غير هذا اللون ، وأنها تنزل بالأجساد من الآلام مالا يعلمه إلا الله — تعالى — .

وقوله — تعالى — : « عليها تسعة عشر » صفة رابعة من صفات سقر. أى : على هذه النار تسعة عشر ملكا ، يتولون أمرها ، وينفذون ما يكلفهم الله — تعالى — فى شأنها .

قال القرطبى : قوله — تعالى — : « عليها تسعة عشر » أى . على سقر تسعة عشر من الملائكة ، يلقون فيها أهلها . ثم قيل : على جملة النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها . مالك وثمانية عشر ملكا .

ويحتمل أن يكون التسعة عشر نقيبا . ويحتمل أن يكون تسعة عشر ملكا بأعيانهم . وعلى هذا أكثر المفسرين . . »(١) .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ٧٩ .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك جانبا من مظاهر قدرته وحكمته، وابتلائه لعباده بشتى أنواع الابتلاء، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه . . فقال ـ تعالى ـ .

وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ
ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا
يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ
مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ
إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ
إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ
مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾

قال الإمام ابن كثير : يقول الله ـ تعالى ـ « وما جعلنا أصحاب النار » أى . خزانها « إلا ملائكة » أى : غلاظا شدادا . وذلك رد على مشركى قريش حين ذكر عدد الخزنة ، فقال أبو جهل . يامعشر قريش ، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحدمنهم فتغلبونهم ؟ فقال الله ـ تعالى ـ : « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة » . أى : شديدى الخلق . لا يقاومون ولا يغالبون .

وقد قيل: إن أبا الأشد — واسمه: كلدة بن أسيد بن خلف — قال: يامعشر قريش، اكفونى منهم اثنين وأنا أكفيكم سبعة عشر، إعجابا منه بنفسه، وكان قد بلغ من القوة — فيما يزعمون — أنه كان يقف على جلد البقرة، ويجاذبه عشرة لينتزعوه من تحت قدميه، فيتمزق الجلد، ولا يتزحزح عنه . . .»(١).

وقال الجمل فى حاشيته. قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية «عليها تسعة عشر». قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم!! محمد — ﷺ — يخبر أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الشجعان، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم؟

فقال: أبو الأشد: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، عشرة على ظهرى، وسبعة على بطنى.

واكفونى أنتم اثنين . . فأنزل الله — تعالى —: «وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة . . .»(٢).

والمقصود من هذه الآية الكريمة الرد على المشركين، الذين سخروا من النبى — ﷺ — عندما عرفوا منه أن على سقر تسعة عشر ملكا يتولون أمرها . .

أى: إننا أوجدنا النار لعذاب الكافرين، وما جعلنا خزنتها إلا من الملائكة الغلاظ الشداد، الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، والذين لا قدرة لأحد من البشر على مقاومتهم، أو مخالفة أمرهم، لأنهم أشد بأسا، وأقوى بطشا من كافة الإنس والجن . . .

والاستثناء من عموم الأنواع. أى: وما جعلنا أصحاب النار إلا من نوع الملائكة، الذين لا قدرة لأحد من البشر على مقاومتهم . .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٩٤.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٤٠.

وقوله - سبحانه - : «وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا» بيان لحكمة أخرى من ذكر هذا العدد .

والفتنة بمعنى الاختبار والامتحان . تقول فتنت الذهب بالنار ، أى : اختبرته بها ، لتعلم جودته من رداءته . وقوله : «إلا فتنة» مفعول ثان لقوله «جعلنا» ، والكلام على حذف مضاف . . .

أى : وما جعلنا عدة خزنة النار تسعة عشر ، إلا ليكون هذا العدد سبب فتنة واختبار للذين كفروا ، ولقد زادهم هذا الامتحان والاختبار جحودا وضلالا ، ومن مظاهر ذلك أنهم استهزؤا بالنبى - ﷺ - عندما قرأ عليهم القرآن ، فحق عليهم عذابنا ووعيدنا . .

قال الإمام الرازى : وإنما صار هذا العدد سببا لفتنة الكفار من وجهين الأول أن الكفار كانوا يستهزئون ويقولون : لم لا يكونون عشرين - بدلا من تسعة عشر - ، وما المقتضى لتخصيص هذا العدد ؟

والثانى : أن الكفار كانوا يقولون : هذا العدد القليل ، كيف يكون وافيا بتعذيب أكثر العالم من الجن والإنس . . ؟

وأجيب عن الأول : بأن هذا السؤال لازم على كل عدد يفرض ، وأفعال الله - تعالى - لا تعلل ، فلا يقال فيها لم كان هذا العدد ، فإن ذكره لحكمة لا يعلمها إلا هو - سبحانه - .

وأجيب عن الثانى : بأنه لا يبعد أن الله - تعالى - يعطى ذلك العدد القليل قوة تفى بذلك ، فقد قلع جبريل وحده ، مدائن قوم لوط على أحد جناحيه ، ورفعها إلى السماء . . . ثم قلبها ، فجعل عاليها سافلها .

- وأيضاً - فأحوال القيامة ، لا تقاس بأحوال الدنيا ، وليس للعقل فيها مجال »(١) .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ص

وقوله – سبحانه – : « ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيمانا . . . » علة أخرى ، لذكر هذا العدد . والاستيقان : قوة اليقين ، فالسين والتاء للمبالغة .

أى : وما جعلنا عدتهم كذلك – أيضا – إلا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ، بأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – صادق فيما يبلغه عن ربه ، إذ أن الكتب السماوية التى بين أيديهم قد ذكرت هذا العدد ، كما ذكره القرآن الكريم ، وإلا ليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، بصدق نبيهم – صلى الله عليه وسلم – ، إذ أن الإخبار عن المغيبات عن طريق القرآن الكريم ، من شأنها أن تجعل الإيمان فى قلوب المؤمنين الصادقين ، يزداد رسوخا وثباتا .

قال الإمام ابن كثير : قوله : « ليستيقن الذين أوتوا الكتاب » أى : يعلمون أن هذا الرسول حق ، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله » (١) .

وقال الآلوسى : وأخرج الترمذى وابن مردويه عن جابر قال : قال ناس من اليهود ، لأناس من المسلمين ، هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم ؟ فأخبروا بذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فقال : « هكذا وهكذا » فى مرة عشرة ، وفى مرة تسعة .

وقال الآلوسى : واستشعر من هذا أن الآية مدنية ، لأن اليهود إنما كانوا فيها . وهو استشعار ضعيف ، لأن السؤال اصحابى فلعله كان مسافرا فاجتمع بيهودى حيث كان . – وأيضا – لا مانع إذ ذاك من إتيان بعض اليهود نحو مكة . . . » (٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٩٤
(٢) « الآلوسى جـ ٢٩ ص ١٢٧

وقوله - تعالى - : « ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون » معطوف على قوله : « ليستيقن . . » وهو مؤكد لما قبله ، من الاستيقان وازدياد الإيمان ، ونفى لما قد يعترى المستيقن من شبهة عارضة .

أى : فعلنا ما فعلنا ليكتسب أهل الكتاب اليقين من نبوته - صلى الله عليه وسلم - ، وليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، ولتزول كل ريبة أو شبهة قد تطرأ على قلوب الذين أوتوا الكتاب ، وعلى قلوب المؤمنين .

وقوله - سبحانه - : « وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا » بيان لعلة أخرى لكون خزنة سقر تسعة عشر .

أى : ما جعلنا عدتهم كذلك إلا فتنة للذين كفروا ، وإلا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب من صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإلا ليزداد الذين آمنوا إيمانا ، وإلا لتزول الريبة من قلوب الفريقين ، وإلا ليقول الذين فى قلوبهم مرض ، أى : شك وضعف إيمان ، وليقول الكافرون المصرون على التكذيب : ما الأمر الذى أراده الله بهذا المثل ، وهو جعل خزنة سقر تسعة عشر ؟ فالمقصود بالاستفهام فى قوله - تعالى - « ماذا أراد الله بهذا مثلا » الإنكار . والإشارة بهذا مرجعها إلى قوله - تعالى - قبل ذلك : « عليها تسعة عشر » . وقوله : « مثلا » حال من اسم الإشارة والمراد به العدد السابق . وسموه مثلا لغرابته عندهم . أى : ما الفائدة فى أن تكون عدة خزنة سقر تسعة عشر ، وليسوا أكثر أو أقل؟ وهم يقصدون بذلك نفى أن يكون هذا العدد من عنده - تعالى - .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : « ماذا أراد الله بهذا مثلا » أى : أى شىء أراده الله - تعالى - ، أو ما الذى أراده الله - تعالى - بهذا العدد المستغرب استغراب المثل .

وعلى الأول تكون « ماذا » بمنزلة اسم واحد . . وعلى الثانى : هم

مؤلفة من كلمة « ما » اسم استفهام مبتدأ، و « ذا » اسم موصول خبره، والجملة بعده صلة، والعائد فيها محذوف. و «مثلا» نصب على التمييز أو على الحال... وعنوا بالإشارة: التحقير، وغرضهم: نفي أن يكون ذلك من عند الله ـ تعالى ـ...» (١)

واسم الإشارة في قوله ـ تعالى ـ: « كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء » يعود إلى ما تضمنه الكلام السابق، من استيقان أهل الكتاب، وازدياد المؤمنين إيمانا، واستنكار الكافرين ومن في قلوبهم مرض لهذا المثل.

أي: مثل ذلك الضلال الحاصل للذين في قلوبهم مرض وللكافرين، يضل الله ـ تعالى ـ من يشاء إضلاله من خلقه، ومثل ذلك الهدى الحاصل في قلوب المؤمنين، يهدي الله من يشاء هدايته من عباده، إذ هو ـ سبحانه ـ الخالق لكل شيء، وهو على كل شيء قدير.

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما يخرس ألسنة الكافرين، الذين أنكروا هذا العدد الذي جعله الله ـ تعالى ـ على سقر، ليتصرف فيها على حسب إرادته ـ تعالى ـ ومشيئته، فقال: « وما يعلم جنود ربك إلا هو ».

والجنود: جمع جند، وهو اسم لما يتألف منه الجيش من أفراد.

والمراد بهم هنا: مخلوقاته ـ تعالى ـ الذين سخرهم لتنفيذ أمره، وسموا جنودا، تشبيها لهم بالجنود في تنفيذ مراده ـ سبحانه ـ.

أي: وما يعلم عدد جنود ربك ـ أيها الرسول الكريم ـ، ولا مبلغ قوتهم، إلا هو ـ عز وجل ـ، وما هذا العدد الذي ذكرناه لك إلا جزء من جنودنا، الذين حجبنا علم عددهم وكثرتهم... عن غيرنا.

---

(١) تفسير الآلوسي جـ ٢٩ ص ١٢٧

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : «ومايعلم جنود ربك إلا هو» أى : ومايعلم عددهم وكثرتهم إلا هو - تعالى - ، لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط .

وقد ثبت فى حديث الإسراء المروى فى الصحيحين وغيرهما ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال فى صفة البيت المعمور ؛ الذى فى السماء السابعة : «فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك . . .» (١) .

والضمير فى قوله : «وما هى إلا ذكرى للبشر» يعود إلى سقر . أى : وما سقر التى ذكرت لكم أن عليها تسعة عشر ملكا يكون أمرها ، إلا تذكرة وعظة للبشر ، لأن من يتذكر حرها وسعيرها وشدة عذابها .. من شأنه ، أن يخلص العبادة لله - تعالى - ، وأن يقدم فى دنياه العمل الصالح الذى ينفعه فى أخراه .

وقيل : الضمير للآيات الناطقة بأحوال سقر . أى : وما هذه الآيات التى ذكرت بشأن سقر وأهوالها إلا ذكرى للبشر .

ثم أبطل - سبحانه - ما أنكره الذين فى قلوبهم مرض ، وما أنكره الكافرون ، مما جاء به القرآن الكريم ، فقال : «كلا والقمر . والليل إذ أدبر . والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكبر . نذيرا للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر» .

و «كلا» حرف زجر وردع وإبطال لكلام سابق . والواو فى قوله : «والقمر» للقسم والمقسم به ثلاثة أشياء : القمر والليل والصبح ، وجواب القسم قوله : «إنها لإحدى الكبر . . .»

أى : كلا ، ليس الأمر كما أنكر هؤلاء الكافرون ، من أن تكون

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٩٥

عدة الملائكة الذين على سقر ، تسعة عشر ملكا ، أو من أن تكون سقر مصير هؤلاء الكافرين ، أو من أن فى قدرتهم مقاومة هؤلاء الملائكة . . .

كلا ، ليس الأمر كذلك ، وحق القمر « الذى قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » ، وحق « الليل إذا أدبر » أى : وقت أن ولى ذاهبا بسبب إقبال النهار عليه ، وحق « الصبح إذا أسفر » ، أى : إذا أضاء وابتدأ فى الظهور والسطوع ،

والضمير فى قوله — تعالى — : « إنها لإحدى الكبر » يعود إلى سقر . والكبر : جمع كبرى ، والمراد بها : الأمور العظام ، والخطوب الجسام .

أى : إن سقر التى تهكم بها وبخزنتها الكافرون ، لهى إحدى الأمور العظام ، والدواهى الكبار ، التى قل أن يوجد لها نظير أو مثيل فى عظمها وفى شدة عذاب من يصطلى بنارها .

وأقسم — سبحانه — بهذه الأمور الثلاثة ، لزيادة التأكيد ، ولإبطال ما تفوه به الجاحدون ، بأقوى أسلوب .

وكان القسم بهذه الأمور الثلاثة ، لأنها تمثل ظهور النور بعد الظلام ، والهداية بعد الضلال ، ولأنها تناسب قوله — تعالى — قبل ذلك : « كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء » .

وانتصب لفظ « نذيرا » من قوله : « نذيرا للبشر » على أنه حال من الضمير فى قوله « إنها لإحدى الكبر » أى : إن سقر لعظمى العظائم ، ولداهية الدواهى ، حال كونها إنذارا للبشر ، حتى يقلعوا عن كفرهم وفسوقهم ، ويعودوا إلى إخلاص العبادة لخالقهم .

ويصح أن يكون تمييزا لإحدى الكبر، لما تضمنته من معنى التعظيم. كأنه قيل: إنها لإحدى الكبر إنذارا للبشر، وردعا لهم عن التمادي في الكفر والضلال . . . فالنذر بمعنى الإنذار.

وقوله - سبحانه -: «لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر» بدل مفصل من مجمل، هذا المجمل هو قوله «للبشر».

أى: إن سقر لهى خير منذر للذين إن شاءوا تقدموا إلى الخير ففازوا وإن شاءوا تأخروا عنها فهلكوا. فالمراد بالتقدم: التقدم نحو الطاعة والهداية. والمراد بالتأخر: التأخر عنهما والانحياز نحو الضلال والكفر إذ التقدم تحرك نحو الإمام، وهو كناية عن قبول الحق، وبعكسه التأخر . . .

ويجوز أن يكون المعنى: هى خير نذير لمن شاء منكم التقدم نحوها، أو التأخر عنها.

وتعليق «نذيرا» بفعل المشيئة، للإشعار بأن عدم التذكير مرجعه إلى انطماس القلب، واستيلاء المطامع والشهوات عليه، وللإيذان بأن من لم يتذكر، فتبعة تفريطه واقعة عليه وحده، وليس على غيره.

قال الآلوسى: قوله: «لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر» الجار والمجرور بدل من الجار والمجرور فيما سبق. أعنى «للبشر»، وضمير شاء للموصول. أى: نذيرا للمتمكنين منكم من السبق إلى الخير، والتخلف عنه. وقال السدى: أن يتقدم إلى النار المتقدم ذكرها، أو يتأخر عنها إلى الجنة. وقال الزجاج: أن يتقدم إلى المأمورات أو يتأخر عن المنهيات . . . » (١)

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ١٣١

ثم بين — سبحانه — جانبا من مظاهر عدله فى أحكامه ، وفى بيان الأسباب التى أدت إلى فوز المؤمنين ، وهلاك الكافرين . . . . فقال — تعالى — :

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

وقوله — تعالى — : « رهينة » خبر عن « كل نفس » ، وهو بمعنى مرهونة . أى : كل نفس مرهونة عند الله — تعالى — بكسبها ، مأخوذة بعملها ، فإن كان صالحا أنجاها من العذاب ، وإن كان سيئا أهلكها ، وجعلها محلا للعقاب .

قالوا : وإنما كانت مرهونة ، لأن الله — تعالى — جعل تكليف عباده كالدين عليهم ، ونفوسهم تحت استيلائه وقهره ، فهى مرهونة ،

فمن وفى دينه الذى كلف به، خلص نفسه من عذاب الله - تعالى - الذى نزل منزلته ملازمة الرهن، وهو أخذه فى الدين، ومن لم يوف عذب» (١)

والاستثناء فى قوله: «إلا أصحاب اليمين...» استثناء متصل. أى: كل نفس مرهونة بعملها... إلا أصحاب اليمين وهم المؤمنون الصادقون فإنهم مستقرون «فى جنات» عالية «يتساءلون عن المجرمين» أى: يسأل بعضهم بعضا عن أحوال المجرمين.

وهذا التساؤل إنما يكون قبل أن يروهم، فإذا ما رأوهم سألوهم بقولهم: «ما سلككم فى سقر» أى: قال أصحاب اليمين للمجرمين: ما الذى أدخلكم فى سقر، وجعلكم وقودا لنارها وسعيرها؟ والسؤال إنما هو على سبيل التوبيخ والتحسير لهؤلاء المجرمين.

وعبر - سبحانه - بقوله: «ما سلككم...» للإشعار بأن الزج بهم فى سقر، كان بعنف وقهر، لأن السلك معناه: إدخال شىء بصعوبة وقسر، ومنه قوله - تعالى -: «كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين. لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم».

ثم حكى - سبحانه - ما رد به المجرمون على أصحاب اليمين فقال: «قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين».

أى: قال المجرمون لأصحاب اليمين: الذى أدى بنا إلى الإلقاء فى سقر، أننا فى الدنيا لم نقم بأداء الصلاة الواجبة علينا، ولم نعط المسكين ما يستحقه من عطاء، بل بخلنا عليه، وحرمناه حقوقه..

وكنا - أيضاً - فى الدنيا نخوض فى الأقوال السيئة وفى الأفعال

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٤٤٣.

الباطلة مع الخائضين فيها ، دون أن نتورع عن اجتناب شىء منها .

وأصل الخوض : الدخول فى الماء ، ثم استعير للجدال الباطل ، وللأحاديث التى لا خير من ورائها .

وكنا – أيضاً – نكذب بيوم القيامة ، وننكر إمكانه ووقوعه ، وبقينا على هذا الإنكار والضلال « حتى أتانا اليقين » أى : حتى أدركنا الموت ، ورأينا بأعيننا صدق ما كنا نكذب به .

فأنت ترى أن هؤلاء المجرمين قد اعترفوا بأن الإلقاء بهم فى سقر لم يكن على سبيل الظلم لهم ، وإنما كان بسبب تركهم للصلاة والإطعام ، وتعمدهم ارتكاب الباطل من الأقوال والأفعال ، وتكذيبهم بيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء . .

وقوله – سبحانه – : « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » حكم منه – سبحانه – عليهم بحرمانهم ممن يشفع لهم أو ينفعهم . .

أى . أن هؤلاء المجرمين لن تنفعهم يوم القيامة شفاعة أحدهم ، فيما لو تقدم أحد للشفاعة لهم على سبيل الفرض والتقدير ، وإنما الشفاعة تنفع غيرهم من المسلمين .

والاستفهام فى قوله : « فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة . . . » للتعجيب من إصرارهم على كفرهم ، ومن إعراضهم عن الحق الذى دعاهم إليه نبيهم – ﷺ – .

والمراد بالتذكرة : التذكير بمواعظ القرآن وإرشاداته . والحمر : جمع حمار : والمراد به الحمار الوحشى المعروف بشدة نفوره وهروبه ، إذا ما أحس بحركة المقتنص له .

وقوله : « مستنفرة » أى : شديدة النفور والهرب . فالسين والتاء للمبالغة .

والقسورة : الأسد ، سمى بذلك يقسر غيره من السباع ويقهرها . وقيل : القسورة اسم لجماعة الرماة الذين يطاردون الحمر الوحشية ، ولا واحد له من لفظه . ويطلق هذا اللفظ عند العرب على كل من كان بالغ النهاية فى الضخامة والقوة ، من القسر بمعنى القهر . أى : ما الذى حدث لهؤلاء الجاحدين المجرمين ، فجعلهم يصرون إصرارا تاما على الإعراض عن مواعظ القرآن الكريم ، وعن هداياته وإرشاداته ، وأوامره ونواهيه .. حتى لكأنهم - فى شدة إعراضهم عنه ، ونفورهم منه - حمر وحشية قد نفرت بسرعة وشدة من أسد يريد أن يفترسها ، أو من جماعة من الرماة أعدوا العدة لاصطيادها ؟

قال صاحب الكشاف : شبههم - سبحانه - فى إعراضهم عن القرآن ، واستماع الذكر والموعظة ، وشرادهم عنه ، بحمر جدت فى نفارها مما أفزعها .

وفى تشبيههم بالحمر : مذمة ظاهرة ، وتهجين لحالهم بين . كما فى قوله - تعالى - : كمثل الحمار يحمل أسفارا ، ، وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل ولا ترى مثل نفار حمير الوحش ، واطرادها فى العدو ، إذا رابها رائب ، ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب ، فى وصف الإبل ، وشدة سيرها ، بالحمر ، وعدوها إذا وردت ماء فأحست عليه بقانص . . »(1) .

والتعبير بقوله : « فما لهم . . » وما يشبهه قد كثر استعماله فى القرآن الكريم ، كما فى قوله - تعالى - : « فما لهم لا يؤمنون . . . » ، والمقصود منه التعجيب من إصرار المخاطبين على باطلهم ، أو على معتقد من معتقداتهم .. مع أن الشواهد والبينات تدل على خلاف ذلك .

وقال - سبحانه - « عن التذكرة » بالتعميم ، ليشمل إعراضهم كل شىء يذكرهم بالحق ، ويصرفهم عن الباطل . .

(1) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٥٦ .

وقوله - سبحانه - : « بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة » معطوف على كلام مقدر يقتضيه المقام ، وهو بيان لرذيلة أخرى من رذائلهم الكثيرة .

والصحف : جمع صحيفة ، وهى ما يكتب فيها . ومنشرة صفة لها . والمراد بها : الصحف المفتوحة غير المطوية ، بحيث يقرؤها كل من رآها .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية : أن المشركين قالوا للرسول - ﷺ - : لن نتبعك حتى تأتى لكل واحد منا بكتاب من السماء ، عنوانه : من رب العالمين ، إلى فلان بن فلان ، نؤمر فى هذا الكتاب باتباعك . .

أى : إن هؤلاء الكافرين لا يكتفون بمواعظ القرآن . . بل يريد كل واحد منهم أن يعطى صحفا مفتوحة ، وكتبا غير مطوية ، بحيث يقرؤها كل من يراها ، وفيها الأمر من الله - تعالى - لهم بوجوب اتباعهم للرسول - ﷺ - .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . . . » .

وقوله - سبحانه - : « كلا بل لا يخافون الآخرة » إبطال آخر لكلامهم ، وزجر لهم عن هذا الجدال السخيف . أى : كلا ليس الأمر كما أرادوا وزعموا ، بل الحق أن هؤلاء القوم لا يخافون الآخرة ، وما فيها من حساب وجزاء ، لأنهم لو كانوا يخافون لما اقترحوا تلك المقترحات السخيفة المتعنتة . .

وقوله - تعالى - بعد ذلك : « كلا إنه تذكرة » زجر آخر مؤكد للزجر السابق . أى : كلا ثم كلا ، لن نمكنهم مما يريدون ، ولن نستجيب لمقترحاتهم السخيفة . . لأن القرآن الكريم ، فيه التذكير الكافى ، والوعظ الشافى ، لمن هو على استعداد للاستجابة لذلك .

فالضمير في «إنه» يعود إلى القرآن، لأنه معلوم من المقام، والجملة بمنزلة التعليل الردع عن سؤالهم الذى اقترحوا فيه تنزيل صحف مفتوحة من عند الله - تعالى - تأمرهم باتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم -

وقوله - سبحانه -: «فمن شاء ذكره» تفريع على كون القرآن تذكرة وعظة لمن كان له قلب يفقه، أو عقل يعقل.

أى: إن القرآن الكريم مشتمل على ما يذكر الإنسان بالحق، وما يهديه إلى الخير والرشد، فمن شاء أن يتعظ به اتعظ، ومن شاء أن ينتفع بهداياته انتفع، ومن شاء أن يذكر أوامره ونواهيه وتكاليفه . . . فعل ذلك، وظفر بما يسعده، ويشرح صدره.

والتعبير بقوله - تعالى - «فمن شاء ذكره» يشعر بأن تذكر القرآن وحفظه، والعمل بأحكامه وإرشاداته . . . فى إمكان كل من كان عنده الاستعداد لذلك.

أى: إن التذكر طوع مشيئتكم - أيها الناس - متى كنتم جادين وصادقين ومستعدين لهذا التذكر، فاعملوا لذلك بدون إبطاء أو تردد.

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بما يدل على نفاذ مشيئته وإرادته فقال: «وما يذكرون إلا أن يشاء الله، هو أهل التقوى وأهل المغفرة».

أى: فمن شاء أن يذكر القرآن وما فيه من مواعظ، ذكر ذلك، ولكن هذا التذكر والاعتبار والاتعاظ . . . لا يتم بمجرد مشيئتكم، وإنما يتم فى حال مشيئة الله - تعالى - وإرادته، فهو - سبحانه - «أهل التقوى» أى: هو الحقيق بأن يتقى ويخاف عذابه، وهو - عز وجل -

« أهل المغفرة » أى : هو – وحده – صاحب المغفرة لذنوب عباده ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

فالمقصود من الآية الكريمة ، بيان أن هذا التذكر لمواعظ القرآن ، لا يتم إلا بعد إرادة الله – تعالى – ومشيئته ، لأنه هو الخالق لكل شىء ، وبيان أن مشيئة العباد لا أثر لها إلا إذا كانت موافقة لمشيئة الله ، التى لا يعلمها أحد سواه .

أخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أنس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قرأ هذه الآية «هو أهل التقوى وأهل المغفرة » فقال : قد قال ربكم أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله ، فمن اتقانى فلم يجعل معى إلها آخر ، فأنا أهل أن أغفر له .

وبعد : فهذا تفسير لسورة المدثر ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الاسكندرية - العجمى - السبت ١١ من ذى الحجة سنة ١٤٠٦ هـ
١٦ / ٨ / ١٩٨٦ م

تفسير سورة

"القيامة"

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة « القيامة »

١ — سورة « القيامة » من السور المكية الخالصة ، وتعتبر من السور التي كان نزولها في أوائل العهد المكي ، فهي السورة الحادية والثلاثون في ترتيب النزول ، وكان نزولها بعد سورة « القارعة » وقبل سورة « الهمزة » . أما ترتيبها في المصحف فهي السورة الخامسة والسبعون .

وعدد آياتها أربعون آية في المصحف الكوفي ، وتسع وثلاثون في غيره .

٢ — والسورة الكريمة زاخرة بالحديث عن أهوال يوم القيامة ، وعن أحوال الناس فيها : وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة . . . .

كما أنها تتحدث عن إمكانية البعث ، وعن حتمية وقوعه : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » ؟

ولقد روى عن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — أنه قال : من سأل عن يوم القيامة ، أو أراد أن يعرف حقيقة وقوعه ، فليقرأ هذه السورة » .

قال - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ
الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾
بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾
فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾
يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ
يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ
الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ
بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا
قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾

افتتح الله - تعالى - هذه السورة الكريمة بقوله - تعالى - : لا أقسم بيوم القيامة . . . .

وللعلماء فى مثل هذا التركيب أقوال منها : أن حرف « لا » هنا جىء به ، لقصد المبالغة فى تأكيد القسم ، كما فى قولهم : لا والله .

قال الآلوسى : إدخال « لا » النافية صورة على فعل القسم ، مستفيض فى كلامهم وأشعارهم .

ومنه قول امرىء القيس : لا وأبيك يابنة العامرى ... » يعنى : وأبيك.

ثم قال : وملخص ما ذهب إليه جار الله فى ذلك ، أن « لا » هذه ، إذا وقعت فى خلال الكلام كقوله — تعالى — « فلاوربك لا يؤمنون » فهى صلة تزاد لتأكيد القسم ، مثلها فى قوله — تعالى — : « لئلا يعلم أهل الكتاب . . » لتأكيد العلم . . »(١) .

ومنها : أن « لا » هنا ، جىء بها لنفى ورد كلام المشركين المنكرين ليوم القيامة ، فكأنه — تعالى — يقول : لا ، ليس الأمر كما زعموا . ثم قال : أقسم بيوم القيامة الذى يبعث فيه الخلق للجزاء .

قال القرطبى : وذلك كقولهم : لا والله لا أفعل . فلا هنا رد لكلام قد مضى ، وذلك كقولك : لا والله إن القيامة لحق ، كأنك أكذبت قوما أنكروها . . . »(٢) .

ومنها : أن « لا » فى هذا التركيب وأمثاله على حقيقتها للنفى ، والمعنى لا أقسم بيوم القيامة ولا بغيره ، على أن البعث حق ، فإن المسألة أوضح من أن تحتاج إلى قسم .

وقد رجح بعض العلماء القول الأول فقال « وصيغة « لا أقسم » صيغة قسم ، أدخل حرف النفى على فعل « أقسم » لقصد المبالغة فى تحقيق حرمة المقسم به ، بحيث يوهم للسامع أن المتكلم يهم أن يقسم به ، ثم يترك القسم مخافة الحنث بالمقسم به فيقول : لا أقسم به ، أى : ولا أقسم بأعز منه عندى . وذلك كناية عن تأكيد القسم . . . »(٣) .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ١٣٥ .

(٢) راجع تفسير القرطبى ج ١٩ ص ٩٢ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير ج ٢٩ ص ٣٣٨ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

والمراد بالنفس اللوامة : النفس النقية المستقيمة التى تلوم ذاتها على ما فات منها ، فهى - مهما أكثرت من فعل الخير - تتمنى أن لو ازدادت من ذلك ، ومهما قللت من فعل الشر ، تمنت - أيضا - أن لو ازدادت من هذا التقليل .

قال ابن كثير : عن الحسن البصرى فى هذه الآية : إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه ، يقول : ما أردت بكلمتى ؟ ما أردت بأكلى ؟ . . . وإن الفاجر يمضى قدما ما يعاتب نفسه .

وفى رواية عن الحسن - أيضا - ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة ، (١) .

وجواب القسم يفهم من قوله - تعالى - بعد ذلك : « أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه » .

والمراد بالإنسان : جنسه . أو المراد به الكافر المنكر للبعث . والاستفهام للتوبيخ والتقريع .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية أن بعض المشركين قال للنبى - صلى الله عليه وسلم - : يا محمد حدثنى عن يوم القيامة ، فأخبره - صلى الله عليه وسلم - عنه . فقال المشرك : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك - يا محمد - ، أو يجمع الله العظام . فنزلت هذه الآية .

والمعنى : أقسم بيوم القيامة الذى لاشك فى وقوعه فى الوقت الذى نشاؤه ، وأقسم بالنفس اللوامة النقية التى تلوم ذاتها على الخير ، لماذا لم تستكثر منه ، وعلى الشر لماذا فعلته ، لنجمعن عظامكم - أيها الناس - ، ولنبعثنكم للحساب والجزاء .

وافتتح - سبحانه - السورة الكريمة بهذا القسم ، للإيذان بأن ماسيذكر

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٣٠٠

بعده أمر مهم ، من شأن النفوس الواعية أن تستشرف له ، وأن تستجيب لما اشتمل عليه من هدايات وإرشادات .

ووصف — سبحانه — النفس باللوامة بصيغة المبالغة ، للإشعار بأنها كريمة مستقيمة تكثر من لوم ذاتها ، وتحض صاحبها على المسارعة في فعل الخيرات .

والعظام المراد بها الجسد ، وعبر عنه بها ، لأنه لا يقوم إلا بها ، وللرد على المشركين الذين استبعدوا ذلك ، وقالوا — كما حكى القرآن عنهم — : « من يحي العظام وهي رميم » .

وقوله — سبحانه — : « بلى قادرين على أن نسوى بنانه » تأكيد لقدرته — تعالى — على إحياء الموتى بعد أن صاروا عظاما نخرة ، وإبطال لنفيهم إحياء العظام وهي رميم .

و « قادرين » حال من فاعل الفعل المقدر بعد بلى . وقوله : « نسوى » من التسوية ، وهي تقويم الشيء وجعله متقنا مستويا . يقال : سوى فلان الشيء ، إذا جعله متساويا لا عوج فيه ولا اضطراب .

والبنان : جمع بنانة ، وهي أصابع اليدين والرجلين ، أو مفاصل تلك الأصابع وأطرافها .

أي : ليس الأمر كما زعم هؤلاء المشركون من أننا لا نعيد الانسان إلى الحياة بعد موته للحساب والجزاء ، بل الحق أننا سنجمعه وسنعيده إلى الحياة ، حالة كوننا قادرين قدرة تامة ، على هذا الجمع لعظامه وجسده ، وعلى جعل أصابعه وأطرافه وأنامله مستوية الخلق ، متقنة الصنع ، كما كانت قبل الموت .

وخصت البنان بالذكر ، لأنها أصغر الأعضاء ، وآخر ما يتم به

الخلق ، فإذا كان — سبحانه — قادرا على تسويتها مع لطافتها ودقتها ، فهو على غيرها مما هو أكبر منها أشد قدرة .

وقوله - تعالى - : «بل يريد الانسان ليفجر أمامه» بيان لحال أخرى من أحوال فجور هؤلاء المشركين وطغيانهم . وانتقال من إنكار الحسبان إلى الاخبار عن حال هذا الانسان .

والفجور : يطلق على القول البالغ النهاية فى السوء ، وعلى الفعل القبيح المنكر ، ويطلق على الكذب ، ولذا وصفت اليمين الكاذبة ، باليمين الفاجرة فيكون فجر بمعنى كذب ، وزنا ومعنى .

ولفظ «الأمام» يطلق على المكان الذى يكون فى مواجهة الانسان . والمراد به هنا : الزمان المستقبل وهو يوم القيامة ، الذى دل عليه قوله — تعالى — بعد ذلك : «يسأل أيان يوم القيامة» .

أى : أن هذا الانسان المنكر للبعث والحساب لا يريد أن يكف عن إنكاره وكفره ، بل يريد أن يستمر على فجوره وتكذيبه لهذا اليوم بكل إصرار وجحود ، فهو يسأل عنه سؤال استهزاء وتهكم فيقول : «أيان يوم القيامة» أى: متى يجىء يوم القيامة هذا الذى تتحدثون عنه — أيها المؤمنون - ، وتخشون ما فيه من حساب وجزاء ؟

قال القرطبى : قوله - تعالى - : «بل يريد الانسان ليفجر أمامه» قال ابن عباس : يعنى الكافر ، يكذب بما أمامه من البعث والحساب . . ودليله «يسأل أيان يوم القيامة» . أى : يسأل متى يكون على وجه التكذيب والانكار ، فهو لا يقنع بما هو فيه من التكذيب ، ولكن يأثم لما بين يديه . ومما يدل على أن الفجور : التكذيب ، ما ذكره القتبى وغيره ، من أن أعرابيا قصد عمر بن الخطاب ، وشكى إليه نقب إبله ودبرها - أى : مرضها وجربها - ، وسأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله . فقال الأعرابى . .

أقسم بالله أبو حفص عمر .·. ماءسها من نقب ولا دبر .·. فاغفر له اللهم إن كان فجر .

يعنى : إن كان كذبنى فيما ذكرت . . »(١) .

وأعيد لفظ الإنسان فى هذه الآيات أكثر من مرة ، لأن المقام يقتضى توبيخه وتقريعه ، وتسجيل الظلم والجحود عليه .

والضمير فى « أمامه » يجوز أن يعود إلى يوم القيامة . أى : بل يريد الإنسان ليكذب بيوم القيامة ، الثابت الوقوع فى الوقت الذى يشاؤه الله — عز وجل — .

ويجوز أن يعود على الإنسان ، فيكون المعنى : بل يريد الإنسان أن يستمر فى فجوره وتكذيبه بيوم القيامة فى الحال وفى المآل . أى : أن المراد بأمامه : مستقبل أيامه .

وجىء بلفظ « أيان » الدال على الاستفهام للزمان البعيد ، للإشعار بشدة تكذيبهم ، وإصرارهم على عدم وقوعه فى أى وقت من الأوقات .

ثم ساق — سبحانه — جانبا من أهوال يوم القيامة ، على سبيل التهديد والوعيد لهؤلاء المكذبين .

فقال : « فإذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر » .

و « برق » — بكسر الراء وفتحها — دهش وفزع وتحير ولمع من شدة شخوصه وخوفه .

يقال : برق بصر فلان — كفرح ونصر — إذا نظر إلى البرق فدهش وتحير .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٩ ص ٩٤ .

والمراد بخسوف القمر : انطماس نوره ، واختفاء ضوئه .

والمراد بجمع الشمس والقمر : اقترانهما ببعضهما بعد افتراقهما ، واختلال النظام المعهود للكون ، اختلالا لا تتغير معه معالمه ونظمه . وجواب « إذا » قوله : « يقول الإنسان .. » أى : فإذا برق بصر الإنسان وتحير من شدة الفزع والخوف ، بعد أن رأى ما كان يكذب به الدنيا .

والتعريف فى البصر : للاستغراق ، إذ أبصار الناس جميعا فى هذا اليوم ، تكون فى حالة فزع ، إلا أن هذا الفزع يتفاوت بينهم فى شدته .

« وخسف القمر » أي : ذهب ضوؤه ، وانطمس نوره . .

« وجمع الشمس والقمر » أى : وقرن بينهما بعد أن كانا متفرقين ، والتصقا بعد أن كانا متباعدين ، وغاب ضوؤهما بعد أن كانا منيرين . .

« يقول الإنسان يومئذ أين المفر » أى : فإذا ما تم كل ذلك ، يقول الإنسان فى هذا الوقت الذى يبرق فيه البصر ، ويخسف فيه القمر ، ويجمع فيه بين الشمس والقمر : أين المفر . أى : أين الفرار من قضاء الله ـ تعالى ـ ومن قدره وحسابه . فالمفر مصدر بمعنى الفرار . والاستفهام بمعنى التمنى أى : ليت لى مكانا أفر إليه مما أراه .

وقوله ـــ سبحانه ـــ : « كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر . . » إبطال لهذا التمنى ، ونفى لأن يكون لهذا الإنسان مهرب من الحساب .

والوزر : المراد به الملجأ والمكان الذى يحتمى به الشخص للتوقى عما يخافه . وأصله : الجبل المرتفع المنيع ، من الوزر وهو الثقل .

أى : كلا لا وزر ولا ملجأ لك ـ أيها الإنسان ـ من المثول أمام ربك فى هذا اليوم للحساب والجزاء .

ومهما طال عمرك ، وطال رقادك فى قبرك . . فإلى ربك وحده نهايتك ومستقرك ومصيرك ، فى هذا اليوم الذى لا محيص لك عنه .

وقوله — سبحانه — : ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ، بيان لما يحدث له يوم القيامة . أى : يخبر الإنسان فى هذا اليوم بما قدم من أعمال حسنة ، وبما أخر منها فلم يعملها ، مع أنه كان فى إمكانه أن يعملها . والمقصود بالآية : المجازاة على الأعمال لا مجرد الإخبار .

قال الإمام ابن كثير : قوله — تعالى — : ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ، : أى : يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، كما قال — سبحانه — : « ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا »(١) .

ثم أكد — سبحانه — هذا المعنى بقوله : « بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره » .

والبصيرة هنا بمعنى الحجة الشاهدة عليه . وهى خبر عن المبتدأ وهو « الإنسان » ، والجار والمجرور متعلق بلفظ بصيرة ، والهاء فيها للمبالغة ، مثل هاء علامة ونسابة .

أى : بل الإنسان حجة بينة على نفسه ، وشاهدة بما كان منه من الأعمال السيئة ، ولو أدلى بأية حجة يعتذر بها عن نفسه . . لم ينفعه ذلك . .

قال صاحب الكشاف : « بصيرة » أى : حجة بينة ، وصفت بالبصارة على المجاز ، كما وصفت الآيات بالإبصار فى قوله : « فلما جاءتهم آياتنا مبصرة » . أو : عين بصيرة . والمعنى : أنه ينبأ بأعماله ، وإن لم ينبأ ففيه ما يجزىء عن الإنباء ، لأنه شاهد عليها بما عملت ، لأن جوارحه تنطق بذلك ، كما قال — تعالى — : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » .

« ولو ألقى معاذيره » أى : ولو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه ويجادل عنها .

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٣٠٢ .

وعن الضحاك : ولو أرخى ستوره ، وقال : المعاذير : الستور ، واحدها معذار . فإن صح فلأنه يمنع رؤية المحتجب ، كما تمنع المعذرة عقوبة المذنب .

فإن قلت : أليس قياس المعذرة أن تجمع معاذر لا معاذير ؟ قلت : المعاذير ليس بجمع معذرة ، إنما هو اسم جمع لها . ونحوه : المناكير في المنكر »(١) .

فالمقصود بها تين الآيتين : بيان أن الإنسان لن يستطيع أن يهرب من نتائج عمله مهما حاول ذلك . . لأن جوارحه شاهدة عليه ، ولأن أعذاره لن تكون مقبولة ، لأنها جاءت في غير وقتها ، كما قال - تعالى - : « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » .

ثم أرشد الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى ما يجب عليه عند تبليغ القرآن إليه عن طريق الوحي .

فقال - سبحانه - : « لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » .

والضمير في « به » يعود إلى القرآن الكريم المفهوم من المقام . والمراد بقوله : « لا تحرك . . » نهيه - صلى الله عليه وسلم - عن التعجل في القراءة .

والمقصود بقوله : « قرآنه » : قراءته عليك ، وتثبيته على لسانك وفي قلبك بحيث تقرؤه متى شئت . فهو مصدر مضاف لمفعوله .

قال الآلوسي : قوله : « وقرآنه » أي : إثبات قراءته في لسانك . . . فالقرآن هنا ، وكذا فيما بعده ، مصدر كالرجحان بمعنى القراءة . . . مضاف إلى المفعول . . وقيل : قرآنه : أي : تأليفه على لسانك.. »(٢) .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٦١ .
(٢) تفسير الآلوسي ج ٢٩ ص ١٤٢ .

أى : لا تتعجل — أيها الرسول الكريم — بقراءة القرآن الكريم عندما تسمعه من أمين وحينا جبريل — عليه السلام — ، بل تريث وتمهل حتى ينتهى من قراءته ثم اقرأ من بعده ، فإننا قد تكفلنا بجمعه فى صدرك وبقراءته عليك عن طريق وحينا ، وما دام الأمر كذلك ، فمتى قرأ عليك جبريل القرآن فاتبع قراءته ولا تسبقه بها ، ثم إن علينا بعد ذلك بيان ما خفى عليك منه ، وتوضيح ما أشكل عليك من معانيه .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : هذا تعليم من الله — تعالى — لنبيه — ﷺ — فى كيفية تلقيه الوحى من الملك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه ، ويسابق الملك فى قراءته . .

روى الشيخان وغيرهما عن ابن عباس قال : كان النبى - ﷺ - يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك شفتيه - يريد أن يحفظه مخافة أن يتفلت منه شىء ، أو من شدة رغبته فى حفظه - فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات ... (١).

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد ضمن لنبيه - ﷺ - أن يجمع له القرآن فى صدره ، وأن يجريه على لسانه ، بدون أى تحريف أو تبديل ، وأن يوضح له ما خفى عليه منه . .

قالوا : فكان رسول الله - ﷺ - إذا ما نزل عليه الوحى بعد ذلك بالقرآن ، أطرق وأنصت . وشبيه بهذه الآيات قوله - سبحانه - : فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل رب زدنى علما ، .

ثم عادت السورة الكريمة مرة أخرى إلى الحديث عن يوم القيامة ، وعن أحوال الناس فيه ، وعن حالة الإنسان فى وقت الاحتضار ، وعن مظاهر قدرته - تعالى - ، وعن حكمته فى البعث والحساب والجزاء ، فقال - سبحانه - :

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٣٠٤ .

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ
ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ
رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا
فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ
أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ
ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ
ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ
فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ
نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ
مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ
عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

وقوله – سبحانه – : «كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة» بيان لما جبل عليه كثير من الناس ، من إيثارهم منافع الدنيا الزائلة ، على منافع الآخرة الباقية ، وزجر ونهى لهم عن سلوك هذا المسلك ، الذى يدل على قصر النظر ، وضعف التفكير .

أى : كلا – أيها الناس – ليس الرشد فى أن تتركوا العمل الصالح الذى ينفعكم يوم القيامة ، وتعكفوا على زينة الحياة الدنيا العاجلة . . . بل الرشد كل الرشد فى عكس ذلك ، وهو أن تأخذوا من دنياكم وعاجلتكم

ما ينفعكم فى آخرتكم ، كما قال — سبحانه — : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا . . » .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله — تعالى — : « إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما طويلا » .

ثم بين — سبحانه — حال السعداء والأشقياء يوم القيامة فقال : « وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة . . . »

وقوله : « ناضرة » اسم فاعل من النضرة — بفتح النون المشددة وسكون الضاد — وهى الجمال والحسن . تقول : وجه نضير ، إذا كان حسنا جميلا .

وقوله : « باسرة » من البسور وهو شدة الكلوح والعبوس ، ومنه قوله — تعالى — : « ثم عبس وبسر . . » يقال : بسر فلان يبسر بسورا ، إذا قبض ما بين عينيه كراهية للشىء الذى يراه .

والفاقرة : الداهية العظيمة التى لشدتها كأنها تقصم فقار الظهر . يقال : فلان فقرته الفاقرة ، أى : نزلت به مصيبة شديدة أقعدته عن الحركة . وأصل الفقر : الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم أو ما يقرب منه .

والمراد بقوله : « يومئذ » : يوم القيامة الذى تكرر ذكره فى السورة أكثر من مرة .

والجملة المقدرة المضاف إليها « إذ » والمعوض عنها بالتنوين تقديرها يوم إذ برق البصر .

والمعنى : فى يوم القيامة ، الذى يبرق فيه البصر ، ويخسف القمر . . تصير وجوه حسنة مشرقة ، ألا وهى وجوه المؤمنين الصادقين . . . .

وهذه الوجوه تنظر إلى ربها فى هذا اليوم نظرة سرور وحبور ، بحيث تراه — سبحانه — على ما يليق بذاته ، وكما يريد أن تكون رؤيته - عز وجل - بلا كيفية ، ولا جهة ، ولا ثبوت مسافة .

وهناك وجوه أخرى تصير فى هذا اليوم كالحة شديدة العبوس ، وهى وجوه الكافرين والفاسقين عن أمر ربهم ، وهذه الوجوه « تظن » أى : تعتقد أو تتوقع ، أن يفعل بها فعلا يهلكها ، ويقصم ظهورها لشدته وقسوته . . .

وجاء لفظ « وجوه » فى الموضعين منكرا ، للتنويع والتقسيم ، كما فى قوله — تعالى — : « فريق فى الجنة وفريق فى السعير » وكما فى قول الشاعر :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُسَاء ويوم نسر

وقد أخذ العلماء من قوله — تعالى — : « إلى ربها ناظرة » أن الله - تعالى - يتكرم على عباده المؤمنين فى هذا اليوم ، فيريهم ذاته بالكيفية التى يريدها - سبحانه - .

ومنهم من فسر « ناظرة » بمعنى منتظرة ، أى : منتظرة ومتوقعة ما يحكم الله - تعالى - به عليها .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات . وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله - عز وجل - فى الدار الآخرة ، فى الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها ، لحديث أبى سعيد وأبى هريرة - وهما فى الصحيحين - أن ناسا قالوا : يارسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : « هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب » ؟ قالوا : لا . قال : فإنكم ترون ربكم كذلك .

وفى الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال : نظر رسول الله - ﷺ - إلى القمر ليلة البدر فقال : إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر . . .

ثم قال ابن كثير — رحمه الله — : وهذا - بحمد الله - مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة . كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهداة الأنام .

ومن تأول « إلى ربها ناظرة » فقال : تنتظر الثواب من ربها . . . فقد أبعد هذا القائل النجعة ، وأبطل فيما ذهب إليه . وأين هو من قوله — تعالى — : « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » .

قال الشافعى : ما حجب الفجار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه — عز وجل — . . »(١) .

ثم زجر — سبحانه — الذين يكذبون بيوم الدين ، ويؤثرون العاجلة على الآجلة ، زجرهم بلون آخر من ألوان الردع والزجر ، حيث ذكرهم بأحوالهم الأليمة عندما يودعون هذه الدنيا فقال : كلا إذا بلغت التراقى وقيل من راق . وظن أنه الفراق : . . . .

والضمير فى « بلغت » يعود إلى الروح المعلومة من المقام ، كما فى قوله — تعالى — : « فلولا إذا بلغت الحلقوم . . » ، ومنه قول الشاعر :

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

والتراقى : جمع ترقوة ، وهى العظام المحيطه بأعالى الصدر عن يمينه وعن شماله ، وهى موضع الحشرجة . وجواب الشرط محذوف .

أى : حتى إذا بلغت روح الإنسان للتراقى ، وأوشكت أن تفارق صاحبها . . وجد كل إنسان ثمار عمله الذى عمله فى دنياه ، وانكشفت له حقيقة عاقبته . . .

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٣٠٥ .

والمقصود من الآية الكريمة وما بعدها : الزجر عن إيثار العاجلة على الآجلة . فكأنه — تعالى — يقول : احذروا — أيها الناس — ذلك قبل أن يفاجئكم الموت ، وقبل أن تبلغ أرواحكم نهايتها ، وتنقطع عند ذلك آمالكم . .

وقوله — سبحانه — : « وقيل من راق » بيان لما يقوله أحباب الإنسان الذى بلغت روحه التراقى ، على سبيل التحسر والتوجع واستبعاد شفائه . و « من » اسم استفهام مبتدأ ، و « راق » خبره ، وهو اسم فاعل من الرقية ، وهى كلام يقوله القائل ، أو فعل يفعله الفاعل من أجل شفاء المريض . والمراد به هنا : مطلق الطبيب الذى يرجى على يديه الشفاء لهذا المحتضر . .

أى : اذكروا — أيها الناس — وقت بلوغ الروح نهايتها ، ووقت أن وقف من يهمهم أمر المريض مستسلمين لقضاء الله - تعالى - ، وملتمسين من كل من بيده شفاء مريضهم ، أن يتقدم لإنقاذه مما هو فيه من كرب ، ولكنهم لا يجدون أحدا يحقق لهم آمالهم .

قال الآلوسى : قوله : « وقيل من راق » أى : وقال من حضر صاحبها من يرقيه وينجيه مما هو فيه ، من الرقية ، وهى ما يستشفى به الملسوع والمريض من الكلام المعد لذلك ، ولعله أريد به مطلق الطبيب ، أعم من أن يطب بالقول أو بالفعل . . والاستفهام عند البعض حقيقى . وقيل : هو استفهام استبعاد وإنكار . أى : قد بلغ هذا المريض مبلغا لا أحد يستطيع أن يرقيه .

وقيل هذا الكلام من كلام ملائكة الموت . أى : أيكم يرقى بروحه أملائكة الرحمة ، أم ملائكة العذاب ، من الرقى وهو العروج . . . والاستفهام عليه حقيقى . .

ووقف حفص رواية عن عاصم على « من » ، وابتدأ بقوله : « راق » وكأنه قصد أن لا يتوهم أنهما كلمة واحدة ، فسكت سكتة لطيفة ، ليشعر أنهما كلمتان »(١) .

والضمير المستتر فى قوله ـ تعالى ـ : « وظن أنه الفراق » يعود إلى هذا الإنسان الذى أشرف على الموت ، والذى بلغت روحه نهاية حياتها ، والظن هنا بمعنى اليقين ، أو بمعنى العلم المقارب لليقين . .

أى : وأيقن هذا المحتضر ، أو توقع أن نهايته قد اقتربت ، وأنه عما قليل سيودع أهله وأحبابه . . وسيفارقهم فراقا لا لقاء بعده ، إلا يوم يقوم الناس للحساب . .

وقوله ـ تعالى ـ : « والتفت الساق بالساق » أى : والتوت والتصقت إحدى ساقيه بالأخرى ، عند سكرات الموت وشدته ، فصارتا متلاحقين لا تكاد إحداهما أن تتزحزح من الأخرى ، فكأنهما ملتفتان .

ويصح أن يكون المعنى : والتفت الساق بالساق ، عند وضع هذا الذى أدركه الموت فى كفنه ، لأن هذا الكفن قد ضم جميع جسده ، والتصقت كل ساق بالأخرى .

ومنهم من يرى أن هذه الآية الكريمة : كناية عن هول الموت وشدته كما فى قوله ـ تعالى ـ : « يوم يكشف عن ساق . . » ، والعرب لا تذكر الساق إلا فى المحن والشدائد العظام ، ومنه قولهم : قامت الحرب على ساق.

قال صاحب الكشاف : « والتفت » ساقه بساقه والتوت عليها عند الموت . وعن قتادة : ماتت رجلاه فلا تحملانه وقد كان عليهما جوالا . وقيل : شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة ، على أن الساق مثل فى الشدة . وعن سعيد بن المسيب : هما ساقاه حين تلفان فى أكفانه . . »(٢) .

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١٤٦ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٦٣ .

وقوله - سبحانه - : «إلى ربك يومئذ المساق» أى : إلى ربك - أيها الرسول الكريم - مساق الناس ومرجعهم - لا إلى غيره - ، يوم القيامة . . لكى يحاسبوا على أعمالهم .

فالمساق مصدر ميمى من ساق الشىء ، إذا سيره أمامه إلى حيث يريد .

ثم بين - سبحانه - جانبا من الأسباب التى أدت إلى سوء عاقبة المكذبين للحق ، فقال - تعالى - : «فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب وتولى . ثم ذهب إلى أهله يتمطى . . »

والفاء للتفريع على ما تقدم، من قوله - تعالى - : «أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه . . الخ .

أو للتفريع والعطف على قوله - سبحانه - : «إلى ربك يومئذ المساق . . » أى : أن هذا الإنسان الذى أنكر الحساب والجزاء ، وفارق الحياة ، كانت عاقبة أمره خسرا ، فلا هو صدق بالحق الذى جاءه الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ولا هو أدى الصلاة التى فرضها الله - تعالى - عليه ، ولكنه كذب بكل ذلك ، وتولى وأعرض عن سبيل الرشاد .

ثم بعد ذلك : «ذهب إلى أهله يتمطى» أى : ذهب إلى أهله متبخترا متفاخرا ، متباهيا بإصراره على كفره وفجوره .

وقوله : «يتمطى» من المط بمعنى المد . وأصله : يتمطط ، قلبت فيه الطاء حرف علة ، ووصف المتبختر فى مشيه بذلك ، لأنه يمط خطاه ، ويمدها على سبيل الإعجاب بنفسه ، والتباهى بما هو عليه من كفر وضلال .

ولم يذكر - سبحانه - المتعلق والمفعول فى الآيات الكريمة ، للإشعار بأن هذا الإنسان الجاحد الجاهل . . . لم يصدق بشىء من الحق ، ولم يؤد لله - تعالى - فرضا ولا سنة ، ولكنه استمر على تكذيبه

وإعراضه عن الصراط المستقيم، ولم يكتف بكل ذلك، بل تفاخر وتباهى أمام غيره بما هو عليه من باطل.

وقوله - سبحانه -: «أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى» دعاء على هذا الإنسان الشقى، المصر على إعراضه عن الحق.. بالهلاك وسوء العاقبة. و«أولى» اسم تفضيل من وَلِى، وفاعله ضمير محذوف يقدره كل قائل أو سامع بما يدل على المكروه.

والكاف فى قوله «لك» للتبيين، والكاف خطاب لهذا الإنسان المخصوص بالدعاء عليه.

وقوله: «فأولى» تأكيد لقوله «أولى لك»، وجملة «ثم أولى لك فأولى» مؤكدة للجملة الأولى.

أى: أجدر بك هذا الهلاك الذى ينتظرك قريبا - أيها الإنسان - الجاحد، ثم أجدر بك، لأنك أصررت على كل ما هو باطل وسوء.

قال القرطبي ما ملخصه: هذا تهديد بعد تهديد، ووعيد بعد وعيد.. روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج من المسجد ذات يوم، فاستقبله أبو جهل على باب المسجد، فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيده، فهزه مرة أو مرتين ثم قال: «أولى لك فأولى». فقال أبو جهل أتهددنى - يا محمد - فوالله إنى لأعز أهل هذا الوادى وأكرمه ونزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما قال لأبى جهل..» (١)

وجىء بحرف «ثم» فى عطف الجملة الثانية على الأولى، لزيادة التأكيد، وللارتقاء فى الوعيد، والإشعار بأن التهديد الثانى أشد من الأول، كما فى قوله - تعالى -: «كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون».

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ١١٤

ثم ختم — سبحانه — السورة الكريمة بالإشارة إلى الحكمة من البعث والجزاء ، وببيان جانب من مظاهر قدرته فقال : «أيحسب الإنسان أن يترك سدى . . .»

والاستفهام للإنكار كما فى قوله — تعالى — قبل ذلك : «أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه» .

و «سدى» — بضم السين مع القصر — بمعنى مهمل . يقال : إبل سدى ، أى : مهملة ليس لها راع يحميها . . . . وهو حال من فاعل «يترك» .

أى : أيظن هذا الإنسان الذى أنكر البعث والجزاء ، أن نتركه هكذا مهملا ، فلا نجازيه على أعماله التى عملها فى الدنيا ؟ إن كان يحسب ذلك فهو فى وهم وضلال ، لأن حكمتنا قد اقتضت أن نكرم المتقين ، وأن نعاقب المكذبين .

والاستفهام فى قوله : «ألم يك نطفة من منى يمنى . . . .» للتقرير والنطفة : القليل من الماء و «يمنى» ، أى : يراق هذا المنى فى رحم المرأة .

أى : كيف يحسب هذا الإنسان أنه سيترك سدى ؟ ألم يك فى الأصل قطرة ماء تصب من الرجل فى رحم المرأة وتراق فيه ؟ بل إنه كان كذلك .

ثم «كان» بعد ذلك «علقة» أى : قطعة دم متجمد «فخلق فسوى» أى : فخلقه الله — تعالى — خلقا آخر بقدرته ، وسواه فى أحسن تقويم ، كما قال : «لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . .»

وجملة «أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى» بمثابة النتيجة بعد المقدمات والأدلة .

أى : أليس ذلك الرب العظيم الشأن والقدرة ، الذى أحسن كل شىء خلقه ، والذى خلق الإنسان فى تلك الأطوار المتعددة . . . . أليس ذلك الإله صاحب الخلق والأمر .

«بقادر على أن يحى الموتى» وعلى أن يعيدهم إلى الحياة مرة أخرى ، ليجازى الذين أساؤا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى ؟ بلى إنه القادر على ذلك قدرة تامة .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث منها : أن رجلا كان إذا قرأ هذه الآية قال : سبحانك اللهم وبلى . فسئل عن ذلك فقال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول ذلك» (١)

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة – مدينة نصر .

الأربعاء : ١٤ من ذى الحجة سنة ١٤٠٦ هـ ٢٠ من أغسطس سنة ١٩٨٦م

---

(١) تفسير ابن كثير حـ ٨ ص ٣٠٩

تفسير سورة

«الإنسان»

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة « الإنسان »

١ — سورة « الإنسان » يرى بعضهم أنها من السور المكية الخالصة، ويرى آخرون أنها من السور المدنية .

قال الآلوسى : هى مكية عند الجمهور ، وقال مجاهد وقتادة : مدنية كلها . وقال الحسن : مدنية إلا آية واحدة ، وهى قوله — تعالى — : « ولا تطع منهم آثما أو كفورا . . . » (١)

٢ — والذى تطمئن إليه النفس أن هذه السورة ، من السور المكية الخالصة ، فإن أسلوبها وموضوعها ومقاصدها . . . كل ذلك يشعر بأنها من السور المكية ، إذ من خصائص السور المكية ، كثرة حديثها عن حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين ، وأمر النبى — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه بالصبر ، وإثبات أن هــذا القرآن من عند الله - تعالى - ، والتحريض على مداومة ذكر الله - تعالى - وطاعته . . . وكل هذه المعانى نراها واضحة فى هذه السورة .

ولقد رأينا الإمام ابن كثير - وهو كثير من العلماء المحققين - عند تفسيره لهذه السورة ، قال بأنها مكية ، دون أن يذكر فى ذلك خلافا ، مما يوحى بأنه لا يعتد بقول من قال بأنها مدنية .

٣ — وتسمى هذه السورة - أيضا - بسورة « هل أتى على الانسان » ، فقد روى البخارى - فى باب القراءة فى الفجر - عن أبى هريرة ، قال : كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يقرأ فى الفجر سورة « الم » السجدة . وسورة : « هل أتى على الانسان » .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ١٥٠

وتسمى — أيضاً — بسورة: الدهر، والأبرار، والأمشاج، لورود هذه الألفاظ فيها.

وعدد آياتها: إحدى وثلاثون آية بلا خلاف.

٤ — ومن مقاصدها البارزة: تذكير الإنسان بنعم الله — تعالى — عليه، حيث خلقه — سبحانه — من نطفة أمشاج، وجعله سميعا بصيراً، وهداه السبيل . .

وحيث أعدله ما أعد من النعيم الدائم العظيم . . متى أطاعه واتقاه كما أن من مقاصدها: إنذار الكافرين بسوء العاقبة إذا ما استمروا على كفرهم، وإثبات أن هذا القرآن من عند الله — تعالى —، وأمر الرسول — ﷺ — وأمته بالصبر والإكثار من ذكر الله — تعالى —، بكرة وأصيلا . . .

وبيان أن حكمته — تعالى — قد اقتضت أنه: «يدخل من يشاء في رحمته، والظالمين أعدلهم عذابا أليما».

وقد افتتح — سبحانه — السورة الكريمة بقوله:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾

إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾

إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

والاستفهام فى قوله — تعالى — : « هل أتى على الإنسان . . . » للتقرير . والمراد بالإنسان : جنسه ، فيشمل جميع بنى آدم . والحين : المقدار المجمل من الزمان ، لاحد لأكثره ولا لأقله .

والدهر : الزمان الطويل غير المحدد بوقت معين .

والمعنى : لقد أتى على الإنسان « حين من الدهر » أى : وقت غير محدد من الزمان الطويل الممتد فى هذه الحياة الدنيا . .

« لم يكن شيئا مذكورا » أى : لم يكن هذا الإنسان فى ذلك الحين من الدهر ، شيئا مذكورا من بين أفراد جنسه ، وإنما كان شيئا غير موجود إلا فى علم الله — تعالى — .

ثم أوجده — سبحانه — بعد ذلك من نطفة فعلقة فمضغة . . ثم أنشأه — سبحانه — بعد ذلك خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

فالمقصود بهذه الآية الكريمة بيان مظهر من مظاهر قدرته — عز وجل — حيث أوجد الإنسان من العدم ، ومن كان قادرا على ذلك ، كان — من باب أولى — قادرا على إعادته إلى الحياة بعد موته ، للحساب والجزاء .

قال الإمام الفخر الرازى ما ملخصه : اتفقوا على أن هل ها هنا ، وفى قوله — تعالى — : « هل أتاك حديث الغاشية .

بمعنى قد ، كما تقول : هل رأيت صنيع فلان ، وقد علمت أنه قد رآه . . وتقول : هل وعظتك وهل أعطيتك ، ومقصودك أن تقرره بأنك قد أعطيته ووعظته . .

والدليل على أن « هل » هنا ليست للاستفهام الحقيقى . . أنه محال على الله — تعالى — ، فلابد من حمله على الخبر . . »(1) .

---

(1) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٢٧١ .

وجاءت الآية الكريمة بأسلوب الاستفهام، لما فيه من التشويق إلى معرفة ماسيأتى بعده من كلام.

وجملة «لم يكن شيئا مذكورا» فى موضع نصب على الحال من الإنسان، والعائد محذوف. أى: حالة كون هذا الإنسان، لم يكن فى ذلك الحين من الدهر، شيئا مذكورا من بين أفراد جنسه.

وإنما كان نسيا منسيا، لا يعلم بوجوده أحد سوى خالقه - عز وجل -.

ثم فصل - سبحانه - بعد هذا التشويق، أطوار خلق الإنسان فقال: «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه...» والمراد بالإنسان هنا - أيضاً - جنسه وجميع أفراده..

و«أمشاج» بمعنى أخلاط من عناصر شتى، مشتق من المشج بمعنى الخلط، يقال مشج فلان بين كذا وكذا - من باب ضرب - إذا خلط ومزج بينهما، وهو جمع مشج - كسبب -، أو مشج - ككتف - أو مشيج - كنصير -..

قال الجمل: «أمشاج» نعت لنطفة. ووقع الجمع صفة لمفرد، لأنه فى معنى الجمع، أو جعل كل جزء من النطفة نطفة، فاعتبر ذلك فوصف بالجمع...»(١).

ويرى صاحب الكشاف أن لفظ «أمشاج» مفرد جاء على صيغة أفعال، كلفظ أعشار فى قولهم: برمة أعشار، أى: برمة متكسرة قطعا قطعا. وعليه يكون المفرد قد نعت بلفظ مفرد مثله..

فقد قال - رحمه الله -: «من نطفة أمشاج» كبرمة أعشار.. وهى ألفاظ مفردة غير جموع.

ولذلك وقعت صفات للأفراد.. والمعنى: من نطفة قد امتزج فيها

(١) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٤ ص ٤٥٢.

الماءان . . . »(١) .

وجملة « نبتليه » حال من الإنسان . . أو من فاعل « خلقنا » .

أى : إنا خلقنا الإنسان بقدرتنا وحدها، «من نطفة» أى : من منى، وهو ماء الرجل وماء المرأة ، «أمشاج» أى : ممتزج أحدهما بالآخر امتزاجا تاما . .

أو خلقناه من نطفة مختلطة بعناصر متعددة ، تتكون منها حياة الإنسان بقدرتنا وحكمتنا .

وخلقناه كذلك حالة كوننا مريدين ابتلاءه واختباره بالتكاليف ، فى مستقبل حياته حين يكون أهلا لهذه التكاليف . .

« فجعلناه » بسبب إرادتنا ابتلاءه واختباره بالتكاليف عند بلوغه سن الرشد « سميعاً بصيراً » أى : فجعلنا ، بسبب هذا الابتلاء والاختبار والتكليف ، مزودا بوسائل الإدراك ، التى بواسطتها يسمع الحق ويبصره ويستجيب له ، ويدرك الحقائق والآيات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق رسلنا . . إدراكا سليما ، متى اتبع فطرته ، وخالف وساوس الشيطان وخطواته . .

وخص - سبحانه - السمع والبصر بالذكر ، لأنهما أنفع الحواس للإنسان ، إذ عن طريق السمع يتلقى دعوة الحق وما اشتملت عليه من هدايات . . وعن طريق البصر ينظر فى الأدلة المتنوعة الكثيرة التى تدل على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق أنبيائه فيما جاءوا به من عند ربهم . .

وقوله - سبحانه - « إنا هديناه السبيل . . » تعليل لقوله « نبتليه » ، وتفصيل لقوله - تعالى - « فجعلناه سميعا بصيراً » . والمراد بالهداية هنا : الدلالة إلى طريق الحق ، والإرشاد إلى الصراط المستقيم . .

أى : إنا بفضلنا وإحساننا - قد أرشدنا الإنسان إلى ما يوصله إلى

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٦٦٦ .

طريق الحق والصواب ، وأرشدناه إلى ما يسعده ، عن طريق إرسال الرسل ، وتزويده بالعقل المستعد للتفكر والتدبر فى آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا .

وقوله : « إما شاكرا وإما كفورا » حالان من ضمير الغيبة فى « هديناه » ، وهو ضمير الإنسان . .

و « إما » للتفصيل باعتبار لقدر الأحوال مع اتحاد الذات ، أو للتقسيم للمهدى بحسب اختلاف الذوات والصفات .

أى : إنا هديناه ودللناه على ما يوصله إلى الصراط المستقيم ، فى حالتى شكره و كفره ، لأنه إن أخذ بهدايتنا كان شاكرا ، وإن أعرض عنها كان جاحدا وكافرا لنعمنا فالهداية موجودة فى كل الأحوال ، إلا أن المنتفعين بها هم الشاكرون وحدهم . .

ومثل ذلك كمثل رجلين ، يرشدهما مرشد إلى طريق النجاة ، فأحدهما يسير فى هذا الطريق فينجو من العثرات والمتاعب والمخاطر . . والآخر يعرض عن ذلك فيهلك . .

ولما كان الشكر قل من يتصف به ، كما قال — سبحانه — : « وقليل من عبادى الشكور » ، جاء التعبير بقوله — سبحانه — « شاكرا » بصيغة اسم الفاعل . ولما كان الجحود والكفر يعم أكثر الناس ، جاء التعبير بقوله — تعالى — « كفورا » بصيغة المبالغة .

والمقصود من الآية الكريمة ، قفل الباب أمام الذين يفسقون عن أمر ربهم ، ويرتكبون ما يرتكبون من السيئات . . ثم بعد ذلك يعلقون أفعالهم هذه على قضاء الله وقدره ، ويقولون — كما حكى القرآن عن المشركين — : « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء »(١) .

ثم بين — سبحانه — بعد هذه الهداية ، ما أعده لفريق الكافرين ، وما أعده لفريق الشاكرين ، فقال — تعالى — :

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ

سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ
مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا
تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾
وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا
نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا
نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ
ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً
وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا
زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾
وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟
مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا
زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ
مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ
رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ
وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾
إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ

فقوله – سبحانه – : « إنا أعتدنا للكافرين . . . » كلام مستأنف لبيان جزاء الكافرين ، بعد أن تطلعت إليه النفس ، بعد سماعها لقوله – تعالى – : « إما شاكرا وإما كفورا » .

وابتدأ – سبحانه – بذكر جزاء الكافر ، لأن ذكره هو الأقرب ولأن الغرض بيان جزائه على سبيل الإجمال ، ثم تفصيل القول بعد ذلك في بيان جزاء المؤمنين .

والسلاسل : جمع سلسلة ، وهي القيود المصنوعة من الحديد والتي يقيد بها المجرمون . وقد قرأ بعض القراء السبعة هذا اللفظ بالتنوين ، وقرأه آخرون بدون تنوين .

والأغلال : جمع غل – بضم الغين – وهو القيد الذي يقيد به المذنب ويكون في عنقه ، قال – تعالى – : « إذ الأغلال في أعناقهم ، والسلاسل يسحبون . في الحميم ثم في النار يسجرون » .

والمعنى : إنا أعتدنا وهيئنا للكافرين سلاسل يقادون بها ، وأغلالا تجمع بها أيديهم إلى أعناقهم على سبيل الإذلال لهم ، وهيئنا لهم – فوق ذلك – نارا شديدة الاشتعال ، تحرق بها أجسادهم .

ثم بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين الصادقين من خير عميم فقال : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا » .

والأبرار : جمع بر أو بار . وهو الإنسان المطيع لله - تعالى - طاعة تامة ، والمسارع في فعل الخير ، والشاكر لله - تعالى - على نعمه .

والكأس : هو الإناء الذي توضع فيه الخمر ، ولا يسمى بهذا الاسم إلا إذا كانت الخمر بداخله ، ويصح أن يطلق الكأس على الخمر ذاتها على سبيل المجاز ، من باب تسمية الحال باسم المحل ، وهو المراد هنا . لقوله - تعالى - « كان مزاجها كافورا » . و « من » للتبعيض .

والضمير فى قوله « مزاجها » يعود إلى الكأس التى أريد بها الخمر . والمراد «بمزاجها» : خليطها من المزج بمعنى الخلط . يقال : مزجت الشيء بالشيء ، إذا خلطته به .

والكافور : اسم لسائل طيب الرائحة ، أبيض اللون ، تميل إليه النفوس . .

أى : إن المؤمنين الصادقين ، الذين أخلصوا لله - تعالى - الطاعة والعبادة والشكر .. يكافئهم - سبحانه - على ذلك ، بأن يجعلهم يوم القيامة فى جنات عالية ، ويتمتعون بالشراب من خمر ، هذه الخمر كانت مخلوطة بالكافور الذى تنتعش له النفوس ، وتحبه الأرواح والقلوب ، لطيب رائحته ، وجمال شكله .

وذكر - سبحانه - هذه الأشياء فى هذه السورة - من الكافور - والزنجبيل ، وغيرهما ، لتحريض العقلاء على الظفر فى الآخرة بهذه المتع التى كانوا يشتهونها فى الدنيا ، على سبيل تقريب الأمور لهم ، وإلا فنعيم الآخرة لا يقاس فى لذته ودوامه بالنسبة لنعيم الدنيا الفانى .

قال ابن عباس : كل ما ذكر فى القرآن مما فى الجنة وسماه ، ليس له من الدنيا شبيه إلا فى الاسم . فالكافور ، والزنجبيل ، والأشجار والقصور ، والمأكول والمشروب ، والملبوس والثمار ، لا يشبه ما فى الدنيا إلا فى مجرد الاسم » .

وقوله - سبحانه - : « عينا يشرب بها عباد الله . . » بدل من قوله : «كان مزاجها كافورا» لأن ماءها فى بياض الكافور وفى رائحته وبرودته .

أى : أن الأبرار يشربون من كأس ، ماؤها ينبع من عين فى الجنة ، هذا الماء له بياض الكافور ورائحته وبرودته .

وعدى فعل « يشرب » بالباء ، التى هى باء الإلصاق ، لأن الكافور

يمزج به شرابهم . أى : عينا يشرب عباد الله ماءهم وخمرهم بها ، أى : مصحوبا بمائها وخمرها .

ومنهم من جعل الباء هنا بمعنى من التبعيضية . أى : عينا يشرب من بعض مائها وخمرها عباد الله ، وهم الأبرار .

وعبر عنهم بذلك لتشريفهم وتكريمهم ، حيث أضافهم - سبحانه - إلى ذاته .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم وصـــل فعل الشرب بحرف الابتداء أولا ، وبحرف الإلصاق آخرا ؟ قلت : لأن الكأس مبدأ شربهم وأول غايته ، وأما العين فبها يمزجون شرابهم ، فكان المعنى : يشرب عباد الله بها الخمر ، كما تقول : شربت الماء بالعسل . . . (١)

وقوله - سبحانه - : « يفجرونها تفجيرا » صفة أخرى للعين . أى : يصيرونها ويجرونها إلى حيث يريدون ، وينتفعون بها كما يشاؤون ، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يتجهون إليه .

فالتعبير بقوله : « يفجرونها تفجيرا » إشارة إلى كثرتها وسعتها وسهولة حصولهم عليها .

يقال فجر فلان الماء ، إذا أخرجه من الأرض بغزارة ، ومنه قوله - تعالى - : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً » .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك فى آيات متعددة ، الأسباب التى من أجلها وصلوا إلى النعيم الدائم ، فقال - تعالى - : « يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيرا . . . »

والنذر : مايوجبه الإنسان على نفسه من طاعة لله - تعالى - . والوفاء به : أداؤه أداء كاملا .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٦٨

أى : أن من الأسباب التى جعلت الأبرار يحصلون على تلك النعم ، أنهم من أخلاقهم الوفاء بالنذر ، ومن صفاتهم - أيضاً - أنهم يخافون يوماً عظيما هو يوم القيامة ، الذى كان عذابه فاشياً منتشراً غاية الانتشار .

فقوله : « مستطيرا » اسم فاعل من استطار الشيء إذا انتشر وامتد أمره . والسين والتاء فيه للمبالغة ، وأصله طار . ومنه قولهم : استطار الغبار ، إذا انتشر فى الهواء وتفرق . وجيء بصيغة المضارع فى قوله : « يوفون » ، للدلالة على تجدد وفائهم فى كل وقت وحين .

والتعريف فى « النذر » للجنس ، لأنه يعم كل نذر .

وجاء لفظ اليوم منكرا ، ووصف بأن له شرا مستطيرا . . لتهويل أمره ، وتعظيم شأنه ، حتى يستعد الناس لاستقباله بالإيمان والعمل الصالح

ثم وصفهم - سبحانه - بصفات أخرى فقال : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا » .

أى : أن هؤلاء الأبرار من صفاتهم - أيضاً - أنهم يطعمون الطعام مع حب هذا الطعام لديهم ، ومع حاجتهم إليه واشتهائهم له .

ومع كل ذلك فهم يقدمونه للمسكين ؛ وهو المحتاج إلى غيره لفقره وسكونه عن الحركة . . ولليتيم ، وهو من فقد أباه وهو صغير ، وللأسير وهو من أصبح أمره بيد غيره . وخص الإطعام بالذكر ، لما فى تقديمه من كرم وسخاء وإيثار ، لا سيما مع الحاجة إليه ، كما يشعر به قوله - تعالى - «على حبه» أى : على حبهم لذلك الطعام . وقيل الضمير فى قوله «على حبه» يعود إلى الله - عز وجل - . أى : يطعمون الطعام على حبهم له - تعالى - ؛

والأول أولى ، ويؤيده قوله - تعالى - : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » .

و « على » هنا بمعنى مع ، والجملة فى محل نصب على الحال . أى : حالة كونهم كائنين على حب هذا الطعام .

وخص هؤلاء الثلاثة بالذكر ، لأنهم أولى الناس بالرعاية والمساعدة .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية ، والآيتين التى بعدها ، روايات منها : أنها نزلت فى الإمام على وزوجه فاطمة - رضى الله عنهما - .

قال القرطبي - بعد أن ذكر هذه الروايات - : والصحيح أنها نزلت فى جميع الأبرار ، وفى كل من فعل فعلا حسناً ، فهى عامة . . » (١)

وقوله - سبحانه - : « إنما نطعمكم لوجه الله . . . » بيان لشدة إخلاصهم ، ولطهارة نفوسهم .

وهو مقول لقول محذوف أى : يقدمون الطعام لهؤلاء المحتاجين مع حبهم لهذا الطعام ، ومع حاجتهم إليه . . . ثم يقولون لهم بلسان الحال أو المقال : إنما نطعمكم ابتغاء وجه الله - تعالى - وطلباً لمثوبته ورحمته .

« لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » أى : لا نريد منكم جزاء على ما قدمناه لكم ، ولا نريد منكم شكرا على ما فعلناه ، فإننا لا نلتمس ذلك إلا من الله — تعالى — خالقنا وخالقكم .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : «إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا» .

والعبوس : صفة مشبهة لمن هو شديد العبس ، أى : كلوح الوجه وانقباضه . .

والقمطرير : الشديد الصعب من كل شىء . يقال : اقمطر يومنا ، إذا اشتدت مصائبه . .

ووصف اليوم بهذين الوصفين على سبيل المجاز فى الإسناد ، والمقصود وصف أهله بذلك ، فهو من باب : فلان نهاره صائم .

(١) راجع تفسير القرطبي حـ ١٩ ص ١٣٠

أى : ويقولون لهم — أيضاً — عند تقديم الطعام لهم : إنا نخاف من ربنا يوماً ، تعبس فيه الوجوه ، من شدة هوله ، وعظم أمره ، وطول بلائه . . .

أى : أنهم لم يقدموا الطعام — مع حبهم له — رياء ومفاخرة ، وإنما قدموه ابتغاء وجه الله ، وخوفاً من عذابه .

والفاء فى قوله : « فوقاهم الله شر ذلك اليوم . . » للتفريع على ما تقدم ولبيان ما ترتب على إخلاصهم وسخائهم من ثواب .

أى : فترتب على وفائهم بالنذور ، وعلى خوفهم من عذاب الله - تعالى - وعلى سخائهم وإخلاصهم ، ترتب على كل ذلك أن دفع الله — تعالى — عنهم شر ذلك اليوم ، وهو يوم القيامة .

« ولقاهم نضرة وسرورا » أى : وجعلهم يلقون فيها حسناً وبهجة فى الوجوه ، وسروراً وانشراحاً فى الصدور ، بدل العبوس والكلوح الذى حل بوجوه الكفار .

« وجزاهم بما صبروا » أى : بسبب صبرهم «جنة» عظيمة «وحريرا» جميلا يلبسونه .

« متكئين فيها » أى : فى الجنة « على الأرائك » أى : على السرر ، أو على ما يتكأ عليه من سرير أو فراش ونحوه .

« لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا » أى . لا يرون فيها شمسا شديدة الحرارة بحيث تؤذيهم أو تضرهم ، ولا يرون فيها كذلك « زمهريرا » أى : برداً مفرطاً . يقال : زمهر اليوم ، إذا اشتد برده .

والمقصود من الآية الكريمة أنهم لا يرون فى الجنة إلا جوا معتدلا ، لا هو بالحار ولا هو بالبارد .

وقوله - سبحانه - «ودانية عليهم ظلالها . . . » معطوف على قوله قبل ذلك : «متكئين . . . »

و «ظلالها» فاعل «دانية» والضمير في «ظلالها» يعود إلى الجنة .

أي : أن الأبرار جالسون في الجنة جلسة الناعم البال ، المنشرح الصدر . . . وظلال أشجار الجنة قريبة منهم ، ومحيطة بهم ، زيادة في إكرامهم . .

«وذللت قطوفها تذليلا» أي : أنهم - فضلا عن ذلك - قد سخرت لهم ثمار الجنة تسخيرا ، وسهل الله - تعالى - لهم تناولها تسهيلا عظيما ، بحيث إن القاعد منهم والقائم والمضطجع ، يستطيع أن يتناول هذه الثمار اللذيذة بدون جهد أو تعب .

فقوله - تعالى - : «وذللت» من التذليل بمعنى الانقياد والتسخير ، يقال : ذلل الكرم - بضم الذال - إذا تدلت عناقيده وصارت في متناول اليد . والقطوف : جمع قطف - بكسر القاف - وهو العنقود حين يقطف أو الثمار المقطوفة .

وبعد أن وصف - سبحانه - جانباً من طعامهم ولباسهم ومسكنهم أخذت السورة الكريمة في وصف شرابهم ، فقال - تعالى - : «ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة قدروها تقديرا . . . »

وقوله : «ويطاف» من الطواف ، وهو السعي المكرر حول الشيء ، ومنه الطواف بالكعبة . والآنية : جمع إناء ، وهو اسم لكل وعاء يوضع فيه الطعام والشراب . والمراد بها هنا : الأواني التي يستعملونها في مجالس شرابهم .

والأكواب : جمع كوب ، وهو القدح الذي لا عروة له ، وعطفه

على الآنيـــة من باب عطف الخاص على العـــام . . . . . .

والقوارير : جمع قارورة . وهى فى الأصل إناء رقيق من الزجاج النقى الشفاف ، توضع فيه الأشربة وما يشبهها ، فتستقر فيه .

أى : ويطاف على هؤلاء الأبرار بآنية كائنة من فضة ، وبأكواب وأقداح من فضة - أيضاً - ، وجعلت هذه الأكواب فى مثل القوارير فى صفائها ونقائها ، وفى مثل الفضة فى جمالها وحسنها ، بحيث يرى ما يداخلها من خارجها .

وقوله - سبحانه - «قدروها تقديرا» أى : أن الطائفين بهذه الأكواب عليهم ، قد وضعوا فيها من الشراب على مقدار ما يشبع هؤلاء الأبرار ويرويهم بدون زيادة أو نقصان والطائفون عليهم بذلك هم الخدم الذين جعلهم الله - تعالى - لخدمة هؤلاء الأبرار . وبنى الفعل للمجهول للعلم بهم . . .

وقال - سبحانه - هنا «بآنية من فضة» وفى سورة الزخرف «يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب . . .» ، زيادة فى تكريمهم وفى سمو منزلتهم ، إذ تارة يطاف عليهم بأكواب من فضة ، وتارة يطاف عليهم بصحاف من ذهب ، ومن المعروف أنه كلما تعددت المناظر الحسنة ، والمشارب اللذيذة . . كان ذلك أبهج للنفس . .

والمراد بالكينونة فى قوله - تعالى - «كانت قواريرا . . .» أنها تكونت ووجدت على هذه الصفة .

قال الآلوسى قوله - تعالى - «كانت قواريرا . . .» أى : كانت تلك الأكواب قواريرا ، جمع قارورة ، وهى إناء رقيق من الزجاج توضع فيه الأشربة ، ونصبه على الحال ، فإن «كان» تامة ، وهو كما تقول : خلقت

قوارير . وقوله — تعالى — : «قوارير من فضة» بدل . والكلام على التشبيه البليغ .

والمراد تكونت جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها ، ولين الفضة وبياضها . . .

وقرأ نافع والكسائى وأبو بكر بتنوين «قواريرا» فى الموضعين وصلا ، وإبداله ألفا وقفا . وابن كثير يمنع صرف الثانى ويصرف الأول . . . والقراءة بمنع صرفهما للباقين . . .»(١) .

وقال الشوكانى : وجملة «قدروها تقديرا» صفة لقوارير . . أى : قدرها السقاة من الخدم ، الذين يطوفون عليهم على قدر ما يحتاج إليه الشاربون من أهل الجنة ، من دون زيادة ولا نقصان . . . وقيل : قدرها الملائكة . وقيل : قدرها الشاربون لها من أهل الجنة على مقدار حاجتهم، فجاءت كما يريدون فى الشكل لا تزيد ولا تنقص . . .»(٢) .

ثم بين — سبحانه — محاسن شراب أهل الجنة فقال : «ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسبيلا» .

والمراد بالكأس هنا : كأس الخمر . والضمير فى قوله «فيها» يعود إلى الجنة . والزنجبيل : نبات ذو رائحة عطرية طيبة ، والعرب كانوا يستلذون الشراب الممزوج به .

والسلسبيل : وصف قيل مشتق من السلاسة بمعنى السهولة واللين ، يقال: ماء سَلْسَل ، أى : عذب سائغ للشاربين ، ومعنى «تسمى» على هذا الرأى: أى : توصف بالسلاسة والعذوبة .

وقيل : السلسبيل : اسم لهذه العين ، لقوله — تعالى — «تسمى» .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ٥٩ .

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٥ ص ٣٥٠

أى : أن هؤلاء الأبرار — بجانب كل ما تقدم من نعيم — يسقون فى الجنة من كأس مليئة بالخمر ، هـــذه الخمر التى يشربونها ممزوجة بالزنجبيل ، فتزداد لذة على لذتها .

ويسقون — أيضا — من عين فيها — أى : فى الجنة — تسمى سلسبيلا ، وذلك لسلاسة مائها ولذته وعذوبته ، وسهولة نزوله إلى الحلق . . .

قال صاحب الكشاف : « سلسبيلا » — سميت بذلك — لسلاسة انحدارها فى الحلق ، وسهولة مساغها . يعنى : أنها فى طعم الزنجبيل، وليس فيها لذعة ، ولكن فيها نقيض اللذع وهو السلاسة . يقال : شراب سلسل وسلسال وسلسبيل ، وقد زيدت الباء فى التركيب حتى صارت الكلمة خماسية . ودلت على غاية السلاسة . . »(١) .

ثم أخبر — سبحانه — عن نوع آخر من الخدم ، يطوفون على هؤلاء الأبرار لخدمتهم ، فقال : « ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . . . » .

أى : ويطوف على هؤلاء الأبرار « ولدان مخلدون » أى : دائمون على ما هم عليه من النضارة والشباب . . « إذا رأيتهم » — أيها المخاطب — « حسبتهم » وظننتهم « لؤلؤا منثورا » أى : حسبتهم من حسنهم ، وصفاء ألوانهم ، ونضارة وجوههم . . لؤلؤا ودرا مفرقا فى جنبات المجالس وأوسطها .

فقوله — تعالى — « مخلدون » احتراس المقصود منه دفع توهم أنهم سيصيرون فى يوم من الأيام كهولا . قالوا : وشبهوا باللؤلؤ المنثور ، لأن اللؤلؤ إذا نثر على البساط ، كان أكثر جمالا منه فيما لو كان منظوما .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٧٢

« وإذا رأيت ثم . . . » وثم هنا ظرف مكان مختص بالبعد ، وهو منصوب على الظرفية ، ومفعول الرؤية غير مذكور ، لأن القصد : وإذا صدرت منك - أيها المخاطب رؤية إلى هناك ، أى : إلى الجنة ونعيمها .. « رأيت نعيما » لا يقادر قدره « وملكا كبيرا » أى : واسعاً لا غاية له .

فقوله - سبحانه - « رأيت » الثانية ، جواب إذا . والمشار إليه « بثم » التى هى بمعنى هناك ، معلوم من المقام ، لأن المقصود به الجنة التى سبق الحديث عنها فى مثل قوله : « وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا » . أى : وإذا سرحت ببصرك إلى هناك رأيت نعيما وملكا كبيرا .

ثم فصل - سبحانه - جانباً من مظاهر هذا النعيم العظيم فقال : « عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة ، وسقاهم ربهم شراباً طهورا » .

وقوله « عاليهم » - بفتح الياء وضم الهاء - بمعنى فوقهم ، فهو ظرف خبر مقدم ، وثياب مبتدأ مؤخر ، كأنه قيل : فوقهم ثياب ويصح أن يكون حالا للأبرار . أى : تلك حال أهل النعيم والملك الكبير وهم الأبرار . .

وقرأ نافع وحمزة « عاليهم » - بسكون الياء وكسر الهاء - على أن الكلام جملة مستأنفة استئنافا بيانياً ، لقوله - تعالى - « رأيت نعيما وملكا كبيرا » ، ويكون لفظ « عاليهم » اسم فاعل مبتدأ .

وقوله : « ثياب سندس » فاعله ساد مسد الخبر ، ويصح أن يكون خبراً مقدماً ، وما بعده مبتدأ مؤخر .

وإضافة الثياب إلى السندس بيانية ، مثل : خاتم ذهب . والسندس : الديباج الرقيق . والاستبرق : الديباج الغليظ .

والمعنى : أن هؤلاء الأبرار ، أصحاب النعيم المقيم ، والملك الكبير ،

فوق أجسادهم ثياب من أفخر الثياب ، لأنهم يجمعون فى لباسهم بين الديباج الرقيق ، والديباج الغليظ ، على سبيل التنعيم والجمع بين محاسن الثياب . .

وكانت تلك الملابس من اللون الأخضر ، لأنها أبهج للنفس ، وشعار لباس الملوك .

وقوله « خضر » قرأها بعضهم بالرفع على أنها صفة لثياب ، وقرأها البعض الآخر بالجر ، على أنها صفة لسندس . وكذلك كلمة « واستبرق » قرئت بالرفع عطفاً على ثياب ، وقرئت بالجر عطفاً على سندس .

وقوله : « وحلوا أساور من فضة » بيان لما يتزينون به فى أيديهم . أى : أن هؤلاء الأبرار ، يلبسون فى أيديهم أساور من فضة ، كما هو الشأن بالنسبة للملوك فى الدنيا ، ومنه ماورد فى الحديث من ذكر سوارى كسرى

وقوله - تعالى - وسقاهم ربهم شراباً طهورا » أى : وفضلا عن كل تلك الملابس الفاخرة ، سقاهم ربهم - بفضله وإحسانه - شراباً بالغاً نهاية الطهر ، فهو ليس كخمر الدنيا ، فيه الكثير من المساوىء التى تؤدى إلى ذهاب العقول . . وإنما خمر الآخرة : شراب لذيذ طاهر من كل خبث وقذر وسوء . .

وجاء لفظ « طهورا » بصيغة المبالغة ، للإشعار بأن هذا الشراب قد بلغ النهاية فى الطهارة .

ثم ختم - سبحانه - هذا العطاء الواسع العظيم ، ببيان ما ستقوله الملائكة لهؤلاء الأبرار على سبيل التكريم والتشريف ، فقال : « إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » .

وهذه الآية الكريمة مقول لقول محذوف ، والقائل هو الله - تعالى - أو ملائكته بأمره - سبحانه - وإذنه . أى : سقاهم ربهم شراباً طهورا

فى الآخرة ، ويقال لهم عند تمتعهم بكل هـذا النعيم ؟

« إن هذا » النعيم الذى تعيشون فيه « كان لكم جزاء » على إيمانكم وعملكم الصالح فى الدنيا .

« وكان سعيكم مشكورا » أى : مرضياً ومقبولا عند خالقكم ، فازدادوا — أيها الأبرار — سرورا على سروركم ، وبهجة على بهجتكم .

وبعد هذا التفصيل لما أعده الله — تعالى — لعباده الأخيار من أصناف النعيم ، المتعلق بمآكلهم ، ومشربهم . . أخذت السورة الكريمة — فى أواخرها — فى تثبيت النبى - ﷺ - وأصحابه ، وفى دعوته - ﷺ - إلى المداومة على التحلى بفضيلة الصبر ، وإلى الإكثار من ذكره - تعالى - وأنذرت الكافرين والفاسقين إذا ما استمروا فى ضلالهم . فقال - تعالى - :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

وجاء قوله - تعالى - : « إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا » مؤكدا بجملة من المؤكدات ، منها : إن ، ونحن ، وتنزيلا . . . للرد على أولئك الجاحدين الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند الله - تعالى - وقالوا في شأنه : « لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين » .

أي : إنا نحن - وحدنا - أيها الرسول الكريم - ، الذين نزلنا عليك القرآن تنزيلا محكما ، وفصلناه تفصيلا متقناً ، بأن أنزلناه على قلبك مفرقا على حسب مشيئتنا وحكمتنا .

والفاء في قوله : « فاصبر لحكم ربك . . . » للإفصاح . وعدى فعل الصبر باللام ، لتضمنه معنى الخضوع والاستسلام لقضائه - سبحانه -

أي : ما دام الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فاصبر لحكم ربك ، واخضع لقضائه ومشيئته ، فهو - سبحانه - الكفيل بنصرك عليهم .

وقوله : « ولا تطع منهم آثمـاً أو كفورا » أي : ولا تطع - أيها الرسول الكريم - من هؤلاء المشركين ، من كان داعياً إلى الإثم والفجور ، أو من كان داعياً إلى الكفر والجحود .

ولم يقل - سبحانه - ولا تطع منهم آثماً وكفورا بالواو ، لأن الواو تجعل الكلام محتملا للنهي عن المجموع ، وأن طاعة أحدهما دون الآخر تكفي في الامتثال .

ولذا قال الزجاج : إن « أو » هنا أوكد من الواو ، لأنك إذا قلت : لا تطع زيدا وعمرا ، فأطاع أحدهما كان غير عاص ، فإن أبدلتها بأو ، فقد دلت على أن كل واحد منهما ، أهل لأن يعصى ، ويعلم منه النهي عن إطاعتهما معا » (١) .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ص ٤ جـ ٤٦٢

والآثم : هو الفاجر بأقواله وأفعاله . والكفور : هو الجاحد بقلبه ولسانه .

ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد قال عند تفسيره لهاتين الآيتين ما ملخصه : تكرير الضمير بعد إيقاعه اسماً لإن : تأكيد ، لمعنى اختصاص الله - تعالى - بالتنزيل ، ليتقرر فى نفس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه إذا كان هو المنزل للقرآن ، لم يكن تنزيله على أى وجه نزل ، إلا حكمة وصوابا ، كأنه قيل : ما نزل عليك القرآن تنزيلا مفرقا منجما ، إلا أنا لا غيرى ، وقد عرفتنى حكيما فاعلا لكل ما أفعله .

فإن قلت : كلهم كانوا كفرة ، فما معنى القسمة فى قوله : «آثما أو كفورا» ؟ قلت : معناه ولا تطع منهم راكبا لما هو إثم ، داعيا لك إليه ، أو فاعلا لما هو كفر ، داعيا لك إليه ، لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل هو إثم أو كفر ، أو غير إثم ولا كفر ، فنهى عن أن يساعدهم على الاثنين دون الثالث .

فإن قلت : معنى أو : ولا تطع أحدهما ، فهلا جىء بالواو وليكون نهيا عن طاعتهما جميعا ؟

قلت : لو قيل : ولا تطعهما ، جاز أن يطيع أحدهما ، وإذا قيل : لا تطع أحدهما ، علم أن الناهى عن طاعة أحدهما : عن طاعتهما جميعا أنهى . كما إذا نهى عن أن يقول لأبويه أف ، علم أنه منهى عن ضربهما بالطريق الأولى . . . (١)

والمقصود من هاتين الآيتين تثبيت فؤاد النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وتيئيس المشركين من استجابته - صلى الله عليه وسلم - لأى مطلب من مطالبهم الفاسدة .

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٧٤

ثم أرشده — سبحانه — إلى ما يعينه على الصبر والثبات، فقال: «واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا».

والبكرة: أول النهار. والأصيل: آخره. والمراد: المداومة على ذكر الله — تعالى — فى كل وقت. أى: داوم - أيها الرسول الكريم - على ذكر الله — تعالى — فى أول النهار وفى آخره، وعلى صلاة الفجر، والظهر والعصر..

«ومن الليل فاسجد له» — تعالى — وأكثر من ذكره، وواظب على صلاة المغرب والعشاء..

«وسبحه ليلا طويلا» أى: ونزهه — تعالى — وتهجد له وقتا طويلا من الليل..

فهاتان الآيتان ترشدان الرسول — ﷺ — إلى ما يعينه على الازدياد من فضيلة الصبر الجميل، والثبات على الحق.

ومن الآيات الكثيرة التى تشبه هاتين الآيتين فى معناهما، قوله -تعالى- وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل، إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين. واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين».

وقوله — تعالى — : «ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون. فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين...».

ثم بين — سبحانه — جانبا من الأسباب التى تجعله — ﷺ — لا يطيع أحدا منهم فقال: «إن هؤلاء يحبون العاجلة، ويذرون وراءهم يوما ثقيلا...».

أى: نحن قد نهيناك — يا محمد — عن طاعة أحد من هؤلاء المشركين،

لأنهم جميعا ديدنهم ودأبهم أنهم يحبون « العاجلة » أي : الدنيا ولذائذها وشهواتها . . العاجلة الزائلة .

« ويذرون وراءهم » أي : ويتركون وينبذون وراء ظهورهم « يوما ثقيلا » وهو يوم القيامة ، الشديد الأهوال ، الذى يجعل الولدان شيبا . .

ومع شدة هوله ، فهم لا يستعدون له ، ولا يحسبون له حسابا .

فالآية الكريمة توبيخ وتجهيل لهم ، حيث آثروا الفانى على الباقى ، والعاجل على الآجل . .

ووصف يوم القيامة بالثقل ، لشدة ما يقع فيه من أهوال وكروب ، فهو كالشىء الثقيل الذى لا يستطاع حمله .

ثم بين — سبحانه — مظاهر فضله عليهم ، ومع ذلك أشركوا معه فى العبادة غيره فقال : « نحن خلقناهم ، وشددنا أسرهم ، وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا » .

أى : نحن وحدنا الذين خلقناهم وأوجدناهم من العدم . .

ونحن وحدنا الذين « شددنا أسرهم » أى : قوينا وأحكمنا وأتقنا خلقهم ، بأن منحناهم السمع والأبصار والأفئدة والعقول . . وربطنا بين مفاصلهم وأجزاء أجسادهم ربطا عجيبا معجزا . .

يقال : أَسَر الله — تعالى — فلانا ، أى : خلقه — وبابه ضرب — . وفرس شديد الأَسْر : أى : شديد الخَلْق . والأسر : القوة ، مشتق من الإسار — بكسر الهمزة — وهو الحبل الذى تشد به الأحمال . يقال : أسَرَ فلان الحمل أسْراً ، إذا أحكم ربطه ، ومنه الأسير لأنه يُربَط بالإسار ، أى : القيد .

والمقصود بالأسر هنا : الإحكام والإتقان ، والامتنان عليهم بأن الله — تعالى — خلقهم فى أحسن وأتقن خلق . .

وقوله - سبحانه - « وإذا شئنا به لنا أمثالهم تبديلا » تأكيد لشمول قدرته - تعالى - أى : نحن وحدنا الذين خلقناهم ، ونحن وحدنا الذين ربطنا مفاصلهم وأعضاءهم ربطا متقنا بديعا .

ومع ذلك ، فإننا إذا شئنا إهلاكهم أهلكناهم ، وجئنا بأمثالهم وأشباههم فى شدة الخلق ، وبدلناهم تبديلا معجزا ، لا يقدر عليه أحد سوانا .

وقوله : « تبديلا » منصوب على أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله وهو بدلناهم .

ومن الآيات الشبيهة لهذه الآية فى معناها قوله - تعالى - : « إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين . وكان الله على ذلك قديرا »(١).

وقوله - سبحانه - : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز »(٢) .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالحض على طاعته ، وبالتحذير من معصيته فقال : « إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » .

أى : إن هذه الآيات التى أنزلناها عليك - يا محمد - تذكرة وموعظة للناس ، فمن شاء أن يتخذ إلى الله - تعالى - وسيلة وطريقة يتقرب بها إليه - تعالى - اتخذها ، لأنها خير هداية إلى رضاه - سبحانه - .

والتعبير بقوله : « فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » تحريض شديد على المسارعة إلى الطاعة ، لأن الله - تعالى - قد مكن الناس من ذلك ، حيث وهبهم الاختيار والعقول المفكرة ، وأرسل إليهم الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور .

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٣

(٢) سورة ابراهيم الآية ١٩ ، ٢٠

ثم بين - سبحانه - أن مشيئته فوق كل مشيئة فقال : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » .

أى : وما تشاءون شيئا من الأشياء ، إلا بعد خضوع هذا الشىء لمشيئة الله - تعالى - وإرادته ، إذ هو الخالق - سبحانه - لكل شىء ، وهو صاحب الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

« إن الله كان عليما حكيما » أى : إنه - تعالى - كان ومازال صاحب العلم المطلق الذى لا يحده شىء ، وصاحب الحكمة البليغة التى لا نهاية لها .

« يدخل » - سبحانه - « من يشاء » إدخاله « فى رحمته » لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه .

« والظالمين أعد لهم » - سبحانه - « عذابا أليما » بسبب إصرارهم على ظلمهم ، وإيثارهم الباطل على الحق ، والغى على الرشد .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا ممن هم أهل لرحمته ورضوانه ، وأن يبعدنا عمن هم أهل لعذابه ونقمته .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر : ٢٥ من ذى الحجة سنة ١٤٠٦ هـ
٣٠ من أغسطس سنة ١٩٨٦ م

تفسیر سورة

«المرسلات»

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة « المرسلات »

١ — سورة « المرسلات » هى السورة السابعة والسبعون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول فهى السورة الثالثة والثلاثون ، وقد كان نزولها بعد سورة « الهمزة » ، وقبل سورة « ق » .

وهى من السور المكية الخالصة ، وقيل إن آية : « وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون » مدنية ، وهذا القيل لاوزن له ، لأنه لا دليل عليه . وعدد آياتها : خمسون آية .

٢ — وقد ذكروا فى فضلها أحاديث منها : ما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال : بينما نحن مع النبى — ﷺ — فى غار بمنى ، إذ نزلت عليه : « والمرسلات » ، فإنه ليتلوها ، وإنى لأتلقاها من فيه ، وإن فاه لرطب بها . .

وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : إن أم الفضل - امرأة العباس - سمعته يقرأ « والمرسلات عرفا » ، فقالت : يابنى ، ذكرتنى بقراءتك هذه السورة ، إنها لآخر ما سمعت رسول الله — ﷺ — يقرأ بها فى المغرب(١) .

٣ — وسورة المرسلات زاخرة بالحديث عن أهوال يوم القيامة ، وعن أحوال المكذبين فى هذا اليوم ، وعن مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وعن حسن عاقبة المتقين . .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٣٢٠ .

٤ ـ وقد افتتحت هذه السورة بقوله ـ تعالى ـ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾
فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ
فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ
يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

وللمفسرين فى معنى هذه الصفات الخمس : « المرسلات والعاصفات والناشرات . . » اتجاهات ، فمنهم من صدر تفسيره ببيان أن المراد بها الملائكة ، فقد قال صاحب الكشاف : أقسم الله بطوائف من الملائكة ، أرسلهن بأوامره فعصفن فى مضيهن كما تعصف الرياح ، تخففا فى امتثال أمره

وبطوائف منهن نشرن أجنحتهن فى الجو عند انحطاطهن بالوحى ، أو نشرن الشرائع فى الأرض . . ففرقن بين الحق والباطل ، فألقين ذكرا إلى الأنبياء « عذرا » للمحقين ، « أو نذرا » للمبطلين . .

فإن قلت : ما معنى عرفا ؟ قلت : متتابعة كشعر العُرْف ـ أى : عرف الفرس ـ يقال : جاءوا عرفا واحدا ، وهم عليه كعرف الضبع : إذا تألبوا عليه . . »(١) .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٧٧ .

ومنهم من يرى أن المراد بالمرسلات وما بعدها : الرياح ، فقد قال الجمل فى حاشيته : أقسم الله - تعالى - بصفات خمس موصوفها محذوف ، فجعلها بعضهم الرياح فى الكل ، وجعلها بعضهم الملائكة فى الكل . . . وغاير بعضهم فجعل الصفات الثلاث الأول ، لموصوف واحد هو الرياح ، وجعل الرابعة لموصوف ثان وهو الآيات ، وجعل الخامسة لموصوف ثالث وهو الملائكة . . » (١)

وسنسير نحن على هذا الرأى الثالث ، لأنه فى تصورنا أقرب الآراء إلى الصواب ، إذ أن هذه الصفات من المناسب أن يكون بعضها للرياح ، وبعضها للملائكة .

فيكون المعنى : وحق الرياح المرسلات لعذاب المكذبين ، فتعصفهم عصفاً ، وتهلكهم إهلاكا شديدا ، فقوله : « عصفاً » وصف مؤكد للإهلاك الشديد ، يقال : عصفت الريح ، إذا اشتدت ، وعصفت الحرب بالقوم ، إذا ذهبت بهم ، وناقة عصوف ، إذا مضت براكبها مسرعة ، حتى لكأنه الريح .

وقوله : « والناشرات نشرا » أى : وحق الرياح التى تنتشر انتشاراً عظيما فى الآفاق ، فتأتى بالسحب ، التى تتحول بقدرة الله - تعالى - إلى أمطار غزيرة نافعة .

قال ابن كثير - بعد أن ذكر آراء العلماء فى معنى هذه الألفاظ - : والأظهر أن المرسلات هى الرياح ، كما قال - تعالى - : « وأرسلنا الرياح لواقح . . » ، وقال - سبحانه - : وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته » ، وهكذا العاصفات هى : الرياح ، يقال : عصفت الريح إذا هبت بتصويت ، وكذا « الناشرات » هى : الرياح التى تنشر السحاب فى آفاق

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين حـ ٤ ص ٤٦٣

السماء كما يشاء الرب - عز وجل - .

وقوله - سبحانه - « فالفارقات فرقا » يصح أن يكون وصفاً للملائكة الذين ينزلون بالشرائع المفرقة بين الحق والباطل ، وبين أهل الحق وأهل الضلال .

ويصح أن يكون وصفاً للآيات التي أنزلها الله - تعالى - للتمييز بين الخير والشر ، والرشد والغي .

وقوله : « فالملقيات ذكرا » قال القرطبي : هم الملائكة بإجماع . يلقون كتب الله - تعالى - إلى الأنبياء - عليه السلام - . . » (١)

فالمراد بالذكر في قوله « فالملقيات ذكرا » : وحي الله - تعالى - الذي يبلغه الملائكة إلى الرسل .

وقوله : « عذرا أو نذرا » منصوبان على أنهما بدل اشتمال من قوله « ذكراً » ، أو مفعول لأجله .

أي : أن الملائكة يلقون وحي الله - تعالى - إلى أنبيائه ، لإزالة أعذار المعتذرين عن الإيمان ، حتى لا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، ولإنذار الكافرين والفاسقين ، حتى يقلعوا عن كفرهم وفسوقهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما العذر والنذر ، وبماذا انتصبا ؟ قلت : هما مصدران من أعذر إذا محا الإساءة ، ومن أنذر إذا خوف على فعل كالكفر والشكر . ويجوز أن يكون جمع عذير ، بمعنى المعذرة ، وجمع

---

(١) راجع تفسير القرطبي جـ ١٩ ص ١٥٦

عذيرا بمعنى الإنذار . . . وأما انتصابهما فعلى البدل من ذكرا . . . . أو على المفعول له . . . »(١)

وجملة « إنما توعدون لصادق » جواب القسم ، وجيء بها مؤكدة ، لتقوية تحقيق وقوع الجواب . وما وعدوا به هو البعث والحساب .

أى : وحق الرياح المرسلة لعذاب المشركين . . وحق الملائكة الذين نرسلهم بوحينا للتفريق بين الحق والباطل ، ولتبليغ رسلنا ما كلفناهم به . . إنكم - أيها الكافرون - لمبعوثون ومحاسبون على أعمالكم يوم القيامة الذى لاشك فى وقوعه وحصوله وثبوته .

ثم بين - سبحانه - علامات هذا اليوم فقال : « فإذا النجوم طمست » أى : محقت وذهب ضوؤها ، وزال نورها . يقال : طمست الشىء - من باب ضرب - إذا محوته واستأصلت أثره ، « وإذا السماء فرجت » أى : شقت أو فتحت ، وتدلت أرجاؤها ، ووهت أطرافها . « وإذا الجبال نسفت » أى : اقتلعت وأزيلت من أماكنها . يقال : نسف فلان البناء ينسفه إذا قلعه من أصله .

« وإذا الرسل أقتت » أى : بلغت وقتها الذى كانت تنتظره ، وهو يوم القيامة ، للقضاء بينهم وبين أقوامهم . قوله : « أقتت » من التوقيت ، وهو جعل الشىء منتهياً إلى وقته المحدد له .

قال الآلوسى : قوله «وإذا الرسل أقتت» أى : بلغت ميقاتها .. وجوز أن يكون المعنى : عين لها الوقت الذى تحضر فيه للشهادة على الأمم ، وذلك بمجىء يوم القيامة . . . »(٢)

وجواب « إذا » وما عطف عليها فى قوله « فإذا النجوم طمست » محذوف ، والتقدير : وقع ما وعدناكم به وهو يوم القيامة .

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٦٧٨
(٢) تفسير الآلوسى حـ ٢٩ ص ١٧٢

وقوله : «لأى يوم أجلت . ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل . ويل يومئذ للمكذبين » تعليل لبلوغ الرسل إلى الوقت الذى كانوا ينتظرونه لأخذ حقوقهم من أقوامهم الظالمين ، والاستفهام للتهويل والتعظيم من شأن هذا اليوم .

أى : لأى يوم أخرت الأمور التى كانت متعلقة بالرسل ؟ من تعذيب الكافرين ، وإثابة المتقين . . . إنها أخرت وأجلت ، ليوم الفصل ، وهو يوم القيامة ، الذى يفصل الله — تعالى — فيه بقضائه العادل بين العباد .

« وما أدراك » — أيها المخاطب — « ما يوم الفصل » ؟ إنه يوم هائل شديد ، لا تحيط العبارة بكنهه ، ولا يعلم إلا الله — تعالى — وحده مقدار أهواله .

ويقال فى هذا اليوم لكل فاسق عن أمر ربه ، ومشرك معه فى العبادة غيره ، «ويل يومئذ للمكذبين» أى : هلاك وحسرة فى هذا اليوم للمكذبين بالحق الذى جاء به الرسل ، وبلغوه إلى أقوامهم .

وقد تكررت هذه الآية عشر مرات فى تلك السورة الكريمة ، على سبيل الوعيد والتهديد لهؤلاء المكذبين لرسلهم ، والجاحدين لنعم خالقهم والويل أشد السوء والشر . وهو فى الأصل مصدر بمعنى الهلاك ، وكان حقه النصب بفعل من لفظه أو معناه ، إلا أنه رفع على الابتداء ، للدلالة على ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه .

وقوله « يومئذ » ظرف للويل أو صفة له ، ولذا صح الابتداء به . . . .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ألوانا من الأدلة على وحدانية

الله – تعالى – وقدرته ، كإهلاك المكذبين السابقين ، وخلق الأولين والآخرين ، والإنعام على الناس بالجبال والأنهار ... قال – تعالى – :

أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ
ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ
مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً
وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً
فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ
تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ
وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ
صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾
وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ
ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

والاستفهام فى قوله « ألم نهلك الأولين . . . » وفى الآيات المماثلة له بعد ذلك ، للتقرير ، والمقصود به استخراج الاعتراف والإقرار من مشركى قريش على صحة البعث ، لأن من قدر على الإهلاك ، قادر على الإعادة .

أى : لقد أهلكنا الأقوام الأولين الذين كذبوا رسلهم ، كقوم نوح وعاد وثمود .

« ثم نتبعهم الآخرين » أى : أهلكنا الأولين ، ثم نتبعهم بإهلاك المتأخرين عنهم ، والذين يشبهون سابقيهم فى الكفر والجحود .

و « ثم » هنا للتراخى الرتبى ، لأن إهلاك الآخرين الذين لم يعتبروا بمن سبقهم سيكون أشد من إهلاك غيرهم ، وفى ذلك تهديد شديد ووعيد واضح لمشركى مكة .

وقوله : (كذلك نفعل بالمجرمين) أى : مثل ذلك الفعل الشنيع ، والعقاب الأليم ، نفعل بالمجرمين ، الذين أصروا على كفرهم وعنادهم حتى أدركهم الموت .

فالكاف بمعنى مثل ، والإشارة فى قوله : (كذلك) تعود إلى الفعل المأخوذ من قوله (نفعل) أى : مثل ذلك الفعل نفعل بالمجرمين .

ثم كرر - سبحانه - التهديد والوعيد لهم ، لعلهم يرتدعون أو يتعظون فقال : (ويل يومئذ للمكذبين) .

ثم قال — سبحانه — ممتنا على خلقه بإيجادهم فى هذه الحياة ، ومحتجا على إمكان الإعادة بخلقهم ولم يكونوا شيئا مذكورا ، فقال : (ألم نخلقكم من ماء مهين . .)

أى : لقد خلقناكم — أيها الناس — من نطفة حقيرة ضعيفة ، من مَهُن الشىء — بفتح الميم وضم الهاء — إذا ضعف ، وميمه أصلية ، وليس هو من مادة هان . و « من » ابتدائية .

وقوله : « فجعلناه فى قرار مكين » تفصيل لكيفية الخلق على سبيل الإدماج . والقرار : اسم للمكان الذى يستقر فيه الماء ، والمراد به رحم المرأة . والمكين صفة له .

أى : خلقناكم من ماء ضعيف ، ومن مظاهر قدرتنا وحكمتنا ولطفنا بكم أننا جعلنا هذا الماء الذى خلقتم منه ، فى مكان حصين ، قد بلغ النهاية فى تمكنه وثباته .

فقوله « مكين » بمعنى متمكن ، من مَكُنَ الشىء مكانة ، إذا ثبت ورسخ . . .

وقوله : « إلى قدر معلوم » بيان لبديع حكمته . والقدر بمعنى المقدار المحدد المنضبط ، الذى لا يتخلف .

أى : جعلنا هذا الماء فى قرار مكين ، إلى وقت معين محدد فى علم الله — تعالى — يأذن عنده بخروج هذا المخلوق من رحم أمه ، إلى الحياة ، وهذا الوقت هو مدة الحمل .

وقوله — تعالى — : « فقدرنا فنعم القادرون » ثناء منه — تعالى — على ذاته بما هو أهله . أى : فقدرنا ذلك الخلق تقديرا حكيما منضبطا ، وتمكنا من إيجاده فى أطوار متعددة ، فنعم المقدرون نحن ، ونعم الموجدون نحن لما نوجده من مخلوقات .

وما دام الأمر كذلك فويل وهلاك يوم القيامة ، للمكذبين بوحدانيتنا وقدرتنا .

ثم انتقل — سبحانه — إلى الاستدلال على إمكانية البعث بطريق ثالث فقال : « ألم نجعل الأرض كفاتا . أحياء وأمواتا . وجعلنا فيها رواسى شامخات . . . » .

والكفات : اسم للمكان الذى يكفت فيه الشيء ، أى : يجمع ويضم ويوضع فيه .

يقال : كفت فلان الشيء يكفته كفتا ، - من باب ضرب - إذا جمعه ووضعه بداخل شيء معين . ومنه سمي الوعاء كفاتا ، لأن الشيء يوضع بداخله . وهو منصوب على أنه مفعول ثان لقوله « نجعل » ، لأن الجعل هنا بمعنى التصيير .

وقوله : « أحياء وأمواتا » منصوبان على أنهما مفعولان به ، لقوله « كفاتا » . أو مفعولان لفعل محذوف . .

أي : لقد جعلنا الأرض وعاء ومكانا تجتمع فيه الخلائق : الأحياء منهم يعيشون فوقها ، والأموات منهم يدفنون فى باطنها ، وجعلنا فيها - أيضاً - جبالا « رواسى » أى : ثوابت « شامخات » أى : مرتفعات ارتفاعا كبيرا ، جمع شامخ وهو الشديد الارتفاع .

قال صاحب الكشاف : الكفات : من كفت الشيء إذا ضمه وجمعه . . وبه انتصب « أحياء وأمواتا » كأنه قيل : كافتة أحياء وأمواتا . أو انتصبا بفعل مضمر يدل عليه ، وهو تكفت .

والمعنى : تكفت أحياء على ظهرها ، وأمواتا فى بطنها . .

فإن قلت : لم قيل أحياء وأمواتا على التنكير ، وهى كفات الأحياء والأموات جميعا ؟ قلت : هو من تنكير التفخيم ، كأنه قيل : تكفت أحياء لا يعدون ، وأمواتا لا يحصرون . . »(١) .

وقوله - سبحانه - « وأسقيناكم ماء فراتا » بيان لنعمة أخرى من أجل نعمه على خلقه . أى : وأسقيناكم - بفضلنا ورحمتنا - ماء « فراتا » أى : عذبا سائغا للشاربين . .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٨٠ .

وقوله — تعالى — : « ويل يومئذ للمكذبين » تكرير للتوبيخ والتقريع على جحودهم لنعم الله ، التى يرونها بأعينهم ، ويحسونها بحواسهم ، ويستعملونها لمنفعتهم .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان المصير الأليم الذى ينتظر هؤلاء المكذبين ، فقال — تعالى — : « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب . لا ظليل ولا يغنى من اللهب . إنها ترمى بشرر كالقصر . كأنه جمالات صفر . » .

وقوله — سبحانه — : « انطلقوا . . » مقول لقول محذوف . أى : يقال للكافرين يوم القيامة — على سبيل الإهانة والإذلال — : انطلقوا إلى ما كنتم تكذبون به فى الدنيا من العذاب .

وقوله : « انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب . . » بدل مما قبله ، وأعيد فعل « انطلقوا . . . » على سبيل التوكيد ، لقصد الزيادة فى تقريعهم وتوبيخهم . .

والمراد بالظل : دخان جهنم ، وسمى بذلك لشدة كثافته . أى : انطلقوا — أيها المشركون — إلى ظل من دخان جهنم الذى يتصاعد من وقودها ، ثم يتفرق بعد ذلك إلى ثلاث شعب ، شأن الدخان العظيم عندما يرتفع . .

وسمى هذا الدخان العظيم الخانق بالظل ، على سبيل التهكم بهم ، إذهم فى هذه الحالة يكونون فى حاجة شديدة إلى ظل يأوون إلى برده .

ثم وصف — سبحانه — هذا الظل بصفة ثانية فقال : « لا ظليل » أى : ليس هو بظل على سبيل الحقيقة ، وإنما هو دخان خانق لا برد فيه . .

ثم وصفه بصفة ثالثه فقال : « ولا يغنى من اللهب » أى : أن هذا الظل الذى تنطلقون إليه لا يغنى شيئا من الإغناء ، من حر لهب جهنم التى هى مأواكم ونهايتكم .

وبهذه الصفات يكون لفظ الظل، قد فقد خصائصه المعروفة من البرودة والشعور عنده بالراحة.. وصار المقصود به ظلا آخر، لا برد فيه، ولا يدفع عنهم شيئا من حر اللهب.

وهذه الصفات إنما جيء بها لدفع ما يوهمه لفظ «ظل».

وعدى فعل (يغنى) بحرف من، لتضمنه معنى يبعد..

والضمير فى قوله - سبحانه -: (إنها ترمى بشرر كالقصر..) لجهنم، لأن السياق كله فى شأنها وفى شأن المصطلين بلهيبها.

والشرر: واحده شررة، وهى القطعة التى تتطاير من النار لشدة اشتعالها...

والقصر: البناء العالى المرتفع. وقيل: هو الغليظ من الشجر. أو هو قطع من الخشب، يجمعها الجامعون للاستدفاء بها من البرد. وقوله: «جمالة» جمع جمل - كحجارة وحجر -.

قال الآلوسى: «جمالة» بكسر الجيم - كما قرأ به حمزة والكسائى وحفص.. وهو جمع جمل.

والتاء لتأنيث الجمع. يقال: جمل وجمال وجمالة.. والتنوين للتكثير..

وقرأ الجمهور «جمالات» - بكسر الجيم مع الألف والتاء - جمع جمال.. فيكون جمع الجمع..»(1).

والمعنى: إنها - أى: جهنم - ترمى المكذبين بالحق، الذين هم وقودها، ترميهم بشرر متطاير منها لشدة اشتعالها، كل واحدة من هذا الشرر كأنها البناء المرتفع فى عظمها وارتفاعها.

وقوله - تعالى -: «كأنه جمالة صفر» وصف آخر للشرر

(1) تفسير الآلوسى ج ٢٩ ص ١٢٦.

أى : كان هذا الشرر فى هيئته ولونه وسرعة حركته . . . جمال لونها أصفر . . .

واختير اللون الأصفر للجمال ، لأن شرر النار عند ما يشتد اشتعالها يكون مائلا إلى الصفرة .

وقيل المراد بالصفر هنا : السود ، لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة.

فأنت ترى أن الله – تعالى – قد شبه الشرر الذى ينفصل عن النار فى عظمه وضخامته بالقصر ، وهو البناء العالى المرتفع ، وشبهه – أيضاً – حين يأخذ فى الارتفاع والتفرق . . . بالجمال الصفر ، فى هيئتها ولونها وسرعة حركتها ، وتزاحمها .

والمقصود بهذا التشبيه ، زيادة الترويع والتهويل ، فإن هؤلاء الكافرين لما كذبوا بالحساب والجزاء ، وصف الله – تعالى – لهم نار الآخرة بتلك الصفات المرعبة ، لعلهم يقلعون عن شركهم ، لا سيما وأنهم يرون النار فى دنياهم ، ويرون شررها حين يتطاير . . . وإن كان الفرق شاسعاً بين نار الدنيا ونار الآخرة .

وزيادة فى التخويف والإنذار ختمت هذه الآيات – أيضاً – بقوله – تعالى – : « ويل يومئذ للمكذبين » .

ثم صور – سبحانه – حالهم عندما يردون على النار ، ويوشكون على القذف بهم فيها ، فقال – تعالى – هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون . ويل يومئذ للمكذبين . هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون . ويل يومئذ للمكذبين » .

أى : ويقال لهؤلاء المجرمين – أيضاً – عند الإلقاء بهم فى النار : هذا يوم لا ينطقون فيه بشىء ينفعهم ، أو لا ينطقون فيه إطلاقا لشدة دهشتهم ، وعظم حيرتهم .

ويكون فى الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة ، فإنهم بعد أن خوطبوا خطاب إهانة وإذلال بقوله - تعالى - : « انطلقوا . . . . » ، أعرض المخاطبون لهم ، على سبيل الإهمال لهؤلاء الكافرين ، وقالوا لهم : هذا يوم القيامة الذى لا يصح لكم النطق فيه .

وهذا لا يتعارض مع الآيات التى تفيد نطقهم ، كما فى قوله - تعالى - : «وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ..» لأن فى يوم القيامة مواطن متعددة، فهم قد ينطقون فى موطن ، ولا ينطقون فى موطن آخر .

وقوله - تعالى . « ولا يؤذن لهم فيعتذرون » معطوف على ما قبله أى : فى يوم القيامة لا ينطق هؤلاء المجرمون نطقاً يفيدهم ، ولا يؤذن لهم فى الاعتذار عما ارتكبوه من سوء ، حتى يقبل اعتذارهم ، وإنما يرفض اعتذارهم رفضاً تاماً ، لأنه قد جاء فى غير وقته وأوانه .

يقال : اعتذرت إلى فلان ، إذا أتيت له بعذر يترتب عليه محو الإساءة.

ثم يقال لهم - أيضاً - على سبيل التحدى والتقريع « هـذا » هو يوم القيامة «يوم الفصل» بين المحقين والمبطلين «جمعنا كم» فيه - أيها الكافرون - مع من تقدمكم من الكفار « الأولين » .

« فإن كان لكم » - أيها الكافرون - (كيد) أى : مخرج وحيلة ومنفذ من العذاب الذى حل بكم (فكيدون) أى : فافعلوه وقوموا به فأنتم الآن فى أشد حالات الاحتياج إلى من يخفف العذاب عنكم .

والمعنى : (فإن كان لكم كيد) أى . قدرة على كيد دينى ورسلى والمؤمنين ، كما كنتم تفعلون فى الدنيا (فكيدون) أى : فاظهروه اليوم . والأمر للتعجيز ، لأنه من المعروف أنهم فى يوم القيامة لا قـــدرة لهم ولا حيلة . .

وهكذا نجد أن هذه الآيات الكريمة ، قد ساقت ألواناً من الأدلة على

وحدانية الله ـ تعالى ـ ، وعلى أن يوم البعث حق ، وعلى العاقبة السيئة التى سيكون عليها الكافرون يوم القيامة .

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بالموازنة بين حال المتقين ، وحال المجرمين ، فقال :

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾
وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟
وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

أى : « إن المتقين » الذين صانوا فى دنياهم أنفسهم عن الكفر والفسوق والعصيان ، واعتصموا بالرشد والهدى والإيمان . . . . .

سيكونون يوم القيامة « فى ظلال » الأشجار والقصور ، جمع ظل : وهو كل موضع لا تصل إليه الشمس . وفى « عيون » من ماء وعسل ولبن وخمر .

وهم ـ أيضاً ـ فى « فواكه » وهى ما يتفكه به ويتنعم . جمع فاكهة « مما يشتهون » أى : يأكلون من تلك الفواكه ما يشتهونه منها ، بدون تعب فى طلبها ، فهى تحت أيديهم .

ويقال لهم ــ على سبيل التكريم والتشريف ــ «كلوا» أكلا مريئاً «واشربوا» شرباً «هنيئاً» جزاء «بما كنتم تعملون» فى الدنيا من أعمال صالحة . . .

«إنا كذلك نجزى المحسنين» أى : إنا من شأننا أننا نعطى مثل هذا الجزاء الطيب للمؤمنين الذين أحسنوا أقوالهم وأفعالهم، وصانوا أنفسهم عن كل مالا يرضينا هذا هو جزاء المتقين المحسنين، أما الكافرون المكذبون، فيقال لهم مرة ومرات على سبيل التوبيخ والزجر : «كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون».

أى : «كلوا» فى دنياكم كما تأكل الأنعام «وتمتعوا» بملذاتكم متاعا (قليلا) سينتهى عما قريب، وستلقون فى آخرتكم أشد أنواع العذاب، بسبب أنكم كنتم فى الدنيا دأبكم الإجرام، والإصرار على الكفر والفسوق والعصيان .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف صح أن يقال لهم ذلك فى الآخرة؟ قلت يقال لهم ذلك فى الآخرة إيذاناً بأنهم كانوا فى الدنيا أحقاء بأن يقال لهم، وكانوا من أهله، تذكيرا بحالهم السمجة، وبما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع القليل، على النعيم والملك الخالد.

وعلل ذلك بكونهم مجرمين، دلالته على أن كل مجرم ماله إلا الأكل والتمتع أياماً قليلة، ثم البقاء فى الهلاك أبدا . ويجوز أن يكون (كلوا وتمتعوا) كلاماً مستأنفاً خطاباً للمكذبين فى الدنيا . .)(١)

وقوله ــ سبحانه ــ : (ويل يومئذ للمكذبين) أى : هلاك دائم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٨٢

وعذاب مقيم يوم القيامة للمكذبين ، الذين آثروا المتاع القليل الفانى فى الدنيا ، على النعيم الدائم فى الآخرة .

(وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون) أى : وإذا قيل لهؤلاء المجرمين اركعوا فى الدنيا مع الراكعين ، وأدوا فريضة الصلاة مع الرسول — صلى الله عليه و لم — ومع المؤمنين .

إذا قيل لهم ذلك — على سبيل النصح والإرشاد — صموا آذانهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا ، وأبوا أن يصلوا مع المصلين .

وعبر عن الصلاة بالركوع ، باعتبار أن الركوع من أهم أركانها ، فهو من باب التعبير بالجزء عن الكل .

(ويل يومئذ للمكذبين) أى : هلاك شديد يوم القيامة لهؤلاء المكذبين.

ثم ختم — سبحانه — السورة الكريمة بهذا التعجيب من أحوالهم التى بلغت النهاية فى القبح والجحود والعناد فقال : (فبأى حديث بعده يؤمنون) .

والفاء للإفصاح ، أى : إذا كانوا لم يؤمنوا بهذا القرآن المشتمل على أسمى أنواع الهدايات وأحكمها وأوضحها . . . فبأى بعد حديث القرآن يؤمنون ؟ لأنه من المستبعد إيمانهم بعد أن أعرضوا عن كل الحجج التى تهدى إلى الإيمان فالاستفهام فى قوله : (فبأى حديث . . .) مستعمل فى الإنكار التعجيبى من حالهم ، والضمير فى (بعده) يعود إلى القرآن ، وهو وإن لم

يسبق له ذكر ، فإنه ملحوظ فى أذهانهم ، إذ فى كل وقت يذكرهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — به .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : (فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون)

وبعد : فهذا تفسير لسورة (المرسلات) نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصاً لوجهه ونافعاً لعباده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

القاهرة ـ مدينة نصر

صباح السبت ٢ من المحرم سنة ١٤٠٧ هـ — ٦ / ٩ / ١٩٨٦ م

٧ ش الباب الأخضر المشهد الحسيني
القاهرة ☎ ٥٩٣٦٠٥٠٨

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة

النبأ

لفضيلة

الدكتور محمد سيد طنطاوي

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

(الجزء الثلاثون)

١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة « النبأ »

١ — سورة « النبأ » هي أول سورة في الجزء الأخير من القرآن الكريم ، وتسمى — أيضاً — بسورة « عم يتساءلون » وبسورة « عم » ، وبسورة « المعصرات » ، وبسورة « التساؤل » ، فهذه خمسة أسماء لهذه السورة ، سميت بها لورود هذه الألفاظ فيها .

٢ — وهي من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها أربعون آية في المصحف الكوفي والمكي ، وإحدى وأربعون في غيرهما . وكان نزولها بعد سورة « المعارج » ، وقبل سورة « النازعات » .

٣ — وهذه السورة من أهم مقاصدها : توبيخ المشركين على خوضهم في القرآن الكريم بدون علم ، وتهديدهم بسوء المصير إذا ما استمروا في طغيانهم ، وإقامة الأدلة المتنوعة على وحدانية الله — تعالى — وعلى مظاهر قدرته ، وبيان ما أعده — سبحانه — للكافرين من عقاب ، وما أعده للمتقين من ثواب ، وإنذار الناس بوجوب تقديم العمل الصالح من قبل أن يأتي يوم القيامة ، الذي لا ينفع فيه الندم على ما فات . .

٤ — ويبلغ عدد سور هذا الجزء الأخير من القرآن الكريم ، سبعا وثلاثين سورة ، كلها مكية سوى سورتي — البينة والنصر — ، وكلها تمتاز بقصدها على تفاوت في هذا القصد .

ومعظمها مشتمل على إقامة الأدلة على وحدانية الله — تعالى — ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله .

وعلى صدق الرسول — ﷺ — فيما يبلغه عن ربه ، وعلى المقارنة بين حسن عاقبة الأخيار .

وسوء عاقبة الأشرار ، وعلى التذكير المتكرر بأهوال يوم القيامة ، وبأنه آت لا ريب فيه .

وعلى التحذير من الغفلة عن الاستعداد له ، وعلى الإفاضة فى بيان نعم الله - تعالى - على الناس ، وعلى بيان ما حل بالمكذبين السابقين من دمار ..

كل ذلك بأسلوب بديع معجز ، تخشع له القلوب ، وتتأثر به النفوس ، وتقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . .

وقد افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ
مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ
الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨)
وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا
النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا
وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا
وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧)
يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ
أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠)

ولفظ «عم» مركب من كلمتين ، هما حرف الجر «عن» و «ما» التى هى اسم استفهام ، فأصل هذا اللفظ : عن ما ، فأدغمت النون فى الميم لأن الميم تشاركها فى الغنة ، وحذفت الألف ليتميز الخبر عن الاستفهام . والجار والمجرور متعلق بفعل يتساءلون » .

والتساؤل : تفاعل من السؤال ، بمعنى أن يسأل بعض الناس بعضا عن أمر معين ، على سبيل معرفة وجه الحق فيه ، أو على سبيل التهكم .

والنبأ : الخبر مطلقاً ، ويرى بعضهم أنه الخبر ذو الفائدة العظيمة .

والمعنى : عن أى شىء يتساءل هؤلاء المشركون ؟ وعن أى أمر يسأل بعضهم بعضا ؟ إنهم يتساءلون عن النبأ العظيم ، والخبر الهام الذى جاءهم به الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، والذى نطق به القرآن الكريم ، من أن البعث حق ، ومن أن هذا القرآن من عند الله — تعالى — ، ومن أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — صادق فيما يأمرهم به أو ينهاهم عنه .

وافتتح — سبحانه — الكلام بأسلوب الاستفهام ، لتشويق السامع إلى الاستفهام عنه ، ولتهويل أمره ، وتعظيم شأنه .

والضمير فى قوله «يتساءلون» يعود إلى المشركين ، الذين كانوا يكثرون من التساؤل فيما بينهم عن الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، وعما جاء به من عند ربه ، فقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن قال : لما بعث النبى — صلى الله عليه وسلم — جعلوا يتساءلون فيما بينهم — عن أمره وعما جاءهم به — ، فنزل قوله — تعالى — : «عم يتساءلون . عن النبأ العظيم» (١) .

وصح عود الضمير إليهم مع أنهم لم يسبق لهم ذكر ، لأنهم معروفون

---

(١) أسباب النزول ص ٢٣٢ للسيوطى .

من السياق ، إذ هم — دون غيرهم — الذين كانوا يتساءلون فيما بينهم — على سبيل التهكم — عما جاء به النبي — صلى الله عليه وسلم — .

وقوله — تعالى — : « عن النبأ العظيم » تهويل لشأن هذا الأمر الذى يتساءلون فيما بينهم عنه . ووصف — سبحانه — النبأ بالعظم ، زيادة فى هذا التهويل والتفخيم من شأنه ، لكى تتوجه إليه أذهانهم ، وتلتفت إليه أفهامهم .

فكأنه — سبحانه — يقول : عن أى شىء يسأل هؤلاء الجاحدون بعضهم بعضا ؟ أتريدون أن تعرفوا ذلك على سبيل الحقيقة ؟ إنهم يتساءلون عن النبأ العظيم ، وعن الخبر الجسيم ، « الذى هم فيه مختلفون » ما بين منكر له إنكاراً تاماً ، كما حكى — سبحانه — عنهم فى قوله : « إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » (١) ، وما بين متردد فى شأنه ، كما حكى — سبحانه — عن بعضهم فى قوله : « وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة ، إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين » (٢) .

قال صاحب الكشاف : قوله : «عم» أصله عما ، على أنه حرف جر ، دخل على ما الاستفهامية .

ومعنى هـــذا الاستفهام : تفخيم الشأن ، كأنه قال : عن أى شىء يتساءلون . ونحوه ما فى قولك : زيد ما زيد ؟ جعلته لانقطاع قرينه ، وعدم نظيره ، كأنه شىء خفى عليك جنسه ، فأنت تسأل عن جنسه وتفحص عن جوهره ، كما تقول : ما الغول وما العنقاء . . . ؟

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٣٧
(٢) سورة الجاثية الآية ٣٢

و « يتساءلون » يسأل بعضهم بعضا . . . والضمير لأهل مكة ، فقد كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث .

وقوله « عن النبأ العظيم » بيان للشأن المفخم .

فإن قلت : قد زعمت أن الضمير فى « يتساءلون » للكفار ، فما تصنع بقوله : «الذى هم فيه مختلفون» ؟ قلت : كان فيهم من يقطع القول بإنكار البعث ، ومنهم من يشك .

وقيل : الضمير للمسلمين والكافرين جميعاً ، وكانوا جميعاً يسألون عنه . أما المسلم فليزداد خشية واستعدادا ، وأما الكافر فليزداد استهزاءا . » (١)

ثم هدد — سبحانه — هؤلاء المستهزئين بما جاء به النبى — صلى الله عليه وسلم — تهديدا شديدا ، فقال : « كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون » .

و « كلا » حرف زجر وردع ، والمقصود بها هنا : ردع أولئك المتسائلين عن النبأ العظيم ، وتوعدهم على اختلافهم فى شأنه .

أى : كلا ليس الأمر كما يتوهمه أولئك المتسائلون ، من استهزائهم بما جاءهم به الرسول — صلى الله عليه وسلم — ومن إنكارهم لكون القرآن من عند الله ، أو لكون البعث حق . . . بل الحق كل الحق أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — صادق كل الصدق فيما يبلغه عن ربه ، وأن هؤلاء المتسائلين سيرون عما قريب سوء عاقبة استهزائهم واختلافهم . .

والجملة الثانية وهى قوله : «ثم كلا سيعلمون» جىء بها لزيادة التهديد والوعيد ، ولبيان أن الوعيد الثانى أشد وأبلغ من الوعيد الأول .

وحذف مفعول « سيعلمون » للتعميم والتهويل . أى : سيعلمون علم

(١) تفسير الكشاف ح ٤ ص ٦٨٣

اليقين ما سيحل بهم من عذاب مقيم، وسيرون ذلك رأى العين عما قريب، كما قال — تعالى — : «إنهم يرونه بعيدا. ونراه قريبا».

ثم ساق — سبحانه — بعد ذلك تسعة أدلة، كلها تدل على أن البعث حق، لأن القادر على إيجاد هذه الأشياء، قادر — أيضاً — على إعادتهم إلى الحياة، فقال — تعالى — : «ألم نجعل الأرض مهادا»، والاستفهام هنا للتقرير. أى: لقد جعلنا بقدرتنا التى لا يعجزها شىء الأرض كالفراش الممهد الموطأ، لتتمكنوا من الاستقرار عليها، ومن التقلب فيها... كما يتقلب الطفل فى مهده، أى: فراشه.

والمهاد مصدر بمعنى الفراش الموطأ الممهد، وهو اسم لما يوضع للصبى لكى ينام عليه، ووصفت الأرض به على سبيل المبالغة فى جعلها مكان استقرار الناس وانتفاعهم وراحتهم، والكلام على سبيل التشبيه البليغ، أو على حذف مضاف.

وجعل بمعنى صير. أى. لقد صيرنا الأرض بقدرتنا كفراش الصبى بالنسبة لكم، حيث تتقلبون عليها كما يتقلب الصبى فى فراشه... أو صيرناها ذات مهاد.

قال صاحب الكشاف: ما ملخصه فإن قلت: كيف اتصل قوله: «ألم نجعل الأرض مهادا...» بما قبله؟

قلت: لما أنكروا البعث قيل لهم: ألم يخلق من يضاف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة الدالة على كمال قدرته، فما وجه إنكار قدرته على البعث، وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات..؟ ومهادا: فراشاً. وقرىء: مهدا. ومعناه: أنها لهم كالمهد للصبى، وهو ما يمهد له فينوم عليه تسمية للممهود بالمصدر، كضرب الأمير: أو وصفت بالمصدر، أو بمعنى ذات مهد...» (١)

(١) تفسير الكشاف ﺣ ٤ ص ٦٨٥.

وقوله : «والجبال أوتادا» معطوف على ما قبله . والأوتاد : جمع وتد ، وهو ما يشد به الشيء حتى لا يتحرك أو يضطرب ، والكلام على التشبيه — أيضاً — .

أى : لقد صيرنا — بقدرتنا — الأرض كالمهاد لتتمكنوا من الاستقرار عليها . . . . وجعلنا الجبال كالأوتاد للأرض ، لئلا تميد أو تضطرب بكم . . . . كما قال — تعالى — : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم . . . » (١)

وقوله — سبحانه — : « وخلقناكم أزواجا » دليل ثالث على قدرته . والأزواج : جمع زوج .

وهو اسم للعدد الذى يكرر الواحد منه مرة واحد . والمراد به هنا : الذكور والإناث .

أى : ومن مظاهر قدرتنا أننا خلقناكم — يا بنى آدم — مزدوجين . أى : ذكرا وأنثى ، ليتأتى التناسل ، وحفظ النوع من الانقراض وتنظيم أمر المعاش فى الأرض ، عن طريق استمتاع كل نوع بالآخر ، كما قال — تعالى — : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة . . . . » .

قال الآلوسى : « أزواجا » أى : مزدوجين ذكرا وأنثى ليتسنى التناسل . . .

وقيل : أزواجا ، أى : أصنافا فى اللون والصورة واللسان . . وقيل : يجوز أن يكون المراد من الخلق أزواجا : الخلق من منيين ، منى الرجل

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٦٨٥ .

(٢) سورة النحل الآية ١٥ .

ومنى المرأة . . .»(١) .

وقوله - تعالى - « وجعلنا نومكم سباتا » بيان لدليل رابع على قدرته - تعالى - على البعث .

و « السبات » مصدر بمعنى السبت ، أى : القطع ، يقال : سبت فلان الشيء سبتا ، إذا قطعه ، وسبت فلان شعره إذا حلقه وأزالة - وفعله كضرب ونصر - .

ويصح أن يكون قوله سباتا من السبت بمعنى الراحة والسكون ، يقال: سبت فلان يسبت ، إذا استراح بعد تعب ، ومنه سمى يوم السبت ، لأن اليهود ينقطعون فيه عن أعمالهم للراحة . .

والمعنى : وجعلنا — بمقتضى حكمتنا ورحمتنا — نومكم « سباتا » أى : قطعا للحركة ، لتحصل لكم الراحة التى لا تستطيعون مواصلة العمل إلا بعدها . .

وهذه الحالة التى لابد لكم منها ، وهى الراحة بعد عناء العمل عن طريق النوم . . أشبه ما تكون بإعادة الحياة إليكم بعد موتكم ..

وقوله — تعالى — : « وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا » بيان لنعمة أخرى من نعمه التى لا تحصى ، والتى تدل على كمال قدرته .

أى : وجعلنا — بقدرتنا ورحمتنا — الليل كاللباس الساتر لكم ، فهو يلفكم بظلمته ، كما يلف اللباس صاحبه . . كما أننا جعلنا النهار وقت معاشكم ، لكى تحصلوا فيه ما أنتم فى حاجة إلى تحصيله من أرزاق ومنافـــع .

ووصف — سبحانه — الليل بأنه كاللباس ، والنهار بأنه وقت المعاش

---

(١) تفسير الآلوسى حـ ٣٠ ص ٧ .

لأن الشأن فيهما كذلك، إذ الليل هو وقت الراحة والسكون والاختلاء . . . والنهار هو وقت السعي والحركة والانتشار .

ثم لفت - سبحانه - الأنظار إلى مظاهر قدرته في خلق السموات فقال : « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » .

أى : وبنينا وأوجدنا بقدرتنا التى لا يعجزها شىء، فوقكم - أيها الناس - سبع سماوات قويات محكمات ، لا يتطرق إليهن فطور أو شقوق على مر العصور ، وكر الدهور .

فقوله : « شدادا » جمع شديدة ، وهى الهيئة الموصوفة بالشدة والقوة .

وقوله - سبحانه - : « وجعلنا سراجا وهاجا » نعمة أخرى من نعمه الدالة على قدرته .

والمراد بالسراج الوهاج : الشمس . وصفت بكونها سراجا ، لأنها كالمصباح فى إضاءته لما حوله .

ووصف السراج بأنه وهاج ، مبالغة فى شدة ضيائه ولمعانه ، من الوهج - بفتح الواو والهاء - بمعنى شدة الضياء . .

والكلام على التشبيه البليغ ، والمقصود منه تقريب صفة المشبه إلى الأذهان ، وإلا فالشمس أعظم من كل سراج .

أى : وأنشأنا وأوجدنا - بقدرتنا ومنتنا - فى السماء ، سراجا زاهرا مضيئا . هو الشمس المتوهجة من شدة حرارتها وضيائها ، والتى تشرق على هذا الكون فتحول ظلامه إلى نور ، بقدرته - تعالى - .

أما الدليل التاسع على قدرته - تعالى - على البعث ، فنراه فى قوله - تعالى - : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا . . . » .

والمعصرات - بضم الميم وكسر الصاد - السحب التى تحمل المطر ،

جمع معصرة – بكسر الصاد – اسم فاعل ، من أعصرت السحابة إذا أوشكت على إنزال الماء لا متلائها به . .

قال ابن كثير : عن ابن عباس : « المعصرات » الرياح . . لأنها تستدر المطر من السحاب . . وفى رواية عنه أن المراد بها : السحاب ، وكذا قال عكرمة . . واختاره ابن جرير . .

وقال الفراء : هى السحاب التى تتحلب بالماء ولم تمطر بعد ، كما يقال : امرأة معصر ، إذا حان حيضها ولم تحض بعد .

وعن الحسن وقتادة : المعصرات : يعنى السموات . وهذا قول غريب والأظهر أن المراد بها السحاب ، كما قال – تعالى – : « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء . ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله . . »(١) .

والثجاج : المندفع بقوة وكثرة . يقال : ثج الماء – كرد – إذا انصب بقوة وكثرة .

ومطر ثجاج : أى : شديد الانصباب جدا .

وقوله : « ألفافا » اسم جمع لا واحد له من لفظه ، كالأوزاع للجماعات المتفرقة . وقيل : جمع لفيف ، كأشراف وشريف .

أى : وأنزلنا لكم – يا بنى آدم – بقدرتنا ورحمتنا – من السحائب التى أوشكت على الإمطار ، ماء كثيرا متدفقا بقوة ، لنخرج بهذا الماء حبا تقتاتون به – كالقمح والشعير . . ونباتا تستعملونه لدوابكم كالتبن والكلأ ولنخرج بهذا الماء – أيضا – بساتين قد التفت أغصانها لتقاربها وشدة نمائها . .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٢٧ .

فهذه تسعة أدلة أقامها — سبحانه — على أن البعث حق ، وهي أدلة مشاهدة محسوسة ، لا يستطيع عاقل إنكار واحد منها . . وما دام الأمر كذلك فكيف ينكرون قدرته على البعث ، مع أنه — تعالى — قد أوجد لهم كل هذه النعم التي منها ما يتعلق بخلقهم ، ومنها ما يتعلق بالأرض والسموات ، ومنها ما يتعلق بنومهم وبالليل وبالنهار ، ومنها ما يتعلق بالشمس وبالسحب التي تحمل لهم الماء الذي لا حياة لهم بدونه .

وبعد إيراد هذه الأدلة المقنعة لكل عاقل ، أكد — سبحانه — ما اختلفوا فيه ، وما تساءلوا عنه ، وبين جانباً من أماراته وعلاماته فقال :

« إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا . . . » .

والمراد بيوم الفصل : يوم القيامة ، لأن فيه يكون الفصل بين الحق والمبطل ، والمحسن والمسيء ، فيجازي كل إنسان على حسب عمله .

والميقات — بزنة مفعال — مشتق من الوقت ، وهو الزمان المحدد لفعل ما . والمراد به هنا : قيام الساعة ، وبعث الناس من قبورهم .

أي : إن يوم البعث والجزاء ، كان ميعادا ووقتاً محدداً لبعث الأولين والآخرين ، وما يترتب على ذلك من جزاء وثواب وعقاب .

وقوله « يوم ينفخ في الصور . . . » بدل مما قبله . أي : يوم القيامة آت لاريب فيه ، يوم نأمر إسرافيل بأن ينفخ في الصور . أي : في القرآن الذي أوجدناه لذلك .

« فتأتون أفواجا » أي : فتخرجون من قبوركم جماعات جماعات ، وطوائف طوائف ، دون أن يستطيع أحد منكم التخلف عن الحضور إلى المكان الذي أعددناه لذلك .

« وفتحت السماء . . . » في هذا اليوم وشقت . . « فكانت أبوابا » أي : فصارت شقوقها وفتحاتها كالأبواب في سعتها و كثرتها .

« وسيرت الجبال . . » أي : وأزيلت الجبال وحركت من أماكنها بعد تفتتها .

« فكانت سرابا » أي : فصارت بعد تفتتها واقتلاعها من أماكنها . —

كالسراب ، وهو ما يلوح فى الصحارى ، فيظنه الرائى ماء وهو ليس بماء .
وبعد هذا البيان البديع لجانب من مظاهر قدرته - تعالى - على كل شىء ، ومن ألوان نعمه على خلقه ، ومن تقرير أن البعث حق . . بعد كل ذلك ، بين - سبحانه - جزاء الكافرين ، وجزاء المتقين فى هذا اليوم فقال - تعالى - :

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ

مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ
فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ
كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ
أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ
لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾
وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن
رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾
ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ
أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ
وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

وقوله — سبحانه — : «إن جهنم كانت مرصادا . . » كلام مستأنف لبيان أهوال جهنم وأحوالها . وجهنم : اسم لدار العذاب فى الآخرة .

والمرصاد : مفعال من الرصد . تقول : رصدت فلانا أرصده ، إذا ترقبته وانتظرته ، بحيث لا يهرب منك ، «فمرصادا» صيغة مبالغة للراصد الشديد الرصد ، وصفت جهنم بذلك ، لأن الكافرين لا يستطيعون التفلت منها مهما حاولوا ذلك .

قال القرطبى : «مرصادا» مفعال من الرصد ، والرصد : كل شىء كان أمامك . . وقال مقاتل .

«مرصادا» أى : محبسا . وقيل : طريقا وممرا . . وذكر القشيرى : أن المرصاد المكان الذى يرصد فيه الواحد العدد . أى : هى معدة لهم ، فالمرصاد بمعنى المحل . . وذكر الماوردى ، أنها بمعنى راصدة . . وفى الصحاح : الراصد الشىء : الراقب له . . تقول : رصدته أرصده ، إذا ترقبته . . . (١)

والمعنى : إن جهنم التى هى دار العذاب فى الآخرة ، كانت - بأمر الله — تعالى — ومشيئته - معدة ومهيئة للكافرين ، فهى ترصدهم وترقبهم بحيث لا يستطيعون الهرب منها ، فهى كالحارس اليقظ الذى يقف بالمرصد فلا يستطيع أحد أن يتجاوزه .

والمقصود بالآية الكريمة تهديد المشركين ، وبيان أنهم لا مهرب لهم من جهنم ، وأنها فى انتظارهم ، كما ينتظر العدو عدوه ليقضى عليه .

وقوله : «للطاغين مآبا» بدل من «مرصادا» ، وقوله «مآبا» من الأوب بمعنى المرجع .

يقال : آب فلان يئوب ، إذا رجع . .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ١٩٩

أى : إن جهنم كانت للمتجاوزين الحد فى الظلم والطغيان ، هى المكان المهيأ لهم ، والذى لا يستطيعون الهرب منه ، بل هم مرجعهم الوحيد الذى يرجعون إليه .

وقوله « لابثين فيها أحقابا » أى : مقيمين فى جهنم أزماناً طويلة لا يعلم مقدارها إلا الله — تعالى — إذ الأحقاب : جمع حقب — بضمتين أو بضم فسكون — ، وهو الزمان الطويل .

« لا يذوقون فيها » أى : فى جهنم « بردا » أى : شيئا يخفف عنهم حرها ، من هواء بارد ، أو نسيم عليل «ولا شرابا» أى : شيئا من الشراب الذى يطفىء عطشهم ، ويخفف من عذابهم .

« إلا حميما وغساقا » والحميم : هو الماء الذى بلغ الغاية فى الحرارة . والغساق : هو ما يسيل من جلودهم من القيح والدماء والصديد . يقال غسق الجرح — كضرب وسمع — غسقانا ، إذا سالت منه مياه صفراء .

أى : أن هؤلاء الطغاة لا يذوقون فى جهنم شيئا من الهواء البارد ، ولا من الشراب النافع ، لكنهم يذوقون فيها الماء الذى بلغ النهاية فى الحرارة ، والصديد الذى يسيل من جروحهم وجلودهم .

فالاستثناء فى قوله « إلا حميما وغساقا » ، استثناء منقطع ، لأن الحميم ليس من جنس البرد فى شىء ، وكذلك الغساق ليس من جنس الشراب فى شىء .

وقوله — سبحانه — « جزاء وفاقا » بيان لعدالة الله — تعالى — معهم ، أى : أننا لم نظلمهم بإلقائهم فى جهنم ، وإنما جازيناهم بذلك جزاء موافقاً لأعمالهم السيئة فى الدنيا .

فقوله : «جزاء» منصوب على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف ، وقوله « وفاقا » صفة له . والوفاق مصدر وافق ، وهو هنا بمعنى اسم الفاعل .

أى : جوزوا جزاء موافقاً لأعمالهم القبيحة التى كانوا يعملونها فى الدنيا .

ثم علل — سبحانه — ما أصابهم من عذاب أليم ، فقال : « إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا . . . »

أى : إن هؤلاء الطغاة كانوا فى الدنيا لا يخافون حسابنا ، ولا يفكرون فيه ، بل كانوا يكذبون به ، وبكل ما جاءهم به رسولنا تكذيباً عظيماً .

وقوله : « كذاباً » مصدر كذب ، ومجىء فعال بمعنى تفعيل فى مصدر فعل ، فصيح شائع .

وأوثر هذا المصدر دون التكذيب ، للإشعار بأن تكذيبهم لآيات الله — تعالى — قد وصل الغاية فى قبحه وإفراطه . وهو منصوب على أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله .

قال صاحب الكشاف : قوله « كذاباً » أى : تكذيباً . وفعال فى باب فعل ، كله فاش فى كلام فصحاء العرب لا يقولون غيره .. وهو مصدر كذب . . . (١)

ثم بين — سبحانه — شمول علمه لكل شىء فقال : « وكل شىء أحصيناه كتابا » و « كل » منصوب على الاشتغال . والإحصاء للشىء : ضبطه ضبطاً محكماً . وأصله من لفظ الحصا ، واستعمل فيه لأنهم كانوا يعتمدون على الحصا فى العد ، كما يعتمد بعض الناس الآن على الأصابع .

قال الجمل : وقوله : « كتاباً » فيه أوجه : أحدها : أنه مصدر من معنى أحصيناه . أى : إحصاء ، فالتجوز فى نفس المصدر . والثانى : أنه مصدر لأحصيناه ، لأنه فى معنى كتبنا ، فالتجوز فى نفس الفعل . . . (٢)

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٦٨٩

(٢) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٤ ص ٤٧٤

أي : وكل شيء فى هذا الكون ، قد أحصيناه إحصاء تاما ، بحيث لا يعزب منه شيء عن علمنا ، مهما كان صغيرا . .

والفاء فى قوله « فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا » للتفريع على ما تقدم من كون جهنم كانت مرصادا « للطاغين مآبا » .

أى : إن جهنم كانت معدة ومهيأة لهؤلاء الطغاة بسبب أعمالهم القبيحة وسيقال لهم يوم القيامة على سبيل الإذلال والإهانة ، ذوقوا سوء عاقبة كفركم وفسوقكم وعصيانكم ، فلن نزيدكم إلا عذابا فوق العذاب الذى أنتم فيه .

قال ابن كثير : قال قتادة ، عن أبى أيوب الأزدى ، عن عبد الله بن عمرو قال : لم ينزل فى شأن أهل النار آية أشد من هذه الآية : « فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً » ، قال : فهم فى مزيد من العذاب أبدا »(١) .

وكعادة القرآن الكريم فى الموازنة بين عاقبة الأشرار والأخيار ، جاء الحديث عن حسن عاقبة المتقين ، بعد الحديث عن سوء عاقبة الطاغين فقال — تعالى — : « إن للمتقين مفازا » أى : إن للمتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضى ربهم . . « مفازا » أى : فوزا برضوانه وجنته فقوله « مفازا » مصدر بمعنى الفوز والظفر بالمطلوب ، وتنوينه للتعظيم .

ثم فصل — سبحانه — مظاهر هذا الفوز فقال : « حدائق وأعنابا » أى : إن لهم فى هذه الجنان التى ظفروا بها حدائق ، أى : بساتين فيها ماء وأشجار مثمرة . . سميت بذلك تشبيها لهـا بحدقة العين فى الهيئة ، وحصول الماء فيها .

وإن لهم — كذلك — فى هذه الجنان « أعناباً » جمع عنب ، وهو

---

(١) تفسير ابن كثير حـ ٧ ص ٢٣١

الكرم، وخصت الأعناب بالذكر، لأنها من أعظم الفواكه وأحبها إلى النفوس.

وإن لهم – أيضاً – «كواعب أترابا» أى: فتيات فى ريعان الشباب، قد تقاربت أعمارهن، وتساوين فى الجمال والنضارة وحسن الهيئة.

فالكواكب: جمع كاعب، وهى الفتاة التى وصلت إلى سن البلوغ، وسميت بذلك لأنها فى تلك السن يتكعب ثدياها، أى: يستديران مع ارتفاع ...

والأتراب: جمع ترب – بكسر التاء وسكون الراء – وهو المساوى لغيره فى السن، وأكثر ما يطلق هذا اللفظ على الإناث. قيل سمى من تقاربن فى السن بذلك، على سبيل التشبيه بالترائب، أى: بالضلوع التى فى الصدر فى التساوى.

وإن لهم – أيضاً – «كأسادهاقا» أى: كأسا مليئة بالخمر. يقال: دهق الحوض – كجعل – وأدهقه، إذا ملأه حتى فاض من جوانبه:

«لا يسمعون فيها» أى: فى الجنة «لغوا» أى: كلاما ساقطا لا يعتد به..

ولا يسمعون – أيضاً – «كذابا» أى: كلاما كاذبا..

وقوله – سبحانه –: «جزاء من ربك عطاء حساباً» بيان لمظاهر فضله ومنه على هؤلاء المتقين. وقوله: «جزاء» منصوب بفعل محذوف من لفظه، و «من» ابتدائية..

أى: هؤلاء المتقون كوفئوا مكافأة عظيمة صادرة من ربك على سبيل العطاء أى: الإحسان والتفضل، حتى شبعوا واكتفوا.

فقوله: «حسابا» صفة للعطاء، وهو بمعنى كاف. فهو مصدر أقيم

مقام الوصف ، من قولهم : أحسَبهُ الشيءُ ، إذا كفاه حتى قال حسبى ، أى : كافينى . .

قال صاحب الكشاف : و « حسابا » صفة بمعنى كافيا ، من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال حسبى . . »(١) .

ويصح أن يكون قوله « حساباً » معناه « محسوباً » . أى : كافأهم الله — تعالى — على أعمالهم الحسنة فى الدنيا مكافأة محسوبة ، على قدر أعمالهم الطيبة .

وقوله : « رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن . . » قرأه بعضهم بجر لفظ « رب » على أنه بدل « من ربك » ، وقرأه البعض الآخر بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف .

أى : هذا الجزاء العظيم للمتقين هو كائن من ربك ، الذى هو رب أهل السموات وأهل الأرض ، ورب ما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا هو ، وهو - سبحانه - صاحب الرحمة الواسعة العظيمة التى لا تقاربها رحمة . .

وقوله : « لا يملكون منه خطابا » مقرر ومؤكد لما قبله ، من كونه — تعالى — هو رب كل شيء .

أى : أهل السموات والأرض وما بينهما ، خاضعون ومربوبون لله — تعالى — الواحد القهار ، الذى لا يقدر أحد منهم — كائنا من كان — أن يخاطبه إلا بإذنه ، ولا يملك أن يفعل ذلك إلا بمشيئته .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه . . » وقوله — سبحانه — : (يوم يأت - أى : يوم القيامة - لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد) .

والظرف فى قوله - تعالى - : (يوم يقوم الروح والملائكة صفا . .)

متعلق بقوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : (لا يملكون منه خطاباً) . والمراد بالروح : جبريل ـ عليه السلام ـ .

أى : لا يملك أحد أن يخاطب الله ـ تعالى ـ إلا بإذنه ، يوم القيامة ، يوم يقوم جبريل ـ عليه السلام ـ بين يدى خالقه قيام تذلل وخضوع ، ويقوم الملائكة ـ أيضاً ـ قياما كله أدب وخشوع ، وهم فى صفوف منتظمة .

(لا يتكلمون) أى : لا يستطيع جبريل ولا الملائكة ولا غيرهم الكلام (إلا من أذن له الرحمن) منهم بالكلام أو بالشفاعة .

(وقال صوابا) أى : وقال المأذون له فى الكلام قولا صوابا يرضى الخالق ـ عز وجل ـ .

وكون المراد بالروح : جبريل ـ عليه السلام ـ ، هو الرأى الراجح ، لأن القرآن قد وصفه بذلك فى آيات منها قوله ـ تعالى ـ : (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) .

وهناك أقوال أخرى فى المراد به ، منها : أنه ملك من الملائكة ، ومنها : أرواح بنى آدم . .

وجملة « لا يتكلمون » مؤكدة لجملة « لا يملكون منه خطاباً » ، والضمير لجميع الخلائق .

وقد أفادت الآية الكريمة أن الذين يتكلمون فى هذا اليوم الهائل الشديد ، هم الذين يأذن الله ـ تعالى ـ لهم بالكلام ، وهم الذين يقولون قولا صوابا يرضى الله ـ تعالى ـ عنه .

وجملة : « وقال صواباً » يجوز أن تكون فى موضع الحال من الاسم الموصول « منْ » ، أى : لا يستطيع أحد منهم الكلام إلا الشخص الذى

قد أذن الله - تعالى - له فى الكلام ، والحال أن هـــذا المأذون له قد قال صوابا .

ويصح أن تكون معطوفة على جملة « أذن له الرحمن » ، أى : لا يستطيعون الكلام إلا الذين أذن لهم الرحمن فى الكلام ، وإلا الذين قالوا قولا صوابا يرضى الله ، فإنهم يتكلمون . .

والمقصود من الآية الكريمة ، بيان أن الخلائق جميعا يكونون فى هذا اليوم ، فى قبضة الرحمن ، وتحت تصرفه ، وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا إلا بإذنه - تعالى - .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : « ذلك اليوم الحق » يعود إلى يوم البعث الذى يقوم الناس فيه لله رب العالمين . أى : ذلك اليوم الذى يقوم فيه الخلائق للحساب والجزاء ، هو اليوم الحق الذى لا شك فى حدوثه . ولا ريب فى ثبوته .

والفاء فى قوله - تعالى - : « فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا » هى الفصيحة ، ومفعول المشيئة محذوف . أى : لقد بينا لكم ما يهديكم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فمن شاء منكم أن يتخذ إلى ربه مرجعا حسنا وطريقا إلى رضاه ، فليتخذه الآن ، من قبل أن يأتى هذا اليوم الذى لا بيع فيه ولا خلال .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذا الإنذار البليغ فقال : إنا أنذرناكم عذابا قريبا ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا » .

والإنذار : الإخبار بحصول شىء تسوء عاقبته ، فى وقت يستطيع المنذر فيه أن يجنب نفسه الوقوع فى ذلك الشىء .

أى : إنا أخبرناكم - أيها الناس - بأن هناك عذابا قريباً ، سيحل بمن يستحقه عما قريب .

وذلك العذاب سيكون سيكون أشد هولا ، وأبقى أثرا ، يوم القيامة ، « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » أى : يوم يرى كل إنسان عمله حاضرا أمامه ، ومسجلا عليه . .

« ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا » أى : ويقول الإنسان الكافر فى هذا اليوم على سبيل الحسرة والندامة ، ياليتنى كنت فى الدنيا ترابا ، ولم أخلق بشرا ، ولم أكلف بشىء من التكاليف ، ولم أبعث ولم أحاسب..

فالمقصود بالآية قطع أعذار المعتذرين بأبلغ وجه ، من قبل أن يأتى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة — مدينة نصر
صباح الجمعة : ٨ من المحرم سنة ١٤٠٧
١٢ / ٩ / ١٩٨٦

تفسير سورة

النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة « النازعات »

١ — سورة « النازعات » من السور المكية الخالصة. وتسمى بسورة « النازعات » بإثبات الواو، حكاية لأول ألفاظها، ومن ذكرها بدون واو، جعل لفظ « النازعات » علماً عليها. وتسمى — أيضاً — سورة « الساهرة » وسورة « الطاعة »، لوقوع هذين اللفظين فيها دون غيرها.

٢ — وهى السورة التاسعة والسبعون فى ترتيب المصحف، أما ترتيبها فى النزول فهى السورة الحادية والثمانون من بين السور المكية، وكان نزولها بعد سورة « النبأ »، وقبل سورة « الانفطار »، أى: أن سورة النازعات تعتبر من أواخر السور المكية نزولا.

٣ — وعدد آياتها خمس وأربعون آية فى المصحف الكوفى، وست وأربعون فى غيره.

٤ — ومن أهم مقاصدها: إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى أن البعث حق، وذكر جانب كبير من علاماته وأهواله، والرد على الجاحدين الذين أنكروا وقوعه، وتذكير الناس بجانب مما دار بين موسى — عليه السلام — وبين فرعون من مناقشات، وكيف أن الله — تعالى — قد أخذ فرعون أخذ عزيز مقتدر.

كما أن السورة الكريمة اشتملت على مظاهر قدرته — تعالى —، التى نراها ونشاهدها فى خلقه — سبحانه — للسموات والأرض... وما اشتملتا عليه من عجائب.

ثم ختمت ببيان حسن عاقبة المتقين ، وسوء عاقبة الكافرين وبالإجابة على أسئلة السائلين عن يوم القيامة ، وبيان أن موعد مجىء هذا اليوم مرده إلى الله — تعالى — وحده .

قال — تعالى — : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها . فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها .

وقد افتتح - سبحانه - سورة النازعات بقوله - تعالى - :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ
سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ
ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا
خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا
عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ
وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

والواو فى قوله « والنازعات . . . » وما بعده ، للقسم ، وجواب القسم محذوف دل عليه ما بعده ، والتقدير : وحق هذه المخلوقات العظيمة . . . لتبعثن .

وكذلك المقسم به محذوف ، إذ أن هذه الألفاظ وهى : النازعات ، والناشطات ، السابحات ، والسابقات ، والمدبرات ، صفات لموصوفات محذوفة ، اختلف المفسرون فى المراد بها على أقوال كثيرة .

أشهرها أن المراد بهذه الموصوفات ، طوائف من الملائكة ، كلفهم الله — تعالى — بالقيام بأعمال عظيمة ، وأفعال جسيمة .

والنازعات : جمع نازعة . والنزع : جذب الشىء بقوة ، كنزع القوس عن كبده .

ومنه قوله — تعالى — فى النزع الحسى : « ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » ، وقوله - سبحانه - فى النزع المعنوى : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » .

وقوله : « غرقا » اسم مصدر من أغرق ، وأصله إغراقا . والإغراق فى الشىء : المبالغة فيه والوصول به إلى نهايته ، يقال : أغرق فلان فى هذا الأمر ، إذا أوغل فيه ، ومنه قولهم : نزع فلان فى القوس فأغرق ، أى : بلغ غاية المد حتى انتهى إلى النصل .

وهو منصوب على المصدرية ، لالتقائه مع اللفظ الذى قبله فى المعنى ، وكذلك الشأن بالنسبة للألفاظ التى بعده ، وهى : « نشطا » ، و « سبحا » ، و « سبقا » .

والمعنى : وحق الملائكة الذين ينزعون أرواح الكافرين من أجسادهم ، نزعا شديدا ، يبلغ الغاية فى القسوة والغلظة .

ويشير إلى هذا المعنى قوله - تعالى - فى آيات متعددة ، منها قوله - سبحانه - : « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا ، الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق . . . »

وقوله : «والناشطات نشطا» : المقصود به طائفة أخرى من الملائكة .

والناشطات من النشط ، وهو السرعة فى العمل ، والخفة فى أخذ الشىء ، ومنه الأنشوطة ، للعقدة التى يسهل حلها ، ويقال : نشطت الدلو من البئر - من باب ضرب - إذا نزعتها بسرعة وخفة .

أى : وحق الملائكة الذين ينشطون ويسرعون إسراعاً شديداً لقبض أرواح المؤمنين بخفة وسهولة ، ويقولون لهم - على سبيل البشارة والتكريم - : « يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . »

وقوله - سبحانه - : « والسابحات سبحا » قسم ثالث بطائفة ثالثة من طوائف الملائكة ، التى تسبح فى هذا الكون ، أى : تنطلق بسرعة لتنفيذ أمر الله - تعالى - ، ولتسبيحه وتحميده ، وتكبيره ، وتقديسه .

أى : وحق الملائكة الذين يسرعون التنقل فى هذا الكون إسراعاً شديداً ، لتنفيذ ما كلفهم - سبحانه - به ، ولتسبيحه وتنزيهه عن كل نقص . . .

وقوله - تعالى - : « فالسابقات سبقا » المقصود به طائفة رابعة من الملائكة ، تسبق غيرها فى تنفيذ أمر الله - تعالى - ، إذ السبق معناه : أن يتجاوز السائر من يسير معه ، ويسبقه إلى المكان المقصود الوصول إليه ، كما قال - تعالى - فى صفات المتقين : « أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون » .

وقوله : « فالمدبرات أمرا » المقصود به طائفة خامسة من الملائكة ، من وظائفهم تدبير شأن الخلائق ، وتنظيم أحوالهم بالطريقة التى يأمرهم - سبحانه - بها ، فنسبة التدبير إليهم ، إنما هى على سبيل المجاز ، لأن كل شىء فى هذا الكون إنما هو بقضاء الله وتقديره وتدبيره .

والمراد بالأمر : الشأن والغرض المهم ، وتنوينه للتعظيم ، ونصبه على المفعولية للفظ المدبرات .

أى : وحق الملائكة الذين يرتبون شئون الخلائق ، وينظمون أمورهم بالطريقة التى يكلفهم — سبحانه — بها .

وجاء العطف فى قوله : « فالسابقات . . فالمدبرات » بالفاء ، للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها بغير مهلة ، وللإيذان بأن هاتين الصفتين متفرعتين عما قبلهما .

وعلى هذا التفسير الذى سرنا فيه على أن هذه الصفات لموصوف واحد ، سار كثير من المفسرين ، فصاحب الكشاف صدر تفسيره لهذه الآيات بقوله : أقسم — سبحانه — بطوائف الملائكة ، التى تنزع الأرواح من الأجساد ، وبالطوائف التى تنشطها ، أى : تخرجها . . . وبالطوائف التى تسبح فى مضيها ، أى : تسرع فتسبق إلى ما أمروا به ، فتدبر أمرا من أمور العباد مما يصلحهم فى دينهم ودنياهم ، كما رسم الله — تعالى — لهم . . وأسند التدبير إليهم — أى إلى الملائكة — لأنهم من أسبابه . . .»(١) .

وقال الشوكانى : أقسم — سبحانه — بهذه الأشياء التى ذكرها ، وهى الملائكة التى تنزع أرواح العباد عن أجسادهم ، كما ينزع النازع القوس فيبلغ بها غاية المد ، وكذا المراد بالناشطات ، والسابحات ، والسابقات ، والمدبرات . يعنى الملائكة . والعطف مع اتحاد الكل لتنزيل التغاير الوصفى ، منزلة التغاير الذاتى ، كما فى قول الشاعر :

إلى الملك القرم ، وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

وهذا قول الجمهور من الصحابة ، والتابعين ، ومن بعدهم . . »(٢) .

ومنهم من يرى أن المراد بالنازعات : النجوم تنتقل من مكان إلى مكان

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٦٩٣ .
(٢) تفسير فتح القدير حـ ٥ ص ٣٧٢ .

أو الأقواس التى تنزع السهام ، أو الغزاة ينزعون من دار الإسلام إلى دار الحرب . .

ومنهم من يرى أن المراد بالناشطات : الكواكب السيارة ، أو السفن التى تمخر عباب الماء . .

وأن المراد بالسابحات والسابقات : النجوم ، أو الشمس والقمر ، والليل والنهار . .

أما المدبرات فقد أجمعوا على أن المراد بها الملائكة .

قال الجمل : اختلفت عبارات المفسرين فى هذه الكلمات ، هل هى صفات لشىء واحد ، أو لأشياء مختلفة على أوجه . واتفقوا على أن المراد بقوله : « فالمدبرات أمرا ، وصف لشىء واحد ، وهم الملائكة »(١).

ويبدو لنا أن كون هذه الصفات جميعها لشىء واحد ، هو الملائكة أقرب إلى الصواب ، لأنه المأثور عن كثير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

ثم شرع — سبحانه — فى بيان علامات القيامة وأهوالها فقال : « يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . . . » .

والراجفة : من الرجف وهو الاضطراب الشديد ، والحركة القوية ، لأن بسببها تضطرب الأمور .

وتختل الشئون . يقال : رجفت الأرض والجبال . . إذا اهتزت اهتزازا شديدا .

والمراد بها : ما يحدث فى هذا الكون عند النفخة الأولى التى يموت عندها جميع الخلائق .

والمراد بالرادفة : النفخة الثانية ، التى تردف الأولى ، أى : تأتى

بعدها ، وفيها يبعث الموتى بإذن الله — تعالى — ، يقال : فلان جاء ردف فلان ، إذا جاء فى أعقابه .

أى : اذكر — أيها العاقل — لتعتبر وتتعظ ، يوم ينفخ فى الصور فتضطرب الأرض وتهتز ، ويموت جميع الخلق ، ثم يتبع ذلك نفخة أخرى يبعث بعدها الموتى — بإذن الله — تعالى — .

وجملة « تتبعها الرادفة » فى محل نصب على الحال من الراجفة .

وشبيه بها تين الآيتين قوله — تعالى — : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . . . » .

وقوله — سبحانه — : قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة ، بيان لما يترتب على قيام الساعة ، وبعث الخلائق ، من خوف ورعب .

أى : قلوب كثيرة فى هذا اليوم الهائل الشديد تكون فى نهاية الاضطراب والفزع ، يقال : وَجَف القلبُ يجف وَجْفاً ووجيفا ، إذا ارتفعت ضرباته من شدة الخوف . .

وتكون أبصار أصحاب هـــذه القلوب خاشعة ، أى : ذليلة مهينة ، لما يعتريهم من الفزع الشديد ، والرعب الذى لا حدود له . .

ولفظ « قلوب » مبتدأ ، وتنكيره للتكثير ، وقوله : « واجفة » صفة للقلوب ، وجملة « أبصارها خاشعة » خبر ثان للقلوب .

والمراد بهذه القلوب : قلوب المشركين الذين أنكروا فى الدنيا البعث والجزاء ، فلما بعثوا اعتراهم الرعب الشديد ، والفزع الذى لا يقاربه فزع . . .

فأما قلوب المؤمنين فهى — بفضل الله ورحمته — تكون فى أمان

« لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون » .

وإضافة الأبصار إلى ضمير القلوب لأدنى ملابسة ، لأن الأبصار لأصحاب هذه القلوب ، وكلاهما من جوارح الأجساد .

وقوله - سبحانه - : « يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة . أئذا كنا عظاما نخرة . . » حكاية لما كان يقوله هؤلاء الكافرون فى الدنيا ، من إنكار للبعث ، ومن استهزاء لمن كان يذكرهم به ، ومن استبعاد شديد لحصوله . .

والمراد بالحافرة : العودة إلى الحياة مرة أخرى بعد موتهم وتحولهم إلى عظام بالية .

قال صاحب الكشاف : « فى الحافرة » . أى : فى الحالة الأولى ـ يعنون : الحياة بعد الموت .

فإن قلت : ما حقيقة هذه الكلمة ؟ قلت : يقال : رجع فلان فى حافرته ، أى : فى طريقه التى جاء فيها فحفرها . أى : أثر فيها بمشيه فيها : جعل أثر قدميه حفرا . . ثم قيل لمن كان فى أمر فخرج منه ثم عاد إليه : رجع إلى حافرته ، أى : طريقته وحالته الأولى . . » (١)

وقوله : « نخرة » صفة مشتقة من قولهم : نخر العظم - بفتح النون وكسر الخاء - ، إذا بلىَ وصار سهل التفتيت والكسر . وقرأ حمزة والكسائى « ناخرة » بمعنى بالية فارغة جوفاء ، يسمع منها عند هبوب الريح نخير ، أى : صوت .

أى : أن هؤلاء المشركين كانوا يقولون فى الدنيا ـ على سبيل التعجيب

والاستهزاء والإنكار لأمر البعث والحساب - : أنرد إلى الحياة مرة أخرى بعد موتنا وبعد أن نصير فى قبورنا عظاماً بالية .

وعبر — سبحانه — عن قولهم هذا بالمضارع «يقولون» لاستحضار حالتهم الغريبة حيث أنكروا ما قام الدليل على عدم إنكاره ، وللإشعار بأن هذا الإنكار كان متجددا ومستمرا منهم .

وقد ساق — سبحانه — أقوالهم هذه بأسلوب الاستفهام ، للإيذان بأنهم كانوا يقولون ما يقولون فى شأن البعث على سبيل التهكم والتعجب عن يحدثهم عنه ، كما هو شأن المستفهم عن شىء الذى لا يقصد معرفة الحقيقة ، وإنما يقصد التعجيب والإنكار .

وجملة «أئذا كنا عظاما نخرة» مؤكدة للجملة السابقة عليها ، التى يستبعدون فيها أمر البعث بأقوى أسلوب .

وقوله — تعالى — «قالوا تلك إذا كرة خاسرة» حكاية لقول آخر من أقوالهم الفاسدة ، وهو بدل اشتمال من قوله - سبحانه - قبل ذلك : «يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة» .

واسم الإشارة «تلك» يعود إلى الردة المستفادة من قولهم «أإننا لمردودون . . .» .

ولفظ «إذا» جواب لكلامهم المتقدم . والكرة : المرة من الكر بمعنى الرجوع ، وجمعها : كرات أى : يقول هؤلاء الجاحدون : أنرد إلى الحياة التى كنا فيها بعد أن نموت ونفنى ؟ وبعد أن نصير عظاما نخرة ؟ لوحدث هذا بأن رددنا إلى الحياة مرة أخرى ، لكانت عودتنا عودة خاسرة غير رابحة . . وهم يقصدون بهذا الكلام الزيادة فى التهكم والاستهزاء بالبعث .

والخسران : أصله عدم الربح فى التجارة ، والمراد به هنا : حدوث ما يكرهونه لهم .

ونسب الخسران إلى الكرة على سبيل المجاز العقلى، للمبالغة فى وصفهم الرجعة بالخيبة والفشل.

وإلا فالمراد خيبتهم وفشلهم هم، لأنهم تبين لهم كذبهم، وصدق من أخبرهم بأن الساعة حق.

وقد رد - سبحانه - عليهم ردا سريعا حاسما يخرس ألسنتهم فقال: «فإنما هى زجرة واحدة، فإذا هم بالساهرة».

والزجرة: المرة من الزجر، وهو الصياح المصحوب بالغضب، يقال: زجر فلان فلانا إذا أمره أو نهاه عن شىء بحدة وغضب.

والساهرة: الأرض المستوية الخالية من النبات.

والمراد بها هنا: الأرض التى يحشر الله - تعالى - فيها الخلائق

قال القرطبى: قوله: «فإذا هم بالساهرة» أى: على وجه الأرض، بعد أن كانوا فى بطنها. سميت بهذا الاسم، لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم والعرب تسمى الفلاة ووجه الأرض ساهرة، بمعنى ذات سهر، لأنه يسهر فيها خوفا منها، فوصفها بصفة ما فيها...»(١).

والفاء فى قوله: «فإنما هى زجرة...» للتفريع على قولهم السابق، وضمير «هى» يعود إلى الحالة والقصة التى أنكروها وهى قيام الساعة.

أى: قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التوبيخ والتقريع: ليس الأمر كما زعمتم من أنه لا بعث ولا جزاء.. بل الحق أن ذلك آت لا ريب فيه، وأن عودتكم إلى الحياة مرة أخرى لا تقتضى من خالقكم سوى صيحة واحدة يصيحها ملك من ملائكته بكم، فإذا أنتم قيام من قبوركم، وتجتمعون فى المكان الذى يحدده الله - تعالى - لاجتماعكم ولحسابكم وجزائكم.

وعبر - سبحانه - عن اجتماعهم بأرض المحشر بإذا الفجائية فقال «فإذا هم بالساهرة»، للإيذان بأن اجتماعهم هذا سيكون فى نهاية السرعة والخفة، وأنه سيتحقق فى أعقاب الزجرة بدون أقل تأخير.

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ١٩٧.

ووصف — سبحانه — الزجرة بأنها واحدة ، لتأكيد ما فى صيغة المرة من معنى الوحدة ، أى : أن الأمر لا يقتضى سوى الإذن منا بصيحة واحدة لا أكثر ، تنهضون بعدها من قبوركم للحساب والجزاء ، نهوضاً لا يملكون معه التأخر أو التردد . والمراد بها : النفخة الثانية .

وقال — سبحانه — : « فإذاهم » بضمير الغيبة ، إهمالا لشأنهم ، وتحقيراً لهم عن استحقاق الخطاب .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله — تعالى — : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذاهم قيام ينظرون » .

وإلى هنا نجد السورة الكريمة قد حدثتنا حديثاً بليغاً مؤثراً عن أهوال يوم القيامة ، وعن أحوال المجرمين فى هذا اليوم العسير .

ثم ساق — سبحانه — بعد ذلك جانباً من قصة موسى مع فرعون ، لتكون تسلية للنبى — صلى الله عليه وسلم — عما أصابه من هؤلاء الجاحدين ، وتهديداً لهم حتى يقلعوا عن غيهم . . فقال — تعالى — :

هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾

إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ
إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ
وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ
ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن وجه المناسبة بين هذه القصة وبين ماقبلها من وجهين :

الأول : أنه — تعالى — حكى عن الكفار إصرارهم على إنكار البعث ، حتى انتهوا فى ذلك الإنكار إلى حد الاستهزاء فى قولهم : « تلك إذا كرة خاسرة » ، وكان ذلك يشق على الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فذكر — سبحانه — قصة موسى — عليه السلام — ، وبين أنه تحمل المشقة فى دعوة فرعون ، ليكون ذلك تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم -

الثانى : أن فرعون كان أقوى من كفار قريش . . . فلما تمرد على موسى ، أخذه الله — تعالى — نكال الآخرة والأولى ، فكذلك هؤلاء المشركون فى تمردهم عليك ، إن أصروا ، أخذهم الله وجعلهم نكالا . . » (١)

والمقصود من الاستفهام فى قوله — تعالى — : « هل أتاك حديث موسى . . . » التشويق إلى الخبر ، وجعل السامع فى أشد حالات الترقب لما سيلقى إليه ، حتى يكون أكثر وعياً لما سيسمعه .

والخطاب للرسول — صلى الله عليه وسلم — لقصد تسليته ، ويندرج فيه كل من يصلح له .

والمعنى : هل وصل إلى علمك — أيها الرسول الكريم — خبر موسى - عليه السلام - مع فرعون ؟ إن كان لم يصل إليك فهاك جانباً من خبره نقصه عليك ، فتنبه له ، لتزداد ثباتاً على ثباتك ، وثقة فى نصر الله - تعالى - لك على ثقتك .

والظرف « إذ » فى قوله - تعالى - : « إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى » متعلق بلفظ « حديث » ، والجملة بدل اشتمال مما قبلها .

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٣٢١

و « الوادى » المكان المنخفض بين جبلين ، أو بين مكانين مرتفعين . والمقدس : بمعنى المطهر .

و « طوى » اسم للوادى . وقد جاء الحديث عنه فى آيات متعددة ، منها قوله — تعالى — : فلما أتاها — أى النار — نودى يا موسى . إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى . . . »(١) .

والمعنى : هل بلغك — أيها الرسول الكريم — خبر موسى ، وقت أن ناديناه وهو بالواد المقدس طوى ، الذى هو بجانب الطور الأيمن ، بالنسبة للقادم من أرض مدين التى هى فى شمال الحجاز .

ويدل على ذلك قوله — تعالى — : فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا . لعلى آتيكم منها بخبر أوجذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما آتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين . . . » (٢) .

وقوله — سبحانه — : « إذهب إلى فرعون . . . . » مقول لقول محذوف ، أى : ناديناه وقلنا له : « اذهب » يا موسى « إلى فرعون إنه طغى » أى : إنه تجاوز كل حد فى الكفر والغرور والعصيان .

وفرعون : لقب لكل ملك من ملوك مصر فى ذلك الزمان ، وقد قالوا إن فرعون الذى أرسل الله — تعالى — إليه موسى — عليه السلام — هو منفتاح بن رمسيس الثانى .

ثم بين — سبحانه — ماقاله لموسى على سبيل الإرشاد إلى أحكم وأفضل

---

(١) سورة طه الآيات ١١ ، ١٢

(٢) « القصص « ٢٩ ، ٣٠

وسائل الدعوة إلى الحق فقال : فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى . . . » .

والمقصود بالاستفهام هنا : الحض والترغيب فى الاستجابة للحق ، كما تقول لمن تنصحه : هل لك فى كذا . والجار والمجرور « لك » خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هل لك رغبة فى التزكية .

أى : اذهب ياموسى إلى فرعون ، فقل له على سبيل النصح الحكيم ، والإرشاد البليغ . . . هل لك يافرعون رغبة فى أن أدلك على يزيلك ويطهرك من الرجس والفسوق والعصيان .

وهل لك رغبة ـ أيضاً ـ فى أن أرشدك إلى الطريق الذى يوصلك إلى رضى ربك ، فيترتب على وصولك إلى الطريق السوى ، الخشية منه - تعالى - والمعرفة التامة بجلاله وسلطانه .

قال صاحب الكشاف : قوله : « وأهديك إلى ربك . . . . » أى : وأرشدك إلى معرفة الله ، أى : أنبهك عليه فتعرفه « فتخشى » لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة . . وذكر الخشية ، لأنها ملاك الأمر ، من خشى الله ، أتى منه كل خير ، ومن أمن اجترأ على كل شىء . ومنه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من خاف أدلج ـ أى : سار فى أول الليل ـ ، ومن أدلج بلغ المنزل » .

بدأ مخاطبته بالاستفهام الذى معناه العرض ، كما يقول الرجل لضيفه هل لك أن تنزل بنا ؟ وأردفه الكلام الرقيق ليستدعيه بالتلطف فى القول ويستنزله بالمداراة من عتوه ، كما أمر بذلك فى قوله ـ تعالى : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى . . » (١) .

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٦٩٥

والحق أن هاتين الآيتين فيهما أسمى ألوان الإرشاد إلى الدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة .

والفاء فى قوله - تعالى - : « فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى . . » للإفصاح والتفريع على كلام محذوف يفهم من المقام . والتقدير : فامتثل موسى - عليه السلام - أمر ربه ، فذهب إلى فرعون ، فدعاه إلى الحق ، فكذبه فرعون ، فما كان من موسى إلا أن أراه الآية الكبرى التى تدل على صدقه ، وهى أن ألقى أمامه عصاه فإذا هى حية تسعى ، وأن نزع يده من جيبه فإذا هى بيضاء من غير سوء .

ولكن فرعون لم يستجب لدعوة موسى ، بعد أن أراه الآية الكبرى الدالة على صدقه ، بل كذب ما رآه تكذيباً شديدا ، وعصى أمر ربه عصيانا كبيرا .

« ثم أدبر يسعى » أى : ثم أضاف إلى تكذيبه وعصيانه ، إعراضه وتوليه عن الإيمان والطاعة ، وسعيه سعيا حثيثا فى إبطال أمر موسى ، وإصراره على تكذيب معجزاته .

وجاء العطف هنا بثم ، للدلالة إلى أنه قد تجاوز التكذيب والعصيان ، إلى ما هو أشد منهما فى الجحود والعناد ، وهو الإعراض عن الحق ، والسعى الشديد فى إبطاله .

ثم بين - سبحانه - ما فعله بعد ذلك فقال : « فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى . . . » .

والحشر : جمع الناس . والنداء : الجهر بالصوت لإسماع الغير ، ومفعولاهما محذوفان .

أى : فجمع فرعون الناس عن طريق جنده ، وناداهم بأعلى صوته ، قائلا لهم : أنا ربكم الأعلى الذى لا رب أعلى منه ، وليس الأمر كما يقول موسى من أن لكم إلها سواى .

والتعبير بالفاء في قوله : « فنادى » للإشعار بأنه بمجرد أن جمعهم دعاهم إلى الاعتراف له بأنه هو رب الأرباب .

وجاء نداؤه بالصيغة الدالة على الحصر « أنا ربكم الأعلى » للرد على ما قاله موسى له ، من وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده .

ثم بين - سبحانه - ما ترتب على هذا الفجور الذي تلبس به فرعون ، وعلى هذا الطغيان الذي تجاوز معه كل حد ، فقال : « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . . . » .

والنكال : مصدر بمعنى التنكيل ، وهو العقاب الذي يجعل من رآه في حالة تمنعه وتصرفه عما يؤدي إليه ، يقال نكّل فلان بفلان ، إذا أوقع به عقوبة شديدة تجعله نكالا وعبرة وعظة لغيره . وهو منصوب على أنه مصدر مؤكد لقوله « فأخذه » ، لأن معناه نكل به . والتعبير بالأخذ للإشعار بأن هـــذه العقوبة كانت محيطة بالمأخوذ بحيث لا يستطيع التفلت منها .

والمراد بالآخرة الدار الآخرة ، والمراد بالأولى : الحياة الدنيا .

أي : أن فرعون عندما تمادى في تكذيبه وعصيانه وطغيانه .. كانت نتيجة ذلك أن أخذه الله — تعالى — أخذ عزيز مقتدر ، بأن أنزل به في الآخرة أشد أنواع الإحراق ، وأنزل به في الدنيا أفظع ألوان الإغراق .

وقدم — سبحانه — عذاب الآخرة على الأولى ، لأنه أشد وأبقى .

ومنهم من يرى أن المراد بالآخرة قوله لقومه « أنا ربكم الأعلى » ، وأن المراد بالأولى تكذيبه لموسى - عليه السلام - أي ، فعاقبه الله - تعالى - على هاتين المعصيتين هذا العقاب الأليم ، بأن أغرقه ومن معه جميعاً ..

ويبدو لنا أن التفسير الأول هو الأقرب إلى ما تفيده الآية الكريمة ،

إذ من المعروف أن الآخرة ، هى ما تقابل الأولى وهى دار الدنيا ، ولذا قال الإمام ابن كثير : قوله — تعالى — :

« فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » أى : انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتمردين فى الدنيا ، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ، كما قال — تعالى — :

« وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون » . هذا هو الصحيح فى معنى الآية ، أن المراد بقوله : « نكال الآخرة والأولى » أى : الدنيا والآخرة . وقيل : المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية . وقيل : كفره وعصيانه . والصحيح الذى لاشك فيه الأول »(١) .

والإشارة فى قوله — تعالى — : « إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » تعود إلى حديث موسى الذى دار بينه وبين فرعون ، وما ترتب عليه من نجاة لموسى ، ومن إهلاك لفرعون .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه عما دار بين موسى وفرعون ، لعبرة وعظة ، لمن يخشى الله — تعالى — ، ويقف عند حدوده ، لا لغيره ممن لا يتوبون ولا يتذكرون ولا تخالط أنفسهم خشية الله — تعالى — .

والمقصود من هذه القصة كلها ، تسلية الرسول — ﷺ — ، وتهديد المشركين بأنهم إذا ما استمروا فى طغيانهم ، كانت عاقبتهم كعاقبة فرعون . .

وبعد هذا الاستطراد عن طريق ذكر جانب مما دار بين موسى وفرعون . . عادت السورة الكريمة ، كما بدأت إلى الحديث عن أهوال يوم القيامة ، وعن إمكانية وقوعه ، وعن أحوال الناس فيه . وعن أن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٣٨ .

موعد قيامه مرد علمه إلى الله — تعالى — وحده ، فقال — سبحانه — :

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ
سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ
بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ
أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ
ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ
لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ
ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ
عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ
أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ
مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ
يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

والخطاب فى قوله — تعالى — : « أأنتم أشد خلقا . . . » لأولئك الجاحدين الجاهلين الذين استنكروا إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم ، وقالوا « أئنا لمردودون فى الحافرة . . . » .

وجاء هذا الخطاب على سبيل التقريع والتوبيخ لهم، حيث بين لهم ـ سبحانه ـ أن إعادتهم إلى الحياة، ليست بأصعب من خلق السموات والأرض . . .

و « أشد » أفعل تفضيل، والمفضل عليه محذوف، لدلالة قوله ـ تعالى ـ « أم السماء » عليه.

والمراد بالأشد هنا: الأصعب بالنسبة لا عتقاد المخاطبين، إذ كل شيء فى هذا الكون خاضع لإرادة الله ـ تعالى ـ ومشيئته « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ».

والمعنى: أخلقكم ـ أيها الجاهلون ـ بعد موتكم، وإعادتكم إلى الحياة بعد هلاككم، أشد وأصعب فى تقديركم، أم خلق السماء التى ترون بأعينكم عظمتها وضخامتها، والتى أوجدها ـ سبحانه ـ وبناها بقدرته.

فالمقصود من الآية الكريمة لفت أنظارهم إلى أمر معلوم عندهم بالمشاهدة، وهو أن خلق السماء أعظم وأبلغ من خلقهم، ومن كان قادرا على الأبلغ والأعظم كان على ما هو أقل منه ـ وهو خلقهم وإعادتهم بعد موتهم ـ أقدر.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ: « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس . . . ».

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من بديع قدرته فى خلق السماء فقال: « رفع سمكها فسواها . . . ».

والسمك: ـ بفتح السين المشددة وسكون الميم ـ الرفع فى الفضاء، وجعل الشىء عاليا عن غيره.

تقول: سمكت الشىء، إذا رفعته فى الهواء، وبناء مسموك، أى: مرتفع، ومنه قول الشاعر:

إن الذى سمك السماء بنى لنا   بيتا دعائمه أعز وأطول

أى: أن الله ـ تعالى ـ بقدرته، جعل مقدار ارتفاع السماء عن

الأرض عظيما ، وبجانب ذلك سوى بحكمته هذه السماء ، بأن جعلها خالية من الشقوق والثقوب . . كما قال - سبحانه - « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت . . » .

وجملة « وأغطش ليلها . . . » معطوفة على « بناها » ، والإغطاش : الإظلام الشديد . يقال : غطش الليل - من باب ضرب - إذا اشتد ظلامه .

أى : وجعل - بقدرته - ليل هذه السماء مظلما غاية الإظلام ، بسبب مغيب شمسها .

« وأخرج ضحاها » أى : وأبرز وأضاء نهارها ، إذ الضحى فى الأصل: انتشار الشمس ، وامتداد النهار . ثم سمى به هذا الوقت ، لبروز ضوء الشمس فيه أكثر من غيره ، فهو من باب تسمية الشىء باسم أشرف أجزائه وأطيبها .

وأضاف - سبحانه - الليل والضحى إلى السماء لأنهما يحدثان بسبب غروب شمسها وطلوعها .

ثم انتقلت الآيات الكريمة من الاستدلال على قدرته - تعالى - عن طريق خلق السماء ، إلى الاستدلال على قدرته عن طريق خلق الأرض فقال : « والأرض بعد ذلك دحاها » .

ولفظ « الأرض » منصوب على الاشتغال . واسم الأشارة « ذلك » يعود إلى خلق السماء وتسويتها ورفعها وإغطاش ليلها . وقوله « دحاها » من الدحو بمعنى البسط ، تقول : دحوت الشىء أدحوه ، إذا بسطته . .

أى : خلق - سبحانه - السماء وسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد كل ذلك الخلق البديع للسماء ، بسطها وأوسعها لتكون

مستقرا لكم ، وموضعاً لتقلبكم عليها . . .

وقد أخذ بعض العلماء من هذه الآية ، تأخر خلق الأرض عن خلق السماء . . .

وجمهور العلماء على أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء ، بدليل قوله - تعالى - : «هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم» (١) .

وقالوا فى الجمع بين هذه الآية التى معنا ، وبين آية سورة البقرة ، بما روى عن ابن عباس من أنه سئل عن الجمع بين هاتين الآيتين فقال : خلق الله - تعالى - الأرض أولا غير مدحوة ، ثم خلق السماء ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وجعل فيها الرواسى والأنهار وغيرهما .

أى : أن أصل خلق الأرض كان قبل خلق السماء ، ودحوها بجبالها وأشجارها ، كان بعد خلق السماء .

وقالوا - أيضاً - فى وجه الجمع ، إن لفظ بعد فى قوله - تعالى - «بعد ذلك» بمعنى مع ، أى : والأرض مع ذلك بسطها ومهدها لسكنى أهلها فيها . . » (٢) .

وقدم - سبحانه - هنا خلق السماء على الأرض ، لأنه أدل على القدرة الباهرة ، لعظم السماء ، وانطوائها على الأعاجيب .

وقوله - سبحانه - «أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . . » بدل اشتمال من قوله «دحاها» ، أو بيان وتفسير لدحوها .

والمرعى : مصدر ميمى أطلق على المفعول ، كالخلق بمعنى المخلوق ، أى : أخرج منها ما يرعى .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٩

(٢) راجع تفسيرنا لسورة فصلت . المجلد الثانى عشر ص ١٩١ .

أى : والأرض جعلها مستقرا لكم ، ومكاناً لانتفاعكم ، بأن أخرج منها ماءها ، عن طريق تفجير العيون والآبار والبحار ، وأخرج منها مرعاها ، أى : جميع ما يقتات به الناس والدواب ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك : « متاعاً لكم ولأنعامكم » .

وكذلك من مظاهر قدرته - تعالى - ورحمته بكم ، أنه أثبت الجبال فى الأرض حتى لا تميد أو تضطرب فالمقصود بإرسال الجبال : تثبيتها فى الأرض . .

وقوله - تعالى - : « متاعاً لكم ولأنعامكم » بيان لوجه المنة فى خلق الأرض على هذه الطريقة البديعة .

والمتاع . اسم لما يتمتع به الإنسان من منافع الحياة الدنيا لمدة محدودة من الزمان ، وانتصب لفظ « متاعاً » هنا بفعل مقدر من لفظه ، أى : متعناكم متاعاً . .

والمعنى : دحونا الأرض ، وأخرجنا منها ماءها ومرعاها . لتكون موضع منفعة لكم ، تتمتعون بخيراتها أنتم وأنعامكم ، إلى وقت معين من الزمان ، تتركونها لانتهاء أعماركم .

ثم بين - سبحانه - حال الأشقياء والسعداء يوم القيامة ، فقال : « فإذا جاءت الطامة الكبرى . . . » .

والطامة : اسم للمصيبة العظمى ، التى تطم وتغلب وتعلو ما سواها من مصائب ، من قولهم : طم الشىء يطمه طما ، إذا غمره . وكل شىء كثر وعلا على غيره ، فقد طم عليه ويقال : طم الماء الأرض ، إذا غمرها .

وهـــذا الوصف ليوم القيامة ، من أوصاف التهويل والشدة ، لأن أحوالها تغمر الناس وتجعلهم لا يفكرون فى شىء سواها .

وجواب الشرط محذوف ، والمجىء هنا : بمعنى الحدوث والوقوع .

أى : فإذا وقعت القيامة ، وقامت الساعة . . حدث ما لم يكن فى الحسبان من شدائد وأهوال .

وقوله : « يوم يتذكر الإنسان ما سعى » بدل اشتمال من الجملة التى قبلها وهى قوله : « فإذا جاءت الطامة » لأن ما أضيف إليه لفظ « يوم » من الأحوال التى يشملها يوم القيامة ، وتذكر الإنسان لسعيه فى الدنيا ، يكون بإطلاعه على أعماله التى نسيها ، ورؤيته إياها فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

أى : فإذا قامت القيامة ، وتذكر الإنسان فى هذا الوقت ما كان قد نسيه من أعمال فى دنياه ، وقع له من الخوف والفزع ما لا يدخل تحت وصف . . .

وقوله « وبرزت الجحيم لمن يرى » معطوف على قوله « جاءت » ، أى : فإذا جاءت الطامة الكبرى ، وتذكر الإنسان فيها ما كان قد نسيه من أعمال دنيوية ، « وبرزت الجحيم » أى : وأظهرت إظهاراً واضحاً لا خفاء فيه ولا لبس « لمن يرى » أى : لكل راء .. كان الهول الأعظم .

وقوله — سبحانه — : فأما من طغى . . » تفصيل لأحوال الناس فى هذا اليوم .

أى . « فأما من طغى » بأن تجاوز الحدود فى الكفر والفسوق والعصيان « وآثر الحياة الدنيا » بأن قدم متاعها الفانى ، على نعيم الآخرة الخالدة . . .

« فإن الجحيم هى المأوى » أى : فإن مصير هذا الإنسان الشقى سيكون إلى النار الملتهبة ، لا منزل له سواها فى هذا اليوم .

« وأما من خاف ربه » أى : خاف عظمته وجلاله ، وسلح نفسه بالإيمان والعمل الصالح استعداداً لهذا اليوم الذى يجازى فيه كل إنسان بما يستحقه .

« ونهى النفس عن الهوى » أى : وزجر نفسه وكفها عن السيئات والمعاصى والميول نحو الأهواء الضالة المضلة . .

« فإن الجنة هى المأوى » أى : فإن الجنة فى هذا اليوم ، ستكون هى مأواه ومنزله ومستقره . .

ثم لقن الله — تعالى — نبيه — صلى الله عليه وسلم — الجواب الذى يرد به على المشركين ، الذين كانوا يكثرون من سؤاله عن يوم القيامة ، على سبيل الإنكار والاستهزاء ، فقال — تعالى — : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها . . » .

وأيان : أسم يستفهم به عن تعيين الوقت وتحديده ، فهو ظرف زمان متضمن معنى « متى » ومرساها : مصدر ميمى من أرسى الشىء إذا ثبته وأقره ، ولا يكاد يستعمل هذا اللفظ إلا فى الشىء الثقيل ، كما فى قوله — تعالى — : « والجبال أرساها » .

ونسبة الإرساء إلى الساعة ، باعتبار تشبيه المعانى بالأجسام . و « أيان » خبر مقدم ، و « مرساها » مبتدأ مؤخر .

والمعنى : يسألك يا محمد هؤلاء القوم عن وقت قيام الساعة ، قائلين لك : متى يكون استقرارها وإرساؤها ووقوعها ؟

وأطلق على يوم القيامة ساعة ، لوقوعه بغتة ، أو لسرعة ما فيه من الحساب ، أو لأنه على طوله ، زمن يسير عند الله — تعالى — .

وقوله — سبحانه — : « فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها . . » واقع موقع الجواب عن سؤالهم عن الساعة . وعن وقت وقوعها . .

والمقصود بهذا الجواب توبيخهم على إلحاحهم فى السؤال عنها ، مع أن الأولى بهم كان الاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح .

و « ما » فى قوله « فيم » اسم استفهام بمعنى : أى شىء ، وهى هنا مستعملة

فى التعجيب من كثرة أسئلتهم عن شىء لا يهمهم حدوثه ، وإنما الذى يهمهم — لو كانوا يعقلون — هو حسن الاستعداد له .

قال الآلوسى : قوله : «فيم أنت من ذكراها . .» إنكار ورد لسؤال المشركين عنها . أى : فى أى شىء أنت من أن تذكر لهم وقتها ، وتعلمهم به حتى يسألوك بيانها ، كقوله - تعالى - : «يسألونك كأنك حفى عنها» فالاستفهام للإنكار . وفيم خبر مقدم ، وأنت مبتدأ مؤخر ، وقوله «من ذكراها» على تقدير مضاف ، أى : ذكرى وقتها ، وهو متعلق بما تعلق به الخبر .

وقوله : «فيم» إنكار لسؤالهم ، ومابعده استئناف وتعليل للإنكار ، وبيان لبطلان السؤال . أى : فيم هذا السؤال ، ثم ابتدىء فقيل : أنت من ذكراها . أى : إرسالك وأنت خاتم النبيين . . . . . علامة من علاماتها . . . » (١) .

وقوله - تعالى - : «إلى ربك منتهاها» أى : إلى ربك وحده منتهى علم قيامها ، لأنه - سبحانه - هو وحده - دون غيره - العليم علماً تاماً بالوقت الذى ستقوم فيه الساعة .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله : «إن الله عنده علم الساعة . . .» وقوله - سبحانه - : «يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو . . . .» .

وقوله - تعالى - : «إنما أنت منذر من يخشاها» تحديد لوظيفته - صلى الله عليه وسلم - . أى : ليست وظيفتك - أيها الرسول الكريم - معرفة الوقت الذى تقوم فيه الساعة ، فهذا أمر مرد معرفته إلى الله وحده . .

وإنما وظيفتك امتثال ما أمرت به ، من بيان اقترابها ، وتفصيل أهوالها ،

(١) تفسير الآلوسى ج ٣٠ ص ٣٧

ودعوة النـاس إلى حسن الاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح . . ،

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا ترك هؤلاء الجاهلون ما يجب عليهم من الإيمان والعمل الصالح ، وأخذوا يسألونك عن أشياء خارجة عن وظيفتك ؟

وخص ــ سبحانه ــ الإنذار بمن يخشى قيام الساعة ، مع أن رسالته ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى الناس كافة ، وإنذاره إنما هو لهم جميعاً ، لأن هؤلاء الذين يخشون وقوعها ، ويعملون العمل الصالح الذى ينجيهم من أهوالها ، هم الذين ينتفعون بهذا الإنذار .

ثم ختم ــ سبحانه ــ السورة الكريمة ، ببيان حالهم عند قيام الساعة ، فقال ـ تعالى ـ : كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » .

والعشية : هى الوقت الكائن من الزوال إلى الغروب . والضحى : الوقت الكائن من أوائل النهار إلى الزوال .

أى : كأن هؤلاء المشركين حين يرون الساعة وقد فاجأتهم بأهوالها ، لم يلبثوا فى دنياهم أوفى قبورهم إلا وقتاً يسيراً ، يشبه العشية أو الضحى بالنسبة للزمان الطويل .

فالمقصود من الآية الكريمة ، بيان أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن المشركين عند إتيانها كأنهم ما لبثوا فى انتظارها إلا يوماً أو بعض يوم . . .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف صحت إضافة الضحى إلى العشية ؟ قلت : لما بينهما من الملابسة لاجتماعهما فى نهار واحد .

فإن قلت : فهلا قيل : إلا عشية أو ضحى وما فائدة الإضافة ؟ قلت : للدلالة على أن مدة لبثهم كأنها لم تبلغ يوماً كاملا ، ولكن ساعة منه عشيته أو ضحاه ، فلما ترك اليوم أضافه إلى عشيته ، فهو كقوله : « لم يلبثوا إلا ساعة من نهار » (١) .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « النازعات » نسأل الله — تعالى — أن يجعله خالصاً لوجهه ونافعاً لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر : مساء الأربعاء ١٣ من المحرم سنة ١٤٠٧ هـ
١٧ / ٩ سنة ١٩٨٦ م

(١) تفسير الكشاف ح ٤ ص ٦٩٩

تفسير سورة

عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة « عبس . . »

١ ـ سورة « عبس » من السور المكية ، وتسمى سورة « الصاخة » وسورة « السفرة » لوقوع هذه الألفاظ فيها .

٢ ـ وعدد آياتها اثنتان وأربعون آية فى المصحف الكوفى ، وإحدى وأربعون فى البصرى ، وأربعون فى الشامى . وكان نزولها بعد سورة « النجم » ، وقبل سورة « القدر » ، فهى تعتبر السورة الثالثة والعشرون فى ترتيب النزول ، أما فى ترتيب المصحف فهى السورة الثمانون .

وقد افتتحت بإرشاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى ما يجب عليه نحو ضعفاء المسلمين ، وبإرساء القاعدة التى يجب على المسلمين أن يتبعوها عند معاملتهم للناس ، والثناء على المؤمنين الصادقين مهما كان عجزهم وضعفهم والتحذير من إهمال شأنهم .

ثم تذكير المؤمنين بجانب من نعمه ـ تعالى ـ عليهم ، لكى يزدادوا شكرا له ـ تعالى ـ على شكرهم ، ثم تذكيرهم ـ أيضاً ـ بأهوال يوم القيامة ، وبأحوال الناس فيه .

قال ـ تعالى ـ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ
يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾
فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ
يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا
تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ
مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات ملخصها : أن النبى — ﷺ — كان جالسا فى أحد الأيام ، مع جماعة من زعماء قريش يدعوهم إلى الإسلام ، ويشرح لهم تعاليمه ، فأقبل عبد الله بن أم مكتوم — وكان كفيف البصر — فقال : أقرئنى وعلمنى مما علمك الله ، يارسول الله وكرر ذلك ، وهو لا يعلم أن الرسول — ﷺ — مشغول بدعوة هؤلاء الزعماء إلى الإسلام ، رجاء أن يسلم بسبب إسلامهم خلق كثير . . .

فلما أكثر عبد الله من طلبه ، أعرض عنه الرسول — ﷺ — ، فنزلت هذه الآيات التى عاتب الله — تعالى — فيها نبيه — ﷺ — على هذا الإعراض . . فكان الرسول الله — ﷺ — بعد ذلك يكرمه ، إذ رآه ، ويقول له : « مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى » ، ويبسط له رداءه . . . . »(١) .

قال الآلوسى : وعبد الله بن أم مكتوم ، هو ابن خال السيدة خديجة ، واسمه عمرو بن قيس ، . . وأم مكتوم كنية أمه ، واسمها عاتكة بنت عبد الله المخزومية . . واستخلفه — ﷺ — على المدينة أكثر من مرة . . وهو من المهاجرين الأولين . . قيل : مات بالقادسية شهيدا يوم فتح المدائن أيام عمر بن الخطاب — رضى الله عنه . . »(٢) .

ولفظ « عبس » — من باب ضرب — مأخوذ من العبوس ، وهو تقطيب الوجه ، وتغير هيئته مما يدل على الغضب . .

وقوله « وتولى » مأخوذ من التولى وأصله تحول الإنسان عن مكانه الذى هو فيه إلى مكان آخر .

والمراد به هنا الإعراض عن السائل وعدم الإقبال عليه .

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٤٢ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٣٩ .

وحذف متعلق التولى، لمعرفة ذلك من سياق الآيات، إذ من المعروف أن إعراضه - ﷺ - كان عن عبد الله بن أم مكتوم، الذى قاطعه خلال حديثه مع بعض زعماء قريش.

وأل فى قوله - تعالى - : «الأعمى» للعهد. والمقصود بهذا الوصف: التعريف وليس التنقيص من قدر عبد الله بن أم مكتوم - رضى الله عنه - وكذلك فى هذا الوصف إيماء إلى أن له عذرا فى مقاطعة الرسول - ﷺ - عند حديثه مع زعماء قريش، فهو لم يكن يراه وهو يحادثهم ويدعوهم إلى الإسلام.

وجاء الحديث عن هذه القصة بصيغة الحكاية، وبضمير الغيبة، للإشعار بأن هذه القصة، من الأمور التى لا يحب الله - تعالى - أن يواجه بها نبيه - ﷺ -، على سبيل التكريم له، والعطف عليه، والرحمة به.

وجملة «وما يدريك لعله يزكى» فى موضع الحال، وفيها التفات من الغيبة إلى الخطاب، و«ما» استفهامية مبتدأ، وجملة «يدريك» خبره. والكاف مفعول أول، وجملة الترجى سادة مسد المفعول الثانى. والضمير فى «لعله» يعود إلى عبد الله بن أم مكتوم المعبر عنه بالأعمى.

والمعنى: عبس - ﷺ - وضاق صدره، وأعرض بوجهه.. لأن جاءه الرجل الأعمى، وجعل يخاطبه وهو مشغول بالحديث مع غيره..

«وما يدريك» أى: وأى شىء يجعلك - أيها الرسول الكريم - داريا بحال هذا الأعمى الذى عبست فى وجهه «لعله» يزكى» أى: لعله بسبب ما يتعلمه منك يتطهر ويتزكى، ويزداد نقاء وخشوعا لله رب العالمين «أو» لعله «يذكر» أى: يتذكر ما كان فى غفلة عنه «فتنفعه الذكرى» أى: فتنفعه الموعظة التى سمعها منك.

قال الآلوسى ما ملخصه : وفى التعبير عنه - ﷺ - بضمير الغيبة إجلال له . . كما أن فى التعبير عنه - ﷺ - بضمير الخطاب فى قوله - تعالى - « وما يدريك . . » إكرام له - أيضاً - ، لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش والإقبال بعد الإعراض . . »(١) .

ثم فصل - سبحانه - ما كان منه - صلى الله عليه وسلم - بالنسبة لهذه القصة فقال : « أما من استغنى فأنت له تصدى . وما عليك أن لا يزكى . وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى » .

أى : أما من استغنى عن الإيمان ، وعن إرشادك - أيها الرسول الكريم - واعتبر نفسه فى غنى عن هديك . . « فأنت له تصدى » أى : فأنت تتعرض له بالقبول ، وبالإصغاء لكلامه ، رجاء أن يسلم ، فيسلم بعده غيره . . .

يقال : تصدى فلان لكذا ، إذا تعرَّض له ، وأصله تصدَّدَ من الصَّدَدِ ، وهو ما استقبلك وصار قبالتك .

« وما عليك ألا يزكى » أى : وأى شىء عليك فى أن يبقى على كفره ، بدون تطهر ؟ إنه لا حرج عليك فى ذلك ، فأنت عليك البلاغ ونحن علينـــا الحساب ، و « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء . . . » .

و « ما » نافية ، و « عليك » خبر مقدم ، وقوله : « ألا يزكى » مبتدأ مؤخر . .

« وأما من جاءك يسعى » أى : من جاءك مسرعا فى طلب الخـــير والهداية والعلم ، وهو هذا الأعمى ، الذى لم يمنعه فقدانه لبصره من الحرص على التفقه فى الدين . .

(١) تفسير الآلوسى ج ٣٠ ص ٣٩ .

« وهو يخشى » أى : وهو يخشى الله ، ويخاف عقابه ، ويرجو ثوابه .

« فأنت عنه تلهى » أى: فأنت عنه تتشاغل ، وتفرغ جهدك مع هؤلاء الزعماء ، طمعاً فى إيمانهم . .

ويلاحظ أن هذه الآيات الكريمة ، أكثر حدة فى العتاب من سابقتها ، حيث ساق — سبحانه — هذه الآيات فى صورة أشبه ما تكون بالتعجيب ممن يفعل ذلك . .

ثم ساق — سبحانه — ما هو أشد فى العتاب وفى التحذير فقال : « كلا إنها تذكرة . . . » .

أى : كلا - أيها الرسول الكريم - ليس الأمر كما فعلت ، من إقبالك على زعماء قريش طمعا فى إسلامهم ، ومن تشاغلك وإعراضك عن جاء يسعى وهو يخشى . .

والضمير فى قوله « إنها » يعود إلى آيات القرآن الكريم . أى : إن آيات القرآن الكريم لمشتملة على التذكير بالحق ، وعلى الموعظة الحكيمة التى ينبغى على كل عاقل أن يعمل بموجبها ، وأن يسير بمقتضاها . .

« فمن شاء ذكره » أى : فمن شاء أن يتعظ ويعتبر وينتفع بهذا التذكير فاز وربح ، ومن شاء غير ذلك خسر وضاع ، فالجملة الكريمة لتهديد الذين يعرضون عن الموعظة ، وليست للتخيير كما يتبادر من فعل المشيئة .

وهى معترضة للترغيب فى حفظ هذه الآيات ، وفى العمل بما اشتملت عليه من هدايات .

وجاء الضمير مذكرا فى قوله : « فمن شاء ذكره » ، لأن التذكرة هنا بمعنى التذكير والاتعاظ .

أى : فمن شاء التذكر والاعتبار ، تذكر واعتبر ، وحفظ ذلك دون أن ينساه .

وقوله : «فى صحف مكرمة» خبر ثان لقوله «إنها تذكرة» وما بينهما اعتراض . .

أى : إن آيات القرآن تذكرة ، مثبتة أو كائنة فى صحف عظيمة «مكرمة» عند الله — تعالى — لأنها تحمل آياته .

هـــذه الصحف — أيضاً — «مرفوعة» أى : ذات منزلة رفيعة «مطهرة» أى : منزهة عن أن يمسها ما يدنسها .

وهى كائنة «بأيدى سفرة» وهم الملائكة الذين جعلهم الله — تعالى — سفراء بينه وبين رسله : جمع سافر بمعنى سفير ، أى : رسولا وواسطة أو هم الملائـكة الذين ينسخون ويكتبون هذه الآيات بأمره — تعالى — جمع سافر بمعنى كاتب ، يقال : سفَـر فلان يَسْفِـره ، إذا كتبه .

«كرام بررة» أى : هذه الآيات بأيدى سفرة من صفاتهم أنهم مكرمون ومعظمون عنده — تعالى — ، وأنهم أتقياء مطيعون لله — تعالى — كل الطاعة . جمع بَر ، وهو من كان كثير الطاعة والخشوع لله - عز وجل - .

هذا والمتأمل فى هذه الآيات الـكريمة يراها قد اشتملت على كثير من الآداب والأحكام ومن ذلك : أن شريعة الله — تعالى — تجعل التفاضل بين الناس ، أساسه الإيمان والتقوى ، فمع أن عبد الله بن أم مكتوم ، كان قد قاطع الرسول — صلى الله عليه وسلم — خلال حديثه مع بعض زعماء قريش . . . ومع أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — لم يتشاغل عنه إلا لحرصه على جذب هؤلاء الزعماء إلى الإسلام . .

مع كل ذلك ، وجدنا الآيات الـكريمة ، تعاتب النبى - صلى الله عليه وسلم - عتاباً تارة فيه رقة . وتارة فيه شدة .

وذلك لأن الميزان الذى أنزله الله - تعالى - للناس مع الرسل ، لـكى يبنوا عليه حياتهم ، هو : «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» . .

ولقد استجاب الرسول الكريم لهذا التوجيه الحكيم ، فبنى حياته كلها بعد ذلك على هذا الميزان العادل ، ومن مظاهر ذلك : إكرامه لابن أم مكتوم ، وقوله له كلما رآه : « أهلا بمن عاتبنى فيه ربى » .

وفعل - صلى الله عليه وسلم - مايشبه ذلك ، مع جميع المؤمنين الصادقين الذين كانوا من فقراء المسلمين ، ولم يكونوا أصحاب جاه أو نفوذ أو عشيرة قوية .

لقد جعل زيد بن حارثة - وهو الغريب عن مكة والمدينة - أميرا على الجيش الإسلامى فى غزوة مؤتة ، وكان فى هذا الجيش عدد كبير من كبار الصحابه .

وقال - صلى الله عليه وسلم - فى شأن سلمان الفارسى : « سلمان منا أهل البيت » .

وقال - صلى الله عليه وسلم - فى شأن عمار بن ياسر ، عند ما استأذن عليه فى الدخول : « ائذنوا له . مرحباً بالطيب المطيب » .

وكان من مظاهر تكريمه لعبد الله بن مسعود ، أن جعله كأنه واحد من أهل بيته .

فعن أبى موسى الأشعرى قال : قدمت أنا وأخى من اليمن ، فمكثنا حيناً وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، من كثرة دخولهم على رسول الله ، ولزومهم له .

وقال - صلى الله عليه وسلم - لأبى بكر الصديق - عند ما حدث كلام بينه وبين سلمان وصهيب وبلال فى شأن أبى سفيان - : يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك .

فقد أخرج الإمام مسلم فى صحيحه . . . أن أبا سفيان أتى على سلمان

وصهيب وبلال فى نفر ، فقالوا : ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها . فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟

فأتى النبى — ﷺ — فأخبره ، فقال : « يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك ، فأتاهم فقال : يا إخوتاه أأغضبتكم؟ قالوا : لا . ويغفر الله يا أخى »(١) .

ولقد سار خلفاؤه — ﷺ — على هذه السنة ، فكانوا يكرمون الفقراء ، فأبو بكر — رضى الله عنه — أذن لصهيب وبلال فى الدخول عليه ، قبل أن يأذن لأبى سفيان ، وسهيل بن عمرو . .

وعمر ـ رضى الله عنه ـ يقول فى شأن أبى بكر : « هو سيدنا وأعتق سيدنا » يعنى : بلال بن رباح قال صاحب الكشاف عند تفسيره ، لهذه الآيات : ولقد تأدب الناس بأدب الله فى هذا تأدبا حسنا ، فقد روى عن سفيان الثورى ـ رحمه الله ـ ، أن الفقراء كانوا فى مجلسه أمراء »(٢) .

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، إلى الحديث عن جانب من نعم الله ـ تعالى ـ على خلقه ، وموقفهم من هذه النعم ، فقال ـ تعالى ـ :

---

(١) رياض الصالحين ص ١٤٢ . باب : ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة . .

(٢) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٧٠١ .

قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ
مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ
فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ
أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ
طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ
شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا
وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ
أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ
مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾
ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾
تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما بدأ بذكر القصة المشتملة على ترفع صناديد قريش على فقراء المسلمين ، عجب عباد المؤمنين من ذلك. فكأنه قيل : وأى سبب فى هذا العجب والترفع ؟ مع أن أوله نطفة قذرة ، وآخره جيفة مذرة ، وفيما بين الوقتين حمال عذره . فلا عجب ذكر الله - تعالى - ما يصلح أن يكون علاجا لعجبهم ، وما يصلح أن يكون علاجا لكفرهم ، فإن خلقة الإنسان يستدل بها على وجود الصانع ، وعلى القول

بالبعث والحشر والنشر »(١) .

والمراد بالإنسان هنا : الإنسان الكافر الجاحد لنعم ربه . ومعنى « قتل » : لعن وطرد من رحمة الله - تعالى - ، ويصح أن يكون المراد به الجنس ، ويدخل فيه الكافر دخولا أوليا .

أى : لعن وطرد من رحمة الله - تعالى - ذلك الإنسان الذى ما أشد كفره وجحوده لنعم الله - تعالى - .

والدعاء عليه باللعن من الله - تعالى - ، المقصود به : التهديد والتحقير من شأن هذا الإنسان الجاحد ، إذ من المعلوم أن الله - سبحانه - هو الذى يتوجه إليه الناس بالدعاء ، وليس هو - سبحانه - الذى يدعو على غيره ، إذ الدعاء فى العادة إنما يكون من العاجز ، وجل شأن الله - تعالى - عن العجز .

وجملة « ما أكفره » تعليل لاستحقاق هـــذا الإنسان الجاحد للتحقير والتهديد .

وهذه الآية الكريمة المتأمل فيها يراها - مع بلوغها نهاية الإيجاز - قد بلغت - أيضاً - نهاية الإعجاز فى أسلوبها ، حيث جمعت أشد ألوان الذم والتحقير بأبلغ أسلوب وأوجزه .

ولذا قال صاحب الكشاف : « قتل الإنسان » دعاء عليه ، وهى من أشنع دعواتهم ، لأن القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها « ما أكفره » تعجيب من إفرطه فى كفران نعمة الله ، ولا ترى أسلوبا أغلظ منه ، ولا أخشن متنا ، ولا أدل على سخط ، ولا أبعد فى المذمة ، مع تقارب طرفيه ، ولا أجمع للائمة ، على قصر متنه . . »(٢) .

ثم فصل - سبحانه - جانبا من نعمه ، التى تستحق من هذا الإنسان الشكر لا الكفر فقال : « من أى شىء خلقه » أى : من أى شىء خلق الله - تعالى - هذا الإنسان الكافر الجحود ، حتى يتكبر ويتعظم عن طاعته ،

(١) تفسير الفخر الرازى حـ ٨ ص ٣٢٤ .
(٢) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٧٠٣ .

وعن الإقرار بتوحيده ، وعن الاعتراف بأن هناك بعثا وحسابا وجزاء . . ؟

ثم وضح ـ سبحانه ـ كيفية خلق الإنسان فقال : « من نطفة خلقه فقدره » أى : خلق الله ـ تعالى ـ الإنسان من نطفة ، ـ أى : من ماء قليل يخرج من الرجل إلى رحم المرأة ـ « فقدره » أى : فأوجد الله ـ تعالى ـ الإنسان بعد ذلك إيجادا متقنا محكما ، حيث صير بقدرته النطفة علقة فمضغة . . ثم أنشأه خلقا آخر « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

« ثم السبيل يسره » أى : ثم بعد أن خلقه فى أحسن تقويم ، ومنحه العقل الذى يتمكن معه من التفكير السليم . . يسر ـ سبحانه ـ له طريق النظر القويم ، الذى يميز به بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والهدى والضلال .

قال ابن كثير : قوله : « ثم السبيل يسره » قال العوفى عن ابن عباس : ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه . وهكذا قال عكرمة . . . واختاره ابن جرير .

وقال مجاهد : هذه الآية كقوله : « إنا هديناه السبيل : إما شاكرا وإما كفورا » أى : بيناه له ووضحناه ، وسهلنا عليه علمه . . . وهذا هو الأرجح »(١) .

وجاء العطف « بثم » هنا ، للإشعار بالتراخى الرتبى ، لأن تيسير معرفة طريق الخير والشر ، أعجب وأدل على قدرة الله ـ تعالى ـ وبديع صنعه من أى شىء آخر .

ولفظ « السبيل » منصوب على الاشتغال بفعل مقدر ، أى : ثم يسر السبيل يسره ، فالضمير فى يسره يعود إلى السبيل . أى : سهل ـ سبحانه ـ الطريق للإنسان .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٤٥ .

« ثم أماته فأقبره» أى : ثم أمات — سبحانه — هذا الإنسان ، بأن سلبه الحياة ، «فأقبره» .

أى : فجعله ذا قبر يوارى فيه جسده تكريماً له ، ولم يتركه مطروحاً على وجه الأرض ، بحيث يستقذره الناس ، ويكون عرضة لاعتداء الطيور والحيوانات .

يقال : قبر فلان الميت يقبره - بكسر الباء وضمها - ، إذا دفنه بيده ، فهو قابر . ويقال : أقبره ، إذا أمر بدفنه ، أو مكن غيره من دفنه .

وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن مواراة الأجساد فى القبور من سنن الإسلام ، أما تركها بدون دفن ، أو حرقها . . . فيتنافى مع تكريم هذه الأجساد . .

« ثم إذا شاء أنشره » أى : ثم بعد أن خلق الله هذا الخلق البديع ، وهداه النجدين ، وأمر بستر جسده فى القبر بعد موته . . بعد كل ذلك إذا شاء أحياه بعد الموت ، للحساب والجزاء . يقال : أنشر الله — تعالى — الموتى ونشرهم ، إذا بعثهم من قبورهم .

وقال — سبحانه — « إذا شاء » للإشعار بأن هذا البعث إنما هو بإرادته ومشيئته ، وفى الوقت الذى يختاره ويريده ، مهما تعجله المتعجلون .

ثم زجر — سبحانه — هذا الإنسان زجرا شديدا لتقصيره فى أداء حق خالقه ، فقال — تعالى — :

« كلا لما يقض ما أمره » أى : كلا إن الإنسان الجاحد المغرور . . . لم يقض ولم يؤد ما أمره الله - تعالى - به من تكاليف ومن شكر لخالقه ، ومن تأمل فى آياته ، ومن طاعة لرسله . . . بل استمر فى طغيانه وعناده .

فالمقصود بهذه الآية الكريمة : ردع هذا الإنسان الجاحد وزجره ، وبيان أن هذا الردع سببه إهماله لحقوق خالقه ، وعدم اهتمامه بأدائها .

ثم ساقت الآيات بعد ذلك ألواناً من نعمه - تعالى - على خلقه فقال : « فلينظر الإنسان إلى طعامه . . . » والفاء هنا للتفريع على ما تقدم ، مع إفادتها معنى الفصيحة .

أى : إذا أراد أن يقضى ويؤدى ما أمره الله - تعالى - من تكاليف ، فلينظر هذا الإنسان إلى طعامه ، وكيف أوجده - سبحانه - له ، ورزقه إياه ، ومكنه منه . . فإن فى هذا النظر والتدبر والتفكر ، ما يعينه على طاعة خالقه ، وإخلاص العبادة له .

ثم بين - سبحانه - مظاهر تهيئة هذا الطعام للإنسان . . . فقال : « أنا صببنا الماء صبا » .

قال الجمل : قرأ الكوفيون « أنا » بالفتح . على البدل من طعامه ، فيكون فى محل جر بدل اشتمال ، بمعنى أن صب الماء سبب فى إخراج الطعام فهو مشتمل عليه .

وقرأ غيرهم بكسر الهمزة على الاستئناف المبين لكيفية إحداث الطعام . . . (١) .

والصب : إنزال الماء بقوة وكثرة . أى : إنا أنزلنا المطر من السماء إنزالا مصحوباً بالقوة والكثرة ، لحاجتكم الشديدة إليه فى حياتكم .

« ثم شققنا الأرض شقا » أى : ثم شققنا الأرض بالنبات شقاً بديعاً حكيما ، بحيث تخرج النباتات من باطنها خروجاً يبهج النفوس ، وتقر به العيون .

« فأنبتنا فيها حباً » أى : فأنبتنا فى الأرض حباً كثيراً ، تقتاتون منه ، وتدخرونه لحين حاجتكم إليه ، والحب : يشمل الحنطة والشعير والذرة ،

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ح ٤ ص ٤٩٠

« وعنباً وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . . »
أى : وأنبتنا فى الأرض ــ أيضاً ــ بقدرتنا ورحمتنا «عنباً» وهو ثمر الكرم المعروف بلذة طعمه .

« وقضبا » وهو كل ما يؤكل من النبات رطباً ، كالقثاء والخيار ونحوهما وقيل : هو العلف الرطب الذى تأكله الدواب ، وسمى قضباً ، لأنه يقضب ــ أى يقطع ــ بعد ظهوره مرة بعد أخرى .
وأنبتنا فيها كذلك « زيتوناً ونخلا » وهما شجرتان معروفتان بمنافعهما الجمة ، وبثمارهما المفيدة .

« وحدائق غلبا » والحدائق جمع حديقة وهى البستان الملىء بالزروع والثمار . .

و « غلبا » جمع غلباء . أى : وأنبتنا فى الأرض حدائق عظيمة ، ذات أشجار ضخمة ، قد التف بعضها على بعض لكثرتها وقوتها . فقوله «غلبا» بمعنى عظاما ، وأصلها من « الغلب » ــ بفتحتين ــ ، بمعنى الغلظ ، يقال : شجرة غلباء ، وهضبة غلباء ، أى : عظيمة مرتفعة . ويقال : حديقة غلباء، إذا كانت عظيمة الشجر . ويقال : رجل أغلب ، إذا كان غليظ الرقبة .
وأنبتنا فيها ــ أيضاً ــ بقدرتنا وفضلنا « فاكهة وأبا » . والفاكهة : اسم للثمار التى يتناولها الإنسان على سبيل التفكه والتلذذ ، مثل الرطب والعنب والتفاح .
و « الأب » اسم للكلأ الذى ترعاه الأنعام ، مأخوذ من أب فلان الشىء ، إذا قصده واتجه نحوه ، لحاجته إليه . . . والكلأ والعشب يتجه إليه الانسان بدوابه للرعى .

قال صاحب الكشاف : والأب : المرعى ، لأنه يؤب ، أى : يؤم وينتجع . . . . . وعن أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ أنه سئل

عن الأب فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، إذا قلت فى كتاب الله مالا علم لى به .

وعن عمر — رضى الله عنه — أنه قرأ هذه الآية فقال : كل هذا قد عرفنا فما الأب ؟ ثم رفع عصا كانت فى يده وقال : هذا لعمر الله التكلف ، وما عليك يابن أم عمر أن لا تدرى ما الأب ؟ ثم قال : اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب ، ومالا فدعوه .

فإن قلت : فهذا يشبه النهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته؟

قلت : لم يذهب إلى ذلك ، ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على العمل ، وكان التشاغل بشىء من العلم لا يعمل به تكلفاً عندهم ، فأراد أن الآية مسوقة فى الامتنان على الإنسان بطعمه ، واستدعاء شكره ، وقد علم من فحوى الآية ، أن الأب بعض ما أنبته الله للإنسان متاعا له أو لأنعامه فعليك بما هو أهم ، من النهوض بالشكر لله - تعالى - على ما تبين لك ولم يشكل ، مما عدد من نعمه ، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ، ومعرفة النبات الخاص الذى هو اسم له ، واكتف بالمعرفة الجملية ، إلى أن يتبين لك فى غير هذا الوقت . . . » (١) .

وقال بعض العلماء : والذى يتبين لى فى انتفاء علم الصديق والفاروق بمدلول لفظ الأب ، وهما من خاص العرب لأحد سببين :

إما لأن هذا اللفظ كان قد تنوسى من استعمالهم ، فأحياه القرآن لرعاية الفاصلة ، فإن الكلمة قد تشتهر فى بعض القبائل أو فى بعض الأزمان وتنسى فى بعضها ، مثل اسم السكين عند الأوس والخزرج . فقد قال أنس بن مالك : وما كنا نقول إلا المدية ، حتى سمعت قول الرسول ﷺ يذكر أن سليمان قال « ائتونى بالسكين أقسم الطفل بينهما نصفين » .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٠٥

وإما لأن كلمة الأب تطلق على أشياء كثيرة ، منها النبت الذى ترعاه الأنعام ، ومنها التبن ، ومنها يابس الفاكهة ، فكان إمساك أبى بكر وعمر عن بيان معناه ، لعدم الجزم بما أراد الله منه على التعيين ، وهل الأب بما يرجع إلى قوله « متاعاً لكم » أو إلى قوله « ولأنعامكم » (١) .

ثم ختم — سبحانه — هذه النعم بقوله : « متاعاً لكم ولأنعامكم » أى : أنبت لكم تلك الزروع والثمار . . . لتكون موضع انتفاع لكم ولأنعامكم إلى حين من الزمان .

إذ المتاع : هو ما ينتفع به الإنسان إلى حين ثم ينتهى ويزول ، ولفظ « متاعاً » منصوب بفعل محذوف . أى : فعل ذلك متاعاً لكم ، أو متعكم بذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم .

أو قوله « متاعاً لكم » حال من الألفاظ السابقة : العنب والقضب والزيتون والنخل .

أى : حالة كون هذه المذكورات موضع انتفاع لكم ولأنعامكم .

ثم ختم — سبحانه — السورة الكريمة بالحديث عن أحوال الناس فى يوم القيامة ، فقال — تعالى — : « فإذا جاءت الصاخة . . . »

والفاء فى قوله — سبحانه — «فإذا جاءت الصاخة» للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها من فنون النعم . وجواب « إذا » محذوف يدل عليه قوله - تعالى - بعد ذلك « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » . ويصح أن يكون جوابه قوله : « وجوه يومئذ مسفرة » .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور حـ ٣٠ ص ١٣٣

والصاخة : الصيحة الشديدة التى تصخ الآذان أى تزلزلها لشدة صوتها وأصل الصخ : الصك الشديد . والمراد بها هنا : النفخة الثانية التى بعدها يبعث الناس من قبورهم .

أى : فإذا جاءت الصيحة العظيمة التى بعدها يخرج الناس من قبورهم للحساب والجزاء ، كان ما كان من سعادة أقوام ، ومن شقاء آخرين .

وقوله - سبحانه - : « يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . . . » بدل مما قبله وهو قوله : « فإذا جاءت الصاخة » . والفرار : الهروب من أجل التخلص من شىء مخيف .

والمعنى : يوم يقوم الناس من قبورهم للحساب والجزاء ، يكونون فى كرب عظيم ، يجعل الواحد منهم ، يهرب من أخيه الذى هو من ألصق الناس به ، ويهرب كذلك من أمه وأبيه ، ومن صاحبته - وهى زوجه - وبنيه الذين هم فرع عنه .

والمراد بفراره منهم : عدم اشتغاله بشىء يتعلق بهم ، وعدم التفكير فيهم أو فى الالتقاء بهم ، لاشتغاله بحال نفسه اشتغالا ينسيه كل شىء سوى التفكير فى مصيره . . . وذلك لشدة الهول ، وعظم الخطب .

وخص - سبحانه - هؤلاء النفر بالذكر ، لأنهم أخص القرابات ، وأولاهم بالحنو والرأفة ، فالفرار منهم لا يكون إلا فى أشد حالات الخوف والفزع .

قال صاحب الكشاف : « يفر » منهم لاشتغاله بما هو مدفوع إليه ، ولعلمه بأنهم لا يغنون عنه شيئا ، وبدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه ، ثم بالصاحبة والبنين . لأنهم أقرب وأحب ، كأنه قال : يفر من أخيه . بل من أبويه ، بل من صاحبته وبنيه . . » (١) .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٤٥

وجملة : « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » مستأنفة . واردة لبيان سبب الفرار . وللمبالغة فى تهويل شأن هذا اليوم .

أى : لكل واحد منهم فى هذا اليوم العظيم ، شأن وأمر يغنيه ويكفيه عن الاشتغال بأى أمر آخر سواه . يقال : فلان أغنى فلانا عن كذا ، إذا جعله فى غنية عنه .

وقد ساق ابن كثير ـ رحمه الله ـ عند تفسيره لهذه الآية عددا من الأحاديث ، منها ماروواه النسائى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « تحشرون حفاة عراة غرلا ـ بضم فسكون ـ جمع أغرل ، وهو الأقلف غير المختون ـ قال ابن عباس : فقالت زوجته : يارسول الله ، أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » . أو قال : « ما أشغله عن النظر »(١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ أقسام الناس فى هذا اليوم فقال : « وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة » أى : وجوه كثيرة فى هذا اليوم تكون مضيئة مشرقة ، يعلوها السرور .

والاستبشار والانشراح ، لما تراه من حسن استقبال الملائكة لهم .

وقوله : « وجوه » مبتدأ وإن كان نكرة ، إلا أنه صح الابتداء به لكونه فى حيز التنويع « ومسفرة » خبره ، وقوله « يومئذ » متعلق به « والإسفار : النور والضياء .

والمراد أن هذه الوجوه متهللة فرحا ، وعليها أثر النعيم .

أما القسم المقابل لهذا القسم ، فقد عبر عنه ـ سبحانه ـ بقوله : « ووجوه يومئذ عليها غبرة » أى : عليها غبار ، من شدة الهم والكرب والغم الذى يعلوها . .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٤٩ .

« ترهقها قترة » أى : تغشاها وتعلوها ظلمة وسواد ، وذلة وهوان ، من شدة ما أصابها من خزى وخسران . يقال : فلان رهقه الكرب ، إذا اعتراه وغشيه .

« أولئك » يعنى أصحاب تلك الوجوه التى يعلوها الغبار والسواد « هم الكفرة الفجرة » أى : الجامعون بين الكفر الذى هو فساد الاعتقاد ، وبين الفجور الذى هو فساد القول والفعل .

نسأل الله — تعالى — أن يجعلنا جميعا من أصحاب الوجوه المسفرة ، الضاحكة المستبشرة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم؟

القاهرة — مدينة نصر
مساء السبت ١٦ من المحرم سنة ١٤٠٧
٢٠ من سبتمبر سنة ١٩٨٦

تفسیر سورة

التکویر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة « التكوير »

١ — سورة « التكوير » ، وتسمى — أيضاً — بسورة : إذا الشمس كورت . وهى من السور المكية بلاخلاف ، وعـــدد آياتها : تسع وعشرون آية .

وتعتبر من أوائل السور القرآنية نزولا ، فهى السورة السادسة أو السابعة فى ترتيب النزول ، فقد كان نزولها بعد سورة الفاتحة ، وقبل سورة « الأعلى » .

أخرج الإمام أحمد والترمذى عن ابن عمر قال : قال رسول الله — ﷺ — : من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى العين ، فليقرأ إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت » .

٢ — والمتأمل فى هذه السورة الكريمة ، يراها فى نصفها الأول ، تسوق أمارات يوم القيامة وعلاماته ، بأسلوب مؤثر يبعث فى القلوب الخوف والوجل .

ويراها فى نصفها الثانى تؤكد أن هذا القرآن الكريم من عند الله — تعالى — ، وليس من كلام البشر ، وأن جبريل الأمين قد نزل به على قلب النبى — ﷺ — .

قال الله ــ تعالى ــ :

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا
ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ
حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾
وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ
نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾
وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ
بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾
وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ
عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم
بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ
بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾
وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

تكرر لفظ « إذا » فى هذه الآيات اثنى عشرة مرة ، وجواب الشرط قوله : « علمت نفس ما قدمت وأخرت » . وهذا التكرار بلفظ إذا من

مقاصده التشويق للجواب ، لأن السامع عندما يجد هذا الظرف وقد تكرر يكون فى ترقب وشوق لمعرفة الجواب .

وعندما يسمعه يتمكن من نفسه كل التمكن .

ولفظ « الشمس » مرفوع على أنه فاعل بفعل محذوف يفسره ما بعده ، أى : إذا كورت الشمس كورت . وأصل التكوير : لف الشىء على جهة الاستدارة ، تقول : كورت العمامة ، إذا لففتها . .

قال صاحب الكشاف : فى التكوير وجهان : أحدهما أن يكون من كورت العمامة إذا لففتها . أى : يلف ضوء الشمس لفا فيذهب انبساطه وانتشاره فى الآفاق ، وهو عبارة عن إزالتها والذهاب بها ، لأنها ما دامت باقية ، كان ضياؤها منبسطا غير ملفوف .

وثانيهما : أن يكون لفها عبارة عن رفعها وسترها ، لأن الثوب إذا أريد رفعه ، لف وطوى ونحوه قوله — تعالى — : « يوم نطوى السماء . . . »(١) .

أى . إذا الشمس أزيل ضوؤها بعد انتشاره وانبساطه ، فأصبحت مظلمة بعد أن كانت مضيئة ، ومستقرة بعد أن كانت بارزة .

« وإذا النجوم انكدرت » أى : تناثرت وتساقطت ، وانقلبت هيئتها من اللمعان والظهور ، إلى الميل نحو الظلام والسواد .

أى : وإذا النجوم تساقطت وانقضت . يقال : انكدر البازى ، إذا نزل على فريسته بسرعة ، وانكدر الأعداء على القوم ، إذا جاءوا أرسالا متتابعين فانصبوا عليهم .

ويصح أن يكون المعنى : وإذا النجوم تغيرت وانطمس نورها ، وزال لمعانها ، من قولهم : كدرت الماء فانكدر ، إذا خلط به ما يجعله مائلا إلى السواد والغُبْرة .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٧٠٧ .

« وإذا الجبال سيرت » أي : اقتلعت من أماكنها فسارت فى الفضاء بقدرة الله — تعالى — .

قال - تعالى - : « ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا » .

وقال — سبحانه — : « وسيرت الجبال فكانت سرابا » .

« وإذا العشار عطلت » والعشار : جمع عُشَراء كنفساء ، وهى الناقة التى أتى على حملها عشرة أشهر . وتسمى بهذا الاسم إلى أن تضع لتمام السنة . والنوق العشار كانت من أثمن الأموال عند العرب ، وكانوا يحافظون عليها حتى فى أشد حالات الخوف .

ومعنى « عطلت » : أهملت وتركت بدون راع يحميها ، أو يلتفت إليها وهذا تصوير بديع لما يصيب الناس من أهوال ، تجعلهم لا يلتفتون إلى أعز أموالهم لديهم .

أى : وإذا النوق العشار — التى هى أغلى الأموال — عطلت ، أى : تركت دون أن يلتفت إليها أحد ، لانشغال كل إنسان بنفسه .

وقيل : المراد بالعشار : السحب المحملة بالأمطار . أى : وإذا السحب الحاملة للأمطار ، قد عطلت عن نزول المطر منها ، وصارت خالية من الماء الذى يحيى الأرض بعد موتها .

قال القرطبى ما ملخصه : « وإذا العشار عطلت » أى : النوق الحوامل التى فى بطونها أولادها ، الواحدة عُشراء . . وإنما خصت بالذكر ، لأنها أعز ما تكون عند العرب . . وهذا على وجه المثل ، لأن فى القيامة لا تكون ناقة عشراء ، ولكن أراد به المثل ، أن هول يوم القيامة بحال ما لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها واشتغل بنفسه .

وقيل : العشار : السحاب يعطل عما يكون فيه وهو الماء فلا يمطر ، والعرب تشبه السحاب بالحامل .

وقيل : الديار تعطل فلا تسكن . . . . . والأول أشهر ، وعليه من الناس الأكثر » (١) .

« وإذا الوحوش حشرت » أي : وإذا الحيوانات المتوحشة - كالأسد والنمر وغيرهما - .

« حشرت » أي : جمعت من أماكنها المتفرقة ، وخرجت في ذهول ، وتلاقت دون أن يعتدى بعضها على بعض ، مخالفة بذلك ماطبعت عليه من النفور والتقاتل .

قال الآلوسى : قوله : « وإذا الوحوش » جمع وحش ، وهو حيوان البر الذى ليس فى طبعه التأنس ببنى آدم . . « حشرت » أى : جمعت من كل جانب . . وقيل : حشرت . أى : أميتت . . وقيل : حشرت : بعثت للقصاص ، فيحشر كل شىء حتى الذباب .

أخرج مسلم والترمذى عن أبى هريرة فى هذه الآية قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء . . » (٢) .

« وإذا البحار سجرت » أى : امتلأت وفاض ماؤها واختلط عذبها بملحها ، وصارت بحرا واحدا ، مأخوذ من قولهم : سجر الحوض ، إذا ملأه حتى فاض من جانبيه .

ويصح أن يكون معنى « سجرت » أحميت بالنار حتى تبخرت مياهها ، وظهرت النار فى مكانها ، من قولهم : سجر فلان التنور ، إذا ملأه بالحطب المعد للحرق .

« وإذا النفوس زوجت » وقوله : « زوجت » من التزويج وهو جعل الشىء زوجاً لغيره ، بعد أن كان كلاهما فردا ، ويطلق الزوج — أيضاً — على الصنف والنوع ، كما فى قوله — تعالى — « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . . » .

---

(١) تفسير القرطبى حـ ١٩ ص ٢٢٩

(٢) راجع تفسير الآلوسى حـ ٣٠ ص ٥١

أى : وإذا النفوس اقترنت كل واحدة منها ببدنها ، أو بمن يشبهها ، أو بعملها . .

قال الفخر الرازى : قوله : « وإذا النفوس زوجت » فيه وجوه :

أحدها : قرنت الأرواح بالأجساد .

ثانيها : يصيرون فيها — أى : يوم القيامة — ثلاثة أصناف ، كما قال — تعالى — « وكنتم أزواجاً ثلاثة . . . » .

ثالثها : أنه يضم إلى كل صنف من كان فى طبقته ، فيضم المطيع إلى مثله . . . » (١) .

ثم قال — تعالى — : « وإذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت » ، ولفظ « الموءودة » من الوأد وهو دفن الطفلة حية .

قال صاحب الكشاف : وأَدَ يئِدُ مقلوب من آد يؤود : إذا أثقل . قال — تعالى — : « ولا يئوده حفظهما » ، لأنه إثقال بالتراب .

فإن قلت : ما حملهم على وأد البنات ؟ قلت الخوف من لحوق العار بهم من أجلهن ، أو الخوف من الإملاق .

فإن قلت : فما معنى سؤال الموءودة عن ذنبها الذى قتلت به ؟ وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها ؟ قلت : سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها ، نحو التبكيت — لقوم عيسى — فى قوله — تعالى — لعيسى : « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله . . . » ؟ (٢) .

أى : وإذا الموءودة سئلت ، على سبيل التبكيت والتقريع لمن قتلها ، بأى سبب من الأسباب قتلك قاتلك .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٢٣٩

(٢) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٠٨

ولا شك أنها لم ترتكب ما يوجب قتلها ، وإنما القصد من ذلك إلزام قاتلها الحجة ، حتى يزداد افتضاحاً على افتضاحه .

وقد حكى القرآن فى كثير من الآيات ، ما كان يفعله أهل الجاهلية من قتلهم للبنات ، ومن ذلك قوله — تعالى — : «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » .

ولم يكن الوأد معمولا به عند جميع قبائل العرب ، فقريش - مثلا - لم يعرف عنها ذلك ، وإنما عرف فى قبائل ربيعة ، وكنده ، وتميم . . . ولكنهم لما كانوا جميعاً راضين عن هذا الفعل ، جاء الحكم عاماً فى شأن أهل الجاهلية .

وقوله — سبحانه — : « وإذا الصحف نشرت » أى : بسطت بعد أن كانت مطوية ، وهى صحف الأعمال التى سجلتها الملائكة على أصحابها ، سواء أكانت تلك الأعمال خير أم شر ، فهذه الصحائف تطوى عند الموت وتنشر يوم القيامة ، يوم الحساب والجزاء .

قال — تعالى — : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

« وإذا السماء كشطت » أى : قلعت وأزيلت ، وأصل الكشط إزالة جلدة الحيوان عنه . يقال : كشطت البعير كشطاً ، إذا نزعت جلده منه . أى : وإذا السماء نزعت وأزيلت ، فلم تبق على هيئتها التى كانت عليها ، من إظلالها لما تحتها .

« وإذا الجحيم سعرت » أى : أوقدت إيقادا شديدا للكفار والجحيم هى النار ذات الطبقات المتعددة من الوقود كالحطب وغيره . وتسعيرها : إيقادها بشدة .

« وإذا الجنة أزلفت » أى : قربت وأدنيت من المؤمنين ، كما فى قوله — تعالى — : « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد » . من الزلفى بمعنى القرب . يقال : تزلف فلان إلى فلان ، إذا تقرب منه .

وقوله : « علمت نفس ما قدمت وأخرت » هو جواب الشرط لكل تلك الظروف السابقة . أى . إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت .. تبين لكل نفس ما عملته من خير أو شر ، ومن حسن أو قبيح . . ورأت ذلك رأى العين ، كما قال — تعالى — : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا . . . » .

والمراد بالنفس عموم الأنفس ، لأن النكرة فى سياق النفس تشمل كل نفس وأسند — سبحانه — الإحضار إلى النفوس ، لأنها هى المباشرة لأعمالها فى الدنيا ، والتى ستجد جزاءها فى الآخرة .

وجعلت معرفة النفوس لجزاء أعمالها ، حاصلة عند حصول مجموع الشروط التى ذكرت فى الجمل الثنتى عشرة ، لأن بعض الأزمان والأحوال التى تضمنتها هذه الشروط مقارن لحصول علم النفوس بأعمالها ، كما فى الستة الأخيرة ، فأنها تكون عند فصل القضاء ، وبعضها يحصل : قبل ذلك بقليل ، كما فى الأحوال الستة المذكورة أولا ، إلا أنه لما كان بعض هذه الأمور من مبادى يوم القيامة ، وبعضها من روادفه ، نسب علمها بذلك إلى زمان وقوع هذه الأمور كلها ، تهويلا للخطب ، وتفظيعاً للأمر ، وإشعارا بأن ما يسبق يوم القيامة وما يعقبه ، كل ذلك من الأهوال التى يشيب لها الولدان .

وبعد أن ساق — سبحانه — ماساق من أحوال تدل على شدائد يوم القيامة . . . أتبع ذلك ببيان أن هذا القرآن من عنده — تعالى — وأن الرسول — صلى الله عليه وسلم — صادق فيما يبلغه عن ربه ، فقال :

قال – تعالى – : « فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس . . .

والفاء فى قوله – تعالى – : « فلا أقسم بالخنس . . . » للتفريع على ما تقدم من تحقيق وقوع البعث ، وهى تعطى – أيضاً – معنى الإفصاح .
و « لا » مزيدة لتأكيد القسم . وجواب القسم قوله – تعالى – « إنه لقول رسول كريم » .

و « الخنس » – بزنة ركع – جمع خانس ، والخنوس : الاستخفاء والاستتار ، يقال : خنست الظبية والبقرة ، إذا اختفت فى بيتها . .

و « الجوار » جمع جارية ، وهى التى تجرى بسرعة ، من الجرى بمعنى الإسراع فى السير .

و « الكنس » جمع كانس ، يقال : كنس الظبى ، إذا دخل كناسه – بكسر الكاف – ، وهو البيت الذى يتخذه للمبيت ، وسمى بذلك لأنه يتخذه من أغصان الأشجار ، ويكنس الرمل إليه حتى يكون مختفيا عن الأعين .

وهذه الصفات . المراد بها النجوم ، لأنها بالنهار تكون مختفية عن الأنظار ، ولا تظهر إلا بالليل ، فشبهت بالظباء التى تختفى فى بيوتها ولا تظهر إلا فى أوقات معينة .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن البعث حق . . فأقسم بالنجوم التى تخنس بالنهار ، أى : يغيب ضوؤها عن العيون بالنهار ، ويظهر بالليل ، والتى تجرى من مكان إلى آخر بقدرة الله – تعالى – ثم تكنس – أى : تستتر وقت غروبها – كما تتوارى الظباء فى كُنُسِها . . إن هذا القرآن لقول رسول كريم .

قال ابن كثير ما ملخصه : قوله – تعالى – « فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس » : هى النجوم تخنس بالنهار ، وتظهر بالليل . روى ذلك عن على بن أبى طالب وابن عباس ومجاهد . .

وقال بعض الأئمة : وإنما قيل للنجوم « الخنس » أى : فى حال طلوعها ثم هى جوار فى فلكها ، وفى حال غيبوبتها ، يقال لها : « كنس » ، من قول العرب : أوى الظبى إلى كناسه : إذا تغيب فيه .

وفى رواية عن ابن عباس : أنها الظباء ، وفى أخرى أنها بقر الوحش حين تكنس إلى الظل أو إلى بيوتها . .

وتوقف ابن جرير فى قوله : « الخنس . الجوار الكنس » هل هى النجوم أو الظباء وبقر الوحش . قال : ويحتمل أن يكون الجميع مرادا . . »(١).

وقوله : « والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس » معطوف على ما قبله ، وداخل فى حيز القسم .

« وقوله : « عسعس » أدبر ظلامه أو أقبل ، فهذا اللفظ من الألفاظ التى تستعمل فى الشىء وضده ، إلا أن المناسب هنا أن يكون المراد به إقبال الظلام ، لمقابلته بالصبح إذا تنفس ، أى : أضاء وأسفر وتبلج .

وقيل : العسعسة : رقة الظلام وذلك فى طرفى النهار ، فهو من المشترك المعنوى ، وليس من الأضداد ، أى : أقبل وأدبر معاً .

أى : وحق النجوم التى تغيب بالنهار ، وتجرى فى حال استتارها . . وحق الليل إذا أقبل بظلامه ، والصبح إذا أقبل بضيائه . .

« إنه » أى : القرآن الكريم « لقول رسول كريم » وهو جبريل — عليه السلام — الذى أرسله ربه إلى نبيه محمد — ﷺ — ، لكى يبلغه وحيه — تعالى — .

وأقسم الله — تعالى — بهذه الأشياء ، لأنها فى حركاتها المختلفة ، من ظهور وأفول ، ومن إقبال وإدبار . . تدل دلالة ظاهرة على قدرة الله — تعالى — ، وعلى بديع صنعه فى خلقه .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٦٠ .

ونسب ـ سبحانه ـ القول إلى الرسول ـ وهو جبريل ـ ، لأنه هو الواسطة فى تبليغ الوحى إلى النبى ـ ﷺ ـ .

ثم وصف ـ سبحانه ـ أمين وحيه جبريل بخمس صفات : أولها : قوله « كريم » أى : ملك شريف ، حسن الخلق ، بهى المنظر . ثانيها : « ذى قوة » أى : صاحب قوة وبطش .

كما قال ـ تعالى ـ : « علمه شديد القوى . . » ثالثها : « عند ذى العرش مكين » أى : أن من صفات جبريل ـ عليه السلام ـ أنه ذو مكانة رفيعة ، ومنزلة عظيمة عند الله ـ تعالى ـ .

رابعاً قوله ـ تعالى ـ (مطاع) أى : يطيعه من معه من الملائكة المقربين . .

وخامسها قوله ـ سبحانه ـ : (ثم أمين) و (ثم) ـ بفتح الثاء ـ ظرف مكان للبعيد ، والعامل فيه ما قبله أو ما بعده . والمعنى : أنه مطاع فى السموات عند ذى العرش ، أو أمين فيها ، أى : يؤدى ما كلفه الله ـ تعالى ـ به بدون أية زيادة أو نقص . .

قال الشوكانى : ومن قال إن المراد بالرسول محمد ـ ﷺ ـ فالمعنى : أنه ذو قوة على تبليغ الرسالة إلى الأمة ، مطاع يطيعه من أطاع الله ، أمين على الوحى .

وقوله : « وما صاحبكم بمجنون » : الخطاب لأهل مكة ، والمراد بصاحبهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

والمعنى : وما محمد يا أهل مكة بمجنون ، وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره ، وأنه ليس مما يرمونه من الجنون وغيره فى شىء ، وأنهم افتروا عليه ذلك ، عن علم منهم . بأنه أعقل الناس وأكملهم ، وهذه الجملة داخلة فى جواب القسم .

فأقسم — سبحانه — بأن القرآن نزل به جبريل ، وأن محمدا — صلى الله عليه وسلم — ليس كما يقولون من أنه مجنون ، وأنه يأتى بالقرآن من جهة نفسه (١) .

فالمقصود بالآية نفى الجنون عن النبي — صلى الله عليه وسلم — بأكمل وجه ، وتوبيخ أعدائه الذين اتهموه بتهمة هم أول من يعلم — عن طريق مشاهدتهم لاستقامة تفكيره ، وسمو أخلاقه — أنه أكمل الناس عقلا وأقومهم سلوكا .

وقوله — سبحانه — : «ولقد رآه بالأفق المبين» معطوف — أيضاً — على قوله — تعالى — قبل ذلك . «إنه لقول رسول كريم» ، فهو من جملة المقسم .

والمقصود بهذه الرؤية : رؤية النبي — صلى الله عليه وسلم — لجبريل — عليه السلام — لأول مرة ، على الهيئة التى خلقه الله عليها ، عند ما كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — يتعبد فى غار حراء ، وكان — صلى الله عليه وسلم — قد سأل جبريل أن يريه نفسه ، على الهيئة التى خلقه الله — تعالى — عليها .

والأفق : هو الفضاء الواسع الذى يبدو للعين ما بين السماء والأرض.

والمبين : وصف للأفق ، أى : بالأفق الواضح البين ، الذى لا تشتبه معه المرئيات .

والمعنى : ووالله لقد رأى صاحبكم محمد — صلى الله عليه وسلم — جبريل ، بصورته التى خلقه الله عليها ، بالأفق الواضح البين ، الذى لا تلتبس فيه المرئيات ، ولا مجال فيه للأوهام والتخيلات .

والمقصود من الآية الكريمة الرد على المشركين الذين كانوا إذا أخبرهم

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٣٩١ . للشوكانى .

الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه رأى جبريل ، كذبوه واستهزؤا به ، وتأكيد أن هذه الرؤية كانت حقيقة واقعة ، لا مجال معها للتشكيك أو اللبس . .

قال الإمام ابن كثير : وقوله - تعالى - : «ولقد رآه بالأفق المبين» يعنى : ولقد رأى محمد جبريل الذى يأتيه بالرسالة عن الله - عز وجل - ، على الصورة التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح «بالأفق المبين» أى : البين . وهى الرؤية الأولى التى كانت بالبطحاء - أى بالمكان المجاور لغار حراء - ، وهى المذكورة فى قوله - تعالى - : «علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى» (١) .

والضمير فى قوله - تعالى - : «وما هو على الغيب بضنين» يعود إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، المعبر عنه قبل ذلك «بصاحبكم» .

والغيب : ما غاب عن مدارك الناس وحواسهم ، لأن الله - تعالى - قد استأثر بعلمه .

والضنين : هو البخيل بالشىء ، مأخوذ من الضن - بالكسر والفتح - بمعنى البخل .

قال الآلوسى : «وما هو» أى : رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «على الغيب» أى : على ما يخبر به من الوحى إليه وغيره من الغيوب «بضنين» من الضن - بكسر الضاد وفتحها - بمعنى البخل ، أى : ببخيل : أى : لا يبخل بالوحى ، ولا يقصر فى التعليم والتبليغ ، ومنح كل ما هو مستعد له من العلوم ، على خلاف الكهنة فإنهم لا يطلعون غيرهم على ما يزعمون معرفته إلا بإعطائهم حلوان .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير حـ ٧ ص ٣٦١ . وراجع تفسيرنا لهذه الآيات فى سورة النجم .

وقرأ ابن كثير والكسائي وأبو عمرو «بظنين» - بالظاء - ، أي: وهو على الغيب بمتهم، من الظنة - بالكسر - بمعنى التهمة.

ثم قال: ورجحت هذه القراءة، لأنها أنسب بالمقام، لاتهام الكفرة له - صلى الله عليه وسلم - بذلك. ونفى التهمة، أولى من نفى البخل.»(١)

وهذا القول لا نوافق الآلوسي - رحمه الله - عليه، لأن القراءة متى تثبتت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يجوز التفاضل بينها وبين غيرها التي هي مثلها في الثبوت. والقراءتان هنا سبعيتان، ومن ثم فلا ينبغي التفاضل بينهما، والمعنى عليهما واضح ولا تعارض فيه.

أي: وما محمد - صلى الله عليه وسلم - ببخيل بتبليغ الوحي، بل هو مبلغ له على أكمل وجه وأتمه، وما هو - أيضاً - بمتهم فيما يبلغه عن ربه، لأنه - صلى الله عليه وسلم - سيد أهل الصدق والأمانة.

وقوله - سبحانه - «وما هو بقول شيطان رجيم» معطوف - أيضاً - على قوله - تعالى -: «إنه لقول رسول كريم». والضمير هنا يعود على القرآن الكريم.

أي: وليس هذا القرآن الكريم، المنزل على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - بقول شيطان مرجوم مسترق للسمع. وإنما هو كلام الله - تعالى - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وهذا رد آخر على المشركين الذين زعموا أن القرآن الكريم إنما هو من باب الكهانة، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إنما هو كاهن، تلقنه الشياطين هذا القرآن.

وقوله - سبحانه -: «فأين تذهبون» جملة معترضة بين ما سبقها، وبين قوله - تعالى - بعد ذلك «إن هو إلا ذكر للعالمين». والمقصود بها توبيخهم وتعجيزهم عن أن يأتوا ولو بحجة واحدة يدافعون بها عن أنفسهم.

(١) راجع تفسير الآلوسي جـ ٣٠ ص ٦١

والفاء لتفريع هذا التعجيز والتوبيخ، على الحجج السابقة، المثبتة بأن هذا القرآن من عند الله - تعالى -، وليس من عند غيره.

و «أين» اسم استفهام عن المكان، والاستفهام هنا للتعجيز والتقريع، وهو منصوب بقوله: «تذهبون».

أى: إذا كان الأمر كما ذكرنا لكم، فأى طريق تسلكون أوضح وأبين من هذا الطريق الذى أرشدناكم إليه؟ إنه لا طريق لكم سوى هذا الطريق الذى أرشدناكم إليه.

قال صاحب الكشاف: قوله: «فأين تذهبون» استضلال لهم، كما يقال لتارك الجادة اعتسافا أو ذهابا فى بنيات الطريق - أى: فى الطرق المتشعبة عن الطريق الأصلى -، أين تذهب؟ مثلت حالهم فى تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل» (١).

«إن هو إلا ذكرى للعالمين» أى: ما هذا القرآن الكريم، إلا تذكير وإرشاد وهدايات للبشر جميعاً.

وهذا الذكر العظيم إنما هو «لمن شاء منكم أن يستقيم» أى: هو نافع لمن شاء منكم - أيها الناس - أن يستقيم على طريق الحق، وأن يلزم الرشاد ويترك الضلال.

والجملة الكريمة بدل مما قبلها، للإشعار بأن الذين استجابوا لهدى القرآن قد شاؤا لأنفسهم الهداية والاستقامة.

فالمقصود بهذه الجملة: الثناء عليهم، والتنويه بشأنهم.

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة، ببيان أن مشيئته - تعالى - هى النافذة، فقال: «وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين».

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٧١٣

أى : وما تشاءون الاستقامة أو غيرها ، إلا إذا شاءها وأرادها الله - تعالى - رب العالمين ، إذ مشيئة الله - تعالى - هى النافذة ، أما مشيئتكم فلا وزن لها إلا إذا أذنت بها مشيئته - تعالى - .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن كل مشيئة لا قيمة لها ولا وزن ، إلا إذا أيدتها مشيئة الله - عز وجل - .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

صباح الأربعاء ٢٠ من المحرم سنة ١٤٠٧هـ

٢٤ من سبتمبر سنة ١٩٨٦ م

تفسير سورة

الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة « الانفطار »

١ — سورة « الانفطار » من السور المكية الخالصة ، وتسمى - أيضاً - سورة « إذا السماء انفطرت » ، وسورة « المنفطرة » أى : السماء المنفطرة .

٢ — وعدد آياتها : تسع عشرة آية . وهى السورة الثانية والثمانون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول ، فكان نزولها بعد سورة « النازعات » ، وقبل سورة « الانشقاق » ، أى أنها السورة الثانية والثمانون - أيضاً - فى ترتيب النزول .

٣ — وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على إثبات البعث ، وعلى أهوال يوم القيامة ، وعلى تنبيه الناس إلى وجوب الاستعداد لهذا اليوم الشديد ، وعلى جانب من نعم الله على خلقه ، وعلى بيان حسن عاقبة الأبرار ، وسوء عاقبة الفجار . .

قال — تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾
وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ
مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾
الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾
كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا
كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾
وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا
بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ
الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

وقوله — سبحانه — : « إذا السماء انفطرت » بيان لما ستكون عليه السماء عند اقتراب قيام الساعة .

ومعنى : « انفطرت » انشقت ، من الفطر — بفتح الفاء — بمعنى الشق ، كما قال — تعالى — في أول سورة الانشقاق : « إذا السماء انشقت » .
يقال : فطرت الشيء فانفطر ، أي : شققته فانشق .

أي : إذا السماء تصدعت وتشققت في الوقت الذي يريده الله — تعالى — لها أن تكون كذلك .

« وإذا الكواكب انتثرت » أي : وإذا النجوم تهاوت وتساقطت

وتفرقت ، يقال : نثرت الشيء على الأرض ، إذا ألقيته عليها متفرقا . فانتثار الكواكب معناه : تفرقها عن مواضعها التي كانت فيها .

« وإذا البحار فجرت » أي : شققت جوانبها ، فزالت الحواجز التي بينها ، واختلط بعضها ببعض فصارت جميعها بحرا واحدا . فقوله «فجرت» مأخوذ من الفجر ـ بفتح الفاء ـ وهو شق الشيء شقا واسعا . يقال : فجر الماء فتفجر ، إذا شقه شقا واسعا ترتب عليه سيلان الماء بشدة . .

« وإذا القبور بعثرت » أي : صار باطنُها ظاهرَها ، وخرج ما فيها من الموتى مسرعين ، يقال : بعثر فلان متاعه ، إذا فرقه وبدده وقلب بعضه على بعض . .

والمراد أن التراب الذي كان فيها يبعثر ويزال ، ويخرج الموتى من تلك القبور للحساب والجزاء .

وقوله : « علمت نفس ما قدمت وأخرت » جواب « إذا » في الآيات الأربع .

أي : إذا تم ذلك ، علمت كل نفس ما قدمت من خير أو شر ، وما أخرته من سنة حسنة ، أو سنة سيئة يعمل بها بعدها .

قال الجمل ما ملخصه : واعلم أن المراد من هذه الآيات أنه إذا وقعت هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة ، فهناك يحصل الحشر والنشر ، وهي هنا أربعة : اثنان منها يتعلقان بالعلويات ، واثنان يتعلقان بالسفليات . والمراد بهذه الآيات : بيان تخريب العالم ، وفناء الدنيا ، وانقطاع التكاليف . . وإنما كررت إذا لتهويل ما في حيزها من الدواهي . .

وجواب «إذا» ، وما عطف عليها قوله « علمت نفس » أي : علمت كل نفس وقت هذه المذكورات الأربعة « ما قدمت » من الأعمال « وما أخرت منها فلم تعمله . .

ومعنى علم النفس بما قدمت وأخرت : العلم التفصيلي . وذلك عند نشر الصحف - كما تقدم في سورة التكوير - ، أما العلم الإجمالي فيحصل في أول زمن الحشر ، لأن المطيع يرى آثار السعادة ، والعاصي يرى آثار الشقاوة في أول الأمر ، وأما العلم التفصيلي فإنما يحصل عند قراءة الكتب والمحاسبة . . »(١) .

وبعد أن أشار - سبحانه - إلى أهوال علامات الساعة ، التي من شأنها أن تنبه العقول والحواس والمشاعر . . أتبع ذلك بنداء للإنسان ، فقال - تعالى - :

« يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم » والغرور : الخداع . يقال : غر فلان فلانا ، إذا خدعه وأطمعه بالباطل . والخطاب لجنس الإنسان . وقيل للكافر .

و « ما » استفهامية ، والمقصود بالاستفهام الإنكار والتعجيب من حال هذا الإنسان المخدوع .

أي : يا أيها الإنسان المخلوق بقدرة ربك وحده ، أي شيء غرك وخدعك وجعل جانبا من جنسك يكفر بخالقه ، ويعبد غيره ، وجانبا آخر يعصى ربه ، ويقصر في أداء حقوقه ؟

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : « يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم » : هذا تهديد ، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب ، حيث قال : « الكريم » ، حتى يقول قائلهم : غره كرمه . بل المعنى في الآية : ما غرك يا بن آدم بربك الكريم ، - أي : العظيم - حتى أقدمت على معصيته ، وقابلته بما لا يليق ؟ كما جاء في الحديث : « يقول الله يوم القيامة : يابن آدم ما غرك بي ؟ يابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ . .

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٩٨ .

وهذا الذى تخيله هذا القائل ليس تحته طائل ، لأنه إنما أتى باسمه الكريم لينبه على أنه لا ينبغى أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة ، وأعمال السوء . . »(١) .

والمقصود بالنداء هنا : التنبيه إلى ما سيأتى بعده من توجيهات ، وليس المقصود به طلب الإقبال على شىء معين .

وإيثار تعريف الله — تعالى — بصفة الرب ، لما فى معنى الرب من التربية والرعاية والملكية . والإيجاد من العدم . . ففى هذا الوصف تذكير الإنسان بنعم خالقه الذى أنشأه من العدم ، وتعهده بالرعاية والتربية . .

وكذلك الوصف بالكريم ، فيه — أيضاً — تذكير لهذا الإنسان بكرم ربه عليه ، إذ مقتضى هذا الكرم منه — تعالى — ، أن يقابل المخلوق ذلك بالشكر والطاعة . .

وقوله — سبحانه — : « الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ماشاء ركبك » صفات أخرى للرب — عز وجل — الكريم المنان .

والخلق : هو الإيجاد على مقدار معين مقصود . والتسوية : جعل الشىء سويا ، أى : قويما سليما خاليا من الاضطراب والاختلال . .

وقوله : « فعدلك » قرأها بعضهم بفتح الدال مع التخفيف ، وقرأها آخرون بفتحها مع التشديد ، وهما متقاربان ، إلا أن التشديد يفيد المبالغة فى التعديل ، الذى هو جعل البنية معتدلة ، متناسبة الأعضاء ، فالتسوية ترجع إلى عدم النقصان فى الأعضاء ، والتعديل يرجع إلى عدم التخالف فيها وهذا باعتبار الأصل فى خلق الإنسان ، فلا عبرة بوجود ما يخالف ذلك فى قلة من أفراد الإنسان .

---

(١) تفسير ابن كثير حـ ٧ ص ٣٦٤ .

والمعنى: يأيها الإنسان ، أى شيء خدعك وجرأك على معصية ربك الكريم .... الذى من مظاهر كرمه أنه « خلقك فسواك » بأن جعل أعضاءك سوية سليمة ، مهيأة لاكتساب منافعها على حسب ما تقتضيه حكمة خالقك «فعدلك» أى : فعدل أعضاءك بأن جعلها متناسقة متوازية بعضها مع بعض ، فلم يجعل — مثلا — إحدى يديك طويلة ، والأخرى قصيرة ، ولم يجعل — مثلا — جانباً من جسدك أبيض ، والآخر أسود .

ومن مظاهر قدرته وكرمه — أيضاً — أنه — سبحانه — ركبك ووضعك فى أى صورة من الصور المتنوعة التى اقتضتها مشيئته وحكمته .

فقوله : « فى أى صورة » متعلق بركبك . و « ما » مزيدة ، و « شاء » صفة لصورة .

ولم يعطف « ركبك » على ما قبله بالفاء ، كما عطف ما قبله بها ، لأنه بيان لقوله : « فعدلك » . والتقدير : فعدلك بأن ركبك فى أى صورة من الصور التى شاءها لك ، وهى صورة فيها ما فيها من العجائب والأسرار ، فضلا عن أنها أحسن صورة وأكملها ، كما قال — تعالى — : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » .

فالمقصود من الآيات الكريمة ، تذكير الإنسان بفضل ربه — تعالى — عليه ، وحضه على طاعته وشكره وتوبيخه على تقصيرة وجحوده ، وتهديده بسوء المصير إذا ما استمر فى غفلته وغروره .

قال بعض العلماء : إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة ، الكاملة الشكل والوظيفة ، أمر يستحق التدبر الطويل ، والشكر العميق ، والأدب الجم ، والحب لربه الكريم الذى أكرمه بهذه الخلقة .

وهناك مؤلفات كاملة فى وصف كمال التكوين الإنسانى العضوى ودقته وإحكامه .

كاتمال التكوين الجسدى ، والعضلى ، والجلدى ، والهضمى ، والدموى ، والعظمى ، والتنفسى ، والتناسلى ، والعصبى . . . للإنسان .

وإن جزءا من أذن الإنسان « الأذن الوسطى » هو سلسلة من نحو أربعة آلاف جزئية دقيقة معقدة ، متدرجة بنظام بالغ ، فى الحجم والشكل .

ومركز حاسة الإبصار فى العين التى تحتوى على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء ، وهى أطراف الأعصاب ، ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهداب ، الذى يقيها ليلا ونهارا . . » (١) .

ثم يكشف القرآن بعد ذلك عن علة الغرور والغفلة - وهى التكذيب بيوم الحساب - ويقرر أن كل عمل يعمله الإنسان هو مسجل عليه فيقول : « كلا بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون » .

و « كلا » حرف ردع وزجر ، وهى هنا للردع والزجر عن الاغترار بكرم الله - تعالى - ، وعن جعله ذريعة إلى الكفر والفسوق والعصيان .

وقوله « بل تكذبون بالدين » إبطال لوجود ما يدعو إلى غرورهم لو كانوا يعقلون .

أى : « كلا ليس هناك شىء يقتضى غروركم بالله — تعالى — ، ويجرأكم على عصيانه لو كنتم تتفكرون وتتدبرون . . ولكن تكذيبكم بالبعث والحساب ...

هو الذى حملكم على الكفر والفسوق والعصيان .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله « كلا » ردع عن الاغترار بكرم الله — تعالى — . وقوله : « بل تكذبون بالدين » إضراب عن جملة مقدرة ، ينساق إليها الكلام ، كأنه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض ، وأنتم

(١) راجع تفسير فى ظلال القرآن جـ ٣٠ ص ٤٩٠

لا ترتدعون عن ذلك ، بل تجترئون على أعظم منه ، حيث تكذبون بالجزاء والبعث رأساً أو بدين الإسلام ، اللذين هما من جملة أحكامه ، فلا تصدقون سؤالا ولا جواباً ، ولا ثواباً ولا عقاباً ، وفيه ترق من الأهون إلى الأعظم .

وعن الراغب : بل هنا لتصحيح الثاني وإبطال الأول . كأنه قيل : ليس هنا مقتض لغرورهم ، ولكن تكذيبهم بالبعث حملهم على ما ارتكبوه .

وقيل تقدير الكلام : كلا إنكم لا تستقيمون على ما توجبه نعمى إليكم ، وإرشادى لكم ، بل تكذبون بالدين ... » (١) .

وقوله : « وإن عليكم لحافظين » عطف على جملة « تكذبون بالدين » لتأكيد ثبوت الجزاء على الأعمال ، وتسجيل هذه الأعمال تسجيلا تاما .

وقوله « لحافظين » صفة لموصوف محذوف . أى : وإن عليكم لملائكة يحفظون أعمالكم عليكم ، ويسجلونها دون أن يضيعوا منها شيئاً .

وقوله : « كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون » صفات أخرى لهؤلاء الملائكة .

أى : وإن عليكم ملائكة من صفاتهم أنهم يحفظون أعمالكم ، ويسجلونها عليكم ، وأنهم لهم عند الله - تعالى - الكرامة والمنزلة الحسنة ، وأنهم يكتبون أعمالكم كلها ، وأنهم يعلمون أفعالكم التى تفعلونها سواء أكانت قليلة أم كثيرة ، صغيرة أم كبيرة .

فالمقصود بهذه الآيات الكريمة : بيان أن البعث حق ، وأن الحساب حق ، وأن الجزاء حق ، وأن أعمال الإنسان مسجلة عليه تسجيلا تاما ، بواسطة ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٦٥

أما كيفية هذه الكتابة من الملائكة لأعمال الإنسان، وعلى أى شىء تكون هذه الكتابة، ومتى تكون هذه الكتابة ... فمن الأمور التى يجب الإيمان بها كما وردت، مع تفويض كنهها وكيفيتها ودقتها إلى الله - تعالى - لأنه لم يرد حديث صحيح عن المعصوم - صلى الله عليه وسلم - يعتمد عليه فى بيان ذلك.

ثم بين - سبحانه - النتائج المترتبة على كتابة الملائكة لأفعال الإنسان فقال: «إن الأبرار لفى نعيم. وإن الفجار لفى جحيم. يصلونها يوم الدين. وما هم عنها بغائبين».

والأبرار: جمع بر - بفتح الباء -، وهو الإنسان التقى الموفى بعهد الله - تعالى -.

والفجار: جمع فاجر، وهو الإنسان الكثير الفجور، أى: الخروج عن طاعة الله - تعالى -.

أى: إن المؤمنين الصادقين الذين وفوا بما عاهدوا الله عليه، لفى نعيم دائم، وهناء مقيم، وإن الفجار الذين نقضوا عهودهم مع الله، وفسقوا عن أمره، لفى نار متأججة بعضها فوق بعض، هؤلاء الفجار الذين شقوا عصا الطاعة «يصلونها» أى: يدخلون الجحيم ويقاسون حرها. «يوم الدين» أى: يوم الجزاء والحساب.

«وما هم عنها بغائبين» أى: وما هم عن النار بمبعدين، بل هم ملازمون لها ملازمة تامة.

ثم فخم - سبحانه - وعظم من شأنه يوم الجزاء فقال: «وما أدراك ما يوم الدين. ثم ما أدراك ما يوم الدين ....».

و «ما» اسم استفهام مبتدأ. وجملة «أدراك» خبره. والكاف مفعول أول . . . .

وجملة « ما يوم الدين » المكونة من مبتدأ وخبر سدت مسد المفعول الثانى لأدراك . والتكرار للتهويل والتعظيم ليوم الدين ، كما فى قوله — تعالى — : « الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة . . »

أى : وأى شىء أدراك عظم وشدة يوم الحساب والجزاء ، ثم أى شىء أدراك بذلك ؟

إننا نحن وحدنا الذين ندرك شدة هوله . . وقد أخبرناك بجانب مما يحدث فيه من شدائد ، لتنذر الناس ، حتى يستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح .

ثم فصل — سبحانه — جانبا من أهواله فقال : « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله » .

أى : يوم الدين والجزاء ، هو اليوم الذى لا تملك فيه نفس لغيرها شيئاً من النفع .

وإنما الذي ينفع فيه هو الإيمان والعمل الصالح ، والأمر فيه لله — تعالى — وحده ، ولا سلطان ولا تصرف لأحد سواه .

وقوله : « يوم لا تملك . . » بيان ليوم الدين . وقد قرأ بعض القراء السبعة « يوم » بالنصب على أنه منصوب بفعل محذوف . أى : إذكر يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً . .

وقرأه البعض الآخر بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى : هو يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً . . أو على أنه بدل من « يوم الدين » .

وهكذا ختمت السورة الكريمة كما بدئت بالتهويل من شأن يوم القيامة، ليزداد العقلاء استعدادا له ، عن طريق الإيمان والعمل الصالح الذى يرضى الله — تعالى — .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر : مساء الخميس ٢١ من المحرم سنة ١٤٠٧ هـ
٢٥ من سبتمبر سنة ١٩٨٦ م

تفسير سورة

المطففين

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة « المطففين »

١ — سورة « المطففين » أو سورة « ويل للمطففين » أو سورة « التطفيف » ، من السور التي اختلف المفسرون في كونها مكية أو مدنية أو بعضها مكي وبعضها مدني .

فصاحب الكشاف يقول : مكية . . وهي آخر سورة نزلت بمكة

والإمام ابن كثير يقول : هي مدنية ، دون أن يذكر في ذلك خلافا .

والإمام القرطبي يقول : سورة « المطففين : مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل . ومدنية في قول الحسن وعكرمة . وهي ست وثلاثون آية .

قال مقاتل : وهي أول سورة نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة: هي مدنية إلا ثمان آيات ، من قوله — تعالى — : « إن الذين أجرموا . . إلى آخرها . فإنها مكية . وقال الكلبي وجابر بن زيد : نزلت بين مكة والمدينة .

والإمام الآلوسي يجمع كل هذه الأقوال في تفسيره بشيء من التفصيل دون أن يرجح بينها .

٢ — ويبدو لنا أن سورة المطففين من السور المكية ، إلا أننا نرجح أنها من آخر ما نزل على الرسول — ﷺ — من قرآن مكي ، وقد ذكرها الإمام السيوطي في كتابه الإتقان ، على أنها آخر سورة مكية ، نزلت على الرسول — ﷺ — قبل الهجرة(١) .

---

(١) راجع الإتقان حـ ١ ص ٢٧ .

ومما يجعلنا نرجح أن سورة المطففين من السور المكية : حديثها الواضح عن الفجار والأبرار .

وعن يوم القيامة وسوء عاقبة المكذبين به ، وعن أقوال المشركين فى شأن القرآن الكريم .

وعن الموازنة بين مصير المؤمنين والكافرين ، وعن موقف كفار قريش من فقراء المؤمنين . .

وهذه الموضوعات نراها من السمات الواضحة للقرآن المكى ، وإذا كان القرآن المدنى قد تحدث عنها ، فبصورة أقل تفصيلا من القرآن المكى .

٣ — والسورة الكريمة فى مطلعها تهدد الذين ينقصون المكيال والميزان ويبخسون الناس أشياءهم ، وتذكرهم بيوم البعث والحساب والجزاء ، لعلهم يتوبون إلى خالقهم ويستغفرونه مما فرط منهم . .

ثم تسوق موازنة مفصلة بين سوء عاقبة الفجار ، وحسن عاقبة الأبرار . .

ثم تختتم بذكر ما كان يفعله المشركون مع فقراء المؤمنين ، من استهزاء وإيذاء ، وبشرت هؤلاء المؤمنين ، بأنهم يوم الجزاء والحساب ، سيضحكون من الكفار ، كما ضحك الكفار منهم فى الدنيا . قال -تعالى- : « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون • هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » ؟

وقد افتتح — سبحانه — هذه السورة الكريمة بقوله :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم
مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾
كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾
كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ
يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾
إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ
قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى
كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

والويل : لفظ دال على الهلاك أو الشر ، وهو اسم لا فعل له من لفظه . . وقيل : هو اسم واد فى جهنم .

و « المطففين » جمع مطفف ، من الطفيف ، وهو الشىء التافه الحقير ، لأن ما يغتاله المطفف من غيره شىء قليل . والتطفيف : الإنقاص فى المكيال أو الميزان عن الحدود المطلوبة . .

قال الإمام ابن جرير : وأصل التطفيف ، من الشىء الطفيف ، وهو

القليل النذر . والمطفف : المقلل صاحب الحق عماله من الوفاء والتمام فى كيل أو وزن . ومنه قيل للقوم الذين يكونون سواء فى حسبة أو عدد : هم سواء كطف الصاع . يعنى بذلك كقرب الممتلىء منه ناقص عن الملء . . »(١)

وقوله . اكتالوا ، من الاكتيال وهو افتعال من الكيل . والمراد به : أخذ ما لهم من مكيل من غيرهم بحكم الشراء .

ومعنى : كالوهم أو وزنوهم » : كالوالهم أو وزنوا لهم ، فحذفت اللام فتعدى الفعل إلى المفعول - فهو من باب الحذف والايصال .

فالواوان فى « كالوهم أو وزنوهم » يعودان إلى الاسم الموصول فى قوله : « الذين إذا اكتالوا . . . »

والضميران المنفصلان « هم » . يعودان إلى الناس .

قال صاحب الكشاف : والضمير فى « كالوهم أو وزنوهم » ضمير منصوب راجع إلى الناس . وفيه وجهان : أن يراد : كالوالهم ، أو وزنوالهم فحذف الجار ، وأوصل الفعل ، كما فى قول الشاعر :

ولقد جنيتك أكمؤا وعساقلا ولقد نهيتك عن نبات الأوبر

بمعنى : جنيت لك . وأن يكون على حذف مضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، والمضاف هو المكيل أو الموزون . . »(٢)

والمعنى : هلاك شديد ، وعذاب أليم ، للمطففين ، وهم الذين يبخسون حقوق الناس فى حالتى الكيل والوزن وما يشبههما ، ومن مظاهر ذلك أنهم إذا اشتروا من الناس شيئا حرصوا على أن يأخذوا حقوقهم منهم كاملة غير منقوصة ، وإذا باعوالهم شيئا ، عن طريق الكيل أو الوزن أو ما يشبههما « يخسرون » أى : ينقصون فى الكيل أو الوزن .

---

(١) تفسير ابن جرير حـ ٣٠ ص ٥٧

(٢) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٧١٩

يقال : خسر فلان الميزان وأخسره ، إذا نقصه ، ولم يتمه كما يقتضيه العدل والقسط .

وافتتحت السورة الكريمة بلفظ « الويل » للإشعار بالتهديد الشديد ، والوعيد الأليم لمن يفعل ذلك . وقوله « ويل » مبتدأ ، وهو نكرة ، وسوغ الابتداء به كونه دعاء . وخبره « للمطففين » .

وقال — سبحانه — « إذا اكتالوا على الناس . . » ولم يقل : من الناس ، للإشارة إلى ما فى عملهم المنكر من الاستيلاء والقهر والظلم . .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالا يضرهم ، ويتحامل فيه عليهم ، أبدل « على » مكان « من » للدلالة على ذلك .

ويجوز أن يتعلق « على » بيستوفون ، ويقدم المفعول على الفعل لإفادة الخصوصية . أى : يستوفون على الناس خاصة ، فأما أنفسهم فيستوفون لها .

وقال الفراء : « من » و « على » يعتقبان فى هذا الموضع ، لأنه حق عليه ، فإذا قال : اكتلت عليك فكأنه قال : أخذت ما عليك . وإذا قال: اكتلت منك ، فكقوله : استوفيت منك . . »(١) .

والتعبير بقوله : « يستوفون ويخسرون » ، يدل على حرصهم الشديد فيما يتعلق بحقوقهم ، وإهمالهم الشنيع لحقوق غيرهم ، إذ استيفاء الشىء ، أخذه وافيا تاما ، فالسين والتاء فيه للمبالغة .

وأما « يخسرون » فمعناه إيقاع الخسارة على الغير فى حالتى الكيل والوزن وما يشبههما .

ثم أتبع — سبحانه — هذا التهديد للمطففين ، بما يجعل الناس يتعجبون من أحوالهم ، فقال — تعالى — :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧١٩

« ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين » .

والهمزة للاستفهام التعجبي من أحوالهم ، والجملة مستأنفة مسوقة لتفظيع ما فعلوه من بخس الناس أشياءهم . وأدخلت همزة الاستفهام على « لا » النافية لزيادة التوبيخ والانكار ، حتى لكأن سوء عاقبة التطفيف لا تخطر لهم على بال .

والظن هنا مستعمل فى معناه الحقيقى ، وهو اعتقاد الشىء اعتقادا راجحا .

وقال — سبحانه — : « ألا يظن أولئك . . » ولم يقل : ألا يظنون ، لقصد تمييزهم والتشهير بهم ، زيادة فى ذمهم ، وفى تقبيح أفعالهم .
أى : أبلغت الجرأة بهؤلاء المطففين ، أنهم صاروا من بلادة الحس ، ومن فقدان الشعور ، لا يخشون الحساب يوم القيامة ، ولا يخافون العذاب الشديد الذى سينزل بهم ، يوم يقوم الناس من قبورهم استجابة لأمر رب العالمين ، حيث يتلقون جزاءه العادل ، وحكمه النافذ . .

ووصف — سبحانه — اليوم بالعظم ، باعتبار عظم ما يقع فيه من أهوال .

وقوله : « يوم يقوم الناس لرب العالمين » بدل مما قبله ، واللام فى قوله « لرب » للتعليل . أى : يقومون لأجل ربوبية — تعالى — وتلقى حكمه الذى لا يستطيعون الفرار منه . وفى هذا الوصف ما فيه من استحضار جلاله وعظمته — سبحانه — .

قال القرطبى : وفى هذا الإنكار ، والتعجيب ، وكلمة الظن ، ووصف اليوم بالعظيم ، وقيام الناس فيه لله خاضعين ، ووصف ذاته برب العالمين ، بيان بليغ لعظم الذنب ، وتفاقم الإثم فى التطفيف ، وفيما كان مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط والعمل بالتسوية والعدل ، فى كل أخذ

وإعطاء ، بل فى كل قول وعمل ...»(١) .

هذا ، وقد جاء الأمر بإيفاء الكيل والميزان ، والنهى عن تطفيفهما ، فى آيات كثيرة ، منها قوله ـ تعالى ـ : «وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ...» (٢) .

ومنها قوله ـ سبحانه ـ : «وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا» (٣) .

وقوله ـ تعالى ـ : «وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها ...» (٤) .

قال بعض العلماء ما ملخصه والتصدى بشأن المطففين بهذا الأسلوب فى سورة مكية ، أمر يلفت النظر ، فالسورة المكية عادة توجه اهتمامها إلى أصول العقائد .

ومن ثم فالتصدى لهذا الأمر بذاته ، يدل أولا على أن الإسلام ، كان يواجه فى البيئة المكية ، حالة صارخة من هذا التطفيف يزاولها الكبراء .. الذين يملكون إكراه الناس على ما يريدون فهم «يكتالون على الناس» لا من الناس .. فكأن لهم سلطانا على الناس .

ويدل ـ ثانيا ـ على طبيعة هذا الدين ، وشمول منهجه للحياة الواقعية ، وشئونها العملية ، وإقامتها على الأساس الأخلاقى الأصيل فى طبيعة هذا المنهج الإلهى القويم ...» (٥) .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ٢٥٥ .
(٢) سورة هود الآية ٨٤ .
(٣) « الإسراء « ٣٥
(٤) « الأنعام « ١٥٢
(٥) راجع تفسير فى ظلال القرآن جـ ٣ ص ٥٠١

ثم زجر — سبحانه — هؤلاء الفاسقين عن أمره زجرا شديدا ، وتوعدهم بالعذاب الشديد ، فقال — تعالى — :

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾
إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى
وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ
مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن
تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟
مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾
وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟
إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾
فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ
يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

وقوله : « كلا » حرف ردع وزجر ، وما بعده كلام مستأنف ، وقد تكرر فى الآيات التى معنا ثلاث مرات ، والمراد به هنا : ردعهم وزجرهم عما كانوا فيه من الشرك ، والتطفيف فى الكيل والميزان .

والفجار : جمع فاجر ، وهو مأخوذ من الفجور ، وهو شق الشيء شقا واسعا ، وسمى الفجار بذلك مبالغة فى هتكهم لحرمات الله ، وشقهم لستر الشريعة ، بدون خوف أو وجل . يقال : فجر فلان فجورا فهو فاجر ، وهم فجار وفجرة ، إذا تجاوزوا كل حد أمر الله — تعالى — بالوقوف عنده . والمراد بالكتاب ، المكتوب . أى : صحيفة الأعمال .

والسجين : اختلفوا فى معناه على أقوال منها : أنه علم أو وصف لواد فى جهنم ، صيغ بزنة فعيل — بكسر الفاء مع تشديد العين المكسورة — ، مأخوذ من السجن بمعنى الحبس . يقال : سجن الحاكم فلانا يسجنه — بضم الجيم — سجنا ، إذا حبسه .

قال ابن كثير : قوله : « كلا إن كتاب الفجار لفى سجين » أى : إن مصيرهم ومأواهم لفى سجين ، — فعيل من السجن ، وهو الضيق — ، كما يقال : فلان فسيق وشريب وخمير وسكير ونحو ذلك ، ولهذا عظم أمره فقال : « وما أدراك ما سجين » ؟ أى : هو أمر عظيم ، وسجن مقيم ، وعذاب أليم .

ثم قد قال قائلون : هو تحت الأرض السابعة . . وقيل : بئر فى جهنم . والصحيح أن « سجينا » مأخوذ من السجن ، وهو الضيق ، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق ، وكل ما تعالى منها اتسع . . . ولما كان مصير الفجار إلى جهنم ، وهى أسفل سافلين .

قال — سبحانه — : « كلا إن كتاب الفجار لفى سجين » وهو يجمع الضيق والسفول . . . » (١) .

أى : كلا ، ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنه لا بعث ولا جزاء ، بل الحق أن البعث أمر واقع ، ماله من دافع ، وإن ما عمله هؤلاء الفجار من كفر ومن تطفيف فى الكيل والميزان . لمكتوب فى صحائف أعمالهم ، ومسجل عليهم فى ديوان الشر الذى يوصلهم إلى قاع جهنم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٧١

وقوله : « وما أدراك ما سجين » تهويل وتفظيع لهذا الشىء الضيق الذى يؤدى إلى القذف بهم فى أعماق جهنم .

وقوله : « كتاب مرقوم » خبر لمبتدأ محذوف يعود إلى « كتاب الفجار » . والمرقوم : المكتوب كتابة واضحة بينة تشبه الخط الظاهر فى الثوب المنسوج . يقال : رقم فلان الكتاب ، إذا جعل له رقماً ، أى : علامة يعرف بها .

أى : وهو — أى : كتاب الفجار — كتاب بين الكتابة ، يفهم صاحبه ما فيه فهما واضحا لا خفاء معه ولا التباس .

فقوله : « كتاب مرقوم » بيان وتفسير لكتاب الفجار ، وهو ديوان الشر الجامع لأعمالهم السيئة .

ومنهم من جعل قوله — تعالى — : « كتاب مرقوم » ليس تفسيراً لكتاب الفجار ، وإنما هو تفسير لقوله « سجين » .

قال الشوكانى ما ملخصه : وسجين هو ما فسره به — سبحانه — من قوله « وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم » فأخبر بهذا أنه كتاب مرقوم ، أى : مسطور .

ومنهم من جعله بيانا وتفسيرا لكتاب المذكور فى قوله « إن كتاب الفجار » على تقدير : هو كتاب مرقوم ، أى : قد بينت حروفه .

والأولى ما ذكرناه أولا ، ويكون المعنى : إن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون .. لفى ذلك الكتاب المدون للقبائح ، المختص بالشر ، وهو سجين ، ثم ذكر ما على تهويله ، فقال : « وما أدراك ماسجين » ثم بينه بقوله : « كتاب مرقوم ... » (١) .

---

(١) راجع تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٣٩٩ للشوكانى .

وعلى أية حال ، فالمقصود بيان المصير السيء الذى ينتظر هؤلاء الفجار، حيث سجلت عليهم أعمالهم فى ديوان الشر الذى يجمع أعمالهم القبيحة ، والتى ستؤدى بهم إلى السجن الدائم ، وإلى العذاب المقيم .

وقوله — سبحانه — : (ويل يومئذ للمكذبين) وعيد وتهديد لأولئك المنكرين للبعث ، والذين من صفاتهم تطفيف الكيل والميزان .

أى : هلاك عظيم ، وعذاب أليم ، وسجن دائم فى قاع جهنم ، لأولئك المكذبين ، للبعث والحساب والجزاء .

ثم فصل — سبحانه — هذا التكذيب فقال : (الذين يكذبون بيوم الدين) أى : يكذبون بيوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب .

(وما يكذب به . . .) أى : بيوم الدين (إلا كل معتد أثيم) أى : وما يكذب بهذا اليوم إلا كل إنسان متجاوز الحدود المشروعة ، ومبالغ فى ارتكاب الآثام والقبائح .

هذا المكذب بيوم القيامة من صفاته — أيضا — أنه (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) .

أى : إذا تقرأ على هذا المكذب آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق رسولنا . . . . قال هذه الآيات هى من أساطير الأقوام الأولين وترهاتهم وقصصهم المخترعة التى لا أصل لها .

فأنت ترى أن هؤلاء المكذبين ، قد وصفهم الله — تعالى — بثلاث صفات هى : الاعتداء على الحق ، والمبالغة فى ارتكاب الآثام ، والجرأة فى الافتراء والكذب ، حيث وصفوا القرآن بأنه ليس من عند الله - تعالى -

ثم بين — سبحانه — الأسباب التى حملتهم على أن يقولوا فى القرآن ما قالوا ، فقال : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .) .

وقوله : (ران) من الرين — بتشديد الراء مع الفتح — وهو الصدأ

الذى يعلو الحديد والمرآة وما يشبههما ، يقال : ران ذنب فلان على قلبه — من باب باع — رينا وريونا ، إذا غلب عليه وغطاه ، وكل ما غلبك فقد ران بك ، ومنه قولهم : ران النعاس على فلان ، إذا استولى عليه . .

أى : كلا ، ليس الأمر كما زعموا من أن القرآن أساطير الأولين ، بل الحق أن الذى حملهم على قولهم هذا ، هو الكفر والعناد والجحود . . الذى استولى على قلوبهم فى الدنيا فغطاها وطمسها ، فصارت لا تميز بين الكلام الحق والكلام الباطل ، ولا بين كلام الله — تعالى — وكلام غيره . . .

وفى الحديث الشريف الذى أخرجه الترمذى عن أبى هريرة ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب منها صقل قلبه ، أى : عاد إليه صفاؤه ، وإن زاد - فى الذنوب - زادت حتى تعلو قلبه - وذلك هو الران الذى قال الله فى شأنه : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (١) .

وقوله : « بل ران » قرأه الجمهور بإدغام اللام فى الراء بعد قلبها راء لتقارب مخرجيهما ، وقرأه عاصم بالوقف الخفيف على لام «بل» والابتداء بكلمة ران بدون إدغام .

وقوله : « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » بيان لسوء مصيرهم يوم القيامة . .

وكلا هنا تأكيد لسابقتها لزيادة الردع والزجر . ويصح أن تكون كلا هنا بمعنى حقا .

أى : حقا إن هؤلاء الفجار سيكونون يوم القيامة فى حالة احتجاب وامتناع عن رؤية الله - تعالى — وعن رضاه .

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٧٣

قال الآلوسى : « كلا » ردع وزجر عن الكسب الرائن، أو بمعنى حقا « إنهم » أى : هؤلاء المكذبين «عن ربهم يومئذ لمحجوبون» لا يرونه - سبحانه - ، وهو - عز وجل - حاضر ناظر لهم ، بخلاف المؤمنين ، فالحجاب : مجاز عن عدم الرؤية ، لأن المحجوب لا يرى ما حجب ، أو الحجب المنع ، والكلام على حذف مضاف . أى : عن رؤية ربهم لممنوعون فلا يرونه - سبحانه - .

واحتج مالك - رحمه - بهذه الآية ، على رؤية المؤمنين له - تعالى - ، من جهة دليل الخطاب ، وإلا فلو حجب الكل لما أغنى هذا التخصيص .

وقال الشافعى - رحمه الله - : لما حجب - سبحانه - قوما بالسخط دل على أن قوما يرونه بالرضا . . » (١) .

وقوله - سبحانه - : « ثم إنهم لصالوا الجحيم . ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون » بيان للون آخر من سوء مصيرهم .

أى : أن هؤلاء المكذبين سيكونون يوم القيامة محجوبين عن رؤية الله - تعالى - لسخطه عليهم ، وممنوعين من رحمته ، ثم إنهم بعد ذلك لداخلون فى أشد طبقات النار حرا . . . ثم يقال لهم بواسطة خزنة جهنم على سبيل التقريع والتأنيب ، هذا هو العذاب الذى كنتم به تكذبون فى الدنيا ، وتقولون لمن يحذركم منه : (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على أشد ألوان الإهانة لأنها أخبرت أن هؤلاء المكذبين : محجوبين عن ربهم ، وأنهم مقاسون حر جهنم ، وأنهم لا يقابلون من خزنتها إلا بالتيئيس من الخروج منها ، وبالتأنيب والتقريع .

---

(١) تفسير الآلوسى حـ ٣٠ ص ٧٢

وكعادة القرآن الكريم فى قرن الترهيب بالترغيب ، والعكس ، ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ، ما أعده - سبحانه - للأبرار من خير وفير ، ومن نعيم مقيم ، فقال - تعالى - : كلا إن كتاب الابرار لفى عليين..

وقوله : «كلا» هنا ، تكرير للردع والزجر السابق فى قوله -تعالى - قبل ذلك : (إن كتاب الفجار لفى سجين) ، لبيان ما يقابل ذلك من أن كتاب الأبرار فى عليين .

ولفظ «عليين» جمع على - بكسر العين وتشديد اللام المكسورة - من العلو . ويرى بعضهم أن هذا اللفظ مفرد ، وأنه اسم للديوان الذى تكتب فيه أعمال الأبرار .

قال صاحب الكشاف : وكتاب الأبرار : ما كتب من أعمالهم . وعليون : علم لديوان الخير ، الذى دون فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين . منقول من جمع «على» بزنة فعيل - بكسر الفاء والعين المشددة - من العلو ، كسجين من السجن . سمى بذلك إما لأنه سبب الارتفاع إلى أعالى الدرجات فى الجنة ، وإما لأنه مرفوع فى السماء السابعة . . تكريما له وتعظيما . . . »(1) .

أى : حقا إن ما كتبته الملائكة من أعمال صالحة للأتقياء الأبرار ، لمثبت فى ديوان الخير ، الكائن فى أعلى مكان وأشرفه . .

وقوله - سبحانه - : «وما أدراك ما عليون» تفخيم لشأن هذا الديوان ، وتنويه عظيم بشرفه .

وقوله : «كتاب مرقوم» تفسير لما كتب لهؤلاء الأبرار من خير وبركة . أى : كتاب الأبرار كتاب واضح بين ، يقرؤه أصحابه بسهولة ويسر ، فتنشرح صدورهم ، وتقر عيونهم . .

(1) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٢٢ .

وقوله — تعالى — « يشهده المقربون » صفة أخرى جيء بها على سبيل المدح لهذا المكتوب من الأعمال الصالحة لهؤلاء الأخيار.

أى: كتاب الأبرار، وصحائف أعمالهم، فى أسمى مكان وأعلاه، وهو كتاب واضح بين، يقرءونه فيظهر البشر والسرور على وجوههم، وهو فوق ذلك « يشهده المقربون » أى: يطلع عليه الملائكة المقربون من الله — تعالى — ، ليكون هذا الاطلاع شهادة لهؤلاء الأبرار، بأنهم محل رضا الله — تعالى — وتكريمه وثوابه..

ثم بين — سبحانه — حالهم فى الجنة، بعد بيان ما اشتمل عليه كتابهم من خير وبر فقال — تعالى — :

« إن الأبرار لفى نعيم » أى: لفى نعيم دائم، لا يحول ولا يزول..

« على الأرائك ينظرون » والأرائك: جمع أريكة — بزنة سفينة — وهى اسم للسرير الذى يكون مفروشا فرشا أنيقا جميلا..

أى: هم فى نعيم دائم لا يقادر قدره، وهم — أيضا — يجلسون على السرر المهيئة لجلوسهم تهيئة حسنة، وينظرون إلى كل ما يدخل البهجة [والسرور على نفوسهم.

وحذف مفعول « ينظرون » لقصد التعميم، أى: ينظرون إلى كل ما يبهج نفوسهم..

« تعرف فى وجوههم نضرة النعيم » أى: تعرف فى وجوههم — أيها الناظر إليهم — البهجة والحسن، وصلاح البال، وهناءة العيش..

وإضافة النضرة — وهى الجمال الواضح — إلى النعيم — الذى هو بمعنى التنعم والترفه — من إضافة المسبب إلى السبب. وهذه الجملة الكريمة صفة ثالثة من صفات هؤلاء الأبرار ثم تأتى الصفة الرابعة المتمثلة فى قوله — تعالى — : « يسقون من رحيق مختوم.... ».

والرحيق : اسم للخمر الطيبة الصافية الخالية من كل ما يكدر أو يذهب العقل .

والمختوم : أى المسدود للذى لم تمسه يد قبل أيدى هؤلاء الأبرار .

وقوله : « ختامه مسك » صفة ثانية للرحيق .

أى : أن هؤلاء الأبرار من صفاتهم — أيضا — أنهم يسقيهم ربهم — بفضله وكرمه — من خمر طيبة بيضاء لذيذة ، خالصة من كل كدر.. هذه الخمر مختوم على إنائها بخاتم ، بحيث لم تمسها يد قبل أيديهم . .

وهذه الخمر — أيضاً — من صفاتها أن شاربها يجد فى نهاية شربها ما يشبه المسك فى جودة الرائحة . .

وقال الشوكانى : وقوله : « ختامه مسك » أى : آخر طعمه ريح المسك إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه ، وجد ريحه كريح المسك . وقيل مختوم أوانيه بمسك مكان الطين ، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته ، وطيب رائحته .

والحاصل أن المختوم والختام إما أن يكون من ختام الشىء وهو آخره أو من ختم الشىء وهو جعل الخاتم عليه ، كما تختم الأشياء بالطين ونحوه.

وقراءة الجمهور « ختامه » وقرأ الكسائى « خاتمه » ، والخاتم والختام يتقاربان فى المعنى ، إلا أن الخاتم الاسم ، والختام المصدر . . »(١) .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » يعود إلى الرحيق المختوم ، الدال على صلاح بالهم ، وحسن أحوالهم .

وأصل التنافس : التغالب فى الشىء النفيس ، وهو الذى تحرص عليه النفوس ، بحيث يبتغيه ويطلبه كل إنسان لنفسه خاصة . يقال : نفس فلان على فلان بهذا الشىء - كفرح - ، إذا بخل به عليه . .

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى حـ ٥ ص ٤٠٢

أى : ومن أجل الحصول على ذلك الرحيق المختوم ، والنعيم المقيم.. فليرغب الراغبون ، وليتسابق المتسابقون ، وليتنافس المتنافسون فى وجوه الخير ، عن طريق المسارعة فى تقديم الأعمال التى ترضى الله - تعالى - . .

فالمقصود من الآية الكريمة : تحريض الناس وحضهم على تقديم العمل الصالح ، الذى يوصلهم يوم القيامة إلى أعلى الدرجات . .

وقوله - سبحانه - : « ومزاجه من تسنيم . عينا يشرب بها المقربون » صفة ثالثة من صفات هذا الرحيق .

والمزاج : ما يمزج به الشىء ، ويطلق على الممزوج بالشىء - كما هنا - فهو من إطلاق المصدر على المفعول . .

والتسنيم : علم لعين فى الجنة مسماة بهذا الاسم ، وهذا اللفظ مصدر سنمه ، إذا رفعه . يقال : سنم فلان الطعام ، إذا جعله كهيئة السنام فى ارتفاعه . .

قالوا : وسميت هذه العين بهذا الاسم ، لأنها تنبع من مكان مرتفع ؛ أو لعلو مكانتها . .

وقوله : « عينا » منصوب على المدح . .

أى : ومزاج هذا الرحيق وخليطه كائن من ماء لعين فى الجنة ؛ مرتفعة المكان والمكانة ، هذه العين يشرب منها المقربون إلى الله - تعالى - شرابهم .

قال الآلوسى : والباء فى قوله « بها » إما زائدة ، أى : يشربها ، أو بمعنى من . أى : يشرب منها . أو على تضمين يشرب معنى يروى . أى : يشرب راوين بها ، أو يروى بها المقربون . . »(١) .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٧٦ .

وإلى هنا نجد أن هذه الآيات الكريمة قد بشرت الأبرار ببشارات متعددة ، بشرتهم بأن صحائف أعمالهم فى أعلى عليين ، وبأنهم فى نعيم مقيم وبأنهم ينظرون إلى كل ما يشرح صدورهم ، وبأن الناظر إليهم يرى آثار النعمة والرفاهية على وجوههم ، وبأن شرابهم من خمر طيبة لذيذة الطعم والرائحة . .

ثم حكى — سبحانه — جانبا من الرذائل التى كان يفعلها المشركون مع المؤمنين ، وبشر المؤمنين بأن العاقبة الطيبة ستكون لهم . . فقال - تعالى - :

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات ، أن بعض المشركين — كأبى جهل والعاص بن وائل — كانوا يستهزئون من فقراء المسلمين كصهيب وعمار بن ياسر .

وقوله — سبحانه — : « أجرموا » من الإجرام ، وهو ارتكاب الجرم ، ويطلق على الإثم العظيم ، والذنب الكبير ، والمراد بإجرامهم هنا : كفرهم بالله — تعالى — ، واستهزاؤهم بالمؤمنين .

أى : إن الذين ارتكبوا فى دنياهم أقبح الجرائم وأشنعها ، وهم زعماء المشركين ، « كانوا » فى الدنيا « من الذين آمنوا يضحكون » أى : كانوا فى حياتهم يتهكمون بالمؤمنين ، ويسخرون منهم ، ويعتبرونهم الأراذل الذين يجب الابتعاد عنهم .

« وإذا مروا بهم يتغامزون » أى : وإذا مر هؤلاء المجرمون بالمؤمنين سخروا منهم ، وتغامزوا فيما بينهم على سبيل الاستهزاء بفقراء المؤمنين .

والتغامز : تفاعل من الغمز ، وهو الإشارة بالجفون والحواجب على سبيل الطعن والتهكم .

أى : يغمز أحدهم الآخر ليذبه إلى ماعليه فقراء المسلمين من شظف العيش ، ومن غير ذلك من الأحوال التى لا يرضاها المشركون لجهلهم وغرورهم وبلادة حسهم .

« وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين » أى : وإذا رجع هؤلاء المجرمون إلى أهلهم من مجالسهم التى كانوا فيها . . . . رجعوا متلذذين باستخفافهم بالمؤمنين ، والسخرية منهم .

فهم لإيغالهم فى الكفر والفسوق والعصيان ، لا يكتفون بالفخر واللمز عند مايرون المؤمنين ، بل يجعلونهم عند عودتهم إلى أهليهم ، مادة تفكههم وضحكهم .

فقوله : « فكهين » جمع فكه ، صفة مشبهة ، وهى قراءة حفص عن عاصم .

وقرأ الجمهور « فاكهين » اسم فاعل ، من فكه ــ بزنة فرح ــ إذا مزح فى كلامه ليضحك أو يضحك غيره .

وحذف متعلق « فكهين » للعلم به . أى : رجعوا فكهين بسبب حديثهم عن المؤمنين .

وقوله : « وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون » أى : أن هؤلاء الذين أجرموا ، لا يكتفون بغمز المؤمنين ولمزهم وجعلهم مادة السخرية فى أحاديثهم مع أهليهم .

بل إنهم تجاوزوا ذلك ، فهم عند مايرون المؤمنين يقولون عنهم : هؤلاء هم الضالون ، لأنهم تركوا دين آبائهم وأجدادهم ، ودخلوا فى دين آخر .

أفرادهم بالضلال : فساد الرأى ، وعدم البقاء على دينهم القديم . .

وهكذا الأشرار يرون أن أهل الحق والتقى فى ضلال . . .

وجملة : « وما أرسلوا عليهم حافظين » جملة حالية من الضمير فى « قالوا » . .

أى : قالوا إن هؤلاء المؤمنين لضالون ، والحال أن هؤلاء المشركين ما أرسلهم الله — تعالى — ليكونوا وكلاء عنه ، حتى يحكموا على هذا الفريق بالضلال ، وعلى غيره بالرشاد .

فالمقصود بالآية الكريمة : تأنيب الذين أجرموا وتوبيخهم على تصرفاتهم ، لأن الحكم على الغير بالهداية والضلال ، هم ليسوا أهلا له إطلاقا ، لأن الله — تعالى — لم يكلفهم بذلك ، وإنما كلفهم باتباع الرسول الذى أرسله — سبحانه — لهدايتهم .

فحكمهم على المؤمنين بالضلال يدل على نهاية الغرور والجهل .

ثم بشر الله — تعالى — المؤمنين بما سيكونون عليه يوم القيامة من نعيم فقال : « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون » . .

والفاء فى قوله : « فاليوم » للسببية . والمراد باليوم : يوم الجزاء والحساب . . .

أى : فبسبب استهزاء الذين أجرموا من المؤمنين فى الدنيا ، كافأ الله — تعالى — المؤمنين على صبرهم ، بأن جعلهم يوم القيامة يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مهانين ، كما كان الكفار يضحكون من المؤمنين فى الدنيا . .

فالمقصود من الآية الكريمة تسلية المؤمنين ، وتبشيرهم بأنهم سيأخذون بثأرهم من المشركين عما قريب . . وأنهم — أى : المؤمنون —

سيكونون يوم القيامة على سرر قد فرشت بأجمل الفراش ، وأنهم لا ينظرون إلا إلى ما يسرهم ويبهج نفوسهم .

ثم ختم — سبحانه — السورة الكريمة بقوله : « هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » ، والاستفهام للتقرير . وقوله : « ثوب » من التثويب والإثابة ، أى المجازاة .

يقال : ثوب فلان فلانا وأثابه ، بمعنى جازاه المجازاة اللائقة به .

والمعنى : لقد جوزى الكفار بالجزاء المناسب لتهكمهم بالمؤمنين فى الدنيا ، فقد أنزلنا بهم ما يستحقونه من عقاب أليم ، جزاء وفاقا .

وجاء الجزاء بأسلوب الاستفهام ، لتأكيد هذا الجزاء ، حتى لكأن المخاطب هو الذى نطق بهذا الجزاء العادل الذى استحقه الكافرون ، ولبيان أن عدالة الله — تعالى — تقتص من المعتدين مهما طالت بهم الحياة . . .

والتعبير بثوب — مع أنه أكثر ما يستعمل فى الخير — ، إنما هو من باب التهكم بهم ، كما فى قوله — تعالى — : « فبشرهم بعذاب أليم » .

نسأل الله — تعالى — أن يجعلنا من عباده المؤمنين الصادقين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة — مدينة نصر
صباح الاثنين ٢٥ من المحرم سنة ١٤٠٧
٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٨٦

تفسير سورة

الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة « الانشقاق »

١ — سورة « الانشقاق » وتسمى سورة « إذا السماء انشقت » من السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة « الانفطار » ، وقبل سورة « الروم » وعدد آياتها خمس وعشرون آية فى المصحف المكى والكوفى . وفى المصحف الشامى والبصرى ثلاث وعشرون آية .

٢ — والسورة الكريمة ابتدأت بوصف أشراط الساعة ، ثم فصلت الحديث عن أحوال السعداء والأشقياء يوم القيامة ، وخلال ذلك حرضت المؤمنين على أن يزدادوا من الإيمان والعمل الصالح ، وحذرت الكافرين من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم وفسوقهم .

قال - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ
مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥)
يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا
مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨)
وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ
ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ
كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ
كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧)
وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ (٢١) بَلِ الَّذِينَ
كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥)

وقوله : « انشقت » من الانشقاق بمعنى الانفطار والتصدع ، بحيث تتغير هيئتها ، ويختل نظامها ، كما قال - تعالى - : « يوم تبدل الأرض

غير الأرض والسموات وبرزو الله الواحد القهار . . . » .

وانشقاق السماء قد ورد فى آيات متعددة منها قوله — تعالى — : « ويوم تشقق السماء بالغمام . . . » .

وقوله — سبحانه — : «فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان» ،

ومعنى « أذنت » : استمعت . يقال : أذن له ، بمعنى استمع له بإصغاء تام — وبابه طرب — ، وفى الحديث الصحيح : « ما أذن الله لشىء إذنه لنبى يتغنى بالقرآن » ، وقال الشاعر :

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وجملة « وحقت » معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه . أى : جعلت حقيقة وجديرة بالاستماع والانقياد لما يريده الله — تعالى — منها ، من قولهم فلان محقوق بكذا ، وحق له أن يفعل كذا ، أى : وجب عليه ذلك وجوبا لا انفكاك له عنه .

وجواب الشرط « إذا » وما عطف عليه محذوف ، والتقدير : إذا السماء تصدعت واختـــل نظامها ، واستمعت لأمر ربها استماعا تاما ، وانقادت لحكمه انقياد العبد لسيده ، وجعلت حقيقة وجديرة بالانقياد والاستماع والطاعة فى جميع الأحوال .

«وإذا الأرض مدت» أى : بسطت وتساوت بحيث صارت فى مستوى واحد ، بدون ارتفاع فى جانب أو انخفاض فى آخر ، كما قال - تعالى - : « لا ترى فيها عوجا ولا أمتا » .

« وألقت ما فيها وتخلت » أى : وطرحت ما بداخلها من أجساد ومن كنوز ، ومن غيرهما ، وخلت من كل ذلك خلوا تاما .

وقوله « وأذنت لربها وحقت » تأكيد لقدرته — تعالى — ونفاذ أمره . أى : واستمعت الأرض كما استمعت السماء لأمر ربها ، وحق لها أن

تستمع وأن تنقاد لحكمه – تعالى – لأنها خاضعة خضوعا تاما، لقضائه وأمره . . .

إذا حدث كل ذلك . . . قامت الساعة، ووجد كل إنسان جزاءه عند ربه – سبحانه – .

قال صاحب الكشاف : حذف جواب « إذا » ليذهب المقدر كل مذهب . أو اكتفاء بما علم في مثلها من سورتي التكوير والانفطار . وقيل : جوابها ما دل عليه قوله : « فملاقيه » أي : إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدحه . .

وقوله : « وأذنت لربها وحقت » أذن له : استمع له . . والمعنى : أنها فعلت في انقيادها لله – تعالى – حين أراد انشقاقها، فعل المطواع الذي إذا ورد عليه الأمر من جهة المطاع أنصت له وأذعن، ولم يأب ولم يمتنع، كقوله – تعالى – « أتينا طائعين » .

وحقت : هو من قولك : هو محقوق بكذا وحقيق به، يعني : وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع . . . »(١) .

وقال الجمل في حاشيته : وقوله « وحقت » الفاعل في الأصل هو الله – تعالى – . أي : حقَّ وأوجب الله عليها سمعه وطاعته . . فعلم من ذلك أن الفاعل محذوف، وأن المفعول هو سمعها وطاعتها له – تعالى – »(٢) .

ثم وجه – سبحانه – بعد ذلك نداء للإنسان، دعاه فيه إلى طاعته وإخلاص العبادة له، فقال : « يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه . . » والمراد بالإنسان هنا : جنسه . وأصل الكدح في كلام العرب : السعي في سبيل الحصول على الشيء بجد واجتهاد وعناء . . .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٢٥ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٥٠٨ .

مأخوذ من كدح فلان جلده ، إذا خدشه ، ومنه قول الشاعر :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت ، وأخرى أبتغى العيش أكدحُ

وقول الآخر :

ومضت بشاشة كل عيش صالح وبقيت أكدح للحياة وأنصبُ

أى : وبقيت أسعى سعيا حثيثا للحياة ، وأتعب من أجل الحصول على مطالبى فيها .

والضمير فى قوله : « فملاقيه » يعود إلى الله — تعالى — ، ويصح أن يعود للكدح ، بمعنى ملاق جزاء هذا الكدح .

والمعنى : يأيها الإنسان إنك باذل فى حياتك جهدا كبيرا من أجل مطالب نفسك .

وإنك بعد هذا الكدح والعناء . . مصيرك فى النهاية إلى لقاء ربك، حيث يحاسبك على عملك وكدحك . . فقدم فى دنياك الكدح المشروع، والعمل الصالح .

والسعى الحثيث فى طاعته ـ تعالى ـ ، لكى تنال ثواب ربك ورضاه .

قال ابن كثير : وقوله : « يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا . . » أى : ساع إلى ربك سعياً ، وعامل عملا « فملاقيه » ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر . .

ويشهد لذلك ما رواه أبو داود الطيالسى . . عن جابر قال : قال رسول الله — ﷺ — : قال جبريل : يا محمد ، عش ماشئت فإنك ميت ، واحبب ما شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه » .

ومن الناس من يعيد الضمير على قوله « ربك » أى : فملاق ربك

فيجازيك بعملك، ويكافئك على سعيك، وعلى هـذا فكلا القولين متلازم»(١) .

ثم فصل - سبحانه - بعد ذلك عاقبة هذا الكدح، والسعى المتواصل .. فقال- تعالى -: «فأما من أوتى كتابه بيمينه . فسوف يحاسب حسابا يسيرا . وينقلب إلى أهله مسرورا .

والمراد بالكتاب هنا : صحيفة العمل التى سجلت فيها حسنات الإنسان وسيئاته .

والمراد بالحساب اليسير : عرض الأعمال، مع التجاوز عن الهفوات، بفضل الله - تعالى - .

أى : الناس جميعا يكدحون فى هذه الحياة، ثم يعودون إلى خالقهم للحساب والجزاء، فأما من أعطى كتابه بيمينه، وهم المؤمنون الصادقون، فسوف يحاسب من ربه - تعالى - حسابا يسيرا سهلا، بأن تعرض أعماله على خالقه - تعالى -، ثم يكون التجاوز عن المعاصى، والثواب على الطاعة، بدون مناقشة أو مطالبة بعذر أو حجة . .

ثم ينقلب هذا الإنسان بعد ذلك إلى أهله وعشيرته، مبتهجا مسرورا، بسبب فضل الله - تعالى - عليه، ورحمته به .

وعبر - سبحانه - عن فوز هذا الإنسان، بأنه يؤتى كتابه بيمينه، للإشعار بأنه من أهل السعادة والتقوى . فقد جرت العادة أن اليد اليمنى إنما تتناول بها الأشياء الزكية الحسنة . . والباء فى قوله «بيمينه» للملابسة أو المصاحبة، أو بمعنى فى .

قال الآلوسى : والحساب اليسير : هو السهل الذى لا مناقشة فيه، وفسره - ﷺ - بالعرض وبالنظر فى الكتاب، مع التجاوز، فقد أخرج

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٧٨ .

الشيخان عن عائشة أن النبى - ﷺ - قال : ليس أحد يحاسب إلا هلك . قلت يارسول الله ، جعلنى الله فداك ، أليس الله - تعالى - يقول : «فأما من أوتى كتابه بيمينه . فسوف يحاسب حسابا يسيراً» ، قال : ذلك العرض يعرضون ، ومن نوقش الحساب هلك » .

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة - أيضاً - قالت : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول فى بعض صلاته : اللهم حاسبنى حسابا يسيرا . فلما انصرف قلت له : يارسول الله ، ما الحساب اليسير ؟ قال : أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه »(١) .

ثم بين - سبحانه - حال الأشقياء ، بعد بيانه لحال السعداء فقال : « وأما من أوتى كتابه وراء ظهره . فسوف يدعو ثبورا . ويصلى سعيرا ... » .

أى : وأما من أعطى صحيفة أعماله - لسوادها وقبح أعمالها - بشماله من وراء ظهره وهو الكافر - والعياذ بالله - قيل : تغل يمناه إلى عنقه ، وتجعل شماله وراء ظهره ، على سبيل الإهانة والإذلال له . .

« فسوف يدعو ثبورا » أى : فسوف يطلب الهلاك ، بأن ينادى عليه بحسرة وندامة ويقول : أيها الموت أقبل فهذا أوانك ، لتنقذنى مما أنا فيه من سوء . .

وفى طلبه للهلاك ، وتفضيله على ما هو فيه ، دليل على أن هذا الشقى - والعياذ بالله - قد وصل به الحال السىء إلى أقصى مداه ، حتى لقد أصبح الهلاك نهاية أمانيه ، كما قال الشاعر :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

فالمراد بالدعاء فى قوله « ويدعو ثبورا » النداء ، وبالثبور : الهلاك . بأن يقول : ياثبوراه أقبل فهذا أوان إقبالك .

(١) تفسير الآلوسى ج ٣٠ ص ٨٠ .

وقوله - تعالى - «ويصلى سعيرا» بيان للعذاب الذى يحل به. أى: ويدخل النار الشديدة الاشتعال، فيتقلب فيها، ويقاسى حرها.

وقوله - سبحانه -: «إنه كان فى أهله مسرورا. إنه ظن أن لن يحور» تعليل لما أصابه من سوء.

أى: إن هذا الشقى كان فى الدنيا فرحا بطرا بين أهله، لا يفكر فى عاقبة، ولا يعمل حساباً لغير ملذاته وشهواته.. وإنه فوق ذلك «ظن» أى: أيقن أنه لن يرجع إلى ربه يوم القيامة، ليحاسبه على أعماله، ويجازيه بما يستحقه من جزاء.

قال القرطبى: قوله «إنه ظن أن لن يحور» أى: لن يرجع حياً مبعوثاً فيحاسب، ثم يثاب أو يعاقب، يقال: حار فلان يحور إذا رجع، ومنه قول لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه   يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

فالحور فى كلام العرب: الرجوع، ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم - «اللهم إنى أعوذ بك من الحور بعد الكور» يعنى: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة...» (١).

وقوله - سبحانه -: «بلى إن ربه كان به بصيرا» إيجاب لما نفاه، وإثبات لما استبعده، وجملة «إن ربه..» بمنزلة التعليل لما أفادته بلى من إبطال لما نفاه.

أى: ليس الأمر كما زعم من أنه لن يبعث ولن يرجع إلى ربه.. بل الحق الذى لا يشوبه باطل، أن هذا الشقى سيرجع إلى ربه يوم البعث والنشور، ليجازيه على أعماله، لأنه - سبحانه - كان - وما زال -

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٩ ص ٢٧٣

عليما بأحوال هذا الشقى وغيره ، إذ لا يخفى عليه — سبحانه — شىء فى الأرض ولا فى السماء .

فالمراد بالبصر هنا : العلم التام بأحوال الخلق .

ثم أقسم — سبحانه — ببعض مخلوقاته ، على أن مشيئته نافذة ، وقضاءه لا يرد ، وحكمه لا يتخلف .. فقال : «فلا أقسم بالشفق . والليل وما وسق . والقمر إذا اتسق . لتركبن طبقاً عن طبق . . » .

والفاء فى قوله «فلا أقسم . . » واقعة فى جواب شرط مقدر ، وهى التى يعبر عنها بالفصيحة ، و «لا» مزيدة لتأكيد القسم ، وجوابه «لتركبن . . . » .

والشفق : الحمرة التى تظهر فى الأفق الغربى بعد غروب الشمس ، وهو ضياء من شعاعها ، وسمى شفقاً لرقته ، ومنه الشفقة لرقة القلب .

والوسق : جمع الأشياء ، وضم بعضها إلى بعض . يقال : وَسَق الشىءَ يسَقُه — كضرب إذا جمعه فاجتمع ، ومنه قولهم : إبل مستوسقة ، أى : مجتمعة ، وأمر متسق ، أى : مجتمع على ما يسر صاحبه ويرضيه .

واتساق القمر : اجتماع ضيائه ونور ، وهو افتعال من الوسق ، وهو الجمع والضم ، وذلك يكون فى الليلة الرابعة عشرة من الشهر .

أى : أقسم بالحمرة التى تظهر فى الأفق الغربى ، بعد غروب الشمس ، وبالليل وما يضمه تحت جناحه من مخلوقات وعجائب لا يعلمها إلا الله — تعالى — ، وبالقمر إذا ما اجتمع نوره ، وأكتمل ضياؤه ، وصار بدوا متلألئاً . . .

وفى القسم بهذه الأشياء ، دليل واضح على قدرة الله — تعالى — الباهرة ، لأن هذه الأشياء تتغير من حال إلى حال ، ومن هيئة إلى هيئة ..

فالشفق حالة تأتى فى أعقاب غروب الشمس ، والليل يأتى بعد النهار ، والقمر يكتمل بعد نقصان . . . وكل هذه الحالات الطارئة ، دلائل على قدرة الله — تعالى — .

وقوله — سبحانه — « لتركبن طبقاً عن طبق » جواب القسم - كما سبق أن أشرنا — .

والمراد بالركوب : الملاقاة والمعاناة ، والخطاب للناس . والطبق جمع طبقة ، وهى الشىء المساوى لشىء آخر ، والمراد بها هنا : الحالة أو المرتبة . وعن بمعنى بعد .

أى : وحق الشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق . . لتلاقن — أيها الناس — أحوالا بعد أحوال ، هى طبقات ومراتب فى الشدة ، بعضها أصعب من بعض ، وهى الموت ، ومايكون بعده من حساب وجزاء يوم القيامة .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : « لتركبن طبقا عن طبق » خطاب لجنس الإنسان المنادى أولا ، باعتبار شموله لأفراده ، والمراد بالركوب الملاقاة ، والطبق فى الأصل ماطابق غيره مطلقا ، وخص فى العرف بالحال المطابقة لغيرها . . و « عن » للمجاوزة ، أو بمعنى « بعد » .

والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة أو حالا من فاعل لتركبن ، والظاهر أن « طبقا » منصوب على المفعولية .

أى : لتلاقن حالا كائنة بعد حال ، كل واحدة مطابقة لأختها فى الشدة والهول . . منها ما هو فى الدنيا ، ومنها ما هو فى الآخرة .

وقرأ الأخوان — حمزة والكسائى — وابن كثير « لتركبن » — بفتح الباء — على أنه خطاب للإنسان — أيضاً — ، لكن باعتبار اللفظ ، لا باعتبار الشمول .

وأخرج البخارى عن ابن عباس أنه خطاب للنبى — صلى الله عليه وسلم — ، أى : لتركبن - أيها الرسول الكريم - أحوالا شريفة بعد أخرى من مراتب القرب . أو مراتب من الشدة بعد مراتب من الشدة ، ثم تكون العاقبة لك ... » (١) .

والفاء فى قوله - تعالى - بعد ذلك : « فما لهم لا يؤمنون . وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ... » لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجيب على ما قبلها . و « ما » للاستفهام الإنكارى ..

أى : إذا كان الأمر كما وضحنا لك - أيها الرسول الكريم - من أن البعث حق ، ومن أن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - وحده ... فأى شىء يمنع هؤلاء الكافرين من الإيمان ، مع أن كل الدلائل والبراهين تدعوهم إلى الإيمان .

وأى : مانع منعهم من السجود والخضوع لله - تعالى - عند ما يقرأ عليهم القرآن الكريم ، الذى أنزلناه عليك لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

فالمقصود من الآيتين الكريمتين تعجيب الناس من حال هؤلاء الكافرين الذين قامت أمامهم جميع الأدلة على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، ومع ذلك فهم مصرون على كفرهم وجحودهم وعنادهم ..

قال الآلوسى : وقد صح عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه سجد عند قراءة هذه الآية ، فقد أخرج مسلم وأبو داود والترمذى .. عن أبى هريرة قال : « سجدنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى « إذا السماء انشقت ... » وفى « اقرأ باسم ربك ... » وهى سنة عند الشافعى ، وواجبة عند أبى حنيفة اهـ .. » (٢) .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٨٢

(٢) « « جـ ٣٠ ص ٨٣

أما الإمام مالك فالرواية الراجحة فى مذهبه ، أن هذه الآية ليست من آيات سجود التلاوة . .

وقوله - سبحانه - : « بل الذين كفروا يكذبون » إضراب انتقالى، من التعجيب من عدم إيمانهم مع ظهور كل الأدلة على وجوب الإيمان ، إلى الإخبار عنهم بأنهم مستمرون على كفرهم أى : ليس هناك أى مانع يمنع الكافرين من الإيمان ، بعد أن قامت جميع الشواهد على صدق الرسول - ﷺ - ، بل الحق أن هؤلاء الكافرين إنما استمروا على كفرهم بسبب عنادهم وحسدهم للرسول - ﷺ - على ما آتاه الله - تعالى - من فضله ، وتكذيبهم للحق عنادا وجحودا .

وقوله - سبحانه - : « والله أعلم بما يوعون » كلام معترض بين سابقه ولاحقه ، والمقصود به التهديد والوعيد . .

ومعنى « يوعون » يضمرون ويخفون ويسرون . وأصل الإيعاء : حفظ الأمتعة فى الوعاء ، يقال : أوعى فلان الزاد والمتاع ، إذا جعله فى الوعاء . والمراد به هنا : الإضمار والإخفاء ، كما فى قول الشاعر : والشر أخبث ما أوعيت من زاد .

أى : والله - تعالى - أعلم من كل أحد ، بما يضمره هؤلاء الكافرون ، وبما يخفونه فى صدورهم من تكذيب للحق ، ومن جحود للقرآن الكريم، ومن معاداة للمؤمنين . .

وقوله : « فبشرهم بعذاب أليم » تفريع على قوله : « بل الذين كفروا يكذبون » .

والتبشير : الإخبار بما يسر ، والمراد به هنا التهكم بهم ، بدليل توعدهم بالعذاب الأليم .

أى : فبشر - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الكافرين المكذبين للحق ، بالعذاب الأليم .

والاستثناء فى قوله - تعالى - : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » استثناء منقطع . أى : هذا هو حال الكافرين ، لكن الذين آمنوا إيمانا حقاً ، وقدموا فى دنياهم الأعمال الصالحة ، فلهم فى الآخرة أجر غير مقطوع . فقوله « ممنون » من مَنَّ : إذا قطع يقال : مننت الحبل إذا قطعته . أو لهم أجر خالص من شوائب الامتنان ، وهو أن يعطى الإنسان غيره عطاء ، ثم يتباهى عليه به . .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده المؤمنين الصادقين ؟

القاهرة - مدينة نصر

مساء الأربعاء ٢٧ من المحرم سنة ١٤٠٧هـ

أول - أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

تفسير سورة

البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة « البروج »

١ ــ سورة « البروج » من السور المكية الخالصة ، وتسمى سورة «السماء ذات البروج» فقد أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة ، أن رسول الله ــ ﷺ ــ كان يقرأ في العشاء الآخرة ، بالسماء ذات البروج » .

وعدد آياتها : اثنتان وعشرون آية . وكان نزولها بعد سورة « والشمس وضحاها » ، وقبل سورة « والتين والزيتون . . . » .

٢ ــ والسورة الكريمة من أهم مقاصدها : تثبيت المؤمنين ، وتسليتهم عما أصابهم من أعدائهم ، عن طريق ذكر جانب مما تحمله المجاهدون من قبلهم ، فكأن الله ــ تعالى ــ يقول للنبي ــ ﷺ ــ ولأصحابه : اصبروا كما صبر المؤمنون السابقون ، واثبتوا كما ثبتوا ، فإن العاقبة ستكون لكم . .

كما أن السورة الكريمة ساقت الأدلة على وحدانية الله ــ تعالى ــ وقدرته ، ونفاذ أمره . .

قال – تعالى – :

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ
وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾
إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾
وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ
وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ
جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ
بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ
ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾
هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾
بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

والبروج : جمع برج . وهى فى اللغة : القصور العالية الشامخة . ويدل لذلك قوله – تعالى – : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » أى : ولو كنتم فى قصور عظيمة محصنة .

والمراد بها هنا : المنازل الخاصة بالكواكب السيارة ، ومداراتها الفلكية الهائلة ، وهى اثناعشر منزلا : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت .

وسميت بالبروج ، لأنها بالنسبة لهذه الكواكب كالمنازل لساكنيها .

قال القرطبى : قوله - : « والسماء ذات البروج » : قسم أقسم الله - عز وجل - به . وفى البروج أربعة أقوال . أحدها : ذات النجوم . الثانى : ذات القصور . . الثالث : ذات الخلق الحسن الرابعة : ذات المنازل . - وهى اثناعشر منزلا . . »(١) .

وقوله : « واليوم الموعود » المقصود به : يوم القيامة ، لأن الله - تعالى - وعد الخلق به ، ليجازى فيه الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

وقوله : وشاهد ومشهود » قسم ثالث ببعض مخلوقاته - تعالى - . والشاهد اسم فاعل من المشاهدة بمعنى الرؤية ، فالشاهد هو الرائى للشىء ، أو المخبر غيره عما رآه وشاهده . .

والمشهود : اسم مفعول ، وهو هنا الشىء المرئى ، أو المشهود عليه بأنه حق . .

فالمراد بالشاهد : من يحضر ذلك اليوم من الخلائق المبعوثين ، وما يراه فيه من عجائب وأهوال ، من المشاهدة بمعنى الرؤية والحضور - أو من يشهد فى ذلك اليوم على غيره ، من الشهادة على الخصم . .

وقد ذكر المفسرون فى معنى هذين اللفظين ، ما يقرب من عشرين وجها -

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ٢٨٣

قال صاحب الكشاف : وقوله : « وشاهد ومشهود » يعنى : وشاهد فى ذلك اليوم ومشهود فيه . والمراد بالشاهد : من يشهد فيه من الخلائق كلهم . وبالمشهود : ما فى ذلك اليوم من عجائبه . .

ثم قال : وقد اضطربت أقوال المفسرين فيهما : فقيل : الشاهد والمشهود : محمد - ﷺ - ويوم القيامة . وقيل : عيسى وأمته . وقيل : أمة محمد - ﷺ - وسائر الأمم .

وقيل : يوم التروية ويوم عرفة . وقيل : يوم عرفة ويوم الجمعة . وقيل : الحجر الأسود . والحجيج . وقيل : الأيام والليالى . وقيل : الحفظة وبنو آدم . . »(١) .

ويبدو لنا أن أقرب الأقوال إلى الصواب : أن المراد بالشاهد هنا : الحاضر فى ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة ، والرائى لأهواله وعجائبه . .

وأن المراد بالمشهود : ما يشاهد فى ذلك اليوم من أحوال يشيب لها الولدان . .

وقال - سبحانه - « وشاهد ومشهود » بالتنكير ، لتهويل أمرهما ، وتفخيم شأنهما .

وقوله - تعالى - : « قتل أصحاب الأخدود » جواب القسم بتقدير اللام وقد .

أى : وحق السماء ذات البروج ، وحق اليوم الموعود ، وحق الشاهد والمشهود ، لقد قتل ولعن أصحاب الأخدود ، وطردوا من رحمة الله بسبب كفرهم وبغيهم .

والأخدود : وهو الحفرة العظيمة المستطيلة فى الأرض ، كالخندق ،

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٧٢٩ .

وجمعه أخاديد ، ومنه الخد لمجارى الدمع ، والمخدة : لأن الخد يوضع عليها. ويقال : تخدد وجه الرجل ، إذا صارت فيه التجاعيد . . . . ومنه قول الشاعر :

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه ، نقى اللون لم يتخدد

وقيل : إن جواب القسم محذوف ، دل عليه قوله — تعالى — : « قتل أصحاب الأخدود » كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء إن كفار مكة لملعونون كما لعن أصحاب الأخدود .

وأصحاب الأخدود : هم قوم من الكفار السابقين ، حفروا حفرا مستطيلة فى الأرض ، ثم أضرموها بالنار ، ثم ألقوا فيها المؤمنين ، الذين خالفوهم فى كفرهم ، وأبوا إلا إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده . .

وقوله — سبحانه — : « النار ذات الوقود » بدل اشتمال مما قبله وهو الأخدود .

والوقود : اسم لما توقد به النار كالحطب ونحوه . وذات الوقود : صفة للنار .

أى : قتل وطرد من رحمة الله أصحاب الأخدود ، الذين أشعلوا فيه النيران ذات اللهب الشديد ، لكى يلقوا المؤمنين فيها .

والظرف فى قوله — تعالى — « إذهم عليها قعود » متعلق بقوله — تعالى — : « قتل » . أى : لعنوا وطردوا من رحمة الله ، حين قعدوا على الأخدود ، ليشرفوا على من يعذبونهم من المؤمنين .

فالضمير « هم » يعود على أولئك الطغاة الذين كانوا يعذبون المؤمنين ويجلسون على حافات الأخدود ليروهم وهم يحرقون بالنار ، أوليأمروا أتباعهم وزبانيتهم بالجد فى التعذيب حتى لا يتهاونوا فى ذلك .

و « على » للاستعلاء المجازى ، إذ من المعلوم أنهم لا يقعدون فوق النار ، وإنما هم يقعدون حولها ، لإلقاء المؤمنين فيها .

وجملة « وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » فى موضع الحال من الضمير فى قوله : « إذهم عليها قعود » .

أى : أن هؤلاء الطغاة الظالمين ، لم يكتفوا بإشعال النار ، والقعود حولها وهم يعذبون المؤمنين ، بل أضافوا إلى ذلك ، أنهم يشهدون تعذيبهم ويرونه بأعينهم على سبيل التشفى منهم ، فقوله « شهود » بمعنى حضور ، أو بمعنى يشهد بعضهم لبعض أمام ملكهم الظالم ، بأنهم ما قصروا فى تعذيب المؤمنين . .

وهذا الفعل منهم . يدل على نهاية القسوة والظلم ، وعلى خلو قلوبهم من أى رحمة أو شفقة .

قال الآلوسى : وقوله : « وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » أى : يشهد بعضهم لبعض عند الملك ، بأن أحدا لم يقصر فيما أمر به ، أو يشهدون عنده على حسن ما يفعلون . . أو يشهد بعضهم على بعض بذلك العمل الشنيع يوم القيامة ، أو يشهدون على أنفسهم بذلك ، كما قال - تعالى - : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » .

وقيل : « على » بمعنى مع . أى : وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب حضور ، لا يرقون لهم ، لغاية قسوة قلوبهم . . »(١) .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى حملت هؤلاء الطغاة على إحراق المؤمنين فقال : « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض ، والله على كل شىء شهيد » .

والنقمة هنا بمعنى الإنكار والكراهية . يقال : نقم فلان هذا الشىء - من باب ضرب - إذا كرهه وأنكره . .

(١) تفسير الآلوسى حـ ٣٠ ص ٩٠

أى : أن هؤلاء الكافرين ما كرهوا المؤمنين ، وما أنزلوا بهم ما أنزلوا من عذاب ، إلا لشيء واحد ، وهو أن المؤمنين أخلصوا عبادتهم لله - تعالى - صاحب العزة التامة ، والحمد المطلق ، والذى له ملك جميع ما فى السموات والأرض ، وهو - سبحانه - على كل شيء شهيد ورقيب ، لا يخفى عليه أمر من أمور عباده ، أو حال من أحوالهم .

فالمقصود من هاتين الآيتين الكريمتين ، التعجيب من حال هؤلاء المجرمين ، حيث عذبوا المؤمنين ، لا لشيء إلا من أجل إيمانهم بخالقهم ، وكأن الإيمان فى نظرهم جريمة تستحق الإحراق بالنار .

وهكذا النفوس عند ما يستحوذ عليها الشيطان ، تتحول الحسنات فى نظرها إلى سيئات ، وقديماً قال المنكوسون من قوم لوط - عليه السلام - « أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون » .

والاستثناء فى قوله : « إلا أن يؤمنوا بالله . . . » استثناء مفصح عن براءة المؤمنين مما يعاب وينكر ، فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كما فى قول القائل :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ، وما أنزلنا إلينا ، وما أنزل من قبل ، وأن أكثركم فاسقون » .

قال الإمام ابن كثير : وقد اختلفوا فى أهل هذه القصة من هم ؟ فعن على ابن أبى طالب : أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل زواج المحارم ، فامتنع عليه علماؤهم ، فعمد إلى حفر أخدود ، فقذف فيه من أنكر عليه منهم . . .

وعنه أنهم كانوا قوماً من اليمن ، اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم ، فتغلب

مؤمنوهم على كفارهم ، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين ، فخدوا لهم الأخاديد ، وأحرقوهم فيها .

ثم ذكر — رحمه الله — بعد ذلك جملة من الآثار فى هذا المعنى فارجع إليها إن شئت (١) .

وعلى أية حال فالمقصود بهذه الآيات الكريمة ، تثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان ، وتسليتهم عما أصابهم من أعدائهم ، وإعلامهم بأن ما نزل بهم من أذى ، قد نزل ما هو أكبر منه بالمؤمنين السابقين ، فعليهم أن يصبروا كما صبر أسلافهم ، وقد اقتضت سنته — تعالى — أن يجعل العاقبة للمتقين .

ثم هدد — سبحانه — كفار قريش بسوء المصير ، إذا ما استمروا فى إيذائهم للمؤمنين ، فقال — تعالى — : « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات . ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » .

وقوله : « فتنوا » من الفتن ، بمعنى الاختبار والامتحان . تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى : أدخلته فى النار لتعلم جودته من رداءته . والمراد به هنا : التعذيب والتحريق بالنار .

أى : إن الظالمين الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات ، وأحرقوهم بالنار ثم لم يتوبوا إلى الله — تعالى — من ذنوبهم ، ويرجعوا عن تعذيبهم للمؤمنين والمؤمنات ، فلهم فى الآخرة عذاب جهنم ، بسبب إصرارهم على كفرهم وعدوانهم ، ولهم نار أخرى زائدة على غيرها فى الإحراق .

والمراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات : كفار قريش ، كأبى جهل

(١) سورة المائدة . الآية ٥٩

(٢) راجع تفسير ابن كثير حـ ٧ ص ٢٨٧

وأمية بن خلف ، وغيرهما ، فقد عذبوا بلالا ، وعمار بن ياسر ، وأمه سمية .

ويؤيد أن المراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات كفار قريش ، قوله — تعالى — : « ثم لم يتوبوا » ، لأن هذه الجملة تحريض على التوبة ، وترغيب فيها للكافرين المعاصرين للنبي — صلى الله عليه وسلم — .

ويصح أن يراد بهم جميع من عذبوا المؤمنين والمؤمنات ، ويدخل فيه أصحاب الأخدود ، وكفار قريش دخولا أوليا .

وجمع — سبحانه — بين عذاب جهنم لهم ، وبين عذاب الحريق ، لبيان أن العذاب لهم مضاعف ، بسبب طغيانهم وشركهم .

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك ما أعده للمؤمنين والمؤمنات من ثواب وعطاء كريم فقال : « إن الذين آمنوا وعملوا » الأعمال « الصالحات لهم » أي : عند ربهم « جنات تجري من تحتها الأنهار » . أي تجري من تحت أشجارها وبساتينها الأنهار « ذلك » العطاء هو « الفوز الكبير » الذي لا فوز يضارعه أو يقاربه .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ، ما يدل على نفاذ قدرته ومشيئته ، حتى يزداد المؤمنون ثباتا على ثباتهم ، وصبرا على صبرهم فقال : « إن بطش ربك لشديد » .

والبطش : هو الأخذ بقوة وسرعة وعنف . أي : إن بطش ربك - أيها الرسول الكريم - بالظالمين والطغاة ، لبالغ نهاية القوة والعنف ، فمر أصحابك فليصبروا على الأذى ، فإن العاقبة الحسنة ستكون لهم وحدهم . . .

« إنه هو يبدئ ويعيد » أي : إنه وحده هو الذي يخلق الخلق أولا في الدنيا ، ثم يعيدهم إلى الحياة بعد موتهم للحساب والجزاء ، وهو

ـ سبحانه ـ وحده الذى يبدىء البطش بالكفار فى الدنيا ، ثم يعيده عليهم فى الآخرة بصورة أشد وأبقى .

وحذف — سبحانه — المفعول فى الفعلين ، بقصد العموم ، ليشمل كل ما من شأنه أن يبدأ وأن يعاد من الخلق أو من العـذاب أو من غيرهما . . . .

« وهو الغفور الودود » أى : وهو — سبحانه — الواسع المغفرة لمن تاب وآمن ، وهو الكثير المحبة والود لمن أطاعه واتبع هداه .

« ذو العرش المجيد » أى : وهو — عز وجل — صاحب العرش العظيم ، الذى لا يعرف كنهه إلا هو — سبحانه — ، وهو « المجيد » أى : العظيم فى ذاته وصفاته .

« فعال لما يريد » أى : وهو — تعالى — الذى يفعل كل شىء يريده ، دون أن يعترض عليه أحـد ، بل فعله هو النافذ ، وأمره هـو السارى والمطاع . . . .

وجاءت كلمة « فعال » بصيغة المبالغة ، للدلالة على أن ما يريده ويفعله ـ مع كثرته ـ ، هو فى غاية النفاذ والسرعة ، كما قال ـ تعالى ـ : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

فهذه الصفة من الصفات الجامعة لعظمته الذاتية ، وعظمة نعمه ومننه وعطاياه . . . .

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك ، ما يدل على شدة بطشه ، ونفاذ أمره فقال : « هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود . . » .

والاستفهام هنا : للتقرير والتهويل . والمراد بالجنود : الجموع الكثيرة التى عتت عن أمر ربها ، فأخذها ـ سبحانه ـ أخذ عزيز مقتدر . وقوله : « فرعون وثمود » بدل من الجنود .

والمراد بفرعون وثمود : ملؤهما وقومهما الذين آثروا الغى على الرشد والضلالة على الهداية ، والباطل على الحق .

أى : لقد بلغك - أيها الرسول الكريم - حديث فرعون الذى طغى وبغى ، واتبعه قومه فى طغيانه وبغيه ، وحديث قوم صالح - عليه السلام - وهم الذين كذبوا نبيهم ، وآذوه ، وعقروا الناقة التى نهاهم عن أن يمسوها بسوء ...

وكيف أنه - سبحانه - قد دمر الجميع تدميراً شديداً ، جزاء كفرهم وبغيهم . . .

وخص - سبحانه - جند فرعون وثمود بالذكر ، لأنهم كانوا أشد من غيرهم بغياً وظلما ، ولأنهم كانت قصصهم معروفة لأهل مكة أكثر من غيرهم . . .

وقوله - سبحانه - : « بل الذين كفروا فى تكذيب . والله من ورائهم محيط » اضراب انتقالى ، المقصود منه بيان أن هؤلاء المشركين المعاصرين للنبى - صلى الله عليه وسلم - لم يتعظوا بمن سبقهم .

أى : لقد كانت عاقبة جنود فرعون وثمود ، الهلاك والدمار ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، ولكن قومك - أيها الرسول - لم يعتبروا بهم ، بل استمروا فى تكذيبهم لك ، وفى إعراضهم عنك . . . . . واعلم أن الله - تعالى - محيط بهم إحاطة تامة ، ولن يفلتوا من عقابه بأية حيلة من الحيل ، فهم تحت قبضته وسلطانه ، وسينزل بهم بأسه فى الوقت الذى يريده . . .

وقوله - تعالى - « بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ » إضراب انتقالى آخر ، من بيان شدة تكذيبهم للحق ، إلى بيان أن القرآن الكريم هو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أى : ليس الأمر كما قال هؤلاء المشركون فى القرآن من أنه أساطير الأولين . . . بل الحق أن هذا القرآن هو كلام الله - تعالى - البالغ النهاية فى الشرف والرفعة والعظمة . .

وأنه كائن فى لوح محفوظ من التغيير والتبديل ، ومن وصول الشياطين إليـــه ، ونحن نؤمن بأن القرآن الكريم كائن فى لوح محفوظ ، إلا أننا نفوض معرفة حقيقة هذا اللوح وكيفيته إلى علمه - تعالى - ، لأنه من أمر الغيب الذى تفرد الله - تعالى - بعلمه . . وما قيل فى وصف هذا اللوح لم يرد به حديث صحيح يعتمد عليه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر : مساء الخميس ٢٩ من المحرم سنة ١٤٠٧ هـ
٣ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

تفسير سورة

الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة « الطارق »

١ — سورة « الطارق » من السور المكية ، وعدد آياتها سبع عشرة آية ، وكان نزولها بعد سورة « البلد » وقبل سورة « القمر » وهي السورة السادسة والثلاثون ، في ترتيب النزول ، أما في المصحف ، فهي السورة السادسة والثمانون .

وكان النبي — صلى الله عليه وسلم — يقرأ بها كثيراً ، فقد أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة ، أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان يقرأ في العشاء الآخرة ، بالسماء ذات البروج . والسماء والطارق » .

وأخرج — أيضاً — عن خالد بن أبي جبل العدواني : « أنه أبصر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في مشرق — بضم الميم — ثقيف . — أي في سوق ثقيف — وهو قائم على قوس أو عصى . حين أتاهم يبتغى عندهم النصر . فسمعته يقول : « والسماء والطارق » حتى ختمها . قال : فوعيتها في الجاهلية ثم قرأتها في الإسلام . قال : فدعتني ثقيف فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم . فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا . لو كنا نعلم أن ما يقول حقاً لاتبعناه (١) .

٢ — والسورة الكريمة من مقاصدها : إقامة الأدلة على وحدانية الله — تعالى — ، وعلى كمال قدرته ، وبليغ حكمته ، وسعة علمه ، وإثبات أن هذا القرآن من عنده — تعالى — ، وأن العاقبة للمتقين .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٩٥

قال – تعالى – :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ
الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ
مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ
وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾
فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ
ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾
إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ
الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

والطارق : اسم فاعل من الطروق . والمراد به هنا : النجم الذى يظهر ليلا فى السماء .

قال القرطبي ما ملخصه : الطارق : النجم ، اسم جنس ، سمى بذلك لأنه يطرق ليلا ، ومنه الحديث : نهى النبى – صلى الله عليه وسلم – أن يطرق المسافر أهله ليلا . . ، والعرب تسمى كل قاصد فى الليل طارقا . يقال : طرق فلان

إذا جاء ليلا . . وأصل الطرق : الدق ، ومنه سميت المطرقة ، فسمى قاصد الليل طارقا ، لاحتياجه فى الوصول إلى الدق . .

وفى الحديث : أعوذبك من طوارق الليل والنهار ، إلا طارقا يطرق بخير يارحمن . . »(١) .

وقوله — تعالى — : «وما أدراك ما الطارق» تنويه بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام به ، فالاستفهام مستعمل فى تعظيم أمره . .

وقد جاء التعبير بقوله — تعالى — « وما أدراك . . ثلاث عشرة مرة فى القرآن الكريم ، كلها جاء الخبر بعدها - كما هنا - ، وكما فى قوله - تعالى -: « وما أدراك ما سقر . لا تبقى ولا تذر لواحة للبشر . . . » .

وكما فى قوله — سبحانه — : « وما أدراك ما يوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً . . » إلا واحدة لم يأت الخبر بعدها ، وهى قوله-تعالى-: الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة . . . » .

أما التعبير بقوله — تعالى — : « وما يدريك . . . » فقد جاء ثلاث مرات ، ولم يأت الخبر بعد واحدة من هذه المرات . قال — تعالى — : « وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً » ، « ومايدريك لعل الساعةقريب» « وما يدريك لعله يزكى » .

قال القرطبى : قال سفيان : كل ما فى القرآن وما أدراك فقد أخبر به ، وكل شىء قال فيه : وما يدريك ، لم يخبر به .

وقوله « النجم الثاقب » بيان وتفسير للطارق ، والثاقب : أى :المضىء الذى يثقب الظلام ويخرقه بنوره فينفذ فيه ، ويبدده . .

والجملة الكريمة مستأنفة ، وهى جواب عن سؤال مقدر نشأ عما قبله ، كأنه قيل وما هو الطارق ؟ فكان الجواب : هو النجم الثاقب .

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ٢ .

وقوله – سبحانه – : «إن كل نفس لما عليها حافظ» جواب القسم وما بينهما كلام معترض لتنفخيم شأن المقسم به . . والحافظ : هو الذى يحفظ ما كلف بحفظه ، لمقصد معين . أى : وحق السماء البديعة الصنع ، وحق النجم الذى يطلع فيها فيبدد ظلام الليل ، ما كل نفس من الأنفس ، إلا وعليها من الملائكة من يحفظ عملها ويسجله سواء أكان هذا العمل خيرا أم شرا .

قال الإمام الشوكانى ما ملخصه : قرأ الجمهور بتخفيف الميم فى قوله «لما» ، فتكون «إن» مخففة من الثقيلة ، فيها ضمير الشأن المقدر ، وهو اسمها ، واللام هى الفارقة - بين «إن» النافية ، و «إن» المخففة من الثقيلة - وما مزيدة : أى : إن الشأن كل نفس لعليها حافظ .

وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد الميم فى قوله «لما» ، فتكون «إن» نافية ، ولما بمعنى إلا . أى : ما كل نفس إلا عليها حافظ . .

والحافظ : هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها . . وقيل : الحافظ هو الله – تعالى – . وقيل : هو العقل يرشدهم إلى المصالح . .

والأول أولى ، لقوله – تعالى – : «ويرسل عليكم حفظة» ، وقوله : «وإن عليكم لحافظين» .

وحفظ الملائكة إنما هو من حفظه - تعالى - ، لأنهم لا يحفظون إلا بأمره – عز وجل – »(١) .

والمقصود من الآية الكريمة : تحقيق تسجيل أعمال الإنسان عليه ، وأنه سيحاسب عليها ، وسيجازى عليها بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وبعد أن بين – سبحانه – أن كل نفس عليها حافظ يسجل عليها

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٥ ص ٤١٩ .

أعمالها . أتبع ذلك بأمر الإنسان بالتفكر فيما ينفعه ، بأن يعتبر بأول نشأته ، وليعلم أن من خلقه من ماء مهين ، قادر على إعادته إلى الحياة مرة أخرى ، فقال - تعالى - : « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب . . . » .

والفاء في قوله « فلينظر . . . » للتفريع على ما تقدم ، وهى بمعنى الفصيحة . وقوله : « خلق من ماء دافق » جواب الاستفهام في قوله - سبحانه - « مم خلق » : والمقصود بالاستفهام هنا : الحث والحض على التفكر والتدبر . .

و « دافق » اسم فاعل من الدفق ، وهو الصب للشىء بقوة وسرعة ، يقال : تدفق الماء إذا سال باندفاع وسرعة . والمراد به هنا : الماء الذى يخرج من الرجل ويصب في رحم المرأة .

والصلب : يطلق على فقار الظهر بالنسبة للرجل . والترائب : جمع تريبة ، وهى العظام التى تكون في أعلى صدر المرأة ، ويعبرون عنها بقولهم موضع القلادة من المرأة .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم - أيها الناس - ، من أن كل نفس عليها حافظ يسجل عليها أقوالها وأفعالها . . فلينظر الإنسان منكم نظر تأمل وتدبر واعتبار ، وليسأل نفسه من أى شىء خلق ؟ لقد خلقه الله - تعالى - بقدرته ، من ماء متدفق ، يخرج بقوة وسرعة من الرجل ، ليصب في رحم الأنثى . .

وهذا الماء الدافق من صفاته أنه يخرج من بين صلب الرجل ، ومن بين ترائب المرأة ، حيث يختلط الماءان ، ويتكون منهما الإنسان في مراحله المختلفة بقدرة الله - تعالى - .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما وجه اتصال قوله : « فلينظر » بما قبله ؟

قلت : وجه اتصاله به أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظاً ، أتبعه بتوصية الإنسان بالنظر فى أول أمره ، ونشأته الأولى ، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه ، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، ولا يملى على حافظه إلا ما يسره فى عاقبته .

و « مم خلق » استفهام جوابه : « خلق من ماء دافق » . والدفق : صب فيه دفع . ومعنى « دافق » النسبة إلى الدفق الذى هو مصدر دفق ، كاللابن والتامر . أو الإسناد المجازى . والدفق فى الحقيقة لصاحبه .

ولم يقل ماءين لامتزاجهما فى الرحم ، واتحادهما حين ابتدىء فى خلقه . . . » (١) .

وقال بعض العلماء : قوله «خلق من ماء دافق» أى : من ماء ذى دفق .. وكل من منى الرجل ، ومنى المرأة ، اللذين يتخلق منهما الجنين ، ذو دفق فى الرحم .

«يخرج من بين الصلب والترائب » أى . يخرج هذا الماء الدافق ، من بين صلب كل واحد منهما ، وترائب كل منهما . أى : أن أعضاء وقوى كل منهما ، تتعاون فى تكوين ماهو مبدوء لتوالد الإنسان : ماء الرجل وهو المنى ، ومادة المرأة وهى البويضة المصحوبة بالسائل ، المنصبان بدفع وسيلان سريع إلى الرحم عند الاتصال الجنسى . ويسمى الفقهاء هذه المادة منياً وماء » (٢) .

وقال فضيلة الشيخ ابن عاشور : وأطنب — سبحانه — فى وصف هذا الماء الدافق ، لإدماج التعليم والعبرة ، بدقائق التكوين ؛ ليستيقظ الجاهل الكافر ، ويزداد المؤمن علما ويقينا .

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٧٣٥

(٢) صفوة البيان حـ ٢ ص ٥٣٠ لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف .

ووصف بأنه « يخــــرج من بين الصلب والترائب » ، لأن الناس لا يتفطنون لذلك . . وهذا من الإعجاز العلمى فى القرآن ، الذى لم يكن علم به للذين نزل بينهم ، وهو إشارة مجملة ، وقد بينها حـديث مسلم عن أم سلمة وعائشة : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ سئل عن احتلام المرأة فقال : تغتسل إذا أبصرت الماء . فقيل له : أترى المرأة ذلك ؟ فقال : وهل يكون الشبه إلا من قبل ذلك، إذا علا ماء المرأة ماء الرجل ، أشبه الولد أخواله ، وإذا علا ماء الرجل ماءها ، أشبه أعمامه » (١) .

وقال صاحب الظلال . ولقد كان هذا سرا مكنونا فى علم الله لا يعلمه البشر ، حتى كان نصف القرن الأخير ، حيث اطلع العلم الحـديث على هذه الحقيقة بطريقته ، وعرف أنه فى عظام الظهر الفقارية ، يتكون ماء الرجل . حيث يلتقيان فى قرار مكين ، فينشأ منهما الإنسان » (٢) .

وقوله ــ سبحانه ــ : « إنه على رجعه لقادر . يوم تبلى السرائر . فماله من قوة ولا ناصر » .

بيان لكمال قدرته ــ تعالى ــ ، وأنه كما أنشأ الإنسان من ماء مهين ، قادر على إعادته إلى الحياة بعد موته .

والضمير فى قوله : « إنه » يعود إلى الله ــ عز وجل ــ لأن الخالق للإنسان من ماء دافق هو الله ــ تعالى ــ .

والضمير فى قوله « رجعه » يعود إلى الإنسان المخلوق .

وقوله : « تبلى » من البلاء بمعنى الاختبار والامتحان ، ومنه قـوله ــ تعالى ــ : « إن هـذا لهو البلاء المبين » والمراد بقوله « تبلى » هنا : الكشف والظهور .

---

(١) راجع تفسير التحرير والتنوير جـ ٣٠ ص ٢٦٣ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور .

(٢) تفسير فى ظلال القرآن جـ ٣٠ ص ٥٢٥

و «السرائر» جمع ضريرة ، وهى ما أسره الإنسان من أقوال وأفعال.: والظرف « يوم » متعلق بقوله : « رجعه » .

أى : إن الله — تعالى — الذى قدر على خلق الإنسان من ماء دافق . يخرج من الصلب والترائب . . . لقادر — أيضاً — على إعادة خلق هذا الإنسان بعد موته ، وعلى بعثه من قبره للحساب والجزاء ، يوم القيامة ، يوم تكشف المكنونات ، وتبدو ظاهرة للعيان ، وترفع الحجب عما كان يخفيه الإنسان فى دنياه من عقائد ونيات وغيرهما .

وفى هذا اليوم لا يكون للإنسان من قوة تحميه من الحساب والجزاء ، ولا يكون له من ناصر ينصره من بأس الله — تعالى — أو من مدافع يدافع عنه .

ثم أقسم — سبحانه — مرة أخرى بالسماء ، على أن القرآن من عنده — تعالى — فقال : « والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع . إنه لقول فصل . وما هو بالهزل » .

والرجع : المطر ، وسمى بذلك لأنه يجىء ويرجع ويتكرر . وقيل : الرجع هنا : الشمس والقمر والنجوم ، يرجعن فى السماء ، حيث تطلع من ناحية ، وتغيب فى أخرى .

وقيل : المراد بالرجع : الملائكة ، لأنهم يرجعون إليها حاملين أعمال العباد .

والصدع : الشق والانفطار ، يقال تصدع الشىء ، إذا تشقق . . . والمراد به هنا : ما تشقق عنه الأرض من نبات ... كما قال — تعالى — : « أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . . . . » .

أي : وحق السماء صاحبة المطر الذى ينزل من جهتها مرة فأخرى ، لنفع العباد والحيوان والنبات . . . . وحق الأرض ذات النبات البازغ من شقوقها .

« إنه » أي : هذا القرآن « لقول فصل » أى : لقول فاصل بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغى والرشاد ... وقد بلغ النهاية فى ذلك ، حتى لكأنه نفس الفصل .

« وما هو بالهزل » أى : وأن هذا القرآن ، ليس فيه شائبة من شوائب الهزل أو اللعب أو المزاح . . . بل هو جد كله ، فيجب على كل عاقل ، أن يتبع هداه ، وأن يستجيب لأمره ونهيه .

وفى هذه الآيات الكريمة رد بليغ ، على أولئك المشركين الجاهلين ، الذين وصفوا القرآن ، بأنه نزل على الرسول — صلى الله عليه وسلم — ليهزل به ، لأنه يخبرهم بأن الأموات سيعادون إلى الحياة مرة أخرى ، وذلك أمر تستبعده نفوسهم المطموسة .

وفى قوله — تعالى — : «والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع » مقابلة لطيفة ، حيث وصف — سبحانه — السماء والأرض بما يناسبهما ، وبما يشير إلى أن البعث حق ، لأنه كما ينزل المطر من السماء فيحيي الأرض بعد موتها . كذلك يحي الله — تعالى — بقدرته الأجساد بعد موتها .

وعاد الضمير فى قوله « إنه » إلى القرآن — مع أنه لم يسبق له ذكر — لأنه معلوم من المقام .

ثم ختم — سبحانه — السورة الكريمة ، بتسلية الرسول — صلى الله عليه وسلم — وبتبشيره بحسن العاقبة فقال — تعالى — : « إنهم يكيدون كيدا . وأكيد كيدا . فمهل الكافرين أمهلهم رويدا » . وقوله : « رويدا » تصغير « رود » — بزنة عود — من قولهم : فلان يمشى على رود ، أي :

على مهل ، وأصله من رادت الريح ترود ، إذا تحركت حركة ضعيفة .

والكيد : العمل على إلحاق الضرر بالغير بطريقة خفية ، فهو نوع من المكر .

والمراد به بالنسبة لهؤلاء المشركين : تكذيبهم للرسول — صلى الله عليه وسلم — ، ولما جاء به من عند ربه ، فكيدهم مستعمل فى حقيقته .

والمراد به بالنسبة لله — تعالى — : إمهالهم واستدراجهم ، حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فى الوقت الذى يختاره ويشاؤه .

أى : إن هؤلاء المشركين يحيكون المكايد لإبطال أمرك — أيها الرسول الكريم — ، وإنى أقابل كيدهم ومكرهم بما يناسبه من استدراج من حيث لا يعلمون ، ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فتمهل — أيها الرسول الكريم — مع هؤلاء المشركين . ولا تستعجل عقابهم . وانتظر تدبيرى فيهم ، وأمهلهم وأنظرهم رويدا ، أى : إمهالا قريباً أو قليلا ، فإن كل آت قريب ، وقد حقق — سبحانه — لنبيه وعده بأن جعل العاقبة له ولأتباعه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة — مدينة نصر
صباح الأحد ١ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ
٥ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

تفسير سورة

الأعلى

بســـــم الله الرحمن الرحيـــم

سورة « الأعلى »

١ – سورة « الأعلى » تسمى – أيضاً – بسورة : « سبح اسم ربك الأعلى » ، فقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال لمعاذ : « عند ما بلغه أنه يطيل الصلاة وهو يصلى بجماعة – : أفتان أنت يا معاذ ؟ هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى . والشمس وضحاها . والليل إذا يغشى » .

٢ – وسورة « الأعلى » من السور التى كان النبى – صلى الله عليه وسلم – يحب قراءتها ، لاشتمالها على تنزيه الله – تعالى – ، وعلى الكثير من نعمه ومننه ، فقد أخرج الإمام أحمد عن على بن أبى طالب ، قال : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يحب هذه السورة .

وعن النعمان بن بشير ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قرأ فى العيدين : « سبح اسم ربك الأعلى » ، و « هل أتاك حديث الغاشية » ، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً .

وعن عائشة – رضى الله عنها – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يقرأ فى الوتر : « سبح اسم ربك الأعلى » و « قل يأيها الكافرون » و « قل هو الله أحد » (١) .

٣ – وعدد آياتها تسع عشرة آية . وهى من السور المكية الخالصة . قال الآلوسى : والجمهور على أنها مكية . وعن بعضهم أنها مدنية .

والدليل على كونها مكية ، ما أخرجه البخارى عن البراء بن عازب

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٩٩

قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مصعب ابن عمير ، وابن أم مكتوم ، فجعلا يقرئاننا القرآن ، ثم جاء عمار بن ياسر ، وسعد بن أبي وقاص ، وبلال ، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ، ثم جاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد جاء ، فما جاء حتى قرأت « سبح اسم الأعلى » في سور مثلها » (١) .

ومما يدل ـ أيضاً ـ على أن هذه السورة مكية ، بل من أوائل السور المكية ، ما ذكره الإمام السيوطي ، من أن هذه السورة كان ترتيبها في النزول الثامنة من بين السور المكية ، فقد كان نزولها بعد سورة « التكوير » وقبل سورة « الليل » ، بل هناك رواية عن ابن عباس أنها السورة السابعة ، إذ لم يسبقها سوى سورة : العلق ، والمدثر ، والمزمل ، والقلم ، والمسد ، والتكوير (٢) .

٤ ــ والسورة الكريمة من أهم مقاصدها : إقامة الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ــ وعلى أنه ـ تعالى ـ منزه عن كل نقص ، وإبراز جانب عظيم من نعمه التي لا تحصى ، وامتنانه على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالشريعة السمحة ، وبالقرآن الكريم . .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٠١

(٢) راجع الإتقان للسيوطي جـ ١ ص ٢٧

قال - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي
قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً
أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ
الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ
الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾
الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾
قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي
الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

افتتحت السورة الكريمة ، بأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالمداومة على تنزيه الله - تعالى - عن كل نقص ، ويدخل في هذا الأمر ، كل من يصلح للخطاب . والاسم المراد به الجنس ، فيشمل جميع أسمائه - تعالى - .

أي : نزه - أيها الرسول الكريم - أسماء ربك الأعلى عن كل ما يليق بها ، فلا تطلقها على غيره - تعالى - إذا كانت خاصة به ، كلفظ الجلالة . وكلفظ الرحمن ، ولا تذكرها في موضع لا يتناسب مع جلالها وعظمتها ، ولا تحرفها عن المعاني التي وضعت لها ، كما يفعل الزائغون . فقد قال - تعالى - : « إن الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » .

ونزه ربك الأعلى، عن الشريك، وعن الوالد، وعن الشبيه . . . .
وعن كل ما يليق به .

قال الجمل : أى : نزه ربك عن كل مالا يليق به ، فى ذاته ، وصفاته ،
وأسمائه . وأفعاله . وأحكامه .

أما فى ذاته : فأن تعتقد أنها ليست من الجواهر والأعراض . وأما
فى صفاته : فأن تعتقد أنها ليست محدثة ولا متناهية ولا ناقصة . وأما فى
أفعاله : فأن تعتقد أنه - سبحانه - مطلق لا اعتراض لأحد عليه فى أمر من
الأمور . وأما فى أسمائه : فأن لا تذكره - سبحانه - إلا بالأسماء التى
لا توهم نقصاً بوجه من الوجوه . . . . وأما فى أحكامه : فأن تعلم أنه
ما كلفنا لنفع يعود عليه . بل لمحض المالكية . . . »(١) .

أخرج الإمام أحمد عن عامر بن عتبة الجهنى قال : لما نزلت : «فسبح
باسم ربك العظيم» قال لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «اجعلوها
فى ركوعكم» . فلما نزلت : «سبح اسم ربك الأعلى» قال : «اجعلوها فى
سجودكم» .

ثم وصف - سبحانه - ذاته بعد وصفه بالأعلى - بصفات كريمة
أخرى فقال : «الذى خلق فسوى» .

والخلق : هو الإيجاد للشىء على غير مثال سابق ، والتسوية : هى
جعل المخلوقات على الحالة والهيئة التى تناسبها ، وتتلاءم مع طبيعتها .

أى : الذى خلق الخلائق كلها ، وجعلها متساوية فى الأحكام والإتقان
حسبما اقتضته حكمته . ومنح كل مخلوق ما يناسب طبيعته ووظيفته .

قال صاحب الكشاف : قوله : «الذى خلق فسوى» أى : خلق كل

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٥٢٠

شىء فسوى خلقه تسوية ، ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم ، ولكن على إحكام واتساق ، ودلالة على أنه صادر عن عالم ، وأنه صنعة حكيم . . » (١) .

« والذى قدر فهدى » والتقدير : وضع الأشياء فى مواضعها الصحيحة ، بمقدار معين ، وبكيفية معينة . . تقتضيها الحكمة ، ويقرها العقل السليم .

وقوله : « فهدى » من الهداية . بمعنى الإرشاد والدلالة على طريق الخير والبر .

أى : وهو - سبحانه - الذى جعل الأشياء على مقادير مخصوصة فى أجناسها ، وفى أنواعها . وفى أفرادها . وفى صفاتها وأفعالها . . وهدى كل مخلوق إلى ما ينبغى له طبعاً واختياراً ، ووجهه إلى الوظيفة التى خلقه من أجلها . بأن أوجد فيه العقل والميول والإلهامات والغرائز والدوافع . . التى تعينه على أداء تلك الوظيفة .

وحذف - سبحانه - المفعول فى قوله : «خلق فسوى . وقدر فهدى » للعموم ، لأن هذه الأفعال تشمل جميع مخلوقاته - عز وجل - .

قال الآلوسى : « والذى قدر . . . » أى : جعل الأشياء على مقادير مخصوصة . . . « فهدى » أى : فوجه كل واحد منها إلى ما يصدر عنه ، وينبغى له . . فلو تتبعت أحوال النباتات والحيوانات ، لرأيت فى كل منها ما تحار فيه العقول ، وتضيق عنه دفاتر النقول .

وأما فنون هداياته - سبحانه - للإنسان على الخصوص ، ففوق ذلك بمراحل . . وهيهات أن يحيط بها فلك العبارة والتحرير ، ولا يعلمها إلا اللطيف الخبير :

تزعم أنك جـــرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر (٢) »

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٣٨

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٠٤

وقد فصل بعض العلماء الحديث عن مظاهر تقديره وهدايته - سبحانه - فقال قوله - تعالى - :

« الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى » أي : الذي خلق كل شيء فسواه ، فأكمل صنعته ، وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه ، والذي قدر لكل مخلوق وظيفته وطريقه وغايته ، فهداه إلى ما خلقه لأجله ، وألهمه غاية وجوده ، وقدر له ما يصلحه مدة بقائه ، وهداه إليه .

وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة في كل شيء في هذا الوجود ، ويشهد بها كل شيء في رحاب هذا الكون ، من الكبير إلى الصغير . .

فالطيور لها غريزة العودة إلى الموطن . . دون أن تضل عنه مهما بعد . . والنخلة تهتدى إلى خليتها ، مهما طمست الريح في هبوبها على الأعشاب والأشجار كل دليل يرى . .

وسمك « السلمون » الصغير ، يمضى سنوات في البحر ، ثم يعود إلى نهره الخاص به . . . »(١) .

وقوله - سبحانه - : « والذي أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى » بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - تعالى - ، التي لا يعجزها شيء .

والمرعى : النبات الذي ترعاه الحيوانات ، وهو اسم مكان للأرض الذي يوجد فيها النبات .

والغثاء : هو اليابس الجاف من النبات الذي ترعاه المواشي .

والأحوى : أي : المائل إلى السواد مأخوذ من الحُوَّة - بضم الحاء مع تشديد الواو المفتوحة - وهي لون يكون بين السواد والخضرة أو الحمرة .

ووصف الغثاء بأنه أحوى ، لأنه إذا طال عليه الزمن ، وأصابته المياه ، اسود وتعفن فصار أحوى .

(١) راجع في ظلال القرآن جـ ٣٠ ص ٥٤٢ .

أى : وهو – سبحانه – وحده ، الذى أنبت النبات الذى ترعاه الدواب ، حالة كون هذا النبات أخضر رطبا . ثم يحوله بقدرته – تعالى – بعد حين إلى نبات يابس جاف .

وهذا من أكبر الأدلة المشاهدة ، على أنه – تعالى – يتصرف فى خلقه كما يشاء ، فهو القادر على تحويل الزرع الأخضر إلى زرع يابس جاف ، كما أنه قادر على إحياء الإنسان بعد موته . .

فالمقصود من هذه الآيات الكريمة ، الإرشاد إلى كمال قدرته ، وتنوع نعمه – سبحانه – ، حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، وحتى يعود الكافرون إلى رشدهم بعد هذا البيان الواضح الحكيم .

ثم بين – سبحانه – جانبا من مظاهر فضله على نبيه – ﷺ – فقال : « سنقرئك فلا تنسى . إلا ما شاء الله ، إنه يعلم الجهر وما يخفى » .

والنسيان : زوال ما كان موجودا فى حافظة الإنسان . والاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل ، ومفعول المشيئة محذوف ، جريا على غالب استعماله فى كلام العرب .

أى : سنقرئك – أيها الرسول الكريم – القرآن على لسان أمين وحينا جبريل – عليه السلام – .

وسنجعلك حافظا وواعيا لما سيقرؤه جبريل عليك ، بحيث لا تنساه فى وقت من الأوقات ، أو فى حال من الأحوال ، إلا فى الوقت أو فى الحال الذى يشاء الله – تعالى – أن ينسيك شيئاً من ذلك ، فإنك ستنساه بأمره – تعالى – ، لأنه وحده – عز وجل – هو العليم بما كان ظاهرا من الأشياء ، وبما كان خافيا منها .

فالمقصود من هاتين الآيتين : وعد الله – تعالى – لنبيه – ﷺ – بأنه سيمكنه من حفظ جميع ما يوحيه إليه ، وإثبات مشيئته المطلقة – عز وجل –

ببيان أنه ـ سبحانه ـ ، كما أنه قادر على أن يقرئ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قراءة لا ينساها ، فهو ـ أيضاً ـ قادر على أن يزيل من صدره ما يشاء إزالته ، عن طريق النسيان لما حفظه .

فالمراد بهذا الاستثناء ، بيان أنه ـ تعالى ـ لو أراد أن يصير الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناسياً للقرآن لقدر على ذلك ، كما قال ـ سبحانه ـ « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك . . . » ، إذ هو ـ تعالى ـ على كل شىء قدير ، ولكنه لم يشأ ذلك فضلا منه وكرما .

قال الإمام الشوكانى ما ملخصه : قوله : « سنقرئك فلا تنسى » أى : سنجعلك قارئا بأن نلهمك القراءة . فلا تنسى ما تقرؤه . والجملة مستأنفة لبيان هدايته ـ صلى الله عليه وسلم ـ الخاصة ، بعد بيان الهداية العامة وهى هدايته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحفظ القرآن .

وقوله : « إلا ما شاء الله » استثناء مفرغ من أعم المفاعيل . أى : لا تنسى مما تقرؤه شيئا من الأشياء ، إلا ما شاء الله أن تنساه ، وهو لم يشأ ـ سبحانه ـ أن ينسى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئا . كقوله ـ تعالى ـ « خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك . . . » .

وقيل : « لا » فى قوله « فلا تنسى » للنهى ، والألف مزيدة لرعاية الفاصلة . كما فى قوله ـ تعالى ـ : « فأضلونا السبيلا » . يعنى : فلا تغفل عن قراءته . . . » (١) .

وقال الإمام الرازى : وهاتان الآيتان تدل على المعجزة من وجهين :

أحدهما : أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أميا . فحفظه لهذا الكتاب المطول عن غير دراسة ، ولا تكرار ، ولا كتبة . خارق للعادة فيكون معجزا .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٤٢٤

وثانيهما : أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة ، فهذا إخبار عن أمر عجيب غريب مخالف للعادة . سيقع فى المستقبل ، وقد وقع . فكان هذا إخبارا عن الغيب ، فيكون معجزا . » (١) .

وقوله ـ سبحانه ـ : « ونيسرك لليسرى » معطوف على قوله « سنقرئك » . وجملة : « إنه يعلم الجهر وما يخفى » معترضة .

والتيسير بمعنى التسهيل والتخفيف ، وهو جعل العمل يسيرا على عامله بأن يهيء الله ـ تعالى ـ للعامل الأسباب التى تهون له العسير ، وتقرب له البعيد . .

واليسرى : مؤنث الأيسر . بمعنى الأسهل ، والموصوف محذوف .

والمعنى : سنجعلك ـ أيها الرسول الكريم ـ صاحب الذكرة قوية . تحفظ القرآن ولا تنساه . .

وسنوفقك توفيقا دائما للطريقة اليسرى فى كل باب من أبواب الدين : علما وعملا ، واهتداء وهداية ـ وسنرزقك الأمور الحسنة التى تجعلك تعيش سعيدا فى دنياك ، وظافرا برضواننا فى أخراك .

ولقد أنجز الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعده ، حيث أعطاه شريعة سمحة ، ومنحه أخلاقا كريمة . من مظاهرها أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ودعا أتباعه إلى الأخذ بمبدأ التيسير . فقال : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا . . . » .

فهاتان بشارتان عظيمتان للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . أولاهما : تتمثل فى إلهامه الذاكرة الواعية الحافظة لما يوحى إليه . وثانيهما : توفيقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الشريعة اليسرى ، وإلى الأخلاق الكريمة وإلى الأخذ بما هو أرفق وأيسر فى كل أحواله .

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٣٨١

ثم أمره — تعالى — بدوام التذكير بدعوة الحق بدون إبطاء أو يأس فقال: «فذكر إن نفعت الذكرى. سيذكر من يخشى. ويتجنبها الأشقى. الذى يصلى النار الكبرى. ثم لا يموت فيها ولا يحيى...».

والفاء فى قوله «فذكر» للتفريع على ما تقدم. والأمر مستعمل هنا فى طلب المداومة على التذكير بدعوة الحق التى أرسله — سبحانه — بها. والذكرى: بمعنى التذكير.

والمعنى: إذا كان الأمر كما أخبرناك — أيها الرسول الكريم — فداوم على تذكير الناس بالهدى ودين الحق، واتبع فى ذلك الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن، واهتم فى تذكيرك بمن تتوقع منهم قبول دعوتك، وأعرض عن الجاحدين والمعاندين والجاهلين.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — مأمورا بالذكرى نفعت أو لم تنفع. فما معنى اشتراط النفع؟

قلت: هو على وجهين: أحدهما: أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد استفرغ مجهوده فى تذكيرهم، وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى إلا عتوا وطغيانا، وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — يتلظى حسرة وتلهفا، ويزداد جدا فى تذكيرهم، وحرصا عليه، فقيل: «وما أنت عليهم بجبار. فذكر بالقرآن من يخاف وعيد..»، وذلك بعد إلزام الحجة بتكرير التذكير.

والثانى: أن يكون ظاهره شرطا، ومعناه ذما للمذكرين — بتشديد الكاف المفتوحة — وإخبارا عن حالهم، واستبعادا لتأثير الذكرى فيهم، وتسجيلا عليهم بالطبع على قلوبهم، كما تقول للواعظ: عظ المكاسين إن سمعوا منك، قاصدا بهذا الشرط، استبعاد ذلك، وأنه لن يكون..» (١)

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٣٨

وقال الإمام الرازي ما ملخصه : جاء التعليق بالشرط في قوله - تعالى - : « فذكر إن نفعت الذكرى » - مع أنه - صلى الله عليه وسلم - مطلوب منه أن يذكر الناس جميعا ، نفعتهم الذكرى أم لم تنفعهم - ، للتنبيه على أشرف الحالين ، وهو وجود النفع الذي من أجله شرعت الذكرى كقوله - تعالى - : « سرابيل تقيكم الحر » .

وللإشعار بأن المراد من الشرط : البعث على الانتفاع بالذكرى ، كما يقول الإنسان لغيره بعد أن بين له الحق ، قد أوضحت لك الأمر إن كنت تعقل ، فيكون مراده الحض على القبول . . » (١) .

ويبدو لنا أن المقصود بالآية الكريمة ، تحريض النبي - صلى الله عليه وسلم - على المداومة على دعوة الناس إلى قبول الحق الذي جاء به ، فإن هذا التذكير إن لم ينفع الناس جميعا ، فسينفع بعضهم ، فقد اقتضت سنة الله - تعالى - أن لا تخلو الأرض ممن يستمع إلى الحق ، ويستجيب له .

ويدل على هذا المعنى قوله - تعالى - بعد ذلك : « سيذكر من يخشى » أي : سينتفع بتذكيرك - أيها الرسول الكريم - من يخشى الله - تعالى - ويخاف عذابه ، ويرجو ثوابه .

« ويتجنبها الأشقى » أي : ويتجنب الذكرى ، ويبتعد عن الموعظة ، ويتجافى عن النصيحة ، الإنسان الشديد الشقاوة والتعاسة ، الذي أبى إلا الإصرار على كفره وعناده ، وخلا قلبه من خشية الله - تعالى - .

والمراد بالأشقى الجنس . أي : يبتعد عن الانتفاع بالتذكير جميع الأشقياء وهم الكافرون .

وقيل : المراد به الكافر المتوغل في كفره كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأشباههما .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازي جـ ٨ ص ٣٨٣

وقوله : « الذى يصلى النار الكبرى » صفة للأشقى . أى : سيبتعد عن الانتفاع بتذكيرك - أيها الرسول الكريم - الكافر المصر على كفره ، الذى من صفاته أنه سيصلى وسيلقى فى أشد طبقات النار سعيرا وحريقا ، وهى الطبقة السفلى منها .

فوصف النار بالكبرى ، من قبيل التهويل والإنذار للمصرين على كفرهم .

« ثم لا يموت فيها ولا يحيى » أى : ثم إن هذا الشقى بعد أن يلقى به فى النار الكبرى ، « لا يموت فيها » فيستريح من العذاب « ولا يحيى » حياة طيبة فيها شىء من الراحة ، بل يبقى هكذا « يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت » .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها . كذلك نجزى كل كفور »(١) .

وبعد هذا البيان الذى يهز القلوب . . عن سوء عاقبة الأشقياء ، ساق - سبحانه - ما يدخل البهجة والسرور على النفوس ، عن طريق بيان حسن عاقبة السعداء ، فقال : « قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى . . » .

أى : قد أفلح وفاز وانتفع بالتذكير ، من حاول تزكية نفسه وتطهيرها من كل سوء .

ومن ذكر اسم ربه بقلبه ولسانه ، فصلى الصلوات الخمس التى فرضها الله - تعالى - عليه .

وأضاف إليها ما استطاع من نوافل وسنن .

وعبر - سبحانه - بقوله : « قد أفلح » ليجمع فى هذا التعبير

---

(١) سورة فاطر . الآية ٣٦ .

البليغ ، كل معانى الخير والنفع ، لأن الفلاح معناه : وصول المرء إلى ما يطمح إليه من فوز ونفع .

وجاء التعبير بالماضى المسبوق بقد ، للدلالة على تحقق هذا الفلاح بفضل الله ـ تعالى ـ ورحمته .

وقد اشتملت هاتان الآيتان على الطهارة من العقائد الباطلة « تزكى » ، وعلى استحضار معرفة الله ـ تعالى ـ « وذكر اسم ربه » ، وعلى أداء التكاليف الشرعية التى على رأسها الصلاة « فصلى » .

وهذه المعانى هى التى وصلت صاحبها إلى الفلاح الذى ليس بعده فلاح .

وقوله ـ تعالى ـ : « بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى . . » الإضراب فيه عن كلام مقدر يفهم من السياق .

والمعنى : لقد بينت لكم ما يؤدى إلى فلاحكم وفوزكم . . ولكنكم ـ يا بنى آدم ـ كثير منكم لم يستجب لما بينته له ، بل أنتم تؤثرون الحياة الدنيا ، بأن تقدموا زينتها وشهواتها ومتعها . . على ما ينفعكم فى آخرتكم والحال أن ما فى الدار الآخرة من نعيم ، خير وأبقى من حطام الدنيا ، لأن الدنيا ومتعها زائلة ، أما الآخرة فخيرها باق لا يزول . .

والخطاب لجميع الناس ، ويدخل فيه الكافرون دخولا أوليا ، وعليه يكون المراد بإيثار الحياة الدنيا بالنسبة للمؤمنين ، ما لا يخلو منه غالب الناس ، من اشتغالهم فى كثير من الأحيان بمنافع الدنيا ، وتقصيرهم فيما يتعلق بآخرتهم .

ويرى كثير من العلماء : أن الخطاب للكافرين على سبيل الالتفات ، ويؤيد أن الخطاب للكافرين قراءة أبى عمرو بالياء على طريقة الغيبة . .

أى : بل إن الكافرين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، مع أن الآخرة خير وأبقى .

ثم ختم - سبحانه - السورة بقوله : «إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيمَ وموسى» أى : إن هذا الذى ذكرناه لكم من فلاح من تزكى ، ومن إيثاركم الحياة الدنيا على الآخرة ، لكائن وثابت ومذكور فى الصحف الأولى ، التى هى صحف إبراهيم وموسى ، التى أنزلها سبحانه - على هذين النبيين الكريمين ، ليعلما الناس ما اشتملت عليه من آداب وأحكام ومواعظ .

وفى إبهام هذه الصحف ، ووصفها بالقدم ، ثم بيان أنها لنبيين كريمين من أولى العزم من الرسل، تنويه بشأنها ، وإعلاء من قدرها .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهر - مدينة نصر

مساء الإثنين ٢ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ

٦ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

تفسير سورة

الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة « الغاشية »

١ — سورة « الغاشية » ، وتسمى سورة « هل أتاك حديث الغاشية » من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها ست وعشرون آية . وهي السورة الثامنة والثمانون في ترتيب المصحف ، أما ترتيبها في النزول ، فهي السورة السابعة والستون من بين السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة « الذاريات » وقبل سورة « الكهف » .

٢ — وهي من السور التي كان النبي — ﷺ — يقرؤها كثيراً ، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، عن النعمان بن بشير ، أن رسول الله — ﷺ — كان يقرأ « سبح اسم ربك الأعلى والغاشية » في صلاة الجمعة والعيدين » .

وفي رواية — أيضاً — عن النعمان بن بشير أن الرسول — ﷺ — كان يقرأ هذه السورة مع سورة الجمعة ، في صلاة الجمعة .

٣ — وقد اشتملت السورة الكريمة على بيان أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة ، كما لفتت أنظار الناس إلى مظاهر قدرة الله في خلقه ، لكي يتفكروا ويتدبروا أن الخالق لهذه الأشياء بتلك الصورة البديعة ، هو المستحق للعبادة والطاعة ، وأنهم سيعودون إليه للحساب والجزاء « إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم » .

قال ــ تعالى ــ :

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ
نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ
لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾
لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾
وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾
أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ
رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ
سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾
إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾
إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

والاستفهام فى قوله ــ تعالى ــ : « هل أتاك حديث الغاشية » للتحقيق والتقرير ، أو المقصود به التعجيب من حديث القيامة ، والتشويق إلى الاستماع إليه .

والغاشية . لفظ مشتق من الغشيان ، وهو تغطية الشىء لغيره ، يقال :

غشيه الأمر ، إذا غطاه ، والمقصود بالغاشية يوم القيامة ، ووصف يوم القيامة بذلك ، لأنه يغشى الناس بأهواله وشدائده ، ويغطى عقولهم عن التفكير فى أى شىء سواه . .

والمعنى : هل بلغك — أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب — حديث يوم القيامة ، الذى يغشى الناس بأحواله المفزعة ، ويعمهم بشدائده . . إن كان لم يأتك فهذا خبره ، وتلك هى أقسام الناس فيه .

وافتتاح السورة بهذا الافتتاح - بجانب ما فيه من تشويق - يدل على أهمية هذا الخبر ، وأنه من الأخبار التى ينبغى الاستعداد لما اشتملت عليه من معانى لا يصح التغافل عنها .

ثم فصل — سبحانه — أحوال الناس فى هذا اليوم فقال : « وجوه يومئذ خاشعة . . » .

قال الشوكانى : الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل ما هو ؟ أو مستأنفة استئناف نحويا ، لبيان ما تضمنته من كون ثم وجوه فى ذلك اليوم متصفة بهذه الصفة المذكورة ، ووجوه مرتفع على الابتداء - وإن كانت نكرة - لوقوعه فى مقام التفصيل . . والتنوين فى يومئذ عوض عن المضاف إليه . أى : يوم غشيان الغاشية . والخاشعة : الذليلة الخاضعة ، وكل متضائل ساكن يقال له خاشع . . »(١) .

والمراد بالوجوه : أصحابها ، من باب التعبير عن الكل بالبعض ، وخصت الوجوه بالذكر ، لأنها أشرف أعضاء الإنسان ، ولأنها هى التى تظهر عليها الآثار المختلفة من حزن أو فرح . .

أى : وجوه فى يوم قيام الساعة ، تكون خاشعة ذليلة ، تبدو عليها

---

(١) تفسير فتح القدير حـ ٥ ص ٤٢٨ للشوكانى .

آثار الهوان والانتكاس والخزى ، كما قال — تعالى — : « وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل . . . » .

وهذه الوجوه — أيضاً — من صفاتها أنها « عاملة ناصبة » أى : مكلفة بالعمل الشاق المرهق الذى تنصب له الوجوه فى هذا اليوم ، وتتعب تعبا ما عليه من مزيد ، كجر السلاسل ، وحمل الأغـــلال ، والخوض فى النار . . .

فقوله : « عاملة » اسم فاعل من العمل ، والمراد به هنا : العمل الشاق المهين . .

وقوله : « ناصبة » من النصب ، بمعنى : التعب والإعياء . يقال : نصب فلان — بكسر الصاد — كفرح — ينصب نصباً ، إذا تعب فى عمله تعباً شديداً .

وفى هذه الصفات زيادة توبيخ لأهل النار ، لأنهم لما تركوا فى الدنيا الخشوع لله — تعالى — . والعمل الصالح ، وآثروا متع الدنيا على ثواب الآخرة . . كان جزاؤهم يوم القيامة ، الإذلال ، والعمل الشاق المهين ، الذى لا تعقبه راحة . .

ثم أخبر — سبحانه — عن هذه الوجوه الشقية بأخبار أخرى فقال : « تصلى نارا حامية » أى : أن هذه الوجوه تشوى بالنار الحامية يوم القيامة يقال : صَلِىَ فلان النار فهو يصلاها ، إذا لفحته بحرها لفحا شديدا . .

« تسقى من عين آنية » أى : هذه الوجوه يسقى أصحابها من عين قد بلغت النهاية فى الحرارة والغليان ، إذ الشىء الآنى ، هو الذى بلغ النهاية فى الحرارة . يقال : أنى الماء يأنى — كرمى يرمى — ، إذا بلغ الغاية فى الغليان ، ومنه قوله - تعالى - : « يطوفون بينها وبين حميم آن » .

قال الإمام ابن جرير : قوله : « تسقى من عين آنية » أى : تسقى

أصحاب هذه الوجوه من شراب عين قد أنى حرها ، فبلغ غايته فى شدة الحر ، وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل . . فعن ابن عباس : هى التى قد طال أنيُها - أى : حرها - . .

وقال بعضهم : عنى بقوله « من عين آنية » أى : من عين حاضرة - أى : حاضرة لعذابهم - . . »(١) .

وقوله - تعالى - : « ليس لهم طعام إلا من ضريع . لا يسمن ولا يغنى من جوع » .

والضريع : هو شجر فى النار يشبه الشوك ، فيه ما فيه من المرارة والحرارة وقبح الرائحة .

وقوله : « يسمن » من السمن - بكسر السين وفتح الميم - ، وهو وفرة اللحم والشحم فى الحيوان وغيره . يقال : فلان أسمنه الطعام ؛ إذا عاد عليه بالسمن .

وقوله « يغنى » من الإغناء ودفع الحاجة . يقال أغنا فى هذا الشيء عن غيره ؛ إذا كفاه واستغنى به عن سواه .

أى : أن أصحاب هذه الوجوه التعيسة ؛ بجانب شرابهم من الماء البالغ النهاية فى الحرارة ؛ لهم - أيضاً - طعام من أقبح الطعام وأردئه وأشنعه وأشده مرارة . . هذا الطعام لا يأتى بسمن ؛ ولا يغنى من جوع ؛ بل إن آكله ليزدرده رغماً عنه .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أخبر عن أصحاب هذه الوجوه الشقية بجملة من الأخبار المحزنة المؤلمة ؛ التى منها ما يتعلق بهيئاتهم ؛ ومنها ما يتعلق بأحوالهم ؛ ومنها ما يتعلق بشرابهم ؛ ومنها ما يتعلق بطعامهم . .

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٣٠ ص ١٠٢ .

ووصف - سبحانه - طعامهم بأنه لا يسمن ولا يغنى من جوع، لزيادة تقبيح هذا الطعام، وأنه شر محض، لا مكان لأية فائدة معه . .

قال صاحب الكشاف: الضريع: اليابس من نبات الشبرق، وهو جنس من الشوك، ترعاه الإبل ما دام رطباً، فإذا يبس تحامته الإبل، وهو سم قاتل . . .

فإن قلت: كيف قيل: «ليس لهم طعام إلا من ضريع» وفى الحاقة «ولا طعام إلا من غسلين»؟

قلت: العذاب ألوان، والمعذبون طبقات، فمنهم: أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع . .

والضريع: منفعتا الغذاء منفيتان عنه: وهما إماطة الجوع، وإفادة القوة والسمن فى البدن. أو أريد: أن لا طعام لهم أصلا، لأن الضريع ليس بطعام للبهائم، فضلا عن الإنس، لأن الطعام ما أشبع أو أسمن، وهما منهما بمعزل، كما تقول: ليس لفلان ظل إلا الشمس، تريد: نفى الظل على التوكيد . .»(١).

وبعد هذا الحديث المؤثر عن الكافرين وسوء عاقبتهم . . جاء الحديث عن المؤمنين ونعيمهم، فقال - تعالى -: «وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. فى جنة عالية . . .».

قال الآلوسى: قوله: «وجوه يومئذ ناعمة» شروع فى رواية حديث أهل الجنة، وتقديم حكاية أهل النار، لأنه أدخل فى تهويل الغاشية، وتفخيم حديثها، ولأن حكاية حسن حال أهل الجنة، بعد حكاية سوء أهل النار، مما يزيد المحكى حسناً وبهجة . . وإنما لم تعطف هذه الجملة

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٧٤٢.

على تلك الجملة ، إيذانا بكمال التباين بين مضمونيهما . . . »(١) .

أى : وجوه كثيرة تكون يوم القيامة ، ذات بهجة وحسن ، وتكون متنعمة فى الجنة بما أعطاها — سبحانه — من خير عميم ، جزاء عملها الصالح فى الدنيا . .

« لسعيها راضية » أى : لعملها الذى عملته فى الدنيا راضية ، لأنها قد وجدت من الثواب عليه فى الآخرة ، أكثر مما كانت تتوقع وترجو .

فالمراد بالسعى : العمل الذى كان يعمله الإنسان فى الدنيا ، ويسعى به من أجل الحصول على رضا خالقه ، وهو متعلق بقوله « راضيه » ، وقدم عليه للاعتناء بشأن هذا السعى .

وقوله — تعالى — : « فى جنة عالية » بيان لسمو مكانتهم . أى : هم كائنون فى جنة عالية ، مرتفعة المكان والمكانة . فقد وصفت الجنة بالعلو ، للمبالغة فى حسنها وفى علو منزلتها ، فقد جرت العادة أن تكون أحسن الجنات ، ما كانت مرتفعة على غيرها .

ثم وصف — سبحانه — هذه الجنة بجملة من الصفات الكريمة فقال: « لا تسمع فيها لاغية » .

أى : لا تسمع فى هذه الجنة كلمة ذات لغو . واللغو : هو الكلام الساقط الذى لا فائدة فيه .

أى : أنك — أيها المخاطب — لا تسمع فى الجنة إلا الكلام الذى تسر له نفسك ، وتقر به عينك ، فلفظ اللاغية هنا : مصدر بمعنى اللغو ، مثل الكاذبة للكذب ، وهو صفة لموصوف محذوف .

---

(١) تفسير الآلوسى حـ ٣٠ ص ١١٤ .

« فيها عين جارية » أى : فى هذه الجنة عيون تجرى بالماء العذب الزلال المتدفق .

قال صاحب الكشاف : قوله : « فيها عين جارية » يريد عيونا فى غاية الكثرة ، كقوله : « علمت نفس ما قدمت وأخرت » .

فالمراد بالعين هنا : جنس العيون ، وبالجارية : التى لا ينقطع ماؤها ..

« فيها سرر مرفوعة » أى : فى الجنه أماكن يجلس عليها أهلها جلوسا مرتفعاً عن الأرض .

وينامون فوقها نوماً هادئا لذيذا .. والسرر : جمع سرير . وهو الشىء ذو القوائم المرتفعة الذى يتخذ للجلوس والاضطجاع . .

ووصف ـ سبحانه ـ هذه السرر بالارتفاع ، لزيادة تصوير حسنها..

« وأكواب موضوعة » والأكواب جمع كوب . وهو عبارة عن الإناء الذى تشرب فيه الخمر .

أى : وفى الجنه أكواب كثيرة قد وضعت بين أيدى أهلها ، بحيث يشربون من الخمر التى وضعت فيها ، دون أن يجدوا أى عناء فى الحصول عليها .

« ونمارق مصفوفة » والنمارق جمع نمرقه ــ بضم النون وسكون الميم وضم الراء ــ ، وهى الوسادة الصغيرة التى يتكىء عليها الجالس والمضطجع .

أى : وفى الجنه وسائد كثيرة ، قد صف بعضها إلى جانب بعض صفا جميلا ، بحيث يجدها الجالس قريبه منه فى كل وقت . .

« وزرابى مبثوثة » والزرابى جمع زربية ــ بتثليث الزاى ــ وهى البساط الواسع الفاخر ، أو مايشبهه من الأشياء الثمينة التى تتخذ للجلوس

عليها . والمبثوثة : أى : المنتشرة على الأرض ، من البث بمعنى النشر ، كما فى قوله — تعالى — « وبث فيها من كل دابة » .

أى : وفيها بسط فاخرة جميلة ، مبسوطة فى كل مكان ، ومتفرقة فى كل مجلس . .

فأنت ترى أن الله — تعالى — قد وصف الجنة التى أعدها - سبحانه - لعباده المتقين ، بعدد من الصفات الكريمة المتنوعة .

وصفها بأنها عالية فى ذاتها ، وبأنها خالية من الكلام الساقط ، وبأن مياهها لا تنقطع ، وبأن أثاثها فى غاية الفخامة ، حيث اجتمع فيها كل ما هو مريح ولذيذ ، نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعاً من أهلها .

ثم ساق - سبحانه - أنواعاً من الأدلة المشاهدة ، التى لا يستطيع أحد إنكارها ، ليلفت أنظار الناس إلى مظاهر قدرته ووحدانيته ، فقال - تعالى - : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت . . » .

والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والتحريض على التأمل والتفكر ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام . والمراد بالنظر : التدبر فى تلك المخلوقات ، فإن من شأن هذا التدبر ، أنه يؤدى إلى الاعتبار والانتفاع . . والخطاب لأولئك الكافرين الجاهلين ، الذين أمامهم الشواهد الواضحة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، ومع ذلك لم ينتبهوا لها .

والمعنى : أيستمر هؤلاء الكافرون فى جهلهم وضلالهم ، وفى إنكارهم لأمر البعث والحساب والجزاء . . فلا ينظرون نظر اعتبار وتأمل ، إلى

الإبل - وهى أمام أعينهم - كيف خلقها الله - تعالى - بهذه الصورة العجيبة وأوجد فيها من الأعضاء المتناسقة، ومن التكوين الخلقى، ما يجعلها تؤدى وظيفتها النافعة لبنى آدم، على أكمل وجه، فمن لبنها يشربون، ومن لحمها يأكلون، وعلى ظهرها يسافرون، وأثقالهم عليها يحملون.

وخص - سبحانه - الإبل بالذكر من بين سائر الحيوانات، لأنها أعز الأموال عند العرب، وأقربها إلى مألوفهم وحاجتهم، وأبدعها خلقاً وهيئة وتكوينا.

قال صاحب الكشاف: قوله - تعالى - «أفلا ينظرون إلى الإبل» نظر اعتبار «كيف خلقت» خلقا عجيبا، دالا على تقدير مقدر، شاهدا بتدبير مدبر، حيث خلقها للنهوض بالأثقال، وجرها إلى البلاد الشاحطة - أى: البعيدة -، فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر، ثم تنهض بما حملت، وسخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمتها، لا تعارض ضعيفا، ولا تمانع صغيرا...

فإن قلت: كيف حسن ذكر الإبل، مع السماء والجبال والأرض، ولا مناسبة؟

قلت: قد انتظم هذه الأشياء، نظر العرب فى أوديتهم وبواديهم، فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم..»(١).

وقوله - تعالى -: «وإلى السماء كيف رفعت» أى: وهلا نظروا إلى السماء نظر اعتبار واتعاظ، فعرفوا أن الذى خلقها هذا الخلق البديع، بأن رفعها بدون أعمدة.. هو الله - عز وجل -.

«وإلى الجبال كيف نصبت» أى: كيف وجدت بهذا الوضع الباهر

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٧٤٥

بأن نصبت على وجه الأرض نصبا ثابتا راسخا ، يحمى الأرض من الاضطراب والتزلزل .

« وإلى الأرض كيف سطحت » أى : كيف سويت وفرشت وبسطت بطريقة تجعل الناس يتمكنون من الانتفاع بخيرها ، ومن الاستقرار عليها وهذا لا ينافى كونها كروية ، لأن الكرة إذا اشتد عظمها . . كانت القطعة منها كالسطح فى امكان الانتفاع بها .

وبعد هذا التوبيخ لأولئك المشركين الذين عموا وصموا عن الحق ، ولم يتنبهوا لآيات الله - تعالى - الدالة على قدرته ووحدانيته . . أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، أن يداوم على التذكير بدعوة الحق ، فقال : « فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر . . . » .

والفاء فى قوله « فذكر » للتفريع ، وترتيب ما بعدها على ما قبلها . والأمر مستعمل فى طلب الاستمرار والدوام فى دعوته الناس إلى الحق . ومفعول « فذكر » محذوف للعلم به .

وجملة « إنما أنت مذكر » تعليل للأمر بالمواظبة على تبليغ الناس ما أمره بتبليغه .

وقد قرأ الجمهور هذا اللفظ بالصاد ، وقرأ ابن عامر بالسين .

أى : إذا كان الأمر كما بينا لك - أيها الرسول الكريم - من أهوال الناس يوم الغاشية ، ومن أننا نحن الذين أوجدنا هذا الكون بقدرتنا . . فداوم — أيها الرسول الكريم — على دعوة الناس إلى الدين الحق ، فهذه وظيفتك التى لا وظيفة لك سواها ، وكل أمرهم بعد ذلك إلينا ، فأنت لست بمجبر لهم أو مكره على اتباعك ، وإنما أنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب .

وقوله — سبحانه — : « إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر » كلام معترض بين قوله : « فذكر . . . . » وبين قوله — تعالى — بعد ذلك : « إن إلينا إيابهم . . . » . والاستثناء فيه استثناء منقطع ، وإلا بمعنى لكن ، ومن موصولة مبتدأ . . . والخبر « فيعذبه الله العذاب الأكبر » .

أى : داوم — أيها الرسول الكريم — على التذكير . . . . لكن من تولى وأعرض عن تذكيرك وإرشادك ، واصر على كفره ، فنحن الذين سنتولى تعذيبهم تعذيبا شديدا .

ثم ختم — سبحانه — السورة الكريمة بقوله : « إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم » .

وهاتان الآيتان تعليل لقوله — تعالى — قبل ذلك « لست عليهم بمصيطر » .

والإياب مأخوذ من الأوب بمعنى الرجوع إلى المكان الذى كان فيه قبل ذلك . والمراد به هنا : الرجوع إلى الله — تعالى — يوم القيامة للحساب والجزاء .

أى : داوم — أيها الرسول الكريم — على تذكير الناس بدعوة الحق ، بدون إجبار لهم ، أو تسلط عليهم ، واتركهم بعد ذلك وشأنهم . . . فإن إلينا وحدنا رجوعهم بعد الموت لا إلى أحد سوانا ، ثم إن علينا وحدنا — أيضا — حسابهم على أعمالهم ، ومجازاتهم عليها بالجزاء الذى نراه مناسبا لهم .

وصدر — سبحانه — الآيتين بحرف التأكيد « إن » ، وعطف الثانية على الأولى بحرف « ثم » المفيد للتراخى فى الرتبة ، وقدم خبر

« إن » فى الجملتين على اسمها . . . لإفادة التهديد والوعيد ، وتأكيد أن رجوعهم إليه - تعالى - أمر لا شك فيه ، وأن حسابهم يوم القيامة سيكون حسابا عسيرا ، لأنه صادر عمن لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده الصالحين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر

مساء الجمعة ٥ من صفر سنة ١٤٠٧هـ

١٠ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

تفسير سورة

الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة « الفجر »

١ — سورة « الفجر » من السور المكية الخالصة ، بل هى من أوائل ما نزل على النبي — ﷺ — من سور قرآنية ، فهى السورة العاشرة فى ترتيب النزول ، وكان نزولها بعد سورة « والليل إذا يغشى » ، وقبل سورة « الضحى » ، أما ترتيبها فى المصحف فهى السورة التاسعة والثمانون .

وعدد آياتها : ثلاثون آية فى المصحف الكوفى ، واثنتان وثلاثون فى الحجازى ، وتسع وعشرون فى البصرى .

٢ — ومن أهم مقاصد هذه السورة الكريمة : تذكير المشركين بما حل بالمكذبين من قبلهم ، كقوم عاد وثمود وفرعون ، وبيان أحوال الإنسان فى حال غناه وفى حال فقره ، وردعه عن الانقياد لهوى نفسه ، ولفت نظره إلى أهوال يوم القيامة ، وأنه فى هذا اليوم لن ينفعه ندمه أو تحسره على ما فاته ، وتبشير أصحاب النفوس المؤمنة المطمئنة ، برضا ربها عنها — وبظفرها بجنة عرضها السموات والأرض . .

قال - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)

افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بالقسم بخمسة أشياء، لهاشرفها وعظمها، ولها فوائدها الدينية والدنيوية . . ولها دلالاتها الواضحة على كمال قدرته - تعالى - .

أقسم - أولا - بالفجر، وهو وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم، ووقت بزوغ الضياء وانتشاره على الكون بعد ليل بهيم .

فالمراد بالفجر : الوقت الذى يبدأ فيه النهار فى الظهور، بعد ظلام الليل، والتعريف فيه للجنس، لأن المقصود هذا الوقت من كل يوم .

وقيل المراد بالفجر هنا : صلاة الفجر، لأنها صلاة مشهودة، أى : تشهدها الملائكة، كما أن التعريف فيه للعهد، فقيل : فجر يوم النحر، وقيل : فجر يوم الجمعة . .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح، لأن قوله - تعالى - بعد ذلك

« وليال عشر . . ألخ » يرجح أن المراد به وقت معين ، هـــذا الوقت يوجد مع كل يوم جديد .

وأقسم ــ سبحانه ــ ثانياً ــ بقوله : « وليال عشر » والمراد بها : الليالى العشر الأول من شهر ذى الحجه ، لأنها وقت مناسك الحج ، ففيها الإحرام ، والطواف ، والوقوف بعرفه . .

وقيل المراد بها : الليالى العشر الأواخر من رمضان . وقيل الليالى العشر الأول من شهر المحرم . .

قال الإمام ابن كثير : والليالى العشر : المراد بها : عشر ذى الحجه . كما قاله ابن عباس وابن الزبير ، ومجاهد ، وغير واحد من السلف والخلف .

وقد ثبت فى صحيح البخارى ، عن ابن عباس مرفوعا : « مامن أيام العمل الصالح ، أحب إلى الله ــ تعالى ــ فيهن ، من هذه الأيام ــ يعنى عشر ذى الحجه ــ ، قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد فى سبيل الله ، إلا رجلا خرج بنفسه وماله ، ثم لم يرجع من ذلك بشىء » .

وقيل : المراد بذلك : العشر الأول من المحرم . وقيل : العشر الأول من رمضان . والصحيح القول الأول »(١) .

وأقسم ــ سبحانه ــ ثالثا ورابعا ــ بقوله : « والشفع والوتر » والشفع : ما يكون ثانيا لغيره ، والوتر : هو الشىء المنفرد .

وقد ذكر المفسرون فى المراد بهذين اللفظين أقوالا متعددة ، فمنهم من يرى أنهما يعمان كل الأشياء شفعها ووترها . ومنهم من يرى أن المراد بالشفع : يوم النحر ، لكونه اليوم العاشر من ذى الحجه ، وأن المراد بالوتر : يوم عرفه ، لأنه اليوم التاسع من شهر ذى الحجه . ومنهم من يرى أن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤١٢

المراد بهما : الصلاة المكتوبة ، ما كان منها شفعا ، كصلاة الظهر والعصر والعشاء والصبح ، وما كان منها وترا كالمغرب . .

ومنهم من يرى أن المراد بالشفع : جميع المخلوقات ، وبالوتر ، الله - تعالى - الواحد الصمد .

وقد رجح بعض العلماء هذا القول فقال ما ملخصه : والواقع أن أقرب الأقوال عندى - والله أعلم - .

أن المراد بالوتر ، هو الله - تعالى - ، للحديث : «إن الله وتر يحب الوتر» ، وماسواه شفع . . لأنه ثبت علميا أنه لا يوجد كائن موجود بمعنى الوتر قط ، حتى الحصاة الصغيرة ، فإنه ثبت أن كل كائن جماد أو غيره مكون من ذرات ، والذرة لها نواة ومحيط . .

ولهذا كان القول بأن الوتر هو الله ، وبأن الشفع : جميع المخلوقات . . هو الراجح ، وهو الأعم في المعنى . . »(٢) .

وأقسم - سبحانه - خامساً - بقوله : «والليل إذا يسر» أى : وحق الليل عندما يسرى ويمضى ، تاركا من خلفه ظلامه ، ليحل محله النهار بضيائه . .

أو المعنى : وحق الليل وقت أن يسرى فيه السارون ، بعد أن أخذوا حظهم من النوم ، فإسناد السرى إلى الليل على سبيل المجاز ، كما فى قولهم : ليل نائم ، أى : ينام فيه الناس وقرأ الجمهور «يسر» بحذف الياء وصلا ووقفا ، اكتفاء عنها بالكسرة تخفيفا . .

وقرأ نافع وأبو عمرو بإثبات الياء عند الوصل ، وبحذفها عند الوقف . .

والمراد بالليل هنا : عمومه ، وقيل المراد به هنا : ليلة القدر ، أو ليلة المزدلفة .

---

(٢) راجع تفسير أضواء البيان للشيخ الشنقيطى حـ ٨ ص ٢١٠

والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ : « هل فى ذلك قسم لذى حجر » للتقرير والتعظيم لما أقسم به ـ سبحانه ـ من مخلوقات . واسم الإشارة « ذلك » يعود إلى تلك الأشياء التى أقسم الله ـ تعالى ـ بها .

والمراد بالحجر ـ بكسر الحاء ـ العقل ، وسمى بذلك لأنه يحجر صاحبه ويمنعه عن ارتكاب مالا ينبغى ، كما سمى عقلا ، لأنه يعقل صاحبه عن ارتكاب السيئات ، كما يعقل العقالُ البعيرَ عن الضلال .

والمعنى : هل فى ذلك الذى أقسمنا به من الفجر ، والليال العشر ، والشفع والوتر . . قسم ، أى : مقسم به ، حقيق أن تؤكد به الأخبار عند كل ذى عقل سليم ؟

مما لا شك فيه أن كل ذى عقل سليم ، يعلم تمام العلم ، أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء ، حقيق أن يقسم به ، لكونها ـ أى : هذه الأشياء ـ أمورا جليلة ، خليقة بالإقسام بها لفخامة شأنها ، كما أن كل ذى عقل سليم يعلم ـ أيضا ـ ، أن المقسم بهذا القسم ، وهو الله ـ عز وجل ـ صادق فيما أقسم عليه .

فالمقصود من وراء القسم بهذه الأشياء ، تحقيق المقسم عليه ، بأسلوب فيه ما فيه من التأكيد والتشويق ، وتحقيق المقسم عليه .

وجواب القسم محذوف دل عليه قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . . إلى قوله : فصب عليهم ربك سوط عذاب » .

والتقدير : وحق هذه المخلوقات لتعذبن ـ أيها الكافرون ـ كما عذب الذين من قبلكم ، من قوم عاد وثمود وفرعون .

قال الجمل : فإن قلت ما فائدة قوله ـ تعالى ـ : « هل فى ذلك قسم لذى حجر » ، بعد أن أقسم ـ سبحانه ـ بالأشياء المذكورة ؟ قلنا : هو لزيادة التأكيد والتحقيق للمقسم عليه ، كمن ذكر حجة باهرة ، ثم قال : أفيما ذكرته حجة ؟ . .

وجواب القسم محذوف ، أى : لتعذبن يا كفار مكة ، وقيل هو مذكور وهو قوله : « إن ربك لبالمرصاد » . وقيل محذوف لدلالة المعنى عليه . أى : لنجازين كل أحد بعمله . . » (١) .

ثم ذكر — سبحانه — على سبيل الاستشهاد ، ما أنزله من عذاب مهين ، بالأقوام المكذبين ، فقال — تعالى — : ألم تر كيف فعل ربك بعاد . .

والاستفهام فى قوله : « ألم تر . . . » للتقرير ، والرؤية : علمية ، تشبيهاً للعلم اليقينى بالرؤية فى الوضوح والانكشاف ، لأن أخبار هذه الأمم كانت معلومة للمخاطبين .

ويجوز أن تكون الرؤية بصرية ، لكل من شاهد آثار هؤلاء الأقوام البائدين . .

والمراد بعاد : تلك القبيلة المشهورة بهذا الاسم ، والتى كانت تسكن الأحقاف ، وهو مكان فى جنوب الجزيرة العربية ، معروف للعرب ، قال — تعالى — : « وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد . . . » .

سموا بذلك نسبة إلى أبيهم عاد بن عُوْض ، بن إرم ، بن سام ، ابن نوح — عليه السلام — فقوله — تعالى — : « إرم » عطف بيان لعاد ، لأنه جده الأدنى .

وقوله — تعالى — : «ذات العماد» صفة لعاد ، وذات وصف مؤنث لأن المراد بعاد القبيلة ، سمى أولاده باسمه ، كما سمى بنو هاشم هاشماً .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٥٣٠.

والمقصود بهذه القبيلة عاد الأولى ، التى أرسل الله – تعالى – إليهم هودا – عليه السلام – ، وكانوا معروفين بقوتهم وضخامة أجسامهم .. وقد جاء الحديث عنهم كثيرا فى القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله – تعالى – : « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة . . . » .

وقوله – سبحانه – : « التى لم يخلق مثلها فى العباد » صفة أخرى لقبيلة عاد .

والمعنى : لقد وصل إلى علمك – أيها الرسول الكريم – بصورة يقينية ، خبر قبيلة عاد ، التى جدها الأدنى « إرم بن سام بن نوح » والتى كانت تسكن بيوتا ذات أعمدة ، ترفع عليها خيامهم ومبانيهم الفارهة . . والتى لم يخلق مثلها – أى : مثل هذه القبيلة – أحد فى ضخامة أجسام أفرادها ، وفى قوة أبدانها ، وفيما أعطاها الله – تعالى – من غنى وقوة .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله – تعالى – : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التى لم يخلقها مثلها فى البلاد » هؤلاء كانوا متمردين عتاة . . فذكر – سبحانه – كيف أهلكهم .

وهؤلاء هم الأولى ، وهم أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح » ، وهم الذين أرسل الله إليهم نبيه هودا – عليه السلام – فكذبوه فأهلكهم الله – تعالى – .

فقوله : « إرم ذات العماد » عطف بيان ، زيادة تعريف بهم . وقوله : « ذات العماد » لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التى ترفع بالأعمدة الشداد . . .

وقال ها هنا : « التى لم يخلق مثلها فى البلاد » أى : القبيلة التى لم يخلق

مثلها فى بلادهم ، لقوتهم وشدتهم ، وعظم تركيبهم .. فالضمير فى «مثلها» يعود إلى القبيلة .

ومن زعم أن المراد بقوله : « إرم ذات العماد » مدينة إما دمشق أو الاسكندرية . . ففيه نظر . . لأن المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد ، وليس المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم .

وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر بما ذكره جماعة من المفسرين من أن المراد بقوله — تعالى — : « إرم ذات العماد . . » مدينة مبنية بلبن الذهب والفضة . . فهذا كله من خرافات الإسرائيليين . . » (١) .

وقوله — تعالى — : « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد » معطوف على ما قبله . والمراد بثمود : القبيلة المسماة بهذا الاسم ، نسبة إلى جدها ثمود ، وقد أرسل الله - تعالى - إليهم نبيهم صالحا - عليه السلام - فكذبوه ، فأهلكهم الله - تعالى - .

وكانت مساكنهم بين الشام والحجاز ، وما زالت معروفة حتى الآن باسم قرى صالح .

وقوله : « جابوا » بمعنى قطعوا ، من الجوب بمعنى القطع والخرق . والصخر : الحجارة العظيمة .

والواد : اسم للأرض المنخفضة بين مكانين مرتفعين ، وكان هؤلاء القوم يقطعون الصخور من الجبال ، ليتخذوا منها بيوتهم بواديهم ، أى : بالمكان الذى كانوا يسكنونه .

فقوله : «بالواد» علم بالغلبة للمكان الذى كانوا يسكنون فيه ، ويسمى

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤١٨

بوادى القرى، وقد قال — تعالى — فى شأنهم : « وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين » .

والمراد بفرعون هنا : هو وقومه . والمـراد بالأوتاد : الجنود والعساكر الذين يشدون ملكه ويقوونه ،كما تشد الخيام وتقوى بالأوتاد.

قال الآلوسى : وصف فرعون بذلك لكثرة جنوده وخيامهم ، التى يضربون أوتادها فى منازلهم . أو لأنه كان يدق لمن يريد تعذيبه أربعة أوتاد ، ويشده بها . . » (١) .

وقال بعض العلماء : ووصف فرعون بذى الأوتاد ، لأن مملكته كانت تحتوى على الأهرامات ، التى بناها أسلافه ، لأن صورة الهرم على الأرض تشبه الوتد المدقوق . ويجوز أن يكون المراد بالأوتاد : التمكن والثبات على سبيل الاستعارة ، أى : ذى القوة . . » (٢) .

وقال صاحب الظلال : « وفرعون ذى الأوتاد » وهى على الأرجح الأهرامات ، التى تشبه الأوتاد الثابتة فى الأرض المتينة البنيان ، وفرعون المشار إليه هنا ، هو فرعون الطاغية الجبار ، الذى أرسل الله — تعالى — إليه موسى — عليه السلام — (٣) .

والمعنى : لقد علمت — أيها الرسول الكريم — وعلم معك كل من هو أهل للخطاب ، ما فعله ربك بقبيلة عاد ، التى جدها إرم بن سام

---

(١) تفسير الآلوسى حـ ٣٠ ص ١٢٤

(٢) « التحرير والتنوير حـ ٣٠ ص ٣٢١ للشيخ ابن عاشور

(٣) « فى ظلال القرآن حـ ٣٠ ص ٥٧١

لابن نوح ، والتى كانت صاحبة أعمدة عظيمة ترفع عليها بيوتا ، والتى لم يخلق فى بلادها مثلها فى القوة والغنى .

وعلمت — أيضا — ما فعله ربك بقوم ثمود ، الذين قطعوا صخر الجبال ، واتخذوا منها بيوتا بوادى قراهم ، التى ما زالت معروفة .

وعلمت — كذلك — ما فعلناه بفرعون صاحب المبانى القوية الفخمة وصاحب الجنود والعساكر الذين يشدون ملكه .

و « الذين طغوا فى البلاد » فأفسدوها ، وتجاوزوا كل حد فى العصيان والظلم . .

« فأكثروا فيها » أى : فى البلاد « الفساد » عن طريق الفسوق والخروج عن طاعتنا .

« فصب عليهم ربك سوط عذاب » أى : فكانت نتيجة طغيانهم وفسادهم . . أن أنزل ربك عليهم ، نوعا عظيما من العذاب المهين .

والسوط : آلة تتخذ من الجلود القوية ، يضرب بها الجانى ، وإضافتها إلى العذاب ، من إضافة الصفة إلى الموصوف . أى : فصب عليهم ربك عذابا . .

سوطا ، أى : كالسوط فى سرعته ، وشدته وتتابعه ، فهو تشبيه بليغ .

وعبر — سبحانه — عن إنزال العذاب بهم بالصب — وهو الإفراغ لما فى الظرف بقوة — ، للإيذان بكثرته وتتابعه .

وسميت أنواع العذاب النازلة بهم سوطا ، تسمية للشىء باسم آلته .

قال صاحب الكشاف : وذكر السوط . إشارة إلى أن ما أحله بهم فى الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم فى الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به .

وعن عمر بن عبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن عند الله أسواطا كثيرة، فأخذهم بسوط منها»(١).

وقوله - سبحانه -: «إن ربك لبا لمرصاد» تذييل وتعليل لإصابتهم بسوط عذاب.

والمرصاد فى الأصل: اسم للمكان الذى يجلس فيه الجالس لترقب أو رؤية شىء ما.

والمراد: إن ربك - أيها الرسول الكريم - يرصد عمل كل إنسان، ويحصيه عليه، ويجازيه به، دون أن يخفى عليه - سبحانه - شىء فى الأرض أو السماء.

وفى هذه الآيات الكريمة: تخويف شديد للكافرين، وتهديد لهم على إصرارهم جحودهم، وأنهم إذا ما ساروا فى طريق الجحود والعناد، فسيصيبهم ما أصاب هؤلاء الطغاة.

ثم ذكر - سبحانه - حال الإنسان عند اليسر والعسر، والغنى والفقر، والسراء والضراء فقال:

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٤٨.

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ
أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ
أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ
ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ
حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ ۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ
وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ
ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾
يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً
مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

والفاء فى قوله : « فأما الإنسان . . . » للتفريع على ما تقدم ، ولترتيب ما بعدها على ما قبلها .

والمراد بالإنسان هنا : جنسه . وقيل المراد به الكافر . ولفظ « الإنسان » مبتدأ ، وخبره : « فيقول ربى أكرمن » .

والمعنى : هذه سنة ربك ـ أيها العاقل ـ فى عباده ، أنه ـ تعالى ـ لهم بالمرصاد ، فهو يراقب أعمالهم ، ويحاسبهم عليها ، ويجازيهم بها ، والسعيد

من الناس هو الذى يفقه هذه الحقيقة ، فيؤدى ما كلفه خالقه به . . . .
« فأما الإنسان » الشقى الغافل عن طاعة ربه . .

« إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه » أي : إذا ما اختبره وامتحنه ربه بألوان من النعم ، بأن منحه المال الكثير ، والجاه العريض ، وأسباب القوة والمنعة « فيقول » على سبيل التباهى والتفاخر . . « ربى أكرمن » أى : ربى أعطانى ذلك ، لأنى مستحق لهذه النعم ، كما قال — تعالى — : « ولئن أذقناه نعماء من بعد ضراء مسته ، ليقولن هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى . . » .

وقوله — سبحانه — : « وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه . . » بيان لموقف هذا الإنسان عند فقره . أى : وأما إذا ما امتحنا هذا الإنسان بسلب بعض النعم عنه ، وبضيق الرزق . . « فيقول » على سبيل التضجر والتأفف وعدم الرضا بقضائه — سبحانه — : « ربى أهانن » أى : ربى أذلنى بالفقر ، وأنزل بى الهوان والشرور . .

وقول هذا الإنسان فى الحالين ، قول مذموم ، يدل على سوء فكره ، وقصور نظره ، وانطماس بصيرته ، لأنه فى حالة العطاء والسعة فى الرزق ، يتفاخر ويتباهى ، ويتوهم أن هذه النعم هو حقيق وجدير بها ، وليست من فضل الله - تعالى - وكأنه يقول ما قاله قارون : « إنما أوتيته على علم عندى » وفى حالة المنع والضيق فى الرزق يجزع ، ويأبى أن يرضى بقضاء الله وقدره . .

ولا يخطر بباله أن نعم الله ، إنما هى فضل تفضل به — سبحانه - عليه ليختبره ، أيشكر أم يكفر .

وأن تضييقه عليه فى الرزق ، ليس من الإهانة فى شىء ، بل هو للابتلاء - أيضاً - والامتحان ، كما قال — تعالى — : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون » .

قال الإمام الشوكانى عند تفسيره لهاتين الآيتين : وهذه صفة الكافر الذى لا يؤمن بالبعث ، لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا والتوسع فى متاعها ، ولا إهانة عنده إلا فوتها وعدم وصوله إلى ما يريد من زينتها ، فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته ، ويوفقه لعمل الآخرة .

ويحتمل أن يراد الإنسان على العموم ، لعدم تيقظه أن ما صار إليه من الخير ، وما أصيب به من الشر فى الدنيا ، ليس إلا للاختبار والامتحان وأن الدنيا بأسرها ، لا تعدل عند الله — تعالى — جناح بعوضة . » (١)

واقتصر — سبحانه — فى الآية الكريمة على تقتير الرزق ، فى مقابلة النعمة ، دون غير ذلك من الأمراض والآفات . . ، للإشعار بأن هذا الإنسان يعتبر دنياه جنته ومنتهى آماله ، فهو لا يفكر إلا فى المال ولا يحزن إلا من أجله ، وأن المقياس عنده لمقادير الناس هو على حسب ما عندهم من أموال ، كما قال شاعرهم :

فلو شاء ربى كنت قيس بن عاصم ولو شاء ربى كنت عمرو بن مريد
فأصبحت ذا مال كثير وطاف بى بنون كرام ، سادة لمسود

ولما كان هذا القول مذموماً من هذا الإنسان فى الحالين ، لعدم شكره لله — تعالى — فى حالة الرخاء ، ولعدم صبره على قضائه فى حالة البأساء .

لما كان الأمر كذلك جاء حرف الردع بعد ذلك فقال — تعالى — : « كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . . » .

فقوله — تعالى — : « كلا » زجر وردع عن قول هذا الإنسان « ربى أكرمن » عند حصول النعمة ، وعن قوله « ربى أهانن » عند حصول التقتير فى الرزق ، لأن الله — تعالى — قد يوسع على الكافر وهو مهان ومبغوض منه — تعالى — ، وقد يضيق — سبحانه — على المؤمن مع

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٥ ص ٤٣٨

محبته له ، وكلا الأمرين حاصل بمقتضى حكمته - عز وجل - ، والمؤمن الصادق هو الذى يشكر عند الرخاء ، ويصبر عند البأساء .

و « بل » هنا للاضراب الانتقالى ، من ذمهم على القبيح من القول ، إلى ذمهم بما هو أشنع منه ، وهو ارتكابهم للقبيح من الأفعال .

أى : كلا ليس قولكم هذا - وهو أن الإكرام فى الإعطاء ، والإهانة فى المنع - هو القبيح فحسب ، بل هناك ما هو أقبح منه ، وهو أنكم - أيها الكافرون - .

« لا تكرمون اليتيم » أى : لا تعطفون على اليتيم وهو الذى مات أبوه وهو صغير ، بأن تتركوه معرضاً للفقر والاحتياج ، دون أن تعملوا على تقديم يد المساعدة إليه .

« ولا تحاضون على طعام المسكين » أى : ولا يحث بعضكم بعضا على إطعام المساكين والبائسين .

ونفى الحض على إطعامهم ، نفى لإطعامهم من باب أولى ، وفى ذلك زيادة لمذمتهم ؛ لأنهم لا يطعمون ، ولا يحضون غيرهم عليه ، لأنهم قوم خلت قلوبهم من الرحمة والعطف .

قال الآلوسى : قوله - سبحانه - : « بل لا تكرمون اليتيم . . الخ » انتقال وترق من ذم هذا الإنسان على القبيح من القول ، إلى الأقبح من الفعل ، والالتفات إلى الخطاب ، لتشديد التقريع ، وتأكيد التشنيع . . . والجمع باعتبار معنى الإنسان ، إذ المراد الجنس . أى : بل لكم أفعال وأحوال أشد شرا مما ذكر ، وأدل على تهالككم على المال ، حيث أكرمكم - سبحانه - بكثرة المال ، ولكنكم لم تؤدوا ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم .

والمراد بطعام المسكين : إطعامه ، فالطعام مصدر بمعنى الإطعام . . .

أو المراد به : الشيء المطعوم ، ويكون الكلام على حذف مضاف . أى : على بذل طعام المسكين . . . ، (١) .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وتأكلون التراث أكلا لما » بيان لرذيلة ثالثة من رذائلهم المتعددة .

والتراث : هو المال الموروث عن الغير . والمراد بالأكل مطلق الانتفاع وخص الأكل بالذكر ، لأنه يشمل معظم وجوه التصرفات المالية .

واللم : الجمع بدون تفرقة بين الحلال والحرام ، مأخوذ من قولهم : لممت الطعام ، إذا أكله كله دون أن يترك منه شيئاً .

أى : ومن صفاتكم القبيحة أنكم تأكلون المال الموروث عن غيركم ، أكلا شديداً ، بحيث لا تتركون منه شيئاً ، ولا تفرقون بين ما هو حلال أو حرام ، ولا بين ما يحمد وما لا يحمد . بل تأخذون حقوقكم وحقوق غيركم من النساء والصبيان .

ومن صفاتكم ـ أيضاً ـ أنكم « تحبون المال حباً جماً » ، أى : حباً كثيراً مع حرص وشره .

يقال : جم الماء فى الحوض ، إذا كثر واجتمع ، ومنه الجموم للبئر الكثيرة الماء . .

والحب المفرط للمال من الصفات الذميمة ، لأنه يؤدى إلى جمعه من كل طريق ، بدون تفرقة بين ما يحل منه وما يحرم .

فأنت ترى أن الله ـ تعالى ـ قد وصف هذا النوع من الناس . بأنه قد جمع فى سوء سلوكه ، بين النطق بالقبيح من الأقوال ، وبين ارتكاب القبيح من الأفعال ، وهى : ترك اليتيم بلا رعاية ، وعدم الحض على

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٢٧

إطعام المحتاج ، وجمع المال الموروث بدون تفرقة بين حلاله وحرامه — والإفراط فى حب المال بطريقة ذميمة . .

وبعد هذا الزجر والردع لهم ، لسوء أقوالهم وأفعالهم ، أخذت السورة الكريمة فى زجرهم وردعهم عن طريق تذكيرهم بأهوال الآخرة فقال — تعالى — : « كلا إذا دكت الأرض دكا دكا . .

وقوله — تعالى — : « كلا إذا دكت الأرض دكا دكا » ردع لهم وزجر عن أفعالهم السابقة ، وهى عدم إكرام اليتيم ، وعدم الحض على طعام المسكين . .

وقوله « دكت الأرض » من الدك ، بمعنى الكسر والدق والزلزلة الشديدة ، والتحطيم الجسيم . وانتصب لفظ « دكا » الأول على أنه مصدر مؤكد للفعل ، وانتصاب الثانى على أنه تأكيد للأول . وقيل تكرار « دكا » للدلالة على الاستيعاب ، كقولك قرأت النحو باباً باباً ، أى : قرأته كله . . .

قال القرطبى : قوله — تعالى — : « كلا إذا دكت الأرض . . . . » أى : ما هكذا ينبغى أن يكون الأمر .

فهو رد لانكبابهم على الدنيا ، وجمعهم لها . فإن من فعل ذلك يندم يوم تدك الأرض ، ولا ينفعه الندم . والدك الكسر والدق . أى : زلزلت وحركت تحريكاً بعد تحريك .

وقوله : « دكا دكا » أى : مرة بعد مرة . زلزلت فكسر بعضها بعضاً فتكسر كل شىء على ظهرها . . » (١) .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ٥٤

وقوله - تعالى - : « وجاء ربك . . » هذه الآية وأمثالها من آيات الصفات التي يرى السلف وجوب الإيمان بها كما جاءت . بمعنى أننا نؤمن بمجيء الله - تعالى - ولكن من غير تكييف ولا تمثيل . بل نكل علم كيفية مجيئه إلى مشيئته - تعالى - .

والخلف يؤولون ذلك بأن المجيء هنا بمعنى مجيء أمره وقضائه . .

قال الآلوسي : قوله - تعالى - : « وجاء ربك . . » قال منذر بن سعيد معناه : ظهر - سبحانه - للخلق هنالك ، وليس بمجيء نقلة . . وقيل : الكلام على حذف مضاف للتهويل ، أي : وجاء أمر ربك وقضاؤه . واختار جمع أنه تمثيل لظهور آيات اقتداره - تعالى - وتبين آثار قدرته وسلطانه . مثلت حاله - سبحانه - في ذلك . بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة مالا يظهر بحضور عساكره ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم . وأنت تعلم ما للسلف في المتشابه من الكلام .

« والملك » أي : جنس الملك ، فيشمل جميع الملائكة « صفاً صفاً » أي : مصطفين ، أو ذوي صفوف . . » (١) .

وقوله - تعالى - : « وجيء يومئذ بجهنم . . » أي : وأحضرت جهنم وظهرت وبرزت للكافرين والفاسقين ، يوم القيامة ، يوم تدك الأرض دكا .

وقوله : « يومئذ » منصوب بقوله « جيء » ، وقوله « بجهنم » قائم مقام الفاعل .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » (٢) .

(١) تفسير الآلوسي جـ ٣٠ ص ١٢٨
(٢) « ابن كثير جـ ٧ ص ٤٢١

« يومئذ » أى : فى هذا اليوم العسير ، وهو يوم القيامة وهو بدل من قوله - تعالى - : « إذا دكت الأرض » .« يتذكر الإنسان» أى : يتذكر ما فرط منه من ذنوب ، وما ارتكبه من سيئات ، وما وقع فيه من كفر وفسوق عن أمر ربه .

« وأنى له الذكرى » أى : ومن أين له الانتفاع بهذا التذكر ، لأنه تذكر قد جاء فى غير وقت الانتفاع به ، وهو وقت الحساب على الأعمال ، لا وقت التوبة من السيء منها .

« يقول » هذا الإنسان الشقى « يا ليتنى قدمت لحياتى » أى : يقول حين يرى العذاب ماثلا أمامه يقول : على سبيل التحسر والتفجع - يا ليتنى قدمت أعمالا صالحة لأجل حياتى هذه فى الآخرة ، فاللام للتعليل ، وقدمت أعمالا صالحة فى وقت حياتى فى الدنيا لأنتفع بها فى هذا اليوم فتكون اللام للتوقيت .

« فيومئذ » أى : فى هذا اليوم لا ينفعه الندم ولا التحسر ، و « يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحـــد » والوثاق : الرباط الذى يقيد به الأسير . . .

أى : فى هـذا اليوم لا يعذب كعذاب الله أحد ، ولا يوثق كوثاقه أحد ، فالضمير فى قوله : « عذابه وثاقه » يعود إلى الله - تعالى - . ولفظ « أحد » فاعل .

وقرأ الكسائى : « لا يعذب ولا يوثق » - بفتح الذال المشددة ، وفتح الثاء - على البناء للمفعول ، والضمير فى قوله « عـذابه ووثاقه » يعود للكافر . . .

أى : فيومئذ لا يعذب أحد مثل عذاب ذلك الإنسان الكافر المتحسر ، ولا يوثق أحد مثل وثاقه . ولفظ « أحد » هنا نائب فاعل .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله — تعالى — : « قال الله إنى منزلها عليكم — أى : المائدة — فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحدا من العالمين » .

ثم ختم — سبحانه — السورة الكريمة بهذه البشارة العظيمة للمؤمنين فقال : « يأيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

والنفس المطمئنة : هى النفس الآمنة من الخوف أو الحزن فى يوم القيامة ، بسبب إيمانها الصادق ، وعملها الصالح . والكلام على إرادة القول . . .

أى : يقول الله — تعالى — على لسان ملائكته ، إكراماً للمؤمنين، عند وفاتهم ، أو عند تمام حسابهم : يأيتها النفس الآمنة المطمئنة ، الناعمة روح اليقين ، الواثقة بفضل الله — تعالى — ورحمته . .

« ارجعى إلى ربك راضية مرضية » أى : ارجعى إلى ربك الذى خلقك ، وأنت راضية تمام الرضا بما أعطاك — سبحانه — من ثواب ، ومرضى عنك منه — تعالى — بسبب إيمانك الصادق ، وعملك الصالح .

« فادخلى فى عبادى » أى : فادخلى فى زمرة عبادى الصالحين المرضيين . .

« وادخلى جنتى » التى وعدتنابها ، والتى أعددتها لنعيمهم الدائم المقيم .

وقد ذكروا أن هذه الآيات الكريمة نزلت فى شأن عثمان بن عفان ، تصدق ببئر رومة .

وقيل نزلت فى حمزة بن عبد المطلب حين استشهد . .

قال القرطبي : والصحيح أنها عامة فى نفس كل مؤمن مخلص طائع . . . » (١) .

نسأل الله — تعالى — أن يجعلنا جميعاً من أصحاب النفوس المطمئنة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة — مدينة نصر

مساء الاثنين ٩ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ

١٣ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٢٠ ص ٥٨

تفسير سورة

البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة « البلد »

١ — سورة « البلد » وتسمى سورة « لا أقسم » من السور المكية الخالصة ، وعلى ذلك سار المحققون من المفسرين .

قال القرطبي : سورة « البلد » مكية باتفاق(١) .

وقال الآلوسي : مكية في قول الجمهور بتمامها . وقيل : مدنية بتمامها . وقيل مدنية إلا أربع آيات من أولها . واعترض كلا القولين بأنه يأباهما قوله « بهذا البلد » — إذ المقصود بهذا البلد مكة — ، ولقوة الاعتراض ادعى الزمخشري الإجماع على مكيتها . . »(٢) .

والذي تطمئن إليه النفس ، أن هذه السورة من السور المكية الخالصة ولا يوجد دليل يعتمد عليه يخالف ذلك .

قال الشوكاني : سورة البلد ، ويقال لها سورة « لا أقسم . . » وهي عشرون آية . وهي مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة « لا أقسم . . » بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

٢ — وهي السورة الخامسة والثلاثون في ترتيب نزول السور ، فقد كان نزولها بعد سورة « ق » ، وقبل سورة « الطارق » ، أما ترتيبها في المصحف فهي السورة التسعون .

ومن مقاصدها : التنويه بشأن مكة ، لشرفها وحرمتها ووجود البيت

---

(١) تفسير القرطبي حـ ٢٠ ص ٥٩ .

(٢) تفسير الآلوسي حـ ٣٠ ص ١٣٣ .

المعظم بها، وتعداد نعم الله – تعالى – على الإنسان حتى يرجع عن عصيانه وغروره، ويخلص العبادة لخالقه، وبيان حسن عاقبة الأخيار، وسوء عاقبة الأشرار . .

قال – تعالى – :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا
وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ
عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ
أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ
النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾
فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾
أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ
وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾

افتتحت السورة الكريمة بالقسم، تشويقا لما يرد بعده، وتأكيدا المقسم عليه .

و «لا» في مثل هذا التركيب، يرى المحققون أنها مزيدة للتأكيد، والمعنى : أقسم بهذا البلد . أي : مكة المكرمة، وقد جاء القسم بها فه

قوله — تعالى — : « والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين . . . » .

قال الشيخ محمد عبده — رحمه الله — : قوله « لا أقسم . . . » عبارة من عبارات العرب فى القسم ، يراد بها تأكيد الخبر ، كأنه فى ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم . ويقال إنه يؤتى بها فى القسم إذا أريد تعظيم المقسم به . كأن القائل يقول : إنى لا أعظمه بالقسم ، لأنه عظيم فى نفسه ، والمعنى فى كل حال على القسم . . »(١) .

وقال بعض العلماء : « لا » هذه للنفى ، وهذه عبارة تعود العرب أن يقولوها عندما يكون المقسم عليه ظاهرا أمره ، كأنه — تعالى — يقول : أنا لا أقسم بهذه الأشياء ، على إثبات هذا المطلوب الذى أذكره بعد ، لأن إثباته أظهر وأجلى وأقوى من أن يحاول محاول إثباته بالقسم .

ويقال : معناه : أنا لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات المطلوب ، لأنه أعظم وأجل وأكبر من أن يقسم عليه ، بهذه الأمور الهينة الشأن ، والغرض على هذا الوجه ، تعظيم المقسم عليه ، وتفخيم شأنه . . »(٢) .

والإشارة بلفظ هذا مع بيانه بالبلد ، إشارة إلى حاضر فى أذهان السامعين ، لأن مكة بعضهم كان يعيش فيها ، وبعضهم كان يعرفها معرفة لا خفاء معها .

وشبيه بذلك قوله — تعالى — : « إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة التى حرمها وله كل شىء » .

وفائدة الإتيان باسم الإشارة هنا : تمييز المقسم به أكمل تمييز لقصد التنويه به .

(١) تفسير « جزء عم » ص ٢٤ طبعة الشعب .

(٢) تفسير « جزء عم ص ٦٥ لفضيلة الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد — رحمه الله — .

وجملة « وأنت حل بهذا البلد » معترضة بين القسم وجوابه .

وقوله — تعالى — : « حل » اسم مصدر أحل بمعنى أباح ، فيكون المعنى : وأنت — أيها الرسول الكريم — قد استحل كفار مكة إيذاءك ومحاربتك . . . مع أنهم يحرمون ذلك بالنسبة لغيرك ، فى هذا البلد الأمين .

ويصح أن يكون لفظ « حل » هنا بمعنى الحلال الذى هو ضد الحرام يقال : هو حل وحلال ، وحِرْم وحرام . . فيكون المعنى : وأنت - أيها الرسول الكريم - قد أحل الله — تعالى — لك أن تفعل بهؤلاء المشركين ما شئت من القتل أو العفو . .

وتكون الجملة الكريمة ، بشارة للنبى — ﷺ — بأن الله - تعالى - سينصره على مشركى قريش ، ويمكنه من رقابهم . . وقد أنجز له - سبحانه - ذلك يوم الفتح الأكبر .

قال صاحب الكشاف : أقسم الله - تعالى - بالبلد الحرام وما بعده ، على أن الإنسان خلق مغمورا فى مكابدة المشاق والشدائد . واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله : « وأنت حل بهذا البلد » يعنى : ومن المكابدة أن مثلك - يا محمد - على عظم حرمتك ، يستحل بهذا البلد الحرام ، كما يستحل الصيد فى غير الحرم . .

وفيه تثبيت لرسول — ﷺ — وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة ، وتعجيب من حالهم فى عداوته .

أوسلى — ﷺ — بالقسم ببلده ، على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد ، واعترض بأن وعده فتح مكة تتميما للتسلية والتنفيس عليه فقال : « وأنت حل بهذا البلد » .

يعنى : وأنت حل به فى المستقبل ، تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر . .

فإن قلت أين نظير قوله : « وأنت حل » فى معنى الاستقبال ؟ قلت : قوله — تعالى — : « إنك ميت وإنهم ميتون » . .

وكفاك دليلا قاطعا على أنه للاستقبال ، وأن تفسيره بالحال محال ، أن السورة بالاتفاق مكية ، وأين الهجرة من وقت نزولها ؟ فما بال الفتح ؟(١) .

ويرى بعضهم أن معنى قوله — تعالى — : « وأنت حل بهذا البلد » : وأنت مقيم بهذا البلد ، ونازل فيه ، وحال به ، وكفى فخرا لمكة أن تنزل فيها — أيها الرسول الكريم — ، فإن الأمكنة الشريفة تزداد شرفا بنزول رسل الله — تعالى — فيها ، فكيف وأنت خاتمهم وإمامهم ؟

قال بعض العلماء : وحكى ابن عطية عن بعض المتأولين : أن معنى : « وأنت حل بهذا البلد » وأنت ساكن بهذا البلد ، حال فيه . . . وهو يقتضى أن تكون هذه الآية فى موضع الحال من ضمير « أقسم » ، فيكون القسم بالبلد مقيدا باعتبار بلد محمد — ﷺ — ، وهو تأويل جميل ، لو ساعد عليه ثبوت استعمال « حل » بمعنى حال ، أى : مقيم فى مكان ، فإن هذا لم يرد فى كتب اللغة . . . ولذا لم يذكر هذا المعنى صاحب الكشاف . . . »(٢) .

ويبدو لنا أن هذه الأقوال لا تعارض بينها ، بل يؤيد بعضها بعضا ، لأن الرسول — ﷺ — قد آذاه أهل مكة ، بينما حرموا إيذاء غيره ، وأن الله — تعالى — قد مكن رسوله — ﷺ — منهم ، كما حدث فى غزوة الفتح ، وأنه — ﷺ — قد أقام معهم فى مكة أكثر من خمسين سنة ، وكان يلقب عندهم بالصادق الأمين .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٧٥٣ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٣٤٨ للشيخ ابن عاشور — رحمه الله — .

وقوله ـ سبحانه ـ : « ووالد وماولد » معطوف على المقسم به الأول وهو قوله ـ تعالى ـ : « بهذا البلد » .

وداخل فى حيز القسم . والمراد بالوالد آدم ـ عليه السلام ـ ، والمراد بماولد : ذريته من بعده .

أى : أقسم بهذا البلد الذى له ماله من الشرف ، والمكانة السامية بين البلاد . . وأقسم بأبيكم آدم ، وبذريته من بعده . . أو أقسم بكل والد وبكل مولود .

وجىء باسم الموصول « ما » فى قوله « وماولد » دون « من » ، مع أنها أكثر استعمالا فى العاقل الذى هو مراد هنا ، لأن « ما » أشد إبهاما ، وشدة الإبهام المقصود بها هنا ، التفخيم والتعظيم . : وشبيه بذلك قوله ـ تعالى ـ : « فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت . . . » ، كما أن تنكير لفظ « والد » هنا للتعظيم ـ أيضاً ـ .

وقيل المراد بالوالد هنا : إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبماولد : الصالحون من ذريته .

وقيل المراد بالوالد : من يولد له ، وبقوله « وماولد » الذى لم يولد له وعليه تكون ما نافية .

وقد رجح الإمام ابن جرير المعنى الأول فقال : والصواب من القول فى ذلك ، ما قاله الذين قالوا : إن الله ـ تعالى ـ أقسم بكل والدوولده ، لأن الله ـ تعالى ـ عم كل والد وما ولد ، وغير جائز أن يخص ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل ، ولا خبر بخصوص ذلك ، ولا برهان يجب التسليم له بخصوصه ، فهو على عمومه . . »(١) .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٣٠ ص ١٢٥ .

وقوله - تعالى - : « لقد خلقنا الإنسان فى كبد » جواب القسم . والمراد بالإنسان : جنسه والكبد : الشدة والتعب والمشقة ، من المكابدة للشىء ، بمعنى تحمل المشاق والمتاعب فى فعله .

وأصله من كبد الرجل - بزنة طرب - فهو أكبد ، إذا أصيبت كبده بالمرض ، ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل تعب ومشقة تنال الإنسان . .

والمعنى : لقد خلقنا الإنسان لهذه الشدائد والآلام ، التى هى من طبيعة هذه الحياة الدنيا ، والتى لا يزال يكابدها وينوء بها ، ويتفاعل معها . . . حتى تنتهى حياته ، ولافرق فى ذلك بين غنى أو فقير ، وحاكم أو محكوم وصالح أو طالح . . فالكل يجاهد ويكابد ويتعب ، من أجل بلوغ الغاية التى يبتغيها .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : « لقد خلقنا الإنسان فى كبد » أى : فى تعب ومشقة ، فإنه لا يزال يقاسى فنون الشدائد من وقت نفخ الروح إلى حين نزعها . .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - : يكابد الشكر على السراء ، ويكابد الصبر على الضراء . .

وقيل : لقد خلقناه منتصب القامة واقفا ، ولم نجعله منكبا على وجهه .

وقيل : جعلناه منتصبا رأسه فى بطن أمه ، فإذا أذن له فى الخروج ، قلب رأسه إلى قدمى أمه . . وهذه الأقوال ضعيفة لا يعول عليها ، والصحيح الأول . . . »(١) .

والحق أن تفسير الكبد بالمشقة والتعب ، هو الذى تطمئن إليه النفس لأنه لا يوجد فى هذه الحياة إنسان إلا وهو مهموم ومشغول بمطالب

---

(١) تفسير الآلوسى حـ ٣٠ ص ١٣٤ .

حياته ، وفى كبد وتعب للحصول على آماله ورغباته وغاياته ؛ ورحمه الله القائل :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب فى ازدياد

وقال - سبحانه « فى كبد » للإشعار بأنه لشدة مقاساته ومكابدته للمشاق والمتاعب ، وعدم انفكاكه عنها . . كالظرف بداخل المظروف فهو فى محن ومتاعب ، حتى يصير إلى عالم آخر تغاير أحواله أحوال هذا العالم .

والاستفهام فى قوله - تعالى - بعد ذلك : « أيحسب أن لن يقدر عليه أحد . يقول أهلكت مالا لبدا . أيحسب أن لم يره أحد » للإنكار والتوبيخ .

أى : أيظن هذا الإنسان الذى هو فى تعب ومشقة طول حياته ، أنه قد بلغ من القوة والمنعة . . . بحيث لا يقدر عليه أحد . .

إن كان يتوهم ذلك ، فهو فى ضلال مبين ، لأن الله - تعالى - الذى خلقه ، قادر على إهلاكه فى لمح البصر ، وقادر على أن يسلط عليه من يذله ، ويقضى عليه . .

ويدخل فى هذا التوبيخ دخولا أوليا ، أولئك المشركون الذين اغتروا بقوتهم ، فآذوا النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، إيذاء شديدا .

ثم حكى - سبحانه - جانباً من أقوال هذا النوع الجاحد المغرور من بنى آدم فقال : « يقول أهلكت مالا لبدا » .

أى : يقول هذا الإنسان المغرور بقوته ، المفتون بماله ، المتفاخر بما معه من حكام الدنيا .

يقول – على سبيل التباهى والتعالى على غيره – لقد أنفقت مالا كثيرا ، فى عداوة النبى – صلى الله عليه وسلم – ، وفى إيذاء أتباعه ، وفى غير ذلك من الوجوه التى كان أهل الجاهلية يظنونها خيرا ، وما هى إلا شر محض . وعبر – سبحانه – عن إنفاق هذا الشقى لماله بقوله : « يقوله أهلكت . . . » .

للإشعار بأن ما أنفقه من مال هو شىء هالك ، لأنه لم ينفق فى الخير ، وإنما أنفق فى الشر .

والمال اللبد : هو المال الكثير الذى تلبد والتصق بعضه ببعض لكثرته وهو جمع لبدة – بضم اللام وسكون الباء – كغرفة وغرف وهى ما تلبد من صوف أو شعر ، أى : تجمع والتصق بعضه ببعض .

وقوله – سبحانه – : « أيحسب أن لم يره أحد ، توبيخ لهذا المغرور إثر توبيخ ، وتجهيل فى أعقاب تجهيل .

أى : أيظن هذا الجاهل المغرور ، حين أنفق المال الكثير فى المعاصى والسيئات ، أن الله – تعالى – غير مطلع عليه ؟ إن كان يظن ذلك فهو فى نهاية الجهالة وانطماس البصيرة ، لأن الله – تعالى – مطلع عليه ، ولا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وسيحاسبه على ذلك حسابا عسيرا .

وفى الحديث الشريف : لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ، عن شبابه فيم أبلاه ، وعن عمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه .

ثم ساق – سبحانه – بعد ذلك ، جانباً من مظاهر نعمه ، على هذا

الإنسان الجاهل المغرور ، فقال — تعالى — : « ألم نجعل له عينين . ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين ... » .

والاستفهام هنا للتقرير ، لأن الله — تعالى — قد جعل له كل ذلك ، ولكنه لم يشكر الله — تعالى — على هذه النعم ، بل قابلها بالجحود والبطر . .

أى : لقد جعلنا لهذا الإنسان عينين ، يبصر بهما ، وجعلنا له لسانا ينطق به ، وشفتين — وهما الجلدتان اللتان تستران الفم والأسنان — تساعدانه على النطق الواضح السليم .

واقتصر — سبحانه — على العينين ، لأنهما أنفع المشاعر ، ولأن المقصود إنكار ظنه أنه لم يره أحد ، ولأن الإبصار حاصل بذاتهما .

وذكر — سبحانه — اللسان وذكر معه الشفتين ، للدلالة على أن النطق السليم ، لا يتأتى إلا بوجودهما معا ، فاللسان لا ينطق نطقاً صحيحاً بدون الشفتين ، وهما لا ينطقان بدونه .

وقوله — تعالى — : « وهديناه النجدين » بيان لنعمة أخرى هى أجل النعم وأعظمها .

والنجد : الأرض المرتفعة ، وجمعه نجود ، ومنه سميت بلاد نجد بهذا الإسم ، لأنها مرتفعة عن غيرها .

والمراد بالنجدين هنا : طريق الخير ، وطريق الشر . أى : وهدينا هذا الإنسان وأرشدناه إلى طريق الخير والشر ، عن طريق رسلنا الكرام وعن طريق ما منحناه من عقل ، يميز به بين الحق والباطل ، ثم وهبناه الاختيار لأحدهما ؛ كما قال — تعالى — : « إنا هديناه السبيل . إما شاكرا وإما كفورا » .

قال بعض العلماء : وكأنهما إنما سميا نجدين — أى : سبيل الخير والشر —

لأنهما لما وضحت الدلائل ، وقربت الحجج ، وظهرت البراهين ، جعلا كالطريق المرتفعة العالية ، فى أنها واضحة لذوى الأبصار .

أو إنما سميا بذلك ، للإشارة إلى أن فى كل منهما وعورة يشق معها السلوك ، ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه وراضها ، وليس سلوك طريق الشر بأهون من سلوك الخير ، بل الغالب أن يكون طريق الشر ، أشق وأصعب ، وأحوج إلى الجهد ... » (١) .

وبعد بيان هذه النعم الجليلة التى أنعم الله بها — سبحانه — على الإنسان ، أتبع - سبحانه - ذلك بحضه على المداومة على فعل الخير ، وعلى إصلاح نفسه ، فقال - تعالى - : « فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة ... »

والفاء فى قوله - سبحانه - : « فلا اقتحم العقبة » للتفريع على ما تقدم ، والمقصود بهذه الآية الحض على فعل الخير بدل الشر .

وقوله : « اقتحم » من الاقتحام للشىء ، بمعنى دخوله بشدة . يقال : اقتحم الجنود أرض العدد ، إذا دخلوها بقوة وسرعة ، وبدون مبالاة بارتكاب المخاطر .

والعقبة فى الأصل : الطريق الوعر فى الجبل . والمراد بها هنا : مجاهدة النفس ، وقسرها على مخالفة هواها وشهوتها ، وحملها على القول والفعل الذى يرضى الله - تعالى - .

والمعنى : لقد جعلنا للإنسان عينين . ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين . فهلا بعد كل هذه النعم ، فعل ما يرضينا . بأن جاهد نفسه وهواه ، وبأن قدم ماله فى فك الرقاب . وإطعام اليتامى والمساكين .

(١) تفسير « جزء عم » ، ص ٢٠٤ . للشيخ محمد محي الدين عبد الحميد .

قال الجمل : قوله: « فلا اقتحم العقبة» أى : فهلا اقتحم العقبة ، فلا بمعنى هلا التى للتحضيض ، أى : الذى أنفق ماله فى عداوة النبى — صلى الله عليه وسلم — ، هلا أنفقه فى اقتحام العقبة فيأمن . . » (١) .

وقد استعيرت العقبة لمجاهدة النفس ، وحملها الإنفاق فى سبيل الخير ، لأن هذه الأعمال شاقة على النفس ، فجعلت كالذى يتكلف سلوك طريق وعر . . .

ويصح أن تكون «لا» هنا ، على معناها الحقيقى وهو النفى ، فيكون المعنى : أن هذا الإنسان الذى جعلنا له عينين . . لم يشكرنا على نعمنا ، فلا هو اقتحم العقبة ، ولا هو فعل شيئا ينجيه من عذابنا .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : قوله : « فلا اقتحم العقبة » يعنى : فلم يشكر تلك الأيادى والنعم بالأعمال الصالحة : من فك الرقاب ، وإطعام اليتامى والمساكين . . . بل غمط النعم ، وكفر بالمنعم . .

فإن قلت : قلما تقع « لا » الداخلة على الماضى ، غير مكررة ، فما لها لم تكرر فى الكلام الأفصح ؟

قلت : هى متكررة فى المعنى ، لأن معنى « فلا اقتحم العقبة » . فلا فك رقبة ، ولا اطعم مسكينا ، ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك . »(٢)

والاستفهام فى قوله — سبحانه — : « وما أدراك ما العقبة » لتفخيم شأنها ، والتهويل من أمرها ، والتشويق إلى معرفتها .

والكلام على حذف مضاف ، والتقدير : وما أدراك مااقتحام العقبة؟

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٤ ص ٥٣٩

(٢) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٧٥٥

ثم فسر - سبحانه - ذلك بقوله : « فك رقبة » . والمراد بفك الرقبة إعتاقها وتخليصها من الرق والعبودية . إذ الفك معناه : تخليص الشيء من الشيء . . . .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث التي وردت في فضل عتق الرقاب ، وتحريرها من الرق .

ومن هذه الأحاديث قوله - صلى الله عليه وسلم - : « من أعتق رقبة مؤمنة ، أعتق الله بكل إرب منها - أي عضو منها - إربا منه من النار ... » .

وقوله - صلى الله عليه وسلم - : « ومن أعتق رقبة مؤمنة فهي فكاكه من النار . . » (١) .

وقراءة الجمهور « فك رقبة » برفع « فك » ، وإضافته إلى « رقبة » .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي : « فك » بفتح الكاف على أنه فعل ماض ، ونصب لفظ رقبة على أنه مفعول به .

وقد ذهب جمع من المفسرين إلى أن المراد بفك الرقبة : أن يخلص الإنسان نفسه من المعاصي والسيئات ، التي تكون سبباً في دخوله النار .

وقوله - سبحانه - : « أو إطعام في يوم ذي مسغبة » بيان لفضيلة ثانية من الفضائل التي تؤدي إلى مجاهدة النفس ، وحملها على طاعة الله - تعالى -

والمسغبة : المجاعة ، مصدر ميمي بمعنى السغب ، يقال : سغب الرجل - كفرح ونصر - إذا أصابه الجوع . ووصف اليوم بذلك على سبيل المبالغة كما في قولهم : نهاره صائم .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي « أطعم » بصيغة الفعل الماضي .

أي : اقتحام العقبة ، أي : التمكن من حمل النفس على طاعة الله - تعالى - يتمثل في فك الرقاب . وفي إطعام المحتاجين في يوم يشتد فيه جوعهم .

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٣٠

وقوله ـ سبحانه ـ : « يتيما ذا مقربه . أو مسكينا ذا متربة » بيان لفضيلة ثالثة من الفضائل التى تؤدى إلى رضا الله ـ تعالى ـ .

وقوله : « يتيما » منصوب على أنه مفعول به لقوله « إطعام » أو أطعم على القراءة الثانية .

واليتيم : هو الشخص الذى مات أبوه وهو صغير .

والمقربة بمعنى القرابة ، مصدر ميمى ، من قرب فلان من فلان ، إذا كان بينهما نسب قريب .

والمتربة : الحاجه والافتقار الشديد ، مصدر ميمى من ترب الرجل ـ كطرب ـ إذا افتقر ، حتى لكأنه قد لصق بالتراب من شدة الفقر ، وأنه ليس مأوى سوى التراب .

وأما قولهم : أترب فلان ، فمعناه استغنى ، حتى لكأن ماله قد صار كالتراب من كثرته .

أى : اقتحام العقبة من أكبر مظاهره : فك الرقاب ، وإطعام الطعام لليتامى الأقارب ، وللمساكين المحتاجين إلى العون والمساعدة .

وخص ـ سبحانه ـ الإطعام بكونه فى يوم ذى مجاعة ، لأن إخراج المال فى وقت القحط ، أثقل على النفس ، وأوجب لجزيل الأجر ، كما قال ـ تعالى ـ : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » .

وقيد ـ سبحانه ـ اليتيم بكونه ذا مقربة ، لأنه فى هذه الحالة يكون له حقان : حق القرابة ، وحق اليتم ، ومن كان كذلك فهو أولى بالمساعدة من غيره .

وقوله ـ تعالى ـ : « ثم كان من الذين آمنوا ، وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة . . » معطوف على قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك « فلا اقتحم العقبة . . » .

و «ثم» هنا للتراخى الرتبى ، للدلالة على أن ما بعدها أصل لقبول ما قبلها .

والمعنى : هلا كان هذا الإنسان ممن فكوا الرقاب ، وأطعموا الطعام لليتامى والمساكين .. ثم كان - فضلا عن كل ذلك - من الذين آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا ، وممن أوصى بعضهم بعضا بفضيلة الصبر ، وبفضيلة التراحم والتعاطف ..

لقد كان من الواجب عليه - لو كان عاقلا - أن يكون من المؤمنين الصادقين ، ولكنه لتعاسته وشقائه وغروره لم يكن كذلك ، لأنه لا هو اقتحم العقبة ، ولا هو آمن ..

وخص - سبحانه - من أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصبر ، وتواصيهم بالمرحمة ، لأن هاتين الصفتين على رأس الصفات الفاضلة بعد الإيمان بالله - تعالى - ..

واسم الإشارة فى قوله : «أولئك أصحاب الميمنة» يعود على الذين آمنوا وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة . أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة ، هم أصحاب الجهة اليمنى التى فيها السعداء الذين يؤتون كتابهم بأيمانهم ، فالمراد بالميمنة : جهة اليمين ..

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك سوء عاقبة الكافرين فقال : «والذين كفروا بآياتنا» أى : الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا «هم أصحاب المشأمة» أى : هم فى جهة الشمال التى فيها الأشقياء ، أوهم أصحاب الشؤم على أنفسهم بسبب إصرارهم على كفرهم .

« عليهم نار مؤصدة » أى : عليهم نار مغلقة بحيث لا يستطيعون الخروج منها ، تقول : آصدت الباب وأوصدته ، إذا أحكمت غلقه ، والاسم فيهما ، الإصاد والوصاد ..

نسأل الله – تعالى – أن يجعلنا جميعا من أصحاب الميمنة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة – مدينة نصر

صباح الجمعة ١٤ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ

١٧ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

تفسیر سورۃ

الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة « الشمس »

١ — هذه السورة الكريمة سماها معظم المفسرين ، سورة « الشمس »، وعنونها الإمام ابن كثير بقوله : تفسير سورة « والشمس وضحاها » . .

وهي من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها : خمس عشرة آية في معظم المصاحف ، وفي المصحف المكي ست عشرة آية ، وكان نزولها بعد سورة « القدر » ، وقبل سورة « البروج » .

٢ — ومن مقاصدها : تهديد المشركين بأنهم سيصيبهم ما أصاب المكذبين من قبلهم ، إذا ما استمروا في كفرهم ، وبيان مظاهر قدرته — تعالى — في خلقه ، وبيان حسن عاقبة من يزكي نفسه ، وسوء عاقبة من يتبع هواها .

قال — تعالى — :

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣)
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا
طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)
قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ
نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)

افتتح — سبحانه — هذه السورة الكريمة ، بالقسم بكائنات عظيمة النفع ، جليلة القدر ، لها آثارها فى حياة الناس والحيوان والنبات ، ولها دلالاتها الواضحة على وحدانيته — تعالى — وكمال قدرته ، وبديع صنعه .

فقال — سبحانه — : « والشمس وضحاها » والضحى الوقت الذى ترتفع فيه الشمس بعد إشراقها ، فتكون أكمل ما تكون ضياء وشعاعا . .

فالمراد بضحاها : ضوؤها — كما يرى مجاهد — ، أو النهار كله — كما اختار قتادة وغيره — ، أو حرها — كما قال مقاتل — .

وهذه الأقوال لا تنافر بينها . لأن لفظ الضحى فى الأصل ، يطلق على الوقت الذى تنبسط فيه الشمس ، ويمتد النهار ، تقول : ضحى فلان

يضحى - كرضى يرضى - ، إذا برز للشمس ، وتعرض لحرها ، ومنه قوله - تعالى - : إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » .

وقوله - تعالى - : والقمر إذا تلاها ، أى : تبعها ، تقول : فلان تلا فلانا يتلوه ، إذا تبعه ، قال بعض العلماء : فأما أن القمر تابع للشمس فيحتمل معنيين : أحدهما : أنه تال لها فى ارتباط مصالح الناس ، وتعلق منافع هذا العالم بحركته ، وقد دل علم الهيئة على أن بين الشمس والقمر من المناسبة ما ليس بين غيرهما من الكواكب . وثانيهما : أن القمر يأخذ نوره ويستمده من نور الشمس . وهذا قول الفراء قديما ، وقد قامت الأدلة عند علماء الهيئة والنجوم ، على أن القمر يستمد ضوءه من الشمس »(١) .

وقال الشيخ ابن عاشور : وفى الآية إشارة إلى أن نور القمر ، مستفاد من نور الشمس ، أى : من توجه أشعة الشمس إلى ما يقابل الأرض من القمر ، وليس نيرا بذاته ، وهذا إعجاز علمي من إعجاز القرآن .. »(٢) .

وقوله - سبحانه - : « والنهار إذا جلاها » أى : جلى الشمس وأظهرها وكشفها للناظرين .

قال الآلوسى : قوله : « والنهار إذا جلاها » أى : جلى النهار الشمس ، أى : أظهرها ، فإنها تنجلى وتظهر إذا انبسط النهار ، ومضى منه مدة ، فالإسناد مجازى كالإسناد فى نحو صام نهاره .

وقيل : الضمير المنصوب يعود إلى الأرض ، وقيل : إلى الدنيا ، والمراد

---

(١) تفسير جزء « عم » ص ٢١١ لفضيلة الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد .
(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ٣٠ ص ٣٦٧ .

بأوجه الأرض ، وقيل : إلى الظلمة ، وجلاها حينئذ بمعنى أزالها ، وعدم ذكر المرجع على هذه الأقوال للعلم به . .

والأول أولى ، لذكر المرجع واتساق الضمائر . . »(١) .

وقوله - سبحانه - : « والليل إذا يغشاها » أى : يغشى الليل الشمس فيغطى ضوءها ، فالضمير فى يغشاها يعود إلى الشمس .

وقيل : يعود إلى الدنيا ، وقيل إلى الأرض أى : يغشى الليل الدنيا والأرض بظلامه

والحق أن فى قوله - تعالى - « جلاها » و « يغشاها » ، إشارة واضحة إلى أن الضمير فيهما يعود إلى الشمس ، إذ النهار يجلى الشمس ويكشفها أتم انكشاف ، والليل يزيل ضوءها ويستره ، فنسب - سبحانه - إلى النهار ما يلائمه بالنسبة للشمس ، وكذلك الحال بالنسبة لليل .

ثم قال - تعالى - : « والسماء وما بناها » أى : وحق السماء وحق من بناها وأنشأها وأوجدها على تلك الصورة البديعة الرائعة .

فما هنا اسم موصول بمعنى من ، والمراد بمن بناها : الله - عز وجل - وأوثرت على من التى تأتى للعاقل كثيرا ، لإشعارها معنى الوصفية . أى : وحق السماء حق القادر العظيم الذى بناها وأوجدها على هذه الهيئة الجميلة الدقيقة . . .

وقد أشار إلى ذلك صاحب الكشاف فقال : والوجه أن تكون « ما » موصولة - أى : فى هذه الآية وما بعدها - ، وإنما أوثرت على من لإرادة معنى الوصفية ، كأنه قيل : والسماء ، والقادر العظيم الذى بناها . »(٢) .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٤١

(٢) « الكشاف جـ ٤ ص ٧٥٩

ومنهم من يرى أن « ما » هنا مصدرية ، فيكون المعنى ، وحق السماء وبنيانها . . .

وقوله - تعالى - : « والأرض وما طحاها » أى : وحق الأرض ومن بسطها من كل جانب ، وجعلها مهيأة للاستقرار عليها . يقال : طحى فلان الشيء ودحاه إذا بسطه ووسعه . .

وقوله - سبحانه - : « ونفس وما سواها » أى : وحق النفوس ، وحق من أنشأها من العدم فى أحسن تقويم ، وجعلها مستعدة لتلقى ما يكملها ويصلحها .

ويبدو أن المراد بالنفس هنا ذات الإنسان ، من باب إطلاق الحال على المحل ، ويكون المراد بتسويتها : استواء خلقة الإنسان ، وتركيب أعضائه فى أجمل صورة .

ومن قال بأن المراد بالنفس هنا : القوة المدبرة للإنسان ، يكون المقصود بتسويتها ، منحها القوى الكثيرة المتنوعة ، التى توصلها إلى حسن المعرفة ، والتمييز بين الخير والشر ، والنفع والضر ، والهدى والضلال .

وقوله : - تعالى - بعد ذلك « فألهمها فجورها وتقواها » يشير إلى أن المراد بالنفس فى قوله - تعالى - « ونفس وما سواها » : القوة المدبرة للإنسان ، والتى عن طريقها يدرك الأمور إدراكا واضحاً ، ويختار منها ما يناسب استعداده .

والإلهام : هو التعريف والإفهام للشيء ، أو التمكين من فعله أو تركه. والفجور : فعل ما يؤدى إلى الخسران والشقاء . والتقوى : هى الإتيان بالأقوال والأفعال التى ترضى الله - تعالى - ، وتصون الإنسان عن غضبه - عز وجل - .

أى : فعرف - سبحانه - النفس الإنسانية وألهمها وأفهمها معنى

الفجور والتقوى ، وبين لها حالهما ، ووضح لها ما ينبغى أن تفعله وما ينبغى أن تتركه ، من خير أو شر ، ومن طاعته أو معصيته ، بحيث يتميز عندها الرشد من الغى ، والخبيث من الطيب .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله — تعالى — : « وهديناه النجدين » وقوله — عز وجل — : « إنا هديناه السبيل . إما شاكرا وإما كفورا » .

وقدم — سبحانه — هنا الفجور على التقوى ، مراعاة لأحوال المخاطبين بهذه السورة ، وهم كفار قريش ، الذين كانت أعمالهم قائمة على الفجور والخسران ، بسبب إعراضهم عما جاءهم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من حق وبر .

وقوله — سبحانه — : « قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » يصح أن يكون جواباً للقسم والفلاح : الظفر بالمطلوب والتزكية : التزود من الخير والطاعة ، والحرص على تطهير النفس من كل سوء . وقوله : « دساها » أى : نقصها وأخفاها بالمعاصى والإثام . وأصل فعل دسى : دسس . فلما اجتمع ثلاث سينات ، قلبت الثالثة ياء . يقال : دس فلان الشيء إذا أخفاه وكتمه .

والمعنى : وحق الشمس وضحاها ، وحق القمر إذا تلاها . . . وحق النفس وحق من سواها ، وجعلها متمكنة من معرفة الخير والشر . . لقد أفلح وفاز وظفر بالمطلوب ، ونجا من المكروه ، من طهر نفسه من الذنوب والمعاصى . . وقد خاب وخسر نفسه . وأوقعها فى التهلكة ، من نقصها وأخفاها وأخملها وحال بينها وبين فعل الخير ارتكاب الموبقات والشرور .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله — تعالى — : « قد أفلح من زكاها . » جواب القسم . وإليه ذهب الزجاج وغيره . والأصل : لقد أفلح . .

فحذفت اللام لطول الكلام المقتضى للتخفيف . وفاعل من «زكاها» ضمير «مَن» والضمير المنصوب للنفس . . » (١) .

ويرى المحققون من العلماء أن جواب القسم محذوف ، للعلم به ، فكأنه — سبحانه — قد قال : وحق الشمس وضحاها ، وحق القمر إذا تلاها . . ليعقن البعث والحساب والجزاء ، أو لتحاسبن على أعمالكم . . ودليل هذا الجواب قوله - تعالى - بعد ذلك : «كذبت ثمود بطغواها» لأن هذه الآية الكريمة وما بعدها ، تدل على أن الله - تعالى - قد اقتضت سنته ، أن يحاسب من فسق عن أمره ، وأصر على تكذيب رسله . . .

وعلى هذا سار صاحب الكشاف ، فقد قال : فإن قلت : فأين جواب القسم ؟ قلت : هو محذوف ، تقديره : ليدمدمن الله عليهم ، أى : على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله — ﷺ — ، كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحا — عليه السلام — ، وأما قوله : «قد أفلح من زكاها» فكلام تابع لقوله : «فألهمها فجورها وتقواها» على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم فى شىء» (٢) .

وقد أقسم الله — تعالى — بهذه الكائنات المختلفة ، والتى لها مالها من المنافع بالنسبة للإنسان وغيره ، لتأكيد وحدانية ، وكمال قدرته ، وبليغ حكمته . .

وبدأ — سبحانه — بالشمس ، لأنها أعظم هذه الكائنات ، وللتنويه بشأن الإسلام ، وأن هديه كضياء الشمس ، الذى لا يترك للظلام أثرا .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات بعض الأحاديث ،

(١) تفسير الآلوسى حـ ٣٠ ص ١٤٣

(٢) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٧٦٠ .

منها مارواه الطبراني عن ابن عباس — رضى الله عنها — قال : كان رسول الله — ﷺ — إذا مر بهذه الآية : « ونفس وما سواها .

فألهمها فجورها وتقواها » ، وقف ثم قال : اللهم آت نفسي تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وخير من زكاها » .

وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : سمعت النبي — ﷺ — يقرأ « فألهمها فجورها وتقواها » ، قال : اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها »(١) .

وبعد هذا الحديث الطويل المؤكد بالقسم ، والدال على وحدانيته ، وبديع صنعه . أتبع ذلك ببيان ما حل بالمكذبين السابقين ، ليكون هذا البيان عبرة وعظة للمشركين المعاصرين للنبي — ﷺ — ، فقال — تعالى — : « كذبت ثمود بطغواها . إذا انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها » .

والمراد بثمود : تلك القبيلة التي أرسل الله — تعالى — إلى أهلها صالحا — عليه السلام — لكي يأمرهم بإخلاص العبادة لله وحده . ومفعول « كذبت » محذوف للعلم به .

والباء في قوله « بطغواها » للسببية ، والطغوى : اسم مصدر من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد المعتاد .

أي : كذبت قبيلة ثمود — نبيهم صالحا — عليه السلام — ، بسبب طغيانهم وإفراطهم في الجحود والتكبر والعناد .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٢٦ .

وقيل إن الباء للتعدية ، والطغوى : اسم للعذاب الذى نزل بهم ، والذى توعدهم به نبيهم .

أى : كذبت ثمود بعذابها ، الذى توعدهم رسولهم به ، إذا ما استمروا فى كفرهم وطغيانهم .

والظرف فى قوله - سبحانه - « إذ انبعث أشقاها » متعلق بقوله « طغواها » ، لأن وقت انبعاث أشقاهم لقتل الناقة ، هو أشد أوقات طغيانهم وفجورهم . .

وفعل « انبعث » مطاوع بعث ، تقول : بعثته فانبعث ، كما تقول : كسرته فانكسر .

ويصح أن يكون متعلقا بقوله « كذبت » .

وقوله « أشقاها » أى : أشقى تلك القبيلة ، وهو قدار - بزنة غراب - بن سالف ، الذى يضرب به المثل فى الشؤم ، فيقال : فلان أشأم من قدار .

أى : كذبت ثمود نبيها ، بسبب طغيانها ، وقت أن أسرع أشقى تلك القبيلة ، وهو قدار بن سالف ، لعقر الناقة التى نهاهم نبيهم عن مسها بسوء .

وعبر - سبحانه - بقوله : « انبعث » للإشعار بأنه قام مسرعا عندما أرسله قومه لقتل الناقة ، ولم يتردد فى ذلك لشدة كفره وجحوده .

وقوله - تعالى - : « فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها » أى : فقال لهم رسول الله - تعالى - إليهم .

وهو صالح - عليه السلام - على سبيل التحذير والإنذار : احذروا عقر ناقة الله - تعالى - ، واحذروا سقياها ، أى : الوقت المحدد لشرابها

فلا تمنعوها فيه من الشرب ، فإن لها يوما لا تشاركونها فيه الشرب ، وإن لكم يوما آخر هى لن تشارككم فيه .

وقد قال لهم صالح - عليه السلام - هذا الكلام ، عندما شعر بأنهم قد بيتوا النية على عقرها .

فالفاء فى قوله - تعالى - : « فقال لهم . . . » عاطفة على قوله « كذبت » لإفادة الترتيب والتعقيب . .

أى : قال لهم ذلك في أعقاب شعوره بتصميمهم على تكذيبه ، وعلى قتل الناقة .

ولفظ « ناقة » منصوب على التحذير ، والكلام على حذف مضاف - أى : احذروا عقر ناقة الله ، وأضيفت إلى لفظ الجلالة ، على سبيل التشريف لها ، لأنها قد جعلها - سبحانه - معجزة لنبيه صالح - عليه السلام - ودليلا على صدقه .

وقوله : « وسقياها » معطوف على ناقة الله ، وهو منصوب - أيضاً - على التحذير . أى : احذروا أن تقتلوا الناقة ، واحذروا أن تشاركوها فى اليوم الخاص بشربها ، فضلا عن أن تؤذوها .

وقوله - سبحانه - : « فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . . » بيان لموقفهم السيء من تحذير نبيهم لهم ، ولما أصابهم من عذاب مهلك بسبب هذا التكذيب .

وقوله : « فدمدم » - بزنة فعلل - ، بمعنى تضعيف العذاب وترديده . يقال : دمدمت على الشيء ، أى : أطبقت عليه ؛ ودمدم عليه القبر ، أى : أطبقه عليه .

أى : فكذب قوم صالح نبيهم ، وأصروا على هذا التكذيب ، وتجاوزوا ذلك إلى عقر الناقة التى نهاهم عن مسها بسوء . . فكانت نتيجة ذلك ، أن

أهلكهم الله - تعالى - وأن أخذهم أخذ عزيز مقتدر، فقد أطبق عليهم الأرض، وسواها من فوقهم جميعاً دون أن يفلت منهم أحد، وصاروا كلهم تحت ترابها، ونجى - سبحانه - صالحا ومن آمن معه، بفضله ورحمته.

والضمير في قوله - سبحانه - «ولا يخاف عقباها» يعود إلى الله - تعالى -، أي: ولا يخاف الله - تعالى - عاقبة ما فعله بهؤلاء الطغاة الأشقياء، لأن الذي يخاف إنما هو المخلوق.

أما الخالق لكل شيء، فإنه - تعالى - لا يخاف أحدا، لأنه لا يسأل عما يفعل، ولأنه - تعالى -، هو العادل في أحكامه. والضمير في عقباها، يعود إلى الفعلة أو إلى الدمدمة.

ومنهم من جعل الضمير في «يخاف» يعود إلى أشقاها، أي: أن هذا الشقي قد أسرع إلى عقر الناقة دون أن يخشى سوء عاقبة فعله، لطغيانه وجهله.

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعاً من عباده الصالحين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم؟

القاهرة - مدينة نصر

مساء الإثنين ١٦ من صفر سنة ١٤٠٧هـ

٢٠ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

تفسیر سورۃ

اللیل

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٢ تفسير سورة « الليل »

١ — سميت هذه السورة فى معظم المصاحف سورة «الليل» ، وفى بعض كتب التفسير سميت بسورة « والليل » ، وعنون لها الإمام البخارى بسورة « والليل إذا يغشى » ، وعدد آياتها إحدى وعشرون آية .

وجمهور العلماء على أنها مكية ، وقال بعضهم هى مدنية ، وقال آخرون ، بعضها مكى . وبعضها مدنى . والحق أن هذه السورة من السور المكية الخالصة . وكان نزولها بعد سورة « الأعلى » ، وقبل سورة «الفجر» ، فهى تعتبر السورة التاسعة فى النزول من بين السور المكية .

قال الإمام الشوكانى : وهى مكية عند الجمهور . . فعن ابن عباس قال : نزلت سورة « والليل إذا يغشى » بمكة . وأخرج ابن مردوية عن الزبير مثله . . .

وفى رواية عن ابن عباس أنه قال : إنى لأقول إن هذه السورة نزلت فى السماحة والبخل (١) .

٢ — وحقاً ما قاله ابن عباس — رضى الله عنهما — ، فإن السورة الكريمة ، قد احتوت على بيان شرف المؤمنين ، وفضائل أعمالهم ، ومذمة المشركين ، وسوء فعالهم ، وأنه — تعالى — قد أرسل رسوله للتذكير بالحق ولإنذار المخالفين عن أمره — تعالى — أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم . . . .

---

(١) راجع تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٤٥١ للشوكانى

قال – تعالى – :

بسم الله الرحمن الرحيم

والليل إذا يغشى (١) والنهار إذا تجلى (٢) وما خلق الذكر
والأنثى (٣) إن سعيكم لشتى (٤) فأما من أعطى واتقى (٥)
وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل
واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠)
وما يغني عنه ماله إذا تردى (١١) إن علينا للهدى (١٢) وإن
لنا للآخرة والأولى (١٣) فأنذرتكم نارا تلظى (١٤) لا يصلاها
إلا الأشقى (١٥) الذي كذب وتولى (١٦) وسيجنبها الأتقى (١٧)
الذي يؤتي ماله يتزكى (١٨) وما لأحد عنده من نعمة تجزى (١٩)
إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى (٢٠) ولسوف يرضى (٢١)

أقسم الله – سبحانه – فى افتتاح هذه السورة بثلاثة أشياء ، على أن أعمال الناس مختلفة .

أقسم – أولا – بالليل فقال : « والليل إذا يغشى » أى : وحق الليل إذا يغشى النهار ، فيغطى ضياءه ، ويذهب نوره ، ويتحول الكون معه من حالة إلى حالة ، إذ عند حلول الليل يسكن الخلق عن الحركة ، ويأوى كل إنسان أو حيوان إلى مأواه ، ويستقبلون النوم الذى فيه ما فيه من الراحة

لأبدانهم، كما قال - تعالى - : « وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا » .

وأقسم - ثانيا - بالنهار فقال : « والنهار إذا تجلى » أى : وحق النهار حين ينكشف ويظهر ، ويزيل الليل وظلمته ، ويخرج الناس معه ليباشروا أعمالهم المتنوعة .

وأقسم - ثالثاً - بقوله : « وما خلق الذكر والأنثى » و« ما » هنا يصح أن تكون موصولة ، بمعنى الذى ، فيكون - سبحانه - قد أقسم بذاته ، وجاء التعبير بما ، للدلالة على الوصفية ، ولقصد التفخيم .

فكأنه - تعالى - يقول : وحق الخالق العظيم ، الذى لا يعجزه شىء ، والذى خلق نوع الذكور ، ونوع الإناث من ماء واحد .

ويصح أن تكون « ما » هنا حرفاً مصدرياً ، فيكون المعنى : وحق خَلْق الذكر والأنثى ، وعليه يكون - سبحانه - قد أقسم بفعل من أفعاله التى تدل على كمال قدرته ، وبديع صنعته ، حيث أوجد الذكور والإناث من ماء واحد ، كما قال - سبحانه - : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى » ، وحيث وهب - سبحانه - الذكور لمن يشاء ، ووهب الإناث لمن يشاء . وجعل العقم لمن يشاء .

وقوله - تعالى - : « إن سعيكم لشتى » هو جواب القسم . وشتى جمع شتيت . مثل : جريح وجرحى . ومريض ومرضى . والشىء الشتيت . هو المتفرق المتناثر بعضه عن بعض ، من الشتات بمعنى الابتعاد والافتراق . .

والمعنى : وحق الليل إذا يغشى النهار فيستر ضياءه ، وحق النهار إذا تجلى وأسفر وأزال الليل وظلامه ، وحق الخالق العظيم القادر الذى أوجد الذكور والإناث . .

وحق كل ذلك ، إن أعمالكم ومساعيكم — أيها الناس — فى هذه الحياة ، لهى ألوان شتى ، وأنواع متفرقة ، منها الهدى ومنها الضلال ، ومنها الخير ، ومنها الشر ، ومنها الطاعة ، ومنها المعصية . . . وسيجازى — سبحانه — كل إنسان على حسب عمله .

وحذف مفعول « يغشى » ، للتعميم ، أى يغشى كل شىء ويواريه بظلامه . .

وأسند — سبحانه — التجلى إلى النهار ، على سبيل المدح له بالاستنارة والإسفار .

والمراد بالسعى : العمل . وقوله «سعيكم» مصدر مضاف فيفيد العموم فهو فى معنى الجمع ، أى : إن مساعيكم لمتفرقة .

قال القرطبى : السعى : العمل ، فساع فى فكاك نفسه ، وساع فى عطبها يدل عليه قوله — صلى الله عليه وسلم — : « الناس غاديان ، فمبتاع نفسه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها »(١) .

ثم فصل — سبحانه — ما أجمله فى قوله : «إن سعيكم لشتى» فقال : «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى . وما يغنى عنه ماله إذا تردى . . . .» والحسنى تأنيث الأحسن ، وهو صفة لموصوف محذوف :

أى : فأما من أعطى حق الله — تعالى — ، بأن أنفق من ماله فى وجوه الخير ، كإعتاق الرقاب ، ومساعدة المحتاجين . . واتقى المحارم والمعاصى «وصدق بالحسنى» أى : وأيقن بالخصلة الحسنى ، وهى الإيمان بكل ما يجب الإيمان به ، أو أيقن بالملة الحسنى ، وهى ملة الإسلام ، أو بالمثوبة الحسنى وهى الجنة .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ٨٢

« فسنيسره لليسرى » أي : فسنهيئه للخصلة التي توصله إلى اليسر والراحة وصلاح البال ، بأن نوفقه لأداء الأعمال الصالحة التي تؤدي إلى السعادة . .

وحذف مفعول « أعطى واتقى » للعلم بهما . أي : أعطى ما كلفه الله — تعالى — به ، واتقى محارمه .

« وأما من بخل » بماله فلم يؤد حقوق الله — تعالى فيه ، ولم يبذل شيئا منه في وجوه البر . .

« واستغنى » أي : واستغنى عن ثواب الله — تعالى — ، وتطاول على الناس بماله وجاهه ، وآثر متع الدنيا على نعيم الآخرة . . « وكذب بالحسنى » أي : وكذب بالخصلة الحسنى التي تشمل الإيمان بالحق ، وبيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء .

« فسنيسره للعسرى » أي : فسنهيئه للخصلة التي توصله إلى العسر والمشقة والشدة ، بأن نجعله بسبب سوء اختياره ، يؤثر الغي على الرشد ، والباطل على الحق ، والبخل على السخاء فتكون عاقبته فرطاً ، ونهايته الخسران والبوار .

والمتأمل في هذه الآيات الكريمة يراها ، قد وصفت المؤمنين الصادقين بثلاث صفات هي جماع كل خير ، وأساس جميع الفضائل . . وصفهم بالسخاء ، وبالخوف من الله — تعالى — ، وبالتصديق بكل ما يجب التصديق به ، ورتب على ذلك توفيقهم للخصلة الحسنى ، التي تنتهي بهم إلى الفوز والسعادة .

ووصف — أيضاً — أهل الفسوق والفجور بثلاث صفات ، هي أساس البلاء ، ومنبع الفساد ، ألا وهي البخل ، والغرور ، والتكذيب بكل ما يجب الإيمان به . . ورتب — سبحانه — على ذلك تهيئتهم للخصلة

العسرى ، التى توصلهم إلى ســوء المصير ، وشديد العقاب . . . .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات ، جملة من الأحاديث الشريفة ، فقال ما ملخصه : قوله : « وكذب بالحسنى » أى : بالجزاء فى الدار الآخرة « فسنيسره للعسرى » أى : لطريق الشر ، كما قال — تعالى — : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » ، والآيات فى هذا المعنى كثيرة ، ودالة على أن الله — يجازى من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان ، وكل ذلك بقدر مقدر ، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة .

منها : ما أخرجه البخارى عن على بن أبى طالب — رضى الله عنه — قال : كنا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى بقيع الغرقد فى جنازة ، فقال : ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ، ومقعده من النار ، فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكل ؟ فقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له . ثم قرأ : « فأما من أعطى واتقى . . . إلى قوله : «للعسرى» » .

و « ما » فى قوله — سبحانه — : « وما يغنى عنه ماله إذا تردى » يجوز أن تكون نافية .

والتردى : السقوط من أعلى إلى أسفل . يقال : تردى فلان من فوق الجبل ، إذا سقط من أعلاه إلى أسفله . والمراد هنا : النزول إلى القبر بعد الموت ، أو السقوط فى النار بسبب الكفر والفسوق والعصيان ، من الردى بمعنى الهلاك .

أى : ولا يغنى شيئا عن هذا الشقى الذى بخل واستغنى وكذب بالحسنى ماله وجاهه وكل ما كان يملكه فى الدنيا ، إذا سقط يوم القيامة فى النار .

ويجوز أن تكون استفهامية ، ويكون الاستفهام المقصود به الانكار والتوبيخ ، أى : وماذا يغنى عن هذا الشقى ماله بعد هلاكه ، وبعد ترديه

فى جهنم يوم القيامة ؟ إنه لن يغنى عنه شيئا ماله الذى بخل به فى الدنيا ، بل سيهوى فى جهنم دون أن يشفع له شافع ، أو ينصره ناصر . وصدق الله إذ يقول : « ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » .

وإذ يقول : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة . وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم . . . » (١) .

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك ، أنه قد أعذر إلى عباده ، حيث وضح لهم طريق الخير وطريق الشر ، وكشف لهم عن حسن عاقبة من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، وسوء عاقبة من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فقال — تعالى — : « إن علينا للهدى . وإن لنا للآخرة والأولى » .

أى : إن علينا — بمقتضى حكمتنا ورحمتنا بعبادنا — أن نبين لهم طريق الحق ، وطريق الباطل ، بواسطة رسلنا ، فمن شاء الله بعد ذلك فليؤمن فينال الثواب ، ومن شاء بعد ذلك فليكفر فيحل به العقاب ، لأننا فجازى كل إنسان على حسب عمله ، بعد أن هديناه النجدين ، وأرشدناه إلى سبيل الرشد وسبيل الغى .

وإن لنا وحدنا كل ما فى الدنيا ، وكل ما فى الآخرة ، إذ الخلق والأمر بيدنا ، والعطاء والمنع لا يملكه أحد سوانا ، وهذا الكون كله تحت تصرفنا وقدرتنا .

والفاء فى قوله — سبحانه — : « فأنذرتكم نارا تلظى » للإفصاح عن مقدر ، لأنها تدل على مراعاة مضمون الكلام الذى قبلها ، وتأتى بعده بما يفصله ويزيده وضوحاً . .

وقوله : « تلظى » أى : تتوقد وتتوهج وتلتهب ، وأصله تتلظى فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٤٠ .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم ، من حسن عاقبة من أعطى واتقى ومن سوء عاقبة من بخـــل واستغنى ، ومن أن كل شىء تحت قدرتنا وتصرفنا . . . فأكون بذلك قد حذرتـكم من عذاب عظيم يوم القيامة ، وخوفتـكم من السقوط فى نار عظيمة تتلهب وتتوقد ، وهـــذه النار « لا يصلاها » أى : لا يحترق بها « إلا الأشقى » أى : إلا من اشتد شقاؤه بسبب إصراره على كفره وفجوره .

وقوله — تعالى — : « الذى كذب وتولى » صفة لهذا الشقى ، لزيادة التشنيع عليه ، والذم له . أى : سيحترق بهذه النار هذا الإنسان الذى بلغ الغاية فى الشقاء والتعاسة ، والذى من صفاته أنه كذب بالحق ، وأعرض عن الطاعـة ، وسار فى طريق الـكفر والجحود ، حتى أدركه الموت ، وهو على ذلك .

وكعادة القرآن الـكريم فى المقابلة بين الأشرار والأخيار ، وبين السعداء والأشقياء ، جاء الحـــديث بعد ذلك عن حال الأتقياء ، فقال — تعالى — « وسيجنبها الأتقى » أى : وسيبتعد عن هذه النار المتأججة الأتقى ، وهو من بالغ فى صيانة نفسه عن كل ما يغضب الله — تعالى — ، وحرص كل الحرص على فعل ما يرضيه — عز وجل — .

فالمراد بالأشقى والأتقى : الشديد الشقاء ، والشديد التقوى . .

والتعبير بقوله : « وسيجنبها » يشعر بابتعاده عنها ابتعادا تاماً ، بحيث تـكون النار فى جانب ، وهذا الأتقى فى جانب آخر ، كما قال - تعالى - : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها ، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون » .

والفعل « جنب » يتعدى إلى مفعولين ، أولهما هنا هو لفظ الأتقى الذى ارتفع على أنه نائب فاعل . والمفعول الثانى هو الهاء .

ثم وصف ــ سبحانه ــ هذا الإنسان المبالغ فى تقواه وطاعته لربه فقال : « الذى يؤتى ماله يتزكى » أى : هذا الإنسان الشديد التقوى من صفاته أنه يقدم ماله لغيره ، وينفقه فى وجوه البر والطاعة ، رجاء أن يكون عند ربه زاكياً نامياً ، خالياً من شبهة الرياء والتفاخر ، وأملا فى أن يتطهر به من الذنوب .

فقوله « يتزكى » فى محل نصب على الحال من فاعل « يؤتى » أى : يؤتى ماله حال كونه لا يطلب من وراء ذلك إلا تزكية ماله ، وتطهير نفسه .

وقوله ــ سبحانه ــ : « وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . . » بيان لبلوغه أسمى درجات الإخلاص والنقاء . .

أى : أن هذا الإنسان الكامل فى تقاه لا يفعل ما يفعل من وجوه الخيرات ، من أجل المجازاة لغيره على نعمة سلفت من هذا الغير له ، وإنما يفعل ما يفعل من أجل شىء واحد ؛ وهو طلب رضا الله ــ تعالى ــ ، والظفر بثوابه ، والإخلاص لعبادته ــ سبحانه ــ .

قال الآلوسى : وقوله : « إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى » منصوب على الاستثناء المنقطع من قوله : « من نعمة » ، لأن الابتغاء لا يندرج فيها ، فالمعنى : لكنه فعل ذلك لابتغاء وجه ربه ــ سبحانه ــ ، وطلب رضاه ، لا لمكافأة لأحد على نعمة . .

وجوز أن يكون نصبه على أنه مفعول لأجله ، أى : لا يؤتى ماله لأجل شىء من الأشياء ، إلا لأجل طلب رضا ربه ، لا لأجل شىء آخر ، فهو استثناء مفرغ من أعم العلل والأسباب . . » (١) .

وقوله ــ سبحانه ــ : « ولسوف يرضى » المقصود به الوعد الصادق لهذا التقى ؛ بما يزيد فى سروره ، وفى قرة عينه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٤٢

أى : ولسوف نعطى هذا التقى الذى أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، من أجل الظفر برضا ربه — تعالى — ، لا من أجل شيء آخر . . . . لسوف نعطيه عطاء يرضيه ويسعده ويشرح صدره .

هذا ، وأكثر المفسرين على أن هذه الآيات الكريمة نزلت فى شأن سيدنا أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — .

قال الإمام ابن جرير ما ملخصه : وذكر أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق . . . فقد كان يعتق العجائز من النساء إذا أسلمن ، ويشترى الضعفة من العبيد فيعتقهم ، فقال له أبوه : يا بنى ، أراك تعتق أناساً ضعفاء ، فلو أنك تعتق رجالا جلداء — أى : أشداء — يقومون معك ، ويمنعونك ، ويدفعون عنك .

فقال أبو بكر : أى أبت ، إنما أريد ما عند الله . فنزلت هذه الآيات ،(١) .

وقال الإمام ابن كثير : وقد ذكر غير واحد من المفسرين ، أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — ، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك . ولا شك أنه داخل فيها ، وأولى الأمة بعمومها ، فإن لفظها لفظ العموم ، وهو قوله : « وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتى ماله يتزكى . . . . » ولكنه مقدم الأمة ، وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف ، وسائر الأوصاف الحميدة

---

(١) تفسير ابن جرير حـ ٣٠ ص ١٤٢

فإن كان صديقاً ، تقياً ، كريماً ، جواداً ، بذالا لماله فى طاعة مولاه ، ونصرة رسوله — صلى الله عليه وسلم — ...» (١) .

نسأل الله — تعالى — أن يحشرنا جميعاً فى زمرة عباده الأتقياء الأنقياء .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة — مدينة نصر

صباح الأربعاء ١٨ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ

٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٤٤

تفسير سورة

الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٣ سورة « الضحى »

١ — سورة « الضحى » من السور المكية الخالصة ، بل هي من أوائل السور المكية ، فقد كان نزولها بعد سورة « الفجر » وقبل سورة « الانشراح » ، وتعتبر بالنسبة لترتيب النزول السورة الحادية عشر من بين السور المكية ، أما ترتيبها في المصحف فهي السورة الثالثة والتسعون . وعدد آياتها إحدى عشرة آية .

٢ — والقارىء لها ، يرى بوضوح أنها نزلت في فترة تأخر نزول الوحي فيها على النبي — صلى الله عليه وسلم — ، وأن المشركين قد أشاعوا الشائعات الكاذبة حول سبب تأخر الوحي ، فنزلت هذه السورة الكريمة ، لتخرس ألسنتهم ، ولتبشر النبي — صلى الله عليه وسلم — برضا ربه — تعالى — عنه ، ولتسوق جانباً من نعم خالقه عليه ، ولترشده — بل وترشد أمته في شخصه — بالمداومة على مكارم الأخلاق ، التي من مظاهرها : العطف على اليتيم ، والإحسان إلى السائل ، وعدم كتمان نعم الله - تعالى - .

قال - تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾
أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ
عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ
فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه السورة الكريمة روايات منها : ما أخرجه الإمام البخاري ومسلم وغيرهما عن جندب بن سفيان قال : اشتكى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتت امرأة - وفي رواية أنها أم جميل امرأة أبي لهب - فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك . فأنزل الله - تعالى - : « والضحى والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى . . . » .

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني وابن مردويه ، من حديث خولة ، وكانت تخدم النبي - صلى الله عليه وسلم - أن جروا دخل تحت سرير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فمات ، فمكث النبي - صلى الله عليه وسلم - أياماً لا ينزل عليه الوحي ، فقال - صلى الله عليه وسلم - يا خولة ماذا حدث في بيتي ، إن جبريل لا يأتيني . قالت خولة : فقلت يا نبي الله ما أتى علينا يوم خير منا اليوم . فأخذ برده فلبسه وخرج ، فقلت في نفسي

لو هيأت البيت وكنسته ، فأهويت بالمكنسة تحت السرير ، فإذا بشيء ثقيل ، فلم أزل به حتى بدا لى الجرو ميتاً ، فأخذته بيدى ، فألقيته خلف الدار ، فجاء - صلى الله عليه وسلم - ترعد لحيته - وكان إذا نزل عليه الوحى أخذته الرعدة - فقال يا خولة : دثرينى ؛ فأنزل الله - تعالى - هذه السورة . . .

وذكر بعضهم : أن جبريل - عليه السلام - أبطأ فى نزوله على النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فقال المشركون : قد قلاه ربه وودعه . فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات (١) .

والضحى : هو وقت ارتفاع الشمس بعد إشراقها ، وهو وقت النشاط والحركة ، والإقبال على السعى والعمل . . ولذا خص بالقسم به . وقيل : المراد بالضحى هنا : النهار كله ، بدليل أنه جعل فى مقابلة الليل كله .

والأولى أولى ، لأن الضحى يطلق على وقت انتشار ضياء الشمس حين ترتفع ، وتلقى بأشعتها على الكون ، ويبرز الناس لأعمالهم المتنوعة .

ومعنى «سجى» : سكن . يقال : سجا الليل يسجو سجوا ، إذا سكن وهدأ وأسدل ظلامه على الكون . ويقال : تسجى فلان بملابسه ، إذا غطى بها جميع جسده ، ومنه قولهم : سجى الميت تسجية ، إذا غطى بكفنه . . . .

قال صاحب الكشاف : قوله : « سجى » أى : سكن وركد ظلامه . وقيل : ليلة ساجية ، أى : ساكنة الريح : وقيل معناه : سكون الناس والأصوات فيه . وسجا البحر : سكنت أمواجه . وطرف ساج ، أى : ساكن فاتر » (٢) .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٥٦ ، وتفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٤٥

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٦٥

أى : وحق الضحى وهو الوقت الذى ترتفع فيه الشمس ، ويتم إشراقها ، ويأخذ الناس فى النشاط والحركة . . . . وحق الليل إذا سكن وهجع فيه الناس بعد عناء العمل . .

وجواب القسم قوله — تعالى — : « ما ودعك ربك وما قلا » أى : ما تركك ربك — أيها الرسول الكريم — منذ أن اختارك لحمل رسالته ، وما أبغضك ولا كرهك ، بل أنت محل رضانا ومحبتنا ورعايتنا . . .

فقوله : « ودعك » من التوديع ، وهو فى الأصل الدعاء للمسافر ، ببلوغ الدعة ، وخفض العيش . ثم استعير للمفارقة بعد الاتصال ، تشبيهاً بفراق المسافر فى انقطاع الصلة ، حيث شبه — سبحانه — انقطاع صلة الكلام بانقطاع صلة الإقامة .

والمقصود نفى أن يكون الله — تعالى — قد قطع وحيه عن نبيه — صلى الله عليه وسلم — .

وقوله : «قلا» من القِلاَ ـ بكسر القاف ـ وهو شدة البغض ، يقال : قلا فلان فلاناً يقليه ، إذا كرهه وأبغضه بشدة . ومنه قوله ـ تعالى ـ : إنى لعملكم من القالين » .

والمراد ما قطع الله ـ تعالى ـ عنك وحيه ـ أيها الرسول الكريم ـ ، وما كرهك ، وهذا رد بليغ على المشركين الذين زعم بعضهم أن الله ـ تعالى ـ قد ترك نبيه ، وزعم آخرون أنه قد أبغضه وحذف مفعول « قلا » للدلالة عليه فى قوله — تعالى — « ما ودعك » ، وهو إيجاز لفظى لظهور المحذوف ، ومثله قوله — تعالى — من ذلك : فآوى ، فهدى ، فأغنى . .

ثم بشره ـ سبحانه ـ ببشارتين عظيمتين ، قد بلغتا الدرجة العليا فى السمو والرفعة ، فقال : «والآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى » .

أى : وللدار الآخرة وما أعده الله لك فيها من نعيم لا يحيط به وصف خير لك من دار الدنيا التى أعطيناك فيها ما أعطيناك من نبوة ، وكرامة ، ومنازل عالية ، وخلق كريم . .

وفضلا عن كل ذلك فأنت ـ أيها الرسول الكريم ـ سوف يعطيك ربك من خيرى الدنيا والآخرة ، كل ما يسعدك ويرضيك ، من نصر عظيم ، وفتح مبين ، وتمكين فى الأرض ، وإعلاء لكلمة الحق على يدك وعلى أيدى أصحابك الصادقين ، ومنازل عظمى فى الآخرة لا يعلم مقدارها إلا الله ـ تعالى ـ ، كالمقام المحمود ، والشفاعة ، والوسيلة . . . . وبذلك ترضى رضاء تاماً بما أعطاك ـ سبحانه ـ من نعم ومنن . .

فالمراد بالآخرة : الدار الآخرة التى تقابل الدار الأولى ، وهى الحياة الدنيا ، وبعضهم جعل المراد بالآخرة : نهاية أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الدنيا ، والمراد بالأولى بداية أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الدنيا ، فيكون المعنى : ولنهاية أمرك ـ أيها الرسول الكريم ـ خير من بدايته ، فإن كل يوم يمضى من عمرك ، سيزيدك الله ـ تعالى ـ فيه ، عزا على عز ، ونصرا على نصر ، وتأييدا على تأييدك . . . . . حتى ترى الناس وقد دخلوا فى دين الله أفواجا . . . وقد صدق الله ـ تعالى ـ لنبيه وعده ، حيث فتح له مكة ، ونشر دعوته فى مشارق الأرض ومغاربها .

قال الآلوسى : وحمل الآخرة على الدار الآخرة المقابلة للدنيا ، والأولى على الدار الأولى وهى الدنيا ، هو الظاهر . . وقال بعضهم : يحتمل أن يراد بهما نهاية أمره ـ ﷺ ـ وبدايته ، فاللام فيهما للعهد ، أو عوض عن المضاف إليه . أى : لنهاية أمرك خير من بدايته ، فأنت لا تزال تتزايد قوة ، وتتصاعد رفعة . . . »(١) .

(١) تفسير الآلوسى ج ٣٠ ص ١٥٨ .

وجيء بحرف الاستقبال في قوله - تعالى - : «ولسوف يعطيك ربك فترضى» ، لإفادة أن هذا العطاء مستمر غير مقطوع ، كما في قوله - تعالى - : «ولسوف يرضى» .

وحذف المفعول الثاني في قوله : «يعطيك» ، ليعم كل وجوه العطاء التي يحبها - صلى الله عليه وسلم - أي : ولسوف يعطيك ربك عطاء يرضيك رضاء تاما .

والتعبير بقوله «فترضى» المشتمل على فاء التعقيب ، للإشعار بأنه عطاء عاجل النفع ، وأنه سيأتي إليه - صلى الله عليه وسلم - في وقت قريب وقد أنجز - سبحانه - وعده . .

قال الجمل : وقوله - سبحانه - : «وللآخرة» اللام فيه للابتداء ، مؤكدة لمضمون الجملة . وإنما قيد بقوله - تعالى - «لك» ، لأنها ليست خيرا لكل أحد . .

وقوله : «ولسوف يعطيك . . .» هذا وعد شامل لما أعطاه الله - تعالى - له من كمال النفس ، وظهور الأمر ، وإعلاء الدين . . واللام لام الابتداء ، والمبتدأ محذوف ، أي : ولأنت سوف يعطيك ربك . . وليست لام القسم ، لأنها لا تدخل على المضارع ، إلا مع نون التوكيد . .»(١) .

ثم عدد - سبحانه - نعمه على نبيه - ﷺ - فقال : «ألم يجدك يتيما فآوى» .

والاستفهام هنا للتقرير . واليتيم : هو من فقد أباه وهو صغير . .

أي : لقد كنت - أيها الرسول الكريم - يتيما ، حيث مات أبوك وأنت في بطن أمك ، فآواك الله - تعالى - بفضله وكرمه ، وتعهدك

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٥٥١ .

برعايته وحمايته وعصمته، وسخر لك جدك عبد المطلب ليقوم بكفالتك، ومن بعده سخر لك عمك أباطالب، حيث تولى رعايتك والدفاع عنك قبل الرسالة وبعدها، إلى أن مات . .

وقوله - تعالى -: «ووجدك ضالا فهدى» بيان لنعمة أخرى أنعم - سبحانه - بها على نبيه - صلى الله عليه وسلم - وللمفسرين فى معنى هذه الآية كلاما طويلا، نختار منه قولين: أولهما: أن المراد بالضلال هنا الحيرة فى الوصول إلى الحق، والغفلة عما أوحاه الله - تعالى - إليه بعد ذلك من قرآن كريم، ومن تشريعات حكيمة . . مع اعتقاده - صلى الله عليه وسلم - قبل النبوة أن قومه ليسوا على الدين الحق، بدليل أنه لم يشاركهم فى عباداتهم للأصنام، ولا فى السلوك الذى يتنافى عن مكارم الأخلاق . .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: «ضالا» معناه: الضلال عن علم الشرائع، وما طريقه السمع . .»(١).

وقال الإمام الشيخ محمد عبده - رحمه الله - : عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: «نشأ - ﷺ - موحدا، لم يسجد لصنم، وطاهر الخلق، لم يرتكب فاحشة، حتى عرف بين قومه بالصادق الأمين، فضلال الشرك، وضلال الهوى فى العمل، كانا بعيدين عن ذاته الكريمة . .

ولكن للضلال أنواع أخر، منها: اشتباه المآخذ على النفس، حتى تأخذها الحيرة فيما ينبغى أن تختار . . وهذا هو الذى عناه الله - تعالى - بالضلال فى هذه الآية الكريمة . .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ص ٧٦٨ .

وقد هداه — سبحانه — إلى الحق بعد هذه الحيرة ، بأن اختار له دينا قويما ، وعلمه كيف يرشد قومه . .

هذا هو معنى قوله — تعالى — : « ووجدك ضالا فهدى » ، وهو معنى قوله - تعالى - فى سورة الشورى : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان . . . » .

وليس فى وصف النبى — ﷺ — بالضال على هذا المعنى شين له ، أو حط من شأنه ، بل هذا فخره ، وإكليل مجده — ﷺ — ، حيث كان على غير علم فعلمه الله ، ولم يكن مطلعا على الغيب ، فأطلعه الله على ما يريد إطلاعه عليه ، وبهذا التفسير تستغنى عن خلط المفسرين فى التأويل »(١) .

أما القول الثانى فى معنى الآية الكريمة ، فهو أنه - صلى الله عليه وسلم - كان بين قوم مشركين ، وكان بمعرضة أن يضل معهم ، ولكن الله - تعالى - حبب إليه الانفراد عنهم ، واعتزال شركهم وسوء أخلاقهم . . فكان بذلك كالشجرة المنفردة فى الصحراء ، والعرب تسمى الشجرة التى بهذه الصفة ضالة .

قال القرطبى : قوله — تعالى — : « ووجدك ضالا فهدى » ، أى : غافلا عما يراد بك من أمر النبوة ، فهداك ، أى : أرشدك . والضلال هنا بمعنى الغفلة . .

وقال قوم : « ضالا » أى : لم تكن تدرى القرآن والشرائع ، فهداك الله إليهما . .

وقال قوم « ضالا » أى : وجدك فى قوم ضلال فهداهم الله - تعالى - بك . . والعرب إذا وجدت شجرة منفردة فى فلاة من الأرض ، لا شجر معها ، سموها ضالة ، فيهتدى بها إلى الطريق .

---

(١) راجع تفسير جزء عم ص ٨٥ .

فقال - سبحانه - لنبيه « ووجدك ضالا فهدى » أي : لا أحد على دينك ، وأنت وحيد ليس معك أحد ، فهديت بك الخلق إلى ديني .» (١)

هذان هما القولان اللذان نرتاح إليهما ، وارتياحنا إلى أولهما أشد وأقوى ، لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد نشأ في بيئة منحرفة في عقائدها وأخلاقها ، لم تطمئن نفسه الكريمة إليها ، إلا أنه كان حائرا في الوصول إلى الدين الحق ، فهداه الله - تعالى - إليه ، والهداية إلى الحق بعد الحيرة والضلال عنه . . . منة عظمى ، ونعمة كبرى . .

وهناك أقوال أخرى ضعيفة كقولهم : « ضالا » أي : عن القبلة فهداك الله إليها . أو «ضالا» في شعاب مكة . فهداك الله وردك إلى عمك . . أو « ضالا » في سفرك مع عمك إلى الشام . فردك الله - تعالى - إليه . .

وقوله - سبحانه - : « ووجدك عائلا فأغنى » بيان لنعمة ثالثة من نعمه - تعالى - على نبيه - ﷺ - .

وأصل العائل : الإنسان الذي له عائلة لا يستطيع الإنفاق عليها ، ثم أطلق هذا اللفظ على الإنسان الفقير حتى ولو لم تكن له عائلة أو أسرة . والفقر يسمى عيلة ، كما في قوله - تعالى - : « وإن خفتم عيلة - أي : فقرا - فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء . . » .

أي : وقد كنت - أيها الرسول الكريم - فقيرا ، حيث مات أبوك دون أن يترك لك مالا كثيراً ، ونشأت في كنف جدك ثم عمك ، وأنت على هذه الحال . . ثم أغناك الله - تعالى - بفضله وكرمه بنوعين من الغنى .

أما أولهما - وهو الأعظم - : فهو غنى النفس ، بأن منحك نفسا عفيفة قانعة بما أعطاك - سبحانه - من رزق ، حتى ولو كان كفافا .

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ٢٠ ص ٩٦

وأما ثانيهما : فهو الغنى المادى عن الاحتياج إلى الناس ، بما أجراه على يديك من الربح فى التجارة ، وبما وهبتك زوجك خديجة من مالها ، فعشت مستور الحال ، غير محتاج إلى من ينفق عليك .

وهكذا نجد الآيات الكريمة تبين لنا ، أن من فضل الله — تعالى — على نبيه — ﷺ — ، أنه آواه فى يتمه وصغره ، وهداه من ضلاله وحيرته ، وأغناه بعد فقره وحاجته .

وبعد أن عدد — سبحانه — هذه النعم لنبيه — ﷺ — ، أمره بشكرها ، وأداء حقوقها .

فقال — تعالى — : « فأما اليتيم فلا تقهر . . » والقهر : التغلب على الغير والإذلال له . .

أى : إذا كان الأمر كما أخبرتك من أنك كنت يتيما فآويناك ، وكنت ضالا فهديناك ، وكنت فقيرا فأغنيناك ، فتذكر هذه النعم ، واشكر ربك عليها ، ومن مظاهر هذا الشكر : أن تواسى اليتيم ، وأن تكرمه ، وأن تكون رفيقا به . . ولا تكن كأهل الجاهلية الذين كانوا يقهرون الأيتام ويذلونهم ويظلمونهم . .

ولقد استجاب النبى — ﷺ — لما أمره ربه به ، فأكرم اليتامى ورعاهم ، وحض على ذلك فى أحاديث كثيرة منها قوله — صلى الله عليه وسلم — : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » وأشار — صلى الله عليه وسلم — بأصبعيه السبابة والوسطى .

ومن الآيات القرآنية التى وردت فى هذا المعنى قوله — تعالى — : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده . . . » .

وقد تكرر الأمر برعاية اليتيم ، وبالمحافظة على ماله فى مطلع سورة النساء خمس مرات قال — تعالى — : « وآتوا اليتامى أموالهم . . » وقال

ـ سبحانه ـ : « وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، مثنى وثلاث ورباع . . » وقال ـ عز وجل ـ : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح . . » وقال ـ سبحانه ـ : « وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه واكسوهم . . » وقال ـ تعالى ـ : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا . . » .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وأما السائل فلا تنهر » معطوف على ما قبله . أى : وكما أننا قد هديناك بعد حيرة . . فاشكر نعمنا على ذلك ، بأن تفتح صدرك للسائل الذى يسألك العون ، أو يسألك معرفة ما يجهله من علم .

فالمراد بالسائل ، ما يشمل كل سائل عن مال ، أو عن علم ، أو عن غير ذلك من شئون الحياة .

قال القرطبى قوله : « وأما السائل فلا تنهر » أى : لا تزجره ، فهو نهى عن إغلاظ القول . .

وروى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « ردوا السائل ببذل يسير ، أورد جميل . . » .

وفى حديث أبى هارون العبدى قال : كنا إذا أتينا أبا سعيد الخدرى يقول : مرحبا بوصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، إن رسول الله قال : إن الناس لكم تبع ، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون ، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا . . »(١) .

وقوله ـ تعالى ـ : « وأما بنعمة ربك فحدث » والتحديث بالشىء : الإخبار به ، والحديث عنه أى : وكما كنت عائلا فأغنيناك بفضلنا وإحساننا فاشكرنا على ذلك ، بأن تظهر نعمنا عليك ولا تسترها ، وأذعها بين الناس

(١) تفسير القرطبى حـ ٢٠ ص ١٠١

وأمر أتباعك أن يفعلوا ذلك، ولكن بدون تفاخر أو مباهاة . . فإن ذكر النعم على سبيل الرياء والتفاخر والتطاول على الغير . . يبغضه الله - تعالى - ، ويعاقب صاحبه عقاباً أليما .

قال الإمام ابن كثير : وقوله : « وأما بنعمة ربك فحدث » أى : وكما كنت عائلا فقيرا فأغناك الله ، فحدث بنعمة الله عليك ، كما جاء فى الدعاء : « واجعلنا شاكرين لنعمتك . مثنين بها ، قابليها ، وأتمها علينا » .

وعن أبى نضرة قال : « كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها » .

وعن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول على المنبر : « من لم يشكر القليل ، لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب »(١) .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد ذكر ثلاث نعم مما أنعم به على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، وأرشده إلى كيفية شكرها .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده الشاكرين ؟

القاهرة - مدينة نصر
صباح الجمعة ٢٠ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ
٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٤٩ .

(تفسير سورة)

الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٤ سورة « الشرح »

١ ــ هذه السورة الكريمة من السور المكية . وتسمى : سورة « الشرح » ، وسورة « ألم نشرح » ، وسورة « الانشراح » ، وترتيبها فى النزول ، الثانية عشرة ، وكان نزولها بعد سورة الضحى ، وقبل سورة « العصر » . وعدد آياتها : ثمان آيات .

٢ ــ وكما عدد الله ــ تعالى ــ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعض نعمه العظيمة عليه فى سورة الضحى ، جاءت سورة الشرح ، لتسوق نعما أخرى منه ــ تعالى ــ عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، حاثا إياه على شكره ، ليزيده منها ، فقال ــ تعالى ــ :

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

والاستفهام فى قوله ــ سبحانه ــ : « ألم نشرح لك صدرك » للتقرير لأنه إذا دخل على النفى قرره ، وهذا التقرير المقصود به التذكير ، حتى يداوم على شكره ــ تعالى ــ .

وأصل الشرح : البسط للشيء وتوسعته ، يقال شرح فلان الشيء ، إذا وسعه ، ومنه شرح فلان الكتاب ، إذا وضحه ، وأزال مجمله ، وبسط ما فيه من غموض . .

والمراد بشرح الصدر هنا : توسعته وفتحه ، لقبول كل ما هو من الفضائل والكمالات النفسية . . . ولإذهاب كل ما يصد عن الإدراك السليم وعن الحق والخير والهدى . .

وهذا الشرح ، يشمل الشق البدنى لصدره — صلى الله عليه وسلم — كما يشمل الشرح المعنوى لصدره — صلى الله عليه وسلم — عن طريق إيداعه الإيمان والهدى والعلم والفضائل . .

قال الإمام ابن كثير : قوله : « ألم نشرح لك صدرك » يعنى : أما شرحنا لك صدرك . أى : نورناه وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً ، كقوله « أفمن شرح الله صدره للإسلام . . . » ، وقيل المراد بقوله : « ألم نشرح لك صدرك » شرح صدره ليلة الإسراء ، كما تقدم من رواية مالك ابن صعصعة . . . وهذا وإن كان واقعاً ، ولكن لا منافاة ، فإن من جملة شرح صدره — صلى الله عليه وسلم — ، الذى فعل بصدره ليلة الإسراء ؛ ما نشأ عنه من الشرح المعنوى — أيضاً — » (١) .

والمعنى : لقد شرحنا لك — أيها الرسول الكريم — صدرك شرحا عظيما ، بأن أمرنا ملائكتنا بشقه وإخراج ما فيه مما يتنافى مع ما هيأناك من حمل رسالتنا إلى الناس ، وبأن أودعنا فيه من الهدى والمعرفة والإيمان والفضائل والحكم . . ما لم نعطه لأحد سواك .

ونون العظمة فى قوله — سبحانه — « نشرح » تدل على عظمة النعمة ، من جهة أن المنعم العظيم ، إنما يمنح العظيم من النعم ، وفى ذلك

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٥١

إشارة إلى أن نعمة الشرح ، مما لا تصل العقول إلى كنه جلالتها . . .

واللام فى قوله — تعالى — : « لك » للتعليل ، وهو يفيد أن ما فعله الله - تعالى - به ؛ إنما هو من باب تكريمه ، ومن أجل تشريفه وتهيئته لحمل رسالته العظمى إلى خلقه ، فمنفعة هذا الشرح إنما تعود إليه وحده - صلى الله عليه وسلم - لا إلى غيره .

قال الإمام الرازى : فإن قيل لم ذكر الصدر ولم نذكر القلب ؟ فالجواب أن محل الوسوسة هى الصدر ، كما قال - تعالى - : «الذى يوسوس فى صدور الناس » ، فإزالة تلك الوسوسة ، وإبدالها بدواعى الخير ، هى الشرح ، فلا جرم خص ذلك الشرح بالصدر دون القلب .

قال محمد بن على الترمذى : القلب محل العقل والمعرفة ، وهو الذى يقصده الشيطان ، فالشيطان يجىء إلى الصدر الذى هو حصن القلب ، فإذا وجد مسلكا أغار فيه ، وبث فيه الهموم . . فيضيق القلب ، ولا يجد للطاعة لذة . . وإذا طرد العدو فى الابتداء ، حصل الأمن ، وانشرح الصدر»(١).

وقوله — سبحانه — : « ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك » بيان لنعمة أخرى من النعم التى أنعم بها - سبحانه - على نبيه - صلى الله عليه وسلم . .

والمراد بالوضع هنا : الإزالة والحط ، لأن هذا اللفظ إذا عدى بعن كان للحط والتخفيف ، وإذا عدى بعلى كان للحمل والتثقيل .

تقول : وضعت عن فلان قيده ، إذا أزلته عنه ، ووضعته عليه ، إذا حملته إياه .

والوزر : الحمل الثقيل : «وأنقض ظهرك» أى : أثقله وأوهنه وأتعبه

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٤٢٨

حتى سمع له نقيض ، وهو الصوت الخفى الذى يسمع من الرحل الـكائن فوق ظهر البعير ، إذا كان هذا الرجل ثقيلا ، ولا يكاد البعير يحمله إلا بمشقة وعسر .

والمعنى : لقد شرحنا لك ـ أيها الرسول الـكريم ـ صدرك ، وأزلنا عنك ما أثقل ظهرك من أعباء الرسالة ، وعصمناك من الذنوب والآثام ، وطهرناك من الأدناس . . فصرت ـ بفضلنا وإحساننا ـ جديرا بحمل هذه هذه الرسالة ، وبتبليغها على أكمل وجه وأتمه .

فالمراد بوضع وزره عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مغفرة ذنوبه ، وإلى هذا المعنى أشار الإمام ابن كثير بقوله : قوله ـ تعالى ـ : « ووضعنا عنك وزرك » بمعنى « ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

وقال غير واحد من السلف فى قوله : « الذى أنقض ظهرك » أى : « أثقلك حمله » (١) .

ويرى كثير من المفسرين أن المراد بوضع وزره عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إزالة العقبات التى وضعها المشركون فى طريق دعوته ، وإعانته على تبليغ الرسالة على أكمل وجه ، ورفع الحيرة التى كانت تعتريه قبل النبوة . . .

قال بعض العلماء : وقد ذكر جمهرة المفسرين أن المراد بالوزر فى هذه الآية : الذنب ، ثم راحوا يتأولون الـكلام ، ويتمحلون الأعذار ، ويختلفون فى جواز ارتكاب الأنبياء المعاصى ، وكل هذا كلام لا داعى إليه لا يلزم حمل الآية عليه .

والمراد ـ والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم ـ بالوزر : الحيرة التى

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٥٨

اعترته — صلى الله عليه وسلم — قبل البعثة حين فكر فيما علم قومه من عبادة الأوثان . . . وأيقن بثاقب فكره أن للكون خالقاً هو الجدير بالعبادة ، ثم تحير فى الطريق الذى يسلكه لعبادة هذا الخالق ، وما زال كذلك حتى أوحى الله إليه بالرسالة ، فزالت حيرته . . . ولما دعا قومه إلى عبادة الله ، وقابلوا دعوته بالإعراض . . . ثقل ذلك عليه ، وغاظه من قومه أن يكذبوه . . . وكان ذلك حملا ثقيلا . . . شق عليه القيام به.

فليس الوزر الذى كان ينقض ظهره ، ذنباً من الذنوب . . . ولكنه كان هما نفسياً يفرق ألمه ، ألم ذلك الثقل الحسى . . . فلما هداه الله - تعالى - إلى إنقاذ أمته من أوهامها الفاسدة . . كان ذلك بمثابة رفع الحمل الثقيل ، الذى كان ينوء بحمله ، لا جرم كانت هذه الآية واردة على سبيل التمثيل ، واقرأ إن شئت قوله — تعالى — : «ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون. فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (١) .

ويبدو لنا أن هذا القول الثانى ، هو الأقرب إلى الصواب ، لأن الكلام هنا ليس عند الذنوب التى ارتكبها النبى — صلى الله عليه وسلم — قبل البعثة — كما يرى بعض المفسرين — ، وإنما الكلام هنا عن النعم التى أنعم بها - سبحانه - عليه ، والتى من مظاهرها توفيقه للقيام بأعباء الرسالة ، وبإقناع كثير من الناس بأنه على الحق، واستجابتهم له - صلى الله عليه وسلم -

وقوله - سبحانه - : « ورفعنا لك ذكرك » بيان لنعمة ثالثة من نعمه - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - .

أى : لقد شرحنا لك - أيها الرسول الكريم - صدرك ، وأنزلنا عن قلبك الحيرة التى كانت تعتريك قبل تبليغ الرسالة وبعد تبليغها ، بأن يسرنا لك كل صعب .

---

(١) تفسير «جزء عم» ص ٢٤٢ للشيخ محيى الدين عبدالحميد - رحمه الله -

وفوق ذلك فقدر فعنا لك ذكرك ، بأن جعلناك رفيع الشأن ، سامى المنزلة ، عظيم القدر . . ومن مظاهر ذلك : أننا جعلنا اسمك مقرونا باسمنا فى النطق النطق بالشهادتين .

وفى الأذان ، وفى الإقامة ، وفى التشهد ، وفى غير ذلك من العبادات، وأننا فضلناك على جميع رسلنا ، بل على جميع الخلق على الإطلاق ، وأننا أعطيناك الشفاعة العظمى ، وجعلنا طاعتك من طاعتنا . .

قال الآلوسى : أخرج أبو يعلى ، وابن جرير . . عن أبى سعيد الخدرى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : أتانى جبريل فقال لى : إن ربك يقول : أتدرى كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله - تعالى - أعلم . قال : « إذا ذُكِرتُ ذُكِرتَ معى » .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه النعم الجليلة ، ما يدخل السرور على قلبه — صلى الله عليه وسلم — ، وما يبعث الأمل فى نفسه وفى نفوس أصحابه ، بأن بين لهم سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : « فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا » .

والفاء للإفصاح ، ومع بمعنى بعد ، وأل فى العسر لاستغراق أنواع العسر المعروفة للمخاطبين . من فقر ، وضعف ، وقلة فى الوسائل التى تؤدى إلى إدراك المطلوب . والجملة الثانية مؤكدة ومقررة للجملة الأولى. والتنكير فى قوله « يسرا » للتفخيم .

والمعنى : إذا تقرر عندك ما أخبرناك به ، من شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر . . فاعلم أنه ما من عسر إلا ويعقبه يسر ، وما من شدة إلا ويأتى بعدها الفرج ، وما من غم أوهم ، إلا وينكشف ، وتحل محله المسرة . . وما دام الأمر كذلك ، فتذرع أنت وأصحابك بالصبر ، واعتصموا بالتوكل على الله ، فإن العاقبة لكم .

فى هاتين الآيتين ما فيهما من تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم - ولأتباعه ، ومن وعد صادق بأن كل صعب يلين ، وكل شديد يهون ، وكل عسير يتيسر . . متى صبر الإنسان الصبر الجميل ، وتسلح بالعزيمة القوية ، وبالإيمان العميق بقضاء الله - تعالى - وقدره .

وأكد - سبحانه - هاتين الآيتين ، لأن هذه القضية قد تكون موضع شك ، خصوصا بالنسبة لمن تكاثرت عليهم الهموم وألوان المتاعب، فأراد - سبحانه - أن يؤكد للناس فى كل زمان ومكان ، أن اليسر يعقب العسر لا محالة ، والفرج يأتى بعد الضيق ، فعلى المؤمن أن يقابل المصائب بصبر جميل ، وبأمل كبير فى تيسير الله وفرجه ونصره . .

وقال - سبحانه - « مع العسر يسرا » ولم يقل بعد العسر يسرا ، للإشعار بأن هذا اليسر ، ليس بعد العسر بزمن طويل ، وإنما هو سيأتى فى أعقابه بدون مهلة طويلة ، متى وطن الإنسان نفسه على الصبر والأمل فى فرج الله - تعالى - .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين الآيتين بعض الآثار ، منها ما رواه ابن أبى حاتم ، عن عائذ بن شريح قال : سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبى - صلى الله عليه وسلم - جالسا وحياله حجر فقال : لو جاء العسر فدخل هذا الحجر ، لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه . . . .

وعن الحسن قال : كانوا يقولون : لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين.

وعن قتادة : ذكر لنا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بشر أصحابه فقال : « لن يغلب عسر يسرين » .

ومعنى هذا أن العسر مُعرَّف فى الحالين ، فهو مفرد ، واليسر منكر فتعدد ، ولهذا قال : « لن يغلب عسر يسرين ، فالعسر الأول عين الثانى ،

واليسر تعدد »(١) .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف تعلق قوله : « فإن مع العسر يسرا » بما قبله ؟ قلت : كان المشركون يعيرون رسول الله - ﷺ - والمؤمنين بالفقر . . فذكره الله - تعالى - بما أنعم به عليه من جلائل النعم ثم قال : « فإن مع العسر يسرا » ، كأنه قال : خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله ، فإن مع العسر الذى أنتم فيه يسرا .

فإن قلت « إن مع » للصحبة ، فما معنى اصطحاب اليسر للعسر ؟ قلت : أراد أن الله يصيبهم بيسر بعد العسر الذى كانوا فيه بزمان قريب ، فقرب اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر ، زيادة فى التسلية ، وتقوية القلوب .

فإن قلت : فما المراد باليسرين ؟ قلت : يجوز أن يراد بهما ما تيسير لهم من الفتوح فى أيام النبى — صلى الله عليه وسلم — ، وما تيسر لهم فى أيام الخلفاء . . وأن يراد يسر الدنيا ويسر الآخرة .

فإن قلت : فما معنى هذا التنكير ؟ قلت التفخيم ، كأنه قال : إن مع العسر يسرا عظيما وأى يسر . . (٢) .

وبعد هذا التعديد لتلك النعم العظيمة . أمر الله — تعالى — نبيه — صلى الله عليه وسلم — فى الاجتهاد فى العبادة فقال - تعالى - : « فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب » .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٥٤ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٧١ .

وأصل الفراغ خلو الإناء مما بداخله من طعام أو غيره . والمراد به هنا: الخلو من الأعمال التي تشغل الإنسان . والنصب : التعب والاجتهاد في تحصيل المطلوب .

أي : فإذا فرغت – أيها الرسول الكريم – من عمل من الأعمال، فاجتهد في مزاولة عمل آخر من الأعمال التي تقربك من الله – تعالى –، كالصلاة ، والتهجد ، وقراءة القرآن . .

واجعل رغبتك في جميع أعمالك وعباداتك . . من أجل إرضاء ربك، لا من أجل شيء آخر ، فهو وحده القادر على إبلاغك ما تريد ، وتحقيق آمالك .

فالمقصود بهاتين الآيتين : حثه – صلى الله عليه وسلم – وحث أتباعه في شخصه ، على استدامة العمل الصالح ، وعدم الانقطاع عنه ، مع إخلاص النية لله – تعالى – ، فإن المواظبة على الأعمال الصالحة مع الإخلاص فيها ، تؤدي إلى السعادة التي ليس بعدها سعادة . .

ولقد استجاب – صلى الله عليه وسلم – لهذا الإرشاد الحكيم، فقد قام الليل حتى تورمت قدماه ، وعندما سئل لم كل هذه العبادة ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك ، قال : « أفلا أكون عبدا شكورا » .

وسار أصحابه من بعده على هذا الهدى القويم ، فعمروا حياتهم بالباقيات الصالحات من الأعمال ، دون أن يكون للفراغ السيء ، مكان في حياتهم ، بل واصلوا الجهاد بالجهاد ، وأعمال البر بمثلها . .

ومن أقوال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – : « إني لأكره لأحدكم أن يكون خاليا ، لا في عمل دنيا ولا دين » .

وفى رواية أنه قال : إنى لأنظر إلى الرجل فيعجبنى ، فإذا قيل إنه لا عمل له سقط من عينى » .

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا جميعا ممن يعمرون أوقاتهم بالأعمال الصالحة ، والخالصة لوجهه الكريم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة ـ مدينة نصر

صباح السبت ٢١ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ

٢٥ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

تفسیر سورۃ

التین

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٥ سورة « التين »

١ — وتسمى - أيضاً - سورة « والتين »، وعدد آياتها ثمان آيات، والصحيح أنها مكية.

وقد روى ذلك عن ابن عباس وغيره، ويؤيد كونها مكية، القسم بمكة فى قوله - تعالى - : « وهذا البلد الأمين »، وعن قتادة أنها مدنية، وهو قول لا دليل عليه.

وكان نزولها بعد سورة « البروج »، وقبل سورة « لإيلاف قريش ».

٢ — وقد اشتملت هذه السورة الكريمة، على التنبيه بأن الله - تعالى - قد خلق الإنسان فى أحسن تقويم، فعليه أن يكون شاكراً لخالقه، مخلصاً له العبادة والطاعة . .

قال - تعالى - :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ
خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا
يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

اتفق المفسرون على أن المراد بطور سينين : الجبل الذى كلم الله - تعالى - عليه موسى - عليه السلام - وسينين ، وسيناء ، وسينا ، اسم للبقعة التى فيها هـذا الجبل ، فإضافة « طور » إلى ما بعده ، من إضافة الموصوف إلى الصفة .

قال الإمام الشوكانى : « وطور سينين » هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى ، اسمه الطور . ومعنى سينين : المبارك الحسن . . وقال مجاهد : سينين كل جبل فيه شجر مثمر ، فهو سينين وسيناء . .

قال الأخفش : طور : جبل . وسينين شجر ، واحدته سينة ، ولم ينصرف سينين كما لم ينصرف سيناء ، لأنه جعل اسما للبقعة . . »(١) .

وأقسم - سبحانه - به ، لأنه من البقاع المباركة ، وأعظم بركة حلت به ووقعت فيه ، تكليم الله - تعالى - ، لنبيه موسى - عليه السلام - .

كما اتفقوا - أيضاً - على أن المراد بالبلد الأمين : مكة المكرمة ، وسمى بالأمين لأن من دخله كان آمنا ، وقد حرمها - تعالى - على جميع خلقه ، وحرم شجرها وحيوانها ، وفى الحديث الصحيح ، أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال بعد فتحها : إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام إلى أن تقوم الساعة ، لم تحل لأحد قبلى ، ولن تحل لأحد بعدى ، ولم تحل لى إلا ساعة من نهار ، فلا يعضد - أى : يقطع - شجرها ، ولا ينفر صيدها ، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد . . » .

إلا أن خلافهم فى المراد بقوله - تعالى - : « والتين والزيتون » ، وقد ذكر الإمام القرطبى هذا الخلاف فقال ما ملخصه : قوله - : « والتين والزيتون » : قال ابن عباس وغيره : هو تينكم الذى تأكلون ، وزيتونكم

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٤٦٥ .

الذى تعصرون منه الزيت . قال ـ تعالى ـ : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » ـ وهى شجرة الزيتون ـ .

وقال أبو ذر : أهدى للنبى ـ ﷺ ـ سَل تين ، فقال . « كلوا » وأكل منه . ثم قال : « لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة ، لقلت هذه .. » .

وعن معاذ : أنه استاك بقضيب زيتون ، وقال : سمعت النبى ـ ﷺ ـ : يقول « نعم السواك الزيتون ، من الشجرة المباركة .. » .

وقيل : التين : مسجد نوح ـ عليه السلام ـ الذى بنى على جبل الجودى . والزيتون : مسجد بيت المقدس .

وقيل : التين المسجد الحرام ، والزيتون المسجد الأقصى . وقيل : التين مسجد دمشق . والزيتون : بيت المقدس .

وقيل : التين : الجبل الذى عليه دمشق ، والزيتون : مسجد إيلياء .. .

وقيل : هما جبلان بالشام يقال لهما طور تينا وطور زيتا ، سميا بذلك لأنهما ينبتانهما . .

ثم قال الإمام القرطبى : وأصح هذه الأقوال : الأول ، لأنه الحقيقة ، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل . وإنما أقسم بالتين لأنه كان ستر آدم فى الجنة ، لقوله ـ تعالى ـ : « يخصفان عليهما من ورق الجنة » وكان ورق التين ، ولأنه كثير المنافع . .

وأقسم بالزيتون لأنه الشجرة المباركة ، قال ـ تعالى ـ : « يوقد من شجرة مباركة زيتونة .. وفيه منافع كثيرة . . »(١) .

وقال الإمام ابن جرير بعد أن ساق جملة من الأقوال فى المقصود بالتين والزيتون : والصواب من القول فى ذلك عندنا ، قول من قال :

(١) راجع تفسير القرطبى حـ ٢٠ ص ١١١ .

التين ـ هو التين الذى يؤكل . والزيتون ـ هو الزيتون الذى يعصر منه الزيت ، لأن ذلك هو المعروف عند العرب ، ولا يعرف جبل يسمى تينا ، ولا جبل يقال له زيتون .. إلا أن يقول قائل : المراد من الكلام القسم بمنابت التين ، ومنابت الزيتون ، فيكون ذلك مذهبا ؛ وإن لم يكن على صحة ذلك أنه كذلك ، دلالة فى ظاهر التنزيل ..»(١) .

وما ذهب إليه الإمامان : ابن جرير والقرطبى ؛ من أن المراد بالتين والزيتون ؛ حقيقتهما ؛ هو الذى نميل إليه ؛ لأنه هو الظاهر من معنى اللفظ ، ولأنه ليس هناك من ضرورة تحمل على مخالفته ، ولله ـ تعالى ـ أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، فهو صاحب الخلق والأمر ؛ تبارك الله رب العالمين .

وجملة : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . . » وما عطف عليه جواب القسم .

أى : وحق التين الذى هو من أحسن الثمار ، صورة وطعما وفائدة ، وحق الزيتون الذى يكفى الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم ، وحق هذا البلد الأمين ، وهو مكة المكرمة ، وحق طور سينين الذى كلم الله ـ تعالى ـ عليه نبيه موسى تكليما . .

وحق هذه الأشياء . . لقد خلقنا الإنسان فى أعدل قامة ، وأجمل صورة ، وأحسن هيئة ، ومنحناه بعد ذلك ما لم نمنحه لغيره ، من بيان فصيح ، ومن عقل راجح ، ومن علم واسع ، ومن إرادة وقدرة على تحقيق ما يبتغيه فى هذه الحياة ، بإذننا ومشيئتنا . .

والتقويم فى الأصل : تصيير الشىء على الصورة التى ينبغى أن يكون عليها فى التعديل والتركيب . تقول : قومت الشىء تقويما ، إذا جعلته على

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ٣٠ ص ١٥٣

أحسن الوجوه التى ينبغى أن يكون عليها . . وهذا الحسن يشمل الظاهر والباطن للإنسان . .

والمراد بالإنسان هنا : جنسه . أى : لقد خلقنا — بقدرتنا وحكمتنا — جنس الإنسان فى أكمل صورة ، وأحكم عقل . .

وقوله — تعالى — : « ثم رددناه أسفل سافلين » معطوف على ماقبله وداخل فى حيز القسم . وضمير الغائب يعود إلى الإنسان . .

وحقيقة الرد : إرجاع الشىء إلى مكانه السابق ، والمراد به هنا : تصيير الإنسان على حالة غير الحالة التى كان عليها . وأسفل : أفعل تفضيل ، أى : أشد سفالة مما كان يتوقع . .

وللمفسرين فى هذه الآية الكريمة اتجاهات منها : أن المراد بالرد هنا: الرد إلى الكبر والضعف ، كما قال — تعالى — : « الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء ، وهو العليم القدير »(١) .

وعلى هذا الرأى يكون المردودون إلى أسفل سافلين ، أى : إلى أرذل العمر ، هم بعض أفراد جنس الإنسان ، لأنه من المشاهد أن بعض الناس هم الذين يعيشون تلك الفترة الطويلة من العمر ، كما قال — تعالى — : « هو الذى خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ، ولعلكم تعقلون »(٢) .

وقد رجح ابن جرير هذا الرأى فقال : « وأولى الأقوال فى ذلك

---

(١) سورة الروم . الآية ٥٤ .

(٢) سورة غافر . الآية ٦٧ .

عندى بالصحة ، وأشبهها بتأويل الآية ، قول من قال معناه : ثم رددناه إلى أرذل العمر ، إلى عمر الخرِفى الذين ذهبت عقولهم من الهرم والكبر ، فهو فى أسفل من سفل فى إدبار العمر ، وذهاب العقل . . »(١) .

ومنها أن المراد بالرد هنا : الرد إلى النار ، والمعنى : لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه إلى أقبح صورة ، وأخس هيئة . . حيث ألقينا به فى أسفل سافلين ، أى : فى النار ، بسبب استحبابه العمى على الهدى ، والكفر على الإيمان . .

وقد رجح هذا الرأى ابن كثير فقال: قوله : «ثم رددناه أسفل السافلين» أى : إلى النار . . .

أى : ثم بعد هذا الحسن والنضارة ، مصيره إلى النار ، إن لم يطع الله — تعالى — ويتبع الرسل .

ولهذا قال : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . »(٢) .

وعلى هذا الرأى — أيضاً — ، يكون المردودون إلى أسفل سافلين، أى : إلى النار ، هم بعض أفراد جنس الإنسان ، وهم الكفار ، والفاسقون عن أمره — تعالى — .

ومنها أن المراد بالرد إلى أسفل سافلين هنا : الانحراف والارتداد عن الفطرة التى فطر الله — تعالى — الناس عليها ، بأن يعبد الإنسان مخلوقا مثله ، ويترك عبادة خالقه ، ويطيع نفسه وشهواته وهواه . . . ويترك طاعة ربه — عز وجل — . .

وقد فصل الأستاذ الإمام هذا المعنى فقال ماملخصه : أقسم - سبحانه - أنه قوم الإنسان أحسن تقويم ، وركبه أحسن تركيب ، وأكد - سبحانه -

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ٣٠ ص ١٥٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٥٧ .

ذلك بالقسم ، لأن الناس بسبب غفلتهم عما كرمهم الله به ، صاروا كأنهم ظنوا أنفسهم كسائر أنواع العجماوات : يفعلون كما تفعل ، لا يمنعهم حياء ولا تردهم حشمة . . فانحطت بذلك نفوسهم عن مقامها ، الذى كان لها بمقتضى الفطرة . .

فهذا قوله : « ثم رددناه أسفل سافلين » . أى : صيرناه أسفل من كثير من الحيوانات ، التى كانت أسفل منه ، لأن الحيوان المفترس — مثلا — إنما يصدر فى عمله عن فطرته التى فطر عليها ، لم ينزل عن مقامه ، ولم ينحط عن منزلته فى الوجود .

أما الإنسان فإنه بإهماله عقله ، وجهله بما ينبغى أن يعمله لتوفير سعادته وسعادة إخوانه ، ينقلب أرذل من سائر أنواع الحيوان ، ولطالما قلت : « إذا فسد الإنسان فلا تسل عمـــا يصدر عنه من هذيان أو عدوان »(١) .

والذى يتأمل الرأى الثانى والثالث يرى أن بينهما تلازما ، لأن الانحراف عن الفطرة السوية يؤدى إلى الدخول فى النار وبئس القرار ، وهذان الرأيان أولى بالقبول ، لأن الاستثناء فى قوله — تعالى — بعد ذلك : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » يؤيد ذلك ، إذ المعنى عليهما : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه إلى النار بسبب انحرافه عن الفطرة ، وإيثاره الغى على الرشد ، والكفر على الإيمان . .

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وساروا على مقتضى فطرتهم ، فأخلصوا لله — تعالى — العبادة والطاعة . . فلهم أجر غير مقطوع عنهم ، أو غير ممنون به عليهم ، بل هم قد اكتسبوا هذا الأجر الدائم العظيم ، بسبب إيمانهم وعملهم الصالح . .

---

(١) راجع تفسير جزء عم ص ٩١ للشيخ محمد عبده ـ رحمه الله ـ .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : « ثم رددناه أسفل سافلين » ، « ثم » هنا للتراخى الزمانى أو الرتبى ، والرد يجوز أن يكون بمعنى الجعل ، فينصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر ، فأسفل مفعول ثان . والمعنى ثم جعلناه من أهل النار ، الذين هم أقبح ، وأسفل من كل سافل . . ويجوز أن يكون الرد بمعناه المعروف ، وأسفل منصوب بنزع الخافض . .

أى : رددناه إلى أسفل الأمكنة السافلة وهو جهنم . .

وقوله : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » استثناء متصل من ضمير « رددناه » العائد على الإنسان ، فإنه فى معنى الجمع ؛ فالمؤمنون لا يردون أسفل سافلين يوم القيامة ، بل يزدادون بهجة إلى بهجتهم ، وحسنا على حسنهم . . »(١) .

و « ما » فى قوله — سبحانه — : « فما يكذبك بعد بالدين » اسم استفهام مبتدأ ، وخبره جملة « يكذبك » . والخطاب للإنسان الذين خلقه الله — تعالى — فى أحسن تقويم . ففى الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب . والاستفهام للإنكار والتعجيب من هذا الإنسان . .

والمعنى : فأى شىء يحملك — أيها الإنسان — على التكذيب بالدين وبالبعث وبالجزاء ، بعد أن خلقناك فى أحسن تقويم . وبعد أن أقمنا لك الأدلة على أن دين الإسلام هو الدين الحق ، وعلى أن رسولنا صادق فيما يبلغك عن ربه — عز وجل — ؟

فالمقصود بقوله — تعالى — : « يكذبك » : يجعلك مكذبا ، أى : لا عذر لك فى التكذيب بالحق ، وقيل الخطاب للنبى — ﷺ — ، وتكون « ما » بمعنى « مَنْ » ، ويكون الاستفهام بها عن ذوات المخاطبين أى : فمن ذا الذى يكذبك — أيها الرسول الكريم — ويكذب بيوم الدين والجزاء ، بعد أن ظهرت الدلائل على صدقك . . ؟

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٣٠ ص ١٧٦ .

إن كل عاقـــل يجب عليه أن يصدقك ولا يكذبك ، ويتبعك ولا يعرض عنك .

والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ : « أليس الله بأحكم الحاكمين » للتقرير ، إذ الجملة الكريمة تحقيق لما ذكر من خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رده إلى أسفل سافلين .

فكأنه ـ تعالى ـ يقول : إن الذى فعل ذلك كله هو أحكم الحاكمين خلقا وإيجادا ، وصنعا وتدبيرا ، وقضاء وتقديرا ، فيجب على كل عاقل أن يخلص له العبادة والطاعة ، وأن يتبع رسوله ـ ﷺ ـ فى كل ما جاء به من عند ربه ـ عز وجل ـ .

وقد روى الإمام الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « من قرأ منكم « والتين والزيتون . . . » ثم انتهى إلى قوله ـ تعالى ـ « أليس الله بأحكم الحاكمين » فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين »(١)

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا من عباده الصالحين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة ـ مدينة نصر
مساء الأحد ٢٢ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ
٢٦ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٥٧ .

تفسير سورة

العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٦ تفسير سورة « العلق »

١ — هذه السورة الكريمة تسمى سورة العلق ، وتسمى سورة « اقرأ » وعدد آياتها تسع عشرة آية فى المصحف الكوفى ، وفى الشامى ثمان عشرة آية ، وفى الحجازى عشرون آية .

وصدر هذه السورة الكريمة يعتبر أول ما نزل من قرآن على النبى — صلى الله عليه وسلم — .

٢ — ومن أغراضها : التنويه بشأن القراءة والكتابة ، والعلم والتعلم ، والتهديد لكل من يقف فى وجه دعوة الإسلام التى جاء بها النبى — ﷺ — من عند ربه — عز وجل — ، وإعلام النبى — ﷺ — بأن الله — تعالى — مطلع على ما يبيته له أعداؤه من مكر وحقد ، وأنه — سبحانه — قامعهم وناصره عليهم ، وأمره — صلى الله عليه وسلم — بأن يمضى فى طريقه ، دون أن يلتفت إلى مكرهم أو سفاهاتهم . .

قال - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾
كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ
الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن
كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا
بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾
سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾ ۩

وقد أجمع المحققون من العلماء ، على أن هذه الآيات الكريمة ، أول ما نزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - من قرآن على الإطلاق ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة قالت : أول ما بدىء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الوحى ، الرؤيا الصالحة فى النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء . فكان يخلو بغار حراء فيتحنث - أى : فيتعبد فيه الليالى ذوات العدد . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لذلك . حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء .

فجاءه الملك فقال له : « اقرأ » قال : ما أنا بقارىء ، قال — صلى الله عليه وسلم — فأخذنى فغطنى حتى بلغ الجهد ، ثم أرسلنى فقال : « اقرأ » فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : « اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ الجهد ثم أرسلنى فقال : « اقــرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . . . » (١) .

وما ورد من أحاديث تفيد أن أول سورة نزلت هى سورة الفاتحة ، فمحمول على أن أول سورة نزلت كاملة هى سورة الفاتحة .

كذلك ما ورد من أحاديث فى أن أول ما نزل سورة المدثر ، محمول على أن أول ما نزل بعد فترة الوحى ، أما صدر سورة العلق فكان نزوله قبل ذلك .

قال الآلوسى — بعد أن ساق الأحاديث التى وردت فى ذلك — : « وبالجملة ، فالصحيح — كما قال البعض وهو الذى أختاره — أن صدر هذه السورة الكريمة ، هو أول ما نزل من القرآن على الإطلاق . .

وفى شرح مسلم : الصواب أن أول ما نزل اقرأ ، أى : مطلقاً . وأول ما نزل بعد فترة الوحى ، يا أيها المدثر . وأما قول من قال من المفسرين ، أول ما نزل الفاتحة ، فبطلانه أظهر من أن يذكر » (٢) .

والذى نرجحه ونميل إليه أن أول ما نزل من قرآن على الإطلاق ، هو صدر هذه السورة الكريمة إلى قوله « ما لم يعلم » ، لورود الأحاديث الصحيحة بذلك ، أما بقيتها فكان نزوله متأخرا .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٦٠

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ١٧٨

قال الأستاذ الإمام : أما بقية السورة فهو متأخر النزول قطعاً ، ومافيه من ذكر أحوال المكذبين ، يدل على أنه إنما نزل بعد شيوع خبر البعثة ، وظهور أمر النبوة ، وتحرش قريش لإيذائه - صلى الله عليه وسلم - (١) .

وقد افتتحت السورة الكريمة بطلب القراءة من النبى - صلى الله عليه وسلم - مع أنه كان أمياً لتهيئة ذهنه لما سيلقى عليه - صلى الله عليه وسلم - من وحى . . فقال - سبحانه - : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . . . » .

أى : اقرأ - أيها الرسول الكريم - ما سنوحيه إليك من قرآن كريم ، ولتكن قراءتك ملتبسة باسم ربك ، وبقدرته وإرادته ، لا باسم غيره ، فهو - سبحانه - الذى خلق الأشياء جميعها ، والذى لا يعجزه أن يجعلك قارئاً ، بعد كونك لم تكن كذلك .

وقال - سبحانه - « باسم ربك » بوصف الربوبية ، لأن هذا الوصف ينبىء عن كمال الرأفة والرحمة والرعاية بشأن المربوب .

ووصف - سبحانه - ذاته بقوله : « الذى خلق» للتذكير بهذه النعمة ، لأن الخلق هو أعظم النعم ، وعليه تترتب جميعها .

وجملة « خلق الإنسان من علق » بدل من قوله « الذى خلق » بدل بعض من كل ، إذ خلق الإنسان يمثل جزءا من خلق بقية المخلوقات التى لا يعلمها إلا الله .

و « العلق » الدم الجامد ، وهو الطور الثانى من أطوار خلق الإنسان .

والمقصود من هذه الجملة الكريمة بيان مظهر من مظاهر قدرته - تعالى - فكأنه - سبحانه - يقول : إن من كان قادرا على أن يخلق من الدم الجامد إنسانا يسمع ويرى ويعقل . . . قادر - أيضاً - على أن يجعل منك - أيها الرسول الكريم - قارئاً ، وإن لم تسبق لك القراءة .

(١) تفسير جزء عم ص ٩٣

وخص – سبحانه – خلق الإنسان بالذكر، لأنه أشرف المخلوقات ولأن فيه من بدائع الصنع والتدبير ما فيه.

وقوله – تعالى – : « اقرأ وربك الأكرم » أى: امض لما أمرتك به من القراءة، فإن ربك الذى أمرك بالقراءة هو الأكرم من كل كريم، والأعظم من كل عظيم.

قالوا: وإنما كرر – سبحانه – الأمر بالقراءة، لأنها من الملكات التى لا ترسخ فى النفس إلا بالتكرار والإعادة مرة فمرة.

وجملة « وربك الأكرم » مستأنفة لقصد بيان أنه - تعالى - أكرم من كل من يلتمس من العطاء، وأنه – سبحانه – قادر على أن يمنح نبيه نعمة القراءة، بعد أن كان يجهلها.

وقوله – تعالى – : « الذى علم بالقلم » أى: علم الإنسان الكتابة بالقلم « ولم يكن له علم بها، فاستطاع عن طريقها أن يتفاهم مع غيره، وأن يضبط العلوم والمعارف، وأن يعرف أخبار الماضين وأحوالهم، وأن يتخاطب بها مع الذين بينه وبينهم المسافات الطويلة.

ومفعولا « علم » محذوفان، دل عليهما قوله « بالقلم » أى: علم ناساً الكتابة بالقلم.

وتخصيص هذه الصفة بالذكر، للإيماء إلى إزالته ما قد يخطر بباله صلى الله عليه وسلم – من تعذر القراءة بالنسبة له، لجهله بالكتابة، فكأنه – تعالى – يقول له: إن من علم غيرك القراءة والكتابة بالقلم، قادر على تعليمك القراءة وأنت لا تعرف الكتابة، ليكون ذلك من معجزاتك الدالة على صدقك، وكفاك بالعلم فى الأمى معجزة.

وجملة «علم الإنسان مالم يعلم» خبر عن قوله – تعالى – : «وربك الأكرم» وما بينهما اعتراض، ويصح أن تكون بدل اشتمال مما قبلها

وهو قوله « علم بالقلم » أى : علم الإنسان بالقلم وبدونه ما لم يكن يعلمه من الأمور على اختلافها . والمراد بالإنسان فى هذه الآيات جنسه .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد جمعت أصول الصفات الإلهية ، كالوجود ، والوحدانية ، والقدرة ، والعلم ، والكرم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : « فأول شىء من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات ، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد ، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم ، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة ؛ وأن من كرمه - تعالى - أن علم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذى امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة . . » (١) .

وقال المرحوم الشيخ محمد عبده . ثم إنه لا يوجد بيان أبرع ، ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه ، من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحى ، بهذه الآيات الباهرات ، فإن لم يهتد المسلمون بهذا الهدى ، ولم ينبههم النظر فيه إلى النهوض إلى تمزيق تلك الحجب التى حجبت عن أبصارهم نور العلم . . وإن لم يستر شدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين ؛ ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع . . . . فلا أرشدهم الله » (٢) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الأسباب التى تحمل الإنسان على الطغيان فقال : « كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى . . . » .

و « كلا » حرف ردع وزجر لمن تكبر وتمرد .. فهى زجر عما تضمنه ما بعدها ؛ لأن ما قبلها ليس فيه ما يوجب الزجر والردع . ويصح أن

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٩٥٩

(٢) « « جزء عم ص ٩٤

تكون (كلا) هنا بمعنى حقا . وقوله : « يطغى » من الطغيان ، وهو تجاوز الحق فى التكبر والتمرد . والضمير فى قوله « رآه » يعود على الإنسان الطاغى ، والجملة متعلقة بقوله « يطغى » بحذف لام التعليل ، والرؤية بمعنى العلم .

والمعنى : حقاً إن الإنسان ليتعاظم ويتكبر ويتمرد على الحق ، لأنه علم نفسه ذا غنى فى المال والجاه والعشيرة ، ورآها - لغروره وبطره - ليست فى حاجة إلى غيره .

والمراد بالإنسان هنا جنسه لأن من طبع الإنسان أن يطغى ، إذا ما كثرت النعم بين يديه ، إلا من عصمه الله — تعالى — من هذا الخلق الذميم ، بأن شكره - سبحانه - على نعمه ، واستعملها فى طاعته .

وقيل المراد بالإنسان هنا أبو جهل ، وأن هذه الآيات وما بعدها حتى آخر السورة قد نزلت فى أبى جهل ، فقد أخرج البخارى عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة ، لأطأن على عنقه فبلغ ذلك النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : لئن فعل لأخذته الملائكة »(١) .

ونزول هذه الآيات فى شأن أبى جهل لا يمنع عموم حكمها ، ويدخل فى هـــذا الحكم دخولا أوليا أبو جهل ، إذ العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

وقوله — تعالى — : « إن إلى ربك الرجعى » تهديد ووعيد لهذا الطاغى . والرجعى مصدر بمعنى الرجوع . تقول : رجع إليه رجوعا ومرجعا ورجعى بمعنى واحد .

والمعنى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - مما تفوه به هذا الطاغى

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٦٠ .

وأمثاله ، فإن إلى ربك وحده مرجعهم ، وسيشاهدون بأعينهم ما أعددناه لهم من عذاب مهين ، وسيعلمون حق العلم أن ما يتعاظمون به من مال ، لن يغنى عنهم من عذاب الله شيئا يوم القيامة .

ثم عجب — سبحانه — نبيه — صلى الله عليه وسلم — من حال هذا الشقى وأمثاله ، فقال : « أرأيت الذى ينهى . عبداً إذا صلى » .

فالاستفهام فى قوله — تعالى — « أرأيت . . . » للتعجيب من جهالة هذا الطاغى ، وانطماس بصيرته ، حيث نهى عن الخير ، وأمر بالشر ، والمراد بالعبد : رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتنكيره للتفخيم والتعظيم .

أى : أرأيت وعلمت — أيها الرسول الكريم — حالا أعجب وأشنع من حال هذا الطاغى الأحمق ، الذى ينهاك عن إقامة العبادة لربك الذى خلقك وخلقه .

وقوله — سبحانه — : « أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى » خطاب آخر للنبى — صلى الله عليه وسلم — : أى : أرأيت — أيها الرسول الكريم — إن صار هذا الإنسان الطاغى الكافر على الهدى ، فاتبع الحق ، ودعا إلى البر والتقوى . . أما كان ذلك خيراً له من الإصرار على الكفر ومن نهيه إياك عن الصلاة . فجواب الشرط محذوف للعلم به .

فالمراد بالهدى : اهتداؤه إلى الصراط المستقيم ، والمراد بالتقوى : صيانة نفسه عن كل ما يغضب الله — تعالى — ، وأمره غيره بذلك .

وقوله — تعالى — : « أرأيت إن كذب وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى »

أى : أرأيت — أيها الرسول الكريم — إن كذب هذا الكافر بما جئته به من عندنا ، وتولى وأعرض عما تدعوه إليه من إيمان وطاعة لله رب العالمين . . أرأيت إن فعل ذلك ، أفلا أرشده عقله إلى أن خالق هذا الكون يراه ، وسيجازيه بما يستحقه من عذاب مهين ؟

فالمقصود من هذه الآيات الكريمة التي تكرر فيها لفظ « أرأيت » ثلاث مرات : تسلية النبي — صلى الله عليه وسلم — .

وتعجيبه من حال هذا الإنسان الطاغي الشقي ، الذي أصر على كفره ، وآثر الغي على الرشد ، والشرك على الإيمان . . . وتهديد هذا الكافر الطاغي بسوء المصير ، لأن الله — تعالى — مطلع على أعماله القبيحة ، وسيعاقبه العقاب الأكبر .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت فأين جواب الشرط — أي في قوله — تعالى — : « أرأيت إن كان على الهدى » — ؟ قلت : هو محذوف تقديره : إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى . ألم يعلم بأن الله يرى ، وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني .

فإن قلت : فكيف صح أن يكون « ألم يعلم » جواباً للشرط ؟ قلت كما صح في قولك : إن أكرمتك أتكرمني ؟ وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه ؟ . . . (١) .

وقوله — سبحانه — : « كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية . . . . » ردع وزجر لهذا الكافر الطاغي الناهي عن الخير ، ولكل من يحاول أن يفعل فعله .

والسفع : الجذب بشدة على سبيل الإذلال والإهانة ، تقول : سفعت بالشيء ، إذا جذبته جذباً شديداً بحيث لا يمكنه التفلت أو الهرب . . . وقيل : هو الاحتراق ، من قولهم : فلان سفعته النار ، إذا أحرقته وغيرت وجهه وجسده .

والناصية : الشعر الذي يكون في مقدمة الرأس .

أي . كلا ليس الأمر كما فعل هذا الإنسان الطاغي ، ولئن لم يقلع عما

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٧٧٨

هو فيه من كفر وغرور ، لنقهرنه ولنذلنه ولنعذبنه عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة .

والتعبير بقوله - تعالى - : « لنسفعا بالناصية » يشعر بالأخذ الشديد ، والإذلال المهين ، لأنه كان من المعروف عند العرب ، أنهم كانوا إذا أرادوا إذلال إنسان وعقابه ، سحبوه من شعر رأسه .

والتعريف فى الناصية ، للعهد التقديرى ، أى : بناصية ذلك الإنسان الطاغى ، الذى كذب وتولى ، ونهى عن إقامة الصلاة . .

وقوله — تعالى — : « ناصية كاذبة خاطئة » بدل من الناصية ، وجاز إبدال النكرة من المعرفة ، لأن النكرة قد وصفت ، فاستقلت بالفائدة .

وخاطئة : اسم فاعل من خطىء فلان — كعلم — فهو خاطىء وهو الذى يأتى الذنب متعمدا ، ووصفت الناصية بأنها خاطئة مبالغة فى تعمد هذا الإنسان لارتكاب المنكر ، على حد قولهم : نهاره صائم ، أى : صائم صاحبه ، ولأن الناصية هى مظهر الغرور والكبرياء .

أى : لئن لم ينته هذا الفاجر المغرور عن كفره . . لنذلنه إذلالا شديدا ، ولنسحبنه إلى النار من ناصية التى طالما كذبت بالحق ، وتعمدت ارتكاب المنكر . .

وقوله — سبحانه — : « فليدع نادية . . » رد على غروره وتفاخره بعشيرته ، فقد جاء فى الحديث الشريف أن أبا جهل عند ما نهى النبى — صلى الله عليه وسلم — عن الصلاة ، نهره النبى - صلى الله عليه وسلم - وزجره وأغلظ له القول . . . فقال : أبو جهل : أتهددنى يا محمد وأنا أكثر هذا الوادى ناديا ، فأنزل — سبحانه — : « فليدع نادية سندع الزبانية » .

وأصل النادى : المكان الذى يجتمع فيه الناس للحديث ، ولا يسمى

المكان بهذا الاسم إلا إذا كان معدا لهذا الغرض، ومنه دار الندوة، وهى دار كان أهل مكة يجتمعون فيها للتشاور فى مختلف أمورهم، وسمى بذلك لأن الناس يَنْدُونَ إليه، أى: يذهبون إليه، أو ينتدون فيه، أى: يجتمعون للحديث فيه. يقال: ندا القوم نَدْواً — من باب غزا — إذا اجتمعوا.

والأمر فى قوله — تعالى — : «فليدع» للتعجيز، والكلام على حذف مضاف: أى: فليدع هذا الشقى المغرور أهله وعشيرته لإيذاء النبى — ﷺ — ، ولمنعه من الصلاة، إن قدروا على ذلك، فنحن من جانبنا سندع الزبانية، وهم الملائكة الغلاظ الموكلون بعقاب هذا المغرور وأمثاله.

ولفظ الزبانية فى كلام العرب: يطلق على رجال الشرطة الذين يزبنون الناس، أى: يدفعونهم إلى ما يريدون دفعهم إليه بقوة وشدة وغلظة، جمع زِبْنِية، وأصل اشتقاقه من الزَّبْن، وهو الدفع الشديد. ومنه قولهم: حرب زبون، إذا اشتد الدفع والقتال فيها. وناقة زبون إذا كانت تركل من يحلبها.

والمقصود بهاتين الآيتين، التهكم بهذا الإنسان المغرور، والاستخفاف به وبكل من يستنجد به، ووعيده بأنه إن استمر فى غروره ونهيه عن الصلاة فسيسلط الله — تعالى — عليه ملائكة غلاظا شدادا، لا قبل له ولا لقومه بهم.

وقوله: — تعالى — : «كلا لا تطعه واسجد واقترب» ردع آخر لهذا الكافر عن الغرور والبطر والطغيان، وإبطال لدعواه أنه سيدع أهل ناديه، وتأكيد لعجزه عن منع الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن الصلاة.

أى : كلا ليس الأمر كما قال هـــذا المغرور من أن أهله وعشيرته سينصرونه ، وسيقفون إلى جانبه فى منعك ـ أيها الرسول الكريم ـ من الصلاة ، فإنهم وغيرهم أعجز من أن يفعلوا ذلك ، وعليك ـ أيها الرسول الكريم ـ أن تمضى فى طريقك ، وأن تواظب على أداء الصلاة فى المكان الذى تختاره ، ولا تطع هذا الشقى ، فإنه جاهل مغرور ، واسجد لربك ، وتقرب إليه ـــ تعالى ـــ بالعبادة والطاعة ، وداوم على ذلك .

فالمقصود بهذه الآية الكريمة ، حض النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المداومة على الصلاة فى الكعبة ، وعدم المبالاة بنهى الناهين عن ذلك، فإنهم أحقر من أن يفعلوا شيئاً . .

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا جميعاً من عباده الصالحين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة ـ مدينة نصر

مساء الإثنين ٢٦ من صفر سنة ١٤٠٧هـ

٣٠ من أكتوبر سنة ١٩٨٦ م

تفسير سورة

القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٧ « سورة القَدْر »

١ — سورة « القدر » من السور المكية عند أكثر من المفسرين ، وكان نزولها بعد سورة « عبس » ، وقبل سورة « الشمس » ، فهى السورة الخامسة والعشرين فى ترتيب النزول . .

ويرى بعض المفسرين أنها من السور المدنية ، وأنها أول سورة نزلت بالمدينة . .

قال الآلوسى : قال أبو حيان : مدنية فى قول الأكثر . وحكى الماوردى عكسه . وذكر الواحدى أنها أول سورة نزلت بالمدينة . وقال الجلال فى الإتقان فيها قولان : والأكثر أنها مكية . . » (١) .

وعدد آياتها خمس آيات ، ومنهم من عدها ست آيات ، والأول أصح وأرجح . .

٢ — والسورة الكريمة من أهم مقاصدها : التنويه بشأن القرآن ، والإعلاء من قدره ، والرد على من زعم أنه أساطير الأولين ، وبيان فضل الليلة التى نزل فيها ، وتحريض المسلمين على إحيائها بالعبادة والطاعة لله رب العالمين .

---

(١) تفسير الآلوسى حـ ٣٠ ص ١٧٨

قال – تعالى – :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾
لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا
بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

والضمير المنصوب فى قوله – تعالى – « أنزلناه » يعود إلى القرآن الكريم ، وفى الإتيان بهذا الضمير للقرآن ، مع أنه لم يجر له ذكر ، تنويه بشأنه ، وإيذان بشهرة أمره ، حتى إنه ليستغنى عن التصريح به ، لحضوره فى أذهان المسلمين .

والمراد بإنزاله : ابتداء نزوله على النبى – صلى الله عليه وسلم – ، لأنه من المعروف أن القرآن الكريم ، قد نزل على النبى – صلى الله عليه وسلم – منجما ، فى مدة ثلاث وعشرين سنة تقريباً .

ويصح أن يكون المـــراد بأنزلناه ، أى : أنزلناه جملة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، ثم نزل بعد ذلك منجما على النبى – ﷺ – .

قال الإمام ابن كثير : قال ابن عباس وغيره : أنزل الله – تعالى – القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع ، فى ثلاث وعشرين سنة ، على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « (٢) .

والقدر الذى أضيفت إليه الليلة ، بمعنى الشرف والعظمة ، مأخوذ

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٦٣

من قولهم : لفلان قدر عند فلان ، أى : له منزلة رفيعة ، وشرف عظيم ، فسمت هذه الليلة بذلك ، لعظم قدرها وشرفها ، إذ هى الليلة التى نزل فيها قرآن ذو قدر ، بواسطة تلك ذى قدر ، على رسول ذى قدر ، لأجل إكرام أمة ذات قدر ، هذه الأمة يزداد قدرها وثوابها عند الله - تعالى - ، إذا ما أحيوا تلك الليلة بالعبادات والطاعات . .

ويصح أن يكون المراد بالقدر هنا : التقدير ، لأن الله — تعالى — يقدر فيها ما يشاء تقديره لعباده ، إلا أن القول الأول أظهر ، لأن قوله — سبحانه — بعد ذلك : « وما أدراك ما ليلة القدر . . . . » يفيد التعظيم والتفخيم . .

أى : إنا ابتدأنا بقدرتنا وحكمتنا ، إنزال هذا القرآن العظيم ، على رسولنا محمد — صلى الله عليه وسلم — ، فى ليلة القدر ، التى لها مالها عندنا من قدر وشرف وعظم . . . لأن للطاعة فيها قدرا كبيرا ، وثوابا جزيلا . . .

وليلة القدر هذه ، هى الليلة التى قال الله — تعالى — فى شأنها فى سورة الدخان : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم . . . » .

وهذه الليلة هى من ليالى شهر رمضان ، بدليل قوله — تعالى — : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . . . » .

قال بعض العلماء : ومن تسديد ترتيب المصحف ، أن سورة القدر وضعت عقب سورة العلق ، مع أنها أقل عدد آيات من سورة البينة وسور بعدها ، وكأن ذلك إماء إلى أن الضمير فى « أنزلناه » يعود إلى القرآن ،

الذى ابتـــدىء نزوله بسورة العلق . . . . . . » (١) .

وقال صاحب الكشاف : عظم – سبحانه – القرآن من ثلاثة أوجه : أحدها : أن أسند إنزاله إليه ، وجعله مختصا به دون غيره . والثانى أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر ، شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه . والثالث : الرفع من مقدار الوقت الذى أنزل فيه .

روى أنه أنزل جملة واحدة فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وأملاه جبريل على السفرة ثم كان ينزل به على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نحو ما فى ثلاث وعشرين سنة .

وعن الشعبى : المعنى أنا ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر . . . (٢) .

وقوله – تعالى – : « وما أدراك ما ليلة القدر » تنويه آخر بشرف هذه الليلة ، وتفخيم لشأنها ، حتى لكأن عظمتها أكبر من أن تحيط بها الكلمات والألفاظ .

أى : وما الذى يدريك بمقدار عظمتها وعلو قدرها ، إن الذى يعلم مقدار شرفها هو الله – تعالى – علام الغيوب .

ثم بين – سبحانه – مظاهر فضلا فقال : « ليلة القدر خير من ألف شهر » أى : ليلة القدر أفضل من ألف شهر ، بسبب ما أنزل فيها من قرآن كريم يهدى للتى هى أقوم ، ويخـــرج الناس من الظلمات إلى النور ، وبسبب أن العبادة فيها أكثر ثواباً ، وأعظم فضلا من العبادة فى أشهر كثيرة ليس فيها ليلة القدر . .

والعمل القليل قد يفضل العمل الكثير ، باعتبار الزمان والمكان ،

---

(١) تفسير « التحرير والتنوير » حـ ٣٠ ص ٤٥٦ للشيخ ابن عاشور – رحمه الله –

(٢) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٧٨٠

وإخلاص النية ، وحسن الأداء ، ولله - تعالى - أن يخص بعض الأزمنة والأمكنة والأشخاص بفضائل متميزة . .

والتحديد بألف شهر يمكن أن يكون مقصودا ، ويمكن أن يراد منه التكثير ، وأن المراد أن أقل عدد تفضله هذه الليلة هو هذا العدد ، فيكون المعنى : أن هذه الليله تفضل الدهر كله .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك مزية أخرى لهذه الليلة المباركة فقال : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر . . . » .

أى : ومن مزايا وفضائل هذه الليلة أيضاً ، أن الملائكة - وعلى رأسهم - الروح الأمين جبريل - ينزلون فيها أفواجاً إلى الأرض ، بأمره - تعالى - وإذنه ، وهم جميعاً إنما ينزلون من أجل كل أمر من الأمور التى يريد إبلاغها إلى عباده ، وأصل « تنزل » تتنزل ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفا ونزول الملائكة إلى الأرض ؛ من أجل نشر البركات التى تحفهم ، فنزولهم فى تلك الليلة يدل على شرفها ، وعلى رحمة الله — تعالى — بعباده .

والروح : هو جبريل ؛ وذكره بخصوصه بعد ذكر الملائكة ؛ من باب ذكر الخاص بعد العام ، لمزيد الفضل ؛ واختصاصه بأمور لا يشاركه فيها غيره .

وقوله - سبحانه - « بإذن ربهم » متعلق بقوله : « تنزل » ، والباء للسببية ، أى : يتنزلون بسبب إذن ربهم لهم فى النزول . .

قال الجمل ما ملخصه : وقوله : « من كل أمر » يجوز فى «من» وجهان : أحدهما أنها بمعنى اللام ، وتتعلق بتنزل . أى : تنزل من أجل كل أمر قضى إلى العام القابل . والثانى أنها بمعنى الباء ، أى : تنزل بكل أمر قضاه الله - تعالى - فيها من موت وحياة ورزق . .

وليس المراد أن تقدير الله لا يحدث إلا فى تلك الليلة . . بل المراد إظهار تلك المقادير للملائكة »(١) .

وقوله — تعالى — : « سلام هى حتى مطلع الفجر » بيان لمزية ثالثة من مزايا هذه الليلة . وقوله « سلام » مصدر بمعنى السلامة . وهو خبر مقدم ، و « هى » مبتدأ مؤخر ، وإنما قدم الخبر تعجيلا للمسرة ، وقد أخبر عن هذه الليلة بالمصدر على سبيل المبالغة ، أو على سبيل تأويل المصدر باسم الفاعل ، أو على تقدير مضاف . . والمراد بمطلع الفجر : طلوعه وبزوغه .

أى : هذه الليلة يظلها ويشملها السلام المستمر والأمان الدائم ، لكل مؤمن يحييها فى طاعة الله — تعالى — إلى أن يطلع الفجر . أو هى ذات سلامة حتى مطلع الفجر . أو هى سالمة من كل أذى وسوء لكل مؤمن ومؤمنة حتى طلوع الفجر .

هذا وقد أفاض العلماء فى الحديث عن فضائل ليلة القدر ، وعن وقتها ، وعن خصائصها . . وقد لخص الإمام القرطبى ذلك تلخيصا حسنا فقال : وهنا ثلاث مسائل :

الأولى : فى تعيين ليلة القدر . . والذى عليه المعظم أنها ليلة سبع وعشرين . . . والجمهور على أنها فى كل عام من رمضان . . وقيل : أخفاها — سبحانه — فى جميع شهر رمضان ، ليجتهدوا فى العمل والعبادة طمعا فى إدراكها . .

الثانية : فى علاماتها ، ومنها أن تطلع الشمس فى صبيحتها بيضاء لا شعاع لها . .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٤ ص ٥٦٧ .

الثالثة : فى فضائلها . وحسبك قوله – تعالى – : « ليلة القدر خير ألف شهر » وقوله : تنزل الملائكة والروح فيها . . . » وفى الصحيحين: « من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابآ غفر الله له ما تقدم من ذنبه . . . »(٢) .

نسأل الله – تعالى – أن يجعلنا من المنتفعين بهذه الليلة المباركة ؟

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة – مدينة نصر
مساء السبت ٢٨ من صفر سنة ١٤٠٧ هـ
١ / ١١ / ١٩٨٦ م

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ١٣٤ .

(تفسير سورة)

البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٨ سورة « البينة »

١ — سورة « البينة » ، تسمى - أيضاً - سورة « لم يكن . . . » وسورة « المنفكين » وسورة « القيمة » وسورة « البرية » . . وعدد آياتها ثمان آيات عند الجمهور ، وعدها قراء البصرة تسع آيات .

٢ — وقد اختلف المفسرون فى كونها مدنية أو مكية ، وقد لخص الإمام الآلوسى هذا الخلاف فقال : « قال فى البحر : هى مكية . . وقال ابن الزبير وعطاء بن يسار : مدنية . . وجزم ابن كثير بأنها مدنية ، واستدل على ذلك بما أخرجه الإمام أحمد . . عن أبى خيثمة البدرى قال : لما نزلت هذه السورة ، قال جبريل يارسول الله ، إن ربك يأمرك أن تقرئها « أبيا » .

فقال — ﷺ — لأبى بن كعب - رضى الله عنه - : إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة ، فقال : أبى ، أو قد ذكرت ثم يارسول الله ؟ قال : نعم . فبكى أبى » .

وقد رجح الإمام الآلوسى كونها مدنية ، فقال : وهـــذا هو الأصح(١) .

وهذا الذى رجحه الإمام الآلوسى هو الذى نميل إليه ، لأن حديثها

(١) تفسير الآلوسى ج ٣٠ ص ٢٠٠

عن أهل الكتاب ، وعن تفرقهم فى شأن دينهم ، يرجح أنها مدنية ، كما أن الإمام السيوطى قد ذكرها ضمن السور المدنية ، وجعل نزولها بعد سورة « الطلاق » ، وقبل سورة « الحشر »(١) .

٣ ـ ومن أهم المقاصد التى اشتملت عليها السورة الكريمة ، توبيخ أهل الكتاب والمشركين ، على إصرارهم على ضلالهم من بعد أن تبين لهم الحق ، والتعجيب من تناقص أحوالهم . وبيان أن كفرهم لم يكن بسبب جهلهم ، وإنما بسبب جحودهم وعنادهم وحسدهم للنبى ـ ﷺ ـ على ما آتاه الله من فضله ، والتسجيل عليهم بأنهم شر البينة ، وأن المؤمنين هم خير البرية . .

---

(١) الإتقان جـ ١ ص ١٧ .

قال – تعالى – :

بسم الله الرحمن الرحيم

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ
تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ
قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ
الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ
وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ
أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)

و « من » فى قوله – تعالى – « من أهل الكتاب » للبيان ، وقوله – سبحانه – : « منفكين » : للعلماء فى معنى هذا اللفظ أقوال متعددة ، منها : أنه اسم فاعل من انفك بمعنى انفصل ، يقال : فككت الشىء فانفك إذا افترق ما كان ملتحما منه .

والبينة : الحجة الظاهرة التى يتميز بها الحق من الباطل ، وأصلها من البيان بمعنى الظهور والوضوح ، لأن بها يتضح الأمور ، أو من البينونة بمعنى الانفصال ، لأن بها ينفصل الحق عن الباطل بعد التباسهما . .

والمراد بها هنا : رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، لقوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : « رسول من الله يتلو صحفا مطهرة . . . » ، ولأنه — صلى الله عليه وسلم — كان فى ذاته برهانا على صحة ما ادعاه من النبوة ، لتحليه بكمال العقل ، وبمكارم الأخلاق ، ولإتيانه بالمعجزات التى تؤيد أنه صادق فيما يبلغه عن ربه . .

والمعنى : لم يكن الذين كفروا من الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، ولم يكن ـ أيضاً ـ الذين كذبوا الحق من المشركين ، لم يكن الجميع بمفارقين ومنفصلين عن كفرهم وشركهم ، « حتى تأتيهم البينة » التى هى الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، فلما أتتهم هذه البينة ، منهم من آمن ومنهم من استمر على كفره وشركه وضلاله .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : كان الكفار من الفريقين ، أهل الكتاب ، وعبدة الأصنام ، يقولون قبل مبعث النبى — صلى الله عليه وسلم — : لا ننفك عما نحن عليه من ديننا ، ولا نتركه حتى يبعث النبى المكتوب فى التوراة والإنجيل ، وهو محمد — صلى الله عليه وسلم — ، فحكى الله ـ تعالى ـ ما كانوا يقولون ثم قال : « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب » ، يعنى أنهم كانوا يعدون باجتماع الكلمة ، والإتفاق على الحق ، إذا جاءهم الرسول ، ثم ما فرقهم عن الحق ، ولا أقرهم على الكفر ، إلا مجىء الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، ونظيره فى الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه : لست بمنفك عما أنا فيه حتى يرزقنى الله ـ تعالى ـ الغنى ، فيرزقه الله الغنى فيزداد فسقا ، فيقول له واعظه :

لم تكن منفكا عن الفسق حتى توسر ، وما غمست رأسك فى الفسق إلا بعد اليسار . يذكره ماكان يقوله توبيخاً وإلزاماً .

وانفكاك الشيء من الشيء ، أن يزايله بعد التحامه به ، كالعظم إذا انفك من مفصله .

والمعنى : أنهم متشبثون بدينهم لا يتركونه إلا عند مجيء البينة »(١).

ومنهم من يرى : أن « منفكين » بمعنى متروكين لا بمعنى تاركين ، أى : لم يكونوا جميعاً متروكين على ما هم عليه من الكفر والشرك ، حتى تأتيهم البينة ، على معنى قوله ـ تعالى ـ : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى . . . . »

أو المعنى : لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله ـ تعالى ـ وقدرته ونظره لهم ، حتى يبعث الله ـ تعالى ـ إليهم رسولا منذرا ، تقوم عليهم به الحجة ، ويتم على من آمن النعمة ، فكأن ـ تعالى ـ قال : ماكانوا ليتركوا سدى . . . » (٢) .

وهناك أقوالا أخرى فى معنى الآية رأينا أن نضرب عنها صفحا لضعفها . . .

وقد قدم الله ـ تعالى ـ ذكر أهل أهل الكتاب فى البيان ، لأن كفرهم أشنع وأقبح . إذ كانوا يقرأون الكتب ، ويعرفون أوصاف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فكانت قدرتهم على معرفة صدقه أكبر وأتم .

وفى التعبير عنهم بأهل الكتاب دون اليهود والنصارى ، تسجيل للغفلة

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٧٨٢

(٢) راجع تفسير « أضواء البيان » حـ ٨ ص ٢٩٧ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

سوء النية عليهم ، حيث علموا الكتاب ، وعرفوا عن طريقه أن هناك رسولا كريما قد أرسله الله — تعالى — لهدايتهم ، ومع ذلك كفروا به ، كما قال — تعالى — : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

وقوله — سبحانه — : « رسول من الله يتلو صحفا مطهرة » بدل من البينة على سبيل المبالغة ، حيث جعل - سبحانه - الرسول نفس البينة .

أى : لم يفارقوا دينهم حتى جاءهم رسول كريم ، كائن من عند الله — تعالى — ، لكى يقرأ على مسامعهم صحفا من القرآن الكريم ، مطهرة أى : منزهة عن الشرك والكفر والباطل وهذه الصحف من صفاتها — أيضا — أنها « فيها كتب قيمة » أى : فيها سور آيات قرآنية مستقيمة لا عوج فيها ، بل هى قاطعة بالحق والخير والصدق والهداية ، وبأخبار الأنبياء السابقين وبأحوالهم مع أقوامهم . .

فقوله : « قيمة » بمعنى مستقيمة لا عوج فيها ولا اضطراب ، من قولهم قام فلان يقوم ، إذا استوى على قدميه فى استقامة .

ثم بين — سبحانه — ما كان عليه أهل الكتاب من جحودهم للحق ، ومن إنكارهم له مع علمهم به ، فقال - تعالى - « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة » .

أى : أن الجاحدين والمعاندين والحاسدين لك - أيها الرسول الكريم - من أهل الكتاب ، ما تفرقوا فى أمره ، وما اختلفوا فى شأن نبوتك . . . إلا من بعد أن جئتهم أنت بما يدل على صدقك ، دلالة لا يجحدها إلا جهول ، ولا ينكرها إلا حسود ، ولا يعرض عنها إلا من طغى وآثر الحياة الدنيا .

فالآية الكريمة كلام مستأنف المقصود به تسليته - صلى الله عليه وسلم -

عما أصابه من هؤلاء الجاحدين فكأنه ـ سبحانه ـ يقول له : لا تحزن ـ أيها الرسول الكريم ـ لإعراض من أعرض عن دعوتك من أهل الكتاب ، فإن اعراضهم لم يكن عن جهل ، وإنما عن عناد وجحود وحسد لك على ما آتاك الله من فضله .

وإنما خص ـ سبحانه ـ هنا أهل الكتاب بالذكر ، مع أن الكلام في أول السورة كان فيهم وفي المشركين ، للدلالة على شناعة حالهم ، وقبح فعالهم ، لأن الإعراض عن الحق ممن له كتاب ، أشد قبحا ونكرا ، ممن ليس له كتاب وهم المشركون .

والاستثناء في الآية مفرغ ، والمستثنى منه عموم الأوقات . والمعنى : لم يتفرق الجاحدون من الذين أوتوا الكتاب في وقت من الأوقات ، إلا في الكائن بعد مجيء البينة لهم .

ومن الآيات القرآنية الكثيرة التي وردت في هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ « وما تفرقوا إلا من ما جاءهم العلم بغيا بينهم . . . » .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان يجب عليهم أن يفعلوه ، فقال : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة » .

والواو في قوله ـ تعالى ـ « وما أمروا » للحال ، فهذه الجملة حالية ، والمقصود منها بيان أن هؤلاء الضالين ، قد بلغوا النهاية في قبح الأفعال ، وفي فساد العقول ، إذ أنهم تفرقوا واختلفوا وأعرضوا عن الهدى ، في حال أنهم لم يؤمروا إلا بما فيه صلاحهم . .

وقوله : « حنفاء » من الحنف ، وهو الميل من الدين الباطل إلى الدين الحق ، كما أن الجنف هو الميل من الحق إلى الباطل .

أي : أن هؤلاء الكافرين من أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا في شأنه

الحق ، والحال أنهم لم يؤمروا إلا بعبادة الله – تعالى – وحده ، مخلصين له الطاعة ، ومائلين عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ، مؤمنين بجميع الرسل بدون تفرقة بينهم ، إذ ملتهم جميعاً واحدة ، ولم يؤمروا – أيضا – إلا بإقامة الصلاة فى أوقاتها بخشوع وإخلاص لله رب العالمين ، وبإيتاء الزكاة التى تطهرهم وتزكيهم .

« وذلك » الذى أمرناهم به من إخـــلاص العبادة لنا ، ومن أداء فرائضنا « دين القيمة » . أى : دين الملة المستقيمة القيمة ، أو دين الكتب القيمة . .

ولفظ « القيمة » – بزنة فيعلة – من القوامة ، وهى غاية الاستقامة وهذا اللفظ صفة لموصوف محذوف .

ثم بين – سبحانه – سوء عاقبة هؤلاء الجاحدين من أهل الكتاب ومن المشركين فقال : « إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها . . . » .

أى : إن الذين أصروا على كفرهم بعد أن تبين لهم ، من اليهود والنصارى ، ومن المشركين الذين هم عبدة الأصنام . . . . مكانهم المهيأ لهم هو نار جهنم ، حالة كونهم خالدين فيها خلودا أبديا « أولئك » الموصوفون بتلك الصفات الذميمة «هم شر البرية» أى : هم شر كل صنف من أصناف المخلوقات ، لإصرارهم على الكفر والإشراك مع علمهم بالحق . . . . .

ولفظ « البرية » من البرى وهو التراب ، لأنهم قد خلقوا فى الأصل منه ، يقال : فلان بَراه الله – تعالى – يبروه بروا : أى خلقه . وقرأ نافع بالهمز ، من قولهم برأ الله – تعالى – الخلق يبرؤهم ، أى : خلقهم . . . .

وقدم ــ سبحانه ــ أهل الكتاب فى المذمة ، لأن جناياتهم فى حق الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أشد ، إذ كانوا يستفتحون به على المشركين ، ويقولون لهم : إن نبيا قد أظلنا زمانه ، وإننا عند مبعثه سنتبعه . . فلما بعث ــ ﷺ ــ كفروا به . .

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين : الأول : أن هؤلاء الضالين خالدون فى النار . والثانى : أنهم شر المخلوقات التى خلقها الله ــ تعالى ــ .

ثم بين ــ سبحانه ــ بعد ذلك حسن عاقبة المؤمنين فقال : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

أى : « وعملوا الأعمال الصالحات » أولئك هم خير البرية » أى : أولئك هم خير المخلوقات التى خلقها الله ــ تعالى ــ .

« جزاؤهم عند ربهم » أى : جزاؤ الطيب الكائن لهم عند ربهم وخالقهم ومالك أمرهم . .

« جنات عدن » أى : أى : جنات يقيمون فيها إقامة دائمة ، من عدن فلان بالمكان إذا أقام فيه .

« تجرى من تحتها الأنهار » أى : تجرى من تحت اشجارها وثمارها الأنهار

« خالدين فيها أبدا » أى : خالدين فى تلك الجنات خلودا أبديا .

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » أى : قبل الله ــ تعالى ــ منهم أعمالهم ورضيها عنده ، وفرحوا بهم ورضوا بما أعطاهم من خير عميم . .

فالمراد برضاه — تعالى — عنهم : قبوله لأعمالهم ، وبرضاهم عنه : فرحهم بما أعطاهم من فضله .

« ذلك » أي : العطاء الجزيل « لمن خشي ربه » أي : كائن وثابت لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى .

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا جميعاً من عباده المؤمنين ؟

القاهرة — مدينة نصر

صباح الأربعاء : ٣ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ

٦ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

تفسير سورة

محمد مجاهد

الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٩ سورة « الزلزلة »

١ – سورة « الزلزلة » وتسمى – أيضاً – سورة « إذا زلزلت » ، وسورة « الزلزال » ، من السور المكية ، وقيل : هى من السور المدنية .

قال الآلوسى : هى مكية فى قول ابن عباس ومجاهد وعطاء ، ومدنية فى قول مقاتل وقتادة .

ويبدو لنا أن القول بكونها مكيه أرجح ، لأن الحديث عن أهوال يوم القيامة ، يكثر فى السور المكية ، ولأن بعض المفسرين – كالإمام ابن كثير – قد اقتصر على كونها مكية ، ولم يذكر فى ذلك خلافا .

وعدد آياتها ثمان آيات فى المصحف الكوفى ، وتسع آيات فى غيره . وسبب ذلك اختلافهم فى قوله – تعالى – : « يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم » هل هو آيتان ، أو آية واحدة .

٢ – والسورة الكريمة من أهم مقاصدها : إثبات أن يوم القيامة حق ، وبيان ما اشتمل عليه من أهوال ، وتأكيد أن كل إنسان سيجازى على حسب عمله فى الدنيا .

قال – تعالى – :

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)
وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ
رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟
أَعْمَٰلَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ (٧)
وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ (٨)

وقوله – تعالى – : « زلزلت » أى : حركت تحريكا شديدا لا يعلم مقداره إلا الله – تعالى – ، إذ الزلزال : الحركة الشديدة مع الاضطراب وهو بفتح الزاى اسم لذلك ، وبكسرها مصدر بمعنى التحرك والاضطراب وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « إذا رجت الأرض رجا » ، ويكون هذا الزلزال الشديد ، عندما يأذن الله - تعالى - بقيام الساعة ، وببعث الناس للحساب .

وافتتح - سبحانه - الكلام بظرف الزمان « إذا » ، لإفادة تحقق وقوع الشرط .

وقوله : « زلزالها » مصدر مضاف لفاعله . أى : إذا زلزلت الأرض زلزالها ، الذى لا يماثله زلزال آخر فى شدته وعظمته وهوله ، كما قاله - تعالى - : « يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . . . » .

وقوله - تعالى - : « وأخرجت الأرض أثقالها » بيان لأثر آخر من آثار ما يحدث فى هذا اليوم الهائل الشديد .

والأثقال : جمع ثقل - بكسر فسكون - وهو المتاع الثقيل ، ومنه قوله - تعالى - : « وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . . . » .

والمراد بها هنا : ما يكون فى جوف الأرض من أموات وكنوز وغير ذلك مما يكون فى باطنها .

قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت فى جوف الأرض فهو ثقل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها ، وإنما سمى الجن والإنس بالثقلين لأن الأرض تثقل بهم . . »(١) .

والمراد بالإنسان فى قوله — سبحانه — : « وقال الإنسان مالها » جنسه فيشمل المؤمن والكافر .

وقوله «مالها» مبتدأ وخبر ، والاستفهام المقصود به التعجب مما حدث من أهوال .

أى : وقال كل إنسان على سبيل الدهشة والحيرة ، أى : شىء حدث للأرض ، حتى جعلها تضطرب هذا الاضطراب الشديد .

قال الجمل . وفى المراد بالإنسان هنا قولان : أحدهما : أنه اسم جنس يعم المؤمن والكافر ، وهذا يدل على قول من جعل الزلزلة من أشراط الساعة والمعنى أنها حين تقع لم يعلم الكل أنها من أشراط الساعة ، فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك . والثانى : أنه الكافر خاصة ، وهذا يدل على قول من جعلها زلزلة القيامة ، لأن المؤمن عارف بها فلا يسأل عنها ، والكافر جاحد لها ، فإذا وقعت سأل عنها . . » (٢) .

وقوله — سبحانه — : « يومئذ تحدث أخبارها » جواب الشرط .

---

(١) تفسير صح القرطبى حـ ٢٠ ص ١٤٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٤ ص ٥٧٣

و «أخبارها» مفعول ثان لقوله: «تحدث»، والمفعول الأول محذوف.

أى: إذا زلزلت الأرض زلزالها. وأخرجت الأرض أثقالها. وقال الإنسان ماذا حدث لها.. عندئذ تحدث الأرض الخلائق أخبارها، بأن تشهد للطائع بأنه كان كذلك، وتشهد على الفاسق بأنه كان كذلك.

أخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى عن أبى هريرة قال: قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الآية «يومئذ تحدث أخبارها» ثم قال: «أتدرون ما أخبارها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، بأن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا. فهذه أخبارها» (١).

والظاهر أن هذا التحديث من الأرض على سبيل الحقيقة، بأن يخلق الله ـ تعالى فيها حياة وإدراكا، فتشهد بما عمل عليها من عمل صالح أو طالح، كما تشهد على من فعل ذلك.

وقيل: هذا مثل ضربه الله ـ تعالى ـ، والمقصود منه أن كل إنسان فى هذا اليوم سيتبين جزاء عمله، وما أعده الله ـ تعالى ـ له على ما قدم فى حياته الأولى، ونظير ذلك أن نقول: إنه هذه الدار لتحدثنا بأنها كانت مسكونة.

قال بعض العلماء ما ملخصه: قوله: «يومئذ تحدث أخبارها» يومئذ بدل من إذا. أى: فى ذلك الوقت تحدثك الأرض أحاديثها، وتحديث الأرض تمثيل ـ كما قال الطبرى وغيره ـ، أى: أن حالها وما يقع فيها من الانقلاب، وما لم يعهد من الخراب، يعلم السائل ويفهمه الخبر، وأن ما يراه لم يكن بسبب من الأسباب التى وضعتها السنة الإلهية، حال استقرار نظام الكون، بل ذلك بسبب «أن ربك أوحى لها» أى: أن ما يحدث

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٨١

للأرض يومئذ ، إنما هو بأمر إلهي خاص . بأن قال لها كوني كذلك فكانت كما قال لها ... » (١) .

وعدى فعل «أوحى» باللام — مع أن حقه أن يتعدى بإلى كما في قوله — تعالى — «وأوحى ربك إلى النحل — لتضمينه معنى «قال» كما في قوله — سبحانه — . فقال لهـا وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » .

والمعنى : إن الأرض تحدث الناس عن أخبارها ، وتبينها لهم ، وتشهد عليهم .... بسبب أن ربك الذى خلقك فسواك فعدلك — أيها الإنسان — قد أمرها بذلك .

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك أحوال الناس في هـذا اليوم فقال : « يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ... » .

والجملة الكريمة بدل من جملة « يومئذ تحـدث أخبارها » . وقوله « يصدر » فعل مضارع من الصدر — بفتح الدال — وهو الرجوع عن الشرب ، يقال : صدر الناس عن الوِرد ، إذا انصرفوا عنه .

و « أشتاتا » جمع شتيت ، أى : متفرق ، ومنه قولهم : شتت الله جمع الأعداء ، أى : فرق أمرهم .

وقوله — تعالى — « ليروا » فعل مضارع مبنى للمجهول ، وماضيه المبنى للمعلوم « أراه » بمعنى أطلعه .

أى : فى هذا اليوم الذى تتزلزل فيه الأرض زلزلة شديدة .... يخرج الناس من قبورهم متجهين أشتاتا إلى موقف الحساب ، وكل واحد منهم مشغول بنفسه ، لكى يبصروا جزاء أعمالهم ، التى عملوها فى دنياهم ....

(١) تفسير جزء عم ص ١٠٦ للشيخ محمد عبده .

وجاء فعل «ليروا» مبنياً للمجهول، لأن المقصود رؤيتهم لأعمالهم، وليس المقصود تعيين من يريهم إياها.

ثم فصل - سبحانه - ما يترتب على هذه الرؤية من جزاء فقال: «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره».

و «المثقال»: مفعال من الثقل، ويطلق على الشيء القليل الذي يحتمل الوزن. و «الذرة» تطلق على أصغر النمل، وعلى الغبار الدقيق الذي يتطاير من التراب عند النفخ فيه.

والمقصود المبالغة في الجزاء على الأعمال مهما بلغ صغرها، وحقر وزنها

والفاء: للتفريع على ما تقدم. أي: في هذا اليوم يخرج الناس من قبورهم متفرقين لا يلوى أحد على أحد. متجهين إلى موقف الحساب ليطلعوا على جزاء أعمالهم الدنيوية... فمن كان منهم قد عمل في دنياه عملا صالحاً رأى ثماره الطيبة، حتى ولو كان هذا العمل في نهاية القلة، ومن كان منهم قد عمل عملا سيئاً في دنياه، رأى ثماره السيئة، حتى ولو كان هذا العمل - أيضاً - في أدنى درجات القلة.

فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد جمعتا أسمى وأحكم ألوان الترغيب والترهيب، ولذا قال كعب الأحبار: لقد أنزل الله - تعالى - على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - آيتين، أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف، ثم قرأ هاتين الآيتين».

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين عددا من الأحاديث، منها: ما أخرجه الإمام أحمد، أن صعصعة بن معاوية، أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - هاتين الآيتين، فقال: حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها.

وفي صحيح البخاري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة».

وفى الصحيح - أيضا - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا تحقرن من المعروف شيئا ، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط .

وكان - صلى الله عليه وسلم - يقول لعائشة : يا عائشه ، استترى من النار ولو بشق تمرة ، فإنها تسد من الجائع سدها من الشبعان . يا عائشة ، إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله - تعالى - طالبا » (١) .

ومن الآيات الكريمة التى وردت فى معنى هاتين الآيتين قوله - تعالى - « إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما » .

وقوله - سبحانه - : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا ممن يواظبون على فعل الخيرات
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهر - مدينة نصر
مساء الجمعة ٥ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ
٧ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٨٢

(تفسير سورة)

العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٠ سورة « العاديات »

١ — سورة « العاديات » وتسمى — أيضاً — سورة « والعاديات » بإثبات الواو ، يرى بعضهم أنها من السور المكية ، ولم يذكر فى ذلك خلافا الإمام ابن كثير ، ويرى بعضهم أنها مدنية .

قال الآلوسى : مكية فى قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء . ومدنية فى قول أنس وقتادة وإحدى الروايتين عن ابن عباس . فقد أخرج عند البزار ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والدرقطنى ، وابن مردويه أنه قال : بعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خيلا ، فاستمرت شهرا لا يأتيه منها خبر ، فنزلت هذه السورة . . » (١) .

وهذه الرواية التى ساقها الآلوسى وغيره فى سبب نزول هذه السورة ، ترجح أنها مدينة ، وإن كان كثير من المفسرين يرى أنها مكية ، والعلم عند الله — تعالى — .

٢ — وعدد آياتها إحدى عشرة آية ، ومن أهم أغراضها ومقاصدها ، التنوية بشأن الجهاد والمجاهدين ، وبفضل الخيل التى تربط من أجل إعلاء كلمة الله — تعالى — ، وبيان ما جبل عليه الإنسان من حرص على منافع الدنيا ، وتحريض الناس على أن يتزودوا بالعمل الصالح الذى ينفعهم يوم الحساب . .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٢١٤

قال ـ تعالى ـ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ
صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ
الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ
لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩)
وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)

والعاديات : جمع عادية ، اسم فاعل من العدو ، وهو المشى السريع ، وأصل الياء فى العاديات واو ، فلما وقعت متطرفة بعد كسرة قلبت ياء ، مثل الغازيات من الغزو . .

والضَّبْحُ : اضطراب النفس المتردد فى الحنجرة دون أن يخرج من الفم والمراد به هنا : صوت أنفاس الخيل عند جريها بسرعة . وقيل : الضبح نوع من السير والعدو ، يقال : ضبحت الخيل ، إذا عدت بشدة .

وهو مصدر منصوب بفعله المقدر ، أى : يضبحن ضبحا ، والجملة حال من « العاديات » .

والموريات : جمع مُورِيَة ، اسم فاعل من الإيراء ، وهو إخراج النار ، تقول : أَوْرَى فلان ، إذا أخرج النار بزند ونحوه .

والقَدْح : ضرب شىء بشىء لكى يخرج من بينهما شرر النار .

والمراد به هنا : النار التى تخرج من أثر احتكاك حوافر الخيل بالحجارة

خلال عدوها بسرعة . و « قدحا » منصوب بفعل محذوف ، أى : قدحن قدحا . .

و « المغيرات » جمع مغيرة ، وفعله أغار ، تقول : أغار فلان على فلان ، إذا باغته بفعل يؤذيه . و « صبحا » منصوب على الظرفيه .

وقوله : « فأثرن به نقعا » أى : هيجن وأثرن « النقع» أى : الغبار من شدة الجرى . تقول : أثرت الغبار أثيره ، إذا هيجته وحركته . والنون فى « أثرن » ضمير العاديات .

وقوله : « فوسطن به جمعا » أى : فتوسطن فى ذلك الوقت جموع الأعداء ، ففرقنها ، ومزقنها . تقول : وَسَطتُ القومَ أسِطهم وَسْطاً ، إذا صرت فى وسطهم .

والمراد بالعاديات ، والموريات ، والمغيرات : خيل المجاهدين فى سبيل الله ، والكلام على حذف الموصوف .

والمعنى : وحق الخيل التى يعتلى صهواتها المجاهدون من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى - ، والتى تجرى بهم فى ساحات القتال ، فيسمع صوت أنفاسها ، والتى تظهر شرر النار من أثر صك حوافرها بالحجارة وما يشبهها والتى تغير على العدو فى وقت الصباح ، فتثير الغبار ، وتمزق جموع الأعداء . . .

وحق هذه الخيل الموصوفة بتلك الصفات . . «إن الإنسان لربه لكنود» .

وقد أقسم - سبحانه - بالخيل المستعملة للجهاد فى سبيله ، للتنبيه على فضلها ، وفضل ربطها ، ولما فيها من المنافع الدينية والدنيوية ، ولما يترتب على استعمالها فى تلك الأغراض من أجر وغنيمة ، ومن ترويع لجموع المشركين ، وتمزيق لصفوفهم . .

وأسند - سبحانه - الإغارة إليها - مع أنها فى الحقيقة لراكبيها - ، لأن الخيول هى عدة الإغارة ، وهى على رأس الوسائل لبلوغ النصر على الأعداء . .

وقيل : المراد بالعاديات : الإبل ، إلا أن الأوصاف المذكورة فى الآيات الكريمة من الضبح والإغارة . . تؤيد أن المراد بها الخيل .

قال صاحب الكشاف : أقسم - سبحانه - بخيل الغزاة تعدو فتضبح . والضبح : صوت أنفاسها إذا عدون . .

فإن قلت : علام عطف « فأثرن » ؟ قلت : على الفعل الذى وضع اسم الفاعل موضعه ، - وهو قوله « فالمغيرات صبحا » وذلك لصحة عطف الفعل على الاسم الذى يشبه الفعل كاسم الفاعل - لأن المعنى : واللاتى عدون ، فأورين ، فأغرن ، فأثرن الغبار . . »(١) .

والتعبير بالفاء فى قوله - تعالى - : « فأثرن . . فوسطن » ، وبالفعل الماضى ، للإشارة إلى أن إثارة الغبار ، وتمزيق صفوف الأعداء ، قد تحقق بسرعة ، وأن الظفر بالمطلوب قد تم على أحسن الوجوه .

وقوله - سبحانه - : « إن الإنسان لربه لكنود » جواب القسم . والكنود الجحود ، يقال : فلان كند النعمة - من باب دخل - ، إذا جحدها ولم يشكر الله عليها . وكند الحبل : أى : قطعه ، وأصل الكنود : الأرض التى لا تنبت شيئاً ، فشبه بها الإنسان الذى يمنع الحق والخير ، ويجحد ما عليه من حقوق وواجبات . .

أى : إن فى طبع الإنسان - إلا من عصمه الله - تعالى - الكنود لربه والكفران لنعمته ، والنسيان لمنته وإحسانه ، والغفلة عن المواظبة على شكره

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٧٨٧ .

ـ تعالى ـ ، والتضرع إليه ـ سبحانه ـ عند الشدائد والضراء . . والتشاغل عن ذلك عند العافية والرخاء . .

فالمراد بالإنسان هنا : جنسه ، إذ أن هذه الصفة غالبة على طبع الإنسان بنسب متفاوتة ، ولا يسلم منها إلا من عصمه الله ـ تعالى ـ .

وقيل : المراد بالإنسان هنا : الكافر ، وأن المقصود به ، الوليد بن المغيرة . . .

والأولى أن يكون المراد به الجنس ، ويدخل فيه الكافر دخولا أوليا.

وقوله ــ تعالى ــ : « وإنه على ذلك لشهيد » أى : وإن الإنسان على كنوده وجحوده لنعم ربه ، لشهيد ، أى : لشاهد على نفسه بذلك ، لظهور أثر هذه الصفة عليه ظهورا واضحا ، إذ هو عند لجاجه فى الطغيان يجحد الجلى من النعم ، ويعبد من دون خالقه أصناما ، مع أنه إذا سئل عن خلقه، اعترف وأقر بأن خالقه هو الله ــ تعالى ــ ، كما قال ــ سبحانه ــ: « ولئن سألتهم من خلقهم الله . . » .

قال الإمام الشيخ محمد عبده : قوله : « وإنه على ذلك لشهيد » أى : وإن الإنسان لشهيد على كنوده ، وكفره لنعمة ربه ، لأنه يفخر بالقسوة على من دونه ، وبقوة الحيلة على من فوقه ، وبكثرة ما فى يده من المال مع الحذق فى تحصيله ، وقلما يفتخر بالمرحمة ، وبكثرة البذل . . ـ اللهم إلا أن يريد غشا للسامع ـ ، وفى ذلك كله شهادة على نفسه بالكنود ، لأن ما يفتخر به ، ليس من حق شكر النعمة ، بل من آيات كفرها »(١) .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله ــ تعالى ــ هنا « وإنه » يعود على الخالق ــ سبحانه ــ ، أى : وإن الله ــ تعالى ــ لعليم ولشهيد على

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٠٩ .

مايسلكه هذا الإنسان من جحود، فيكون المقصود من الآية الكريمة، التهديد والوعيد..

قالوا: والأول أولى، لأنه هو الذى يتسق مع سياق الآيات، ومع اتحاد الضمائر فيها.

وقوله - تعالى - : «وإنه لحب الخير لشديد»، أى: وإن هذا الإنسان لشديد الحب لجمع المال، ولكسبه من مختلف الوجوه بدون تفرقة - فى كثير من الأحيان - بين الحلال والحرام، ولكنزه والتكثر منه وبالبخل به على من يستحقه..

وصدق الله إذ يقول: «قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى، إذا لأمسكتم خشية الإنفاق، وكان الإنسان قتورا»(١).

وقوله - تعالى - : «أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور. وحصل ما فى الصدور. أن ربهم بهم يومئذ لخبير» تهديد لهذا الإنسان الكنود... وتحريض له على التفكر والاعتبار، وتذكير له بأهوال يوم القيامة.

أى: أيفعل ما يفعل هذا الإنسان الجحود لنعم ربه.. فلا يعلم مآله وعاقبته إذا «بعثر»..

أى: إذا أثير وأخرج وقلب رأسا على عقب «ما فى القبور» من أموات حيث أعاد - سبحانه - إليهم الحياة، وبعثهم للحساب والجزاء، كما قال - تعالى - : «وإذا القبور بعثرت» أى: أثيرت وأخرج ما فيها. يقال بعثر فلان متاعه، إذا جعل أسفله أعلاه..

«وحصل ما فى الصدور» أى: وجمع ما فى القلوب من خير وشر، وأظهر ما كانت تخفيه، وأبرز ما كان مستورا فيها، بحيث لا يبقى لها سبيل إلى الإخفاء أو الكتمان..

(١) سورة الإسراء. الآية ١٠٠.

وأصل التحصيل : إخراج اللب من القشر ، والمراد به هنا : إظهار وإبراز ما كانت تخفيه الصدور ، والمجازاة على ذلك .

ومفعول « يعلم » محذوف ، لتذهب النفس فيه كل مذهب ، ويجول الفكر فى استحضاره وتقديره .

وقوله - تعالى - : « إن ربهم بهم يومئذ لخبير » جملة مستأنفة لزيادة التهديد والوعيد .

أى : إن رب المبعوثين للحساب والجزاء ، لعليم علما تاماً بأحوالهم الظاهرة والباطنة ، فى ذلك اليوم الهائل الشديد الذى يبعث فيه الناس من قبورهم ، وسيجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ، وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من أهل طاعته ومثوبته

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

٨ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ

١٠ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

تفسير سورة

القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠١ تفسير سورة « القارعة »

سورة « القارعة » من السور المكية الخالصة ، وكان نزولها بعد سورة « قريش » ، وقبل سورة « القيامة » ، وعدد آياتها إحدى عشرة آية فى المصحف الكوفى ، وعشر آيات فى الحجازى ، وثمان آيات فى البصرى والشامى . .

وهى من السور التى فصلت الحديث عن أهوال يوم القيامة ، لكى يستعد الناس لاستقباله ، بالإيمان والعمل الصالح .

قال — تعالى — :

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

ولفظ « القارعة » اسم فاعل من القرع ، وهو الضرب بشدة بحيث يحصل منه صوت شديد .

والمراد بها هنا : القيامة ، ومبدؤها النفخة الأولى ، ونهايتها : قضاء الله — تعالى — بين خلقه ، بحكمه العادل ، وجزاءه لكل فريق بما يستحقه من جنة أو نار .

وسميت القيامة بذلك ــ كما سميت بالطامة ، والصاخة ، والحاقة ، والغاشية . . الخ ــ) لأنها تقرع القلوب بأهوالها ، وتجعل الأجرام العلوية والسفلية يصطك بعضها ببعض ، فيحصل لها ما يحصل من تزلزل واضطراب وتقرع أعداء ــ تعالى ــ بالخزى والعذاب والنكال ، كما قال ـ تعالى ـ : « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة . . . » .

والاستفهام فى قوله ــ سبحانه ــ : « وما أدراك ما القارعة » استفهام عن حقيقتها ، والمقصود به التهويل من أمرها ، والتفظيع من حالها ، وتنبيه النفوس إلى ما يكون فيها من شدائد ، تفزع لها القلوب فزعا لا تحيط العبارة بتصوير ، ولا تستطيع العقول أن تدرك كنهه .

و « القارعة » : مبتدأ ، و « ما » : مبتدأ ثان ، و « القارعة » خبر المبتدأ الثانى ، وجملة المبتدأ الثانى وخبره فى محل رفع خبر المبتدأ الأول .

وقوله ــ سبحانه ــ : « وما أدراك ما القارعة » معطوف على جملة « ما القارعة » ، والخطاب فى قوله « وما أدراك . . » لكل من يصلح له .

أى : وما أدراك ــ أيها المخاطب ــ كنهها فى الشدة ؟ إنها فى الشدة والهول شىء عظيم ، لا يعلم مقدارها إلا الله ـ تعالى ـ .

فالمقصود من الآيات الكريمة : تعظيم شأنها ، والتعجيب من حالها ، وأنها تختلف عن قوارع الدنيا ــ مهما بلغ عظمها ــ اختلافا كبيرا .

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ أن معرفة حقيقتها أمر عسير . . أتبع ذلك ببيان أحوال الناس وقت وقوعها فقال : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . . . » .

و « يوم » منصوب بفعل مقدر . والفراش : هو الحيوان الذى يتهافت نحو النار ، وسمى بذلك لأنه يتفرش وينتشر من حولها .

والمبثوث : المنتشر المتفرق . تقول : بثثت الشيء ، إذا فرقته ، ومنه قوله – تعالى – : «وزرابي مبثوثة» أي : متناثرة متفرقة .

أي : تحصل القارعة يوم يكون الناس في انتشارهم وكثرتهم واضطرابهم وإقبالهم نحو الداعي لهم نحو أرض المحشر . . . كالحشرات الصغيرة المتهافتة نحو النار .

فأنت ترى أنه – سبحانه – قد شبه الناس في هذا الوقت العصيب ، بالفراش المتفرق المنتشر في كل اتجاه ، وذلك لأن الناس في هذا اليوم يكونون في فزع ، يجعل كل واحد منهم مشغولا بنفسه ، وفي حالة شديدة من الخوف والاضطراب .

وقوله – سبحانه – : «وتكون الجبال كالعهن المنفوش» بيان لحالة أخرى من الأحوال التي يكون عليها هذا الكون يوم القيامة .

والعهن : الصوف ذو الألوان المتعددة ، والمنفوش : المفرق بعضه عن بعض .

أي : وتكون الجبال في ذلك اليوم ، كالصوف الذي ينفش ويفرق باليد ونحوها ، لخفته وتناثر أجزائه ، حتى يسهل غزله .

والمتأمل في هذه الآيات الكريمة ، يراها قد اشتملت على أقوى الأساليب وأبلغها ، في التحذير من أهوال يوم القيامة ، وفي الحض على الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح .

لأنها قد ابتدأت بلفظ القارعة ، المؤذن بأمر عظيم ، ثم ثنت بالاستفهام المستعمل في التهويل ، ثم أعادت اللفظ بذاته بدون إضمار له زيادة في تعظيم أمره ، ثم جعلت الخطاب لكل من يصلح له ، ثم شبهت الناس فيه تشبيها تقشعر منه الجلود ، ثم وصفت الجبال – وهي المعروفة بصلابتها ورسوخها – بأنها ستكون في هذا اليوم كالصوف المتناثر الممزق .

ثم بين ـ سبحانه ـ أحوال السعداء والأشقياء فى هذا اليوم فقال :
« فأما من ثقلت موازينه . فهو فى عيشة راضيه . .

أى : فأما من ثقلت موازين حسناته ، ورجحت أعماله الصالحة على غيرها . . فهو فى عيشة مرضية ، أو فى عيشة ذات رضا من صاحبها لها، لأنها عيشة هنيئة كريمة . .

« وأما من خفت موازينه » أى : خفت موازين حسناته ، وثقلت موازين سيئاته ، « فأمه هاوية » أى : فرجعه ومأواه الذى يأوى إليه ، غار سحيقة يهوى إليها بدون رحمة أو شفقة ، بسبب كفره وفسوقه .

فالمراد بالأم هنا : المرجع والمأوى ، وبالهاوية : النار التى يسقط فيها ، وسميت النار بذلك ، لشدة عمقها ، وسمى المأوى أما ، لأن الإنسان يأوى إليه كما يأوى ويلجأ إلى أمه . .

ويرى بعضهم أن المراد بأمه هنا الحقيقة ، لأن العرب يكنون عن حال المرء بحال أمه فى الخير وفى الشر ، لشدة محبتها له . .

قال صاحب الكشاف : قوله : « فأمه هاوية » من قولهم إذا دعوا على الرجل بالهلكة ، هوت أمه ، لأنه إذا هوى ـ أى سقط وهلك ـ ، فقد هوت أمه ثكلا وحزنا . فكأنه قيل : وأمامه خفت موازينه فقد هلك . وقيل : « هاوية » من أسماء النار ، وكأنها النار العميقة لهوى أهل النار فيها مهوى بعيدا ، كما روى : « يهوى فيها سبعين خريفا » ، أى : فمأواه النار . وقيل للمأوى : أم ، على التشبيه ، لأن الأم مأوى الولد ومفزعه . . »(١) .

وقال بعض العلماء : واعلم أنه يجب علينا أن نؤمن بما ذكره الله ـ تعالى ـ من الميزان فى هذه الآية وما يشبهها ، وليس علينا أن نبحث

---
(١) تفسير الكشاف ح ٤ ص ٧٩٠ .

فيما وراء ذلك مما لم يثبت عن الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - ، ونكل ما وراء ذلك إلى علام الغيوب ، على أن وزن الأعمال ، أو وزن صحائفها أو وزن الصور الجيلة ، كل ذلك أمر ممكن ، لا يترتب على فرض وقوعه محال ، فوقوع شيء من ذلك ، لا يعجز الله - تعالى - ولا يقف أمام قدرته الغالبة . . . »(١) .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بما يزيد من هول هذه الهاوية فقال : « وما أدراك ماهيه ، نار حامية » .

أى : وأى شيء يخبرك بكنه تلك النار السحيقة ؟ إننا نحن الذين نخبرك بذلك فنقول لك - أيها المخاطب - على سبيل التحذير من العمل الذى يؤدى إليها : إنها نار قد بلغت النهاية فى حرارتها . .

نسأل الله - تعالى - أن يعيذنا جميعاً منها

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر

مساء الثلاثاء ٩ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧هـ

١١ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

---

(١) تفسير جزء عم ص ٣٠٢ لفضيلة الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد - رحمه الله -

(تفسير سورة)

التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٢ « سورة التكاثر »

١ — سورة «التكاثر» من السور المكية، وسميت في بعض المصاحف سورة « ألهاكم »، وكان بعض الصحابة يسمونها « المَقبُرة ».

قال القرطبي : وهي مكية في قول المفسرين. وروى البخاري أنها مدنية وهي ثماني آيات.

وقد ذكروا في سبب نزولها روايات منها : ماروي عن ابن عباس أنها نزلت في حيين من قريش، بني عبد مناف، وبني سهم، تكاثروا بالسادة والأشراف في الإسلام، فقال كل حي منهم : نحن أكثر سيدا، وأعز نفر .. فنزلت هذه السورة ...» (١).

٢ — ومن أغراض السورة الكريمة : النهي عن التفاخر والتكاثر، والحض على التزود بالعمل الصالح، وعلى ماينجي من العذاب، والتأكيد على أن يوم القيامة حق، وعلى أن الحساب حق، وعلى أن الجزاء حق ....

---

(١) راجع تفسير القرطبي جـ ٢٠ ص ١٦٨

قال - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ
الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧)
ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)

وقوله - سبحانه - : « ألهاكم » من اللهو وهو الغفلة عن مواطن الخير، والانشغال عما هو نافع .

والتكاثر : التبارى والتباهى بالكثرة فى شىء مرغوب فيه كالمال والجاه . . . .

أى : شغلكم - أيها الناس - التباهى والتفاخر بكثرة الأموال والأولاد والعشيرة ، كما ألهاكم حب الدنيا عن القيام بما كلفناكم به . . .

« حتى زرتم المقابر » أى : بقيتم على هذه الحال ، حتى أتاكم الموت ، ودفنتم فى قبوركم ، وانصرف عنكم أحب الناس إليكم ، وبقيتم وحدكم .

والخطاب عام لكل عاقل ، ويدخل فيه المشركون والفاسقون ، الذين آثروا الدنيا على الآخرة دخولا أوليا . .

فالمراد بزيارة المقابر : انتهاء الآجال ، والدفن فى القبور بعد الموت . وعبر - سبحانه - عن ذلك بالزيارة ، لأن الميت يأتى إلى القبر كالزائر له ، ثم بعد ذلك يخرج منه يوم البعث والنشور ، للحساب والجزاء .

فوجوده فى القبر إنما هو وجود مؤقت بوقت يعلمه الله — تعالى — .

وقد روى أن أعرابيا عند ما سمع هذه الآية قال : بعثوا ورب الكعبة ، فقيل له كيف ذلك ؟ فقال : لأن الزائر لا بد أن يرتحل .

وقد نهى النبى — صلى الله عليه وسلم — عن التهالك على حطام الدنيا ، فى أحاديث كثيرة منها ، ما رواه مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن الشخير قال : انتهيت إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يقول : « ألهاكم التكاثر » قال : يقول ابن آدم مالى مالى ، وهل لك من مالك يا بن آدم إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » .

وقوله — تعالى — : « كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون » ردع وزجر عن الانشغال عن طاعة الله ، وعن التكاثر بالأموال والأولاد

وكرر لفظ « كلا » ثلاث مرات فى هذه السورة ، لتأكيد هذا الزجر والردع عن كل ما يشغل الإنسان عن وجوه الخير والبر .

والتعبير بقوله : « سوف » لزيادة الزجر ، ولتحقيق حصول العلم ، وحذف مفعول « تعلمون » لظهوره من المقام . أى : اتركوا التشاغل بالدنيا والتفاخر بالأموال ، فإنكم إن بقيتم على ذلك بدون توبة صادقة ، فسوف تعرفون سوء عاقبة ذلك معرفة لا يخامرها شك ، ولا يقاربها ريب .

وجملة « ثم كلا سوف تعلمون » مؤكدة تأكيدا لفظيا للجملة التى قبلها ، وهذا التأكيد المقصود منه المبالغة فى الردع والزجر والتحذير من التكاثر والتفاخر . . .

ثم أضاف — سبحانه — إلى كل ما سبق من تحذيرات ، زواجر أخرى فقال : « كلا لو تعلمون علم اليقين . لترون الجحيم . ثم لترونها عين اليقين . . . . . » .

وجواب « لو » محذوف لقصد التهويل ، و « اليقين » فعيل بمعنى مفعول ؛

وعلم اليقين : هو العلم الجازم المطابق للواقع الذى لا شك فيه . والإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أو من إضافة العام إلى الخاص .

أى : لو تعلمون علما موثوقا به سوء عاقبة انشغالكم عن ذكر الله — تعالى — ، وتكاثركم وتفاخركم بالأموال والأولاد . . . لشغلكم هذا العلم اليقينى عما أنتم عليه من التشاغل والتكاثر .

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة : الزيادة فى ردعهم ، لأنه من عادة الغافلين المكابرين ، أنك إذا ذكرتهم بالحق وبالرشاد . . . زعموا أنهم ليسوا فى حالة إلى هذا الإرشاد ، لأنهم أهل علم ومعرفة بالعواقب ، فكانت هذه الآية الكريمة بمثابة تنبيههم بأنهم ليسوا على شىء من العلم الصحيح ، لأنهم لو كانوا كذلك لما تفاخروا ، ولما تكاثروا .

وقوله — سبحانه — : « لترون الجحيم » جواب قسم مقدر ، قصد به تأكيد الوعيد الشديد فى التهديد ، وبيان أن المهدد به رؤية الجحيم فى الآخرة . أى : والله لترون الجحيم فى الآخرة .

ثم أكد — سبحانه — هذا المعنى تأكيدا قويا فقال : « ثم لترونها عين اليقين » أى : ثم لترون الجحيم رؤية هى ذات اليقين ونفسه وعينه وذلك بأن تشاهدوها مشاهدة حقيقية ، بحيث لا يلتبس عليكم أمرها .

وقد قالوا إن مراتب العلم ثلاثة : علم اليقين وهو ما كان ناتجاً عن الأدلة والبراهين .

وعين اليقين : وهو ما كان عن مشاهدة وانكشاف .

وحق اليقين : وهو ما كان عن ملابسة ومخالطة .

ومثال ذلك أن تعلم بالأدلة أن الكعبة موجودة ، فذلك علم اليقين ، فإذا رأيتها بعينيك فذلك عين اليقين ، فإذا ما دخلت فى جوفها فذلك حق اليقين . . . .

فأنت ترى أنه — سبحانه — قد حذر الناس من الاشتغال عن طاعته ، ومن التباهى والتكاثر ، بأبلغ أساليب التأكيد وأقواها .

ثم ختم — سبحانه — السورة بقوله : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » ، والمراد بالنعيم هنا : ما يتنعم به الإنسان خلال حياته الدنيوية من مال وولد ، ومن طعام وشراب ، ومن متعة وشهوة . . من النعومة التى هى ضد الخشونة .

أى : ثم إنكم بعد ذلك — أيها الناس — والله لتسألن يوم القيامة عن ألوان النعم التى منحكم الله - تعالى — إياها ، فمن أدى ما يجب عليه نحوها من شكر الله — تعالى — عليها كان من السعداء ، ومن جحدها وغمطها وشغلته عن طاعة ربه ، وتباهى وتفاخر بها . . . كان من الأشقياء ، كما قال — تعالى — : « ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم » .

فالمراد بالسؤال إنما هو سؤال التكريم والتبشير للمؤمنين الشاكرين ، وسؤال الإهانة والتوبيخ للفاسقين الجاحدين .

والآية الكريمة دعوة حارة للناس ، إلى شكر نعمه — تعالى — ، واستعمالها فيما خلقت له .

قال القرطبى ما ملخصه : والسؤال يكون للمؤمن والكافر . . . . والجمع بين الأخبار التى وردت فى ذلك : أن الكل يسألون ، ولكن

سؤال الكفار توبيخ ، لأنه قد ترك الشكر ، وسؤال المؤمن سؤال تشريف ، لأنه قد شكر ، وهذا النعيم فى كل نعمة ، (١) .

نسأل الله — تعالى — أن يجعلنا من عباده الشاكرين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة — مدينة نصر
صباح الجمعة ١١ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ
١٣ / ١١ / ١٩٨٦ م

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ١٧٧

تفسير سورة

العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٣ سورة «العصر»

١ — سورة «العصر» وتسمى سورة «والعصر» من السور المكية عند جمهور المفسرين، وكان نزولها بعد سورة «الانشراح» وقبل سورة «العاديات» فهي السورة الثالثة عشرة في ترتيب النزول . .

وقيل هي مدنية، والمعول عليه الأول، لأنه المنقول عن ابن عباس وابن الزبير وغيرهما، وعدد آياتها ثلاث آيات .

٢ — وقد اشتملت على بيان من هم أهل الخسران، ومن هم أهل السعادة . . .

قال الآلوسي : وهي على قصرها جمعت من العلوم ما جمعت، فقد روى عن الشافعي أنه قال : لو لم ينزل من القرآن غير هذه السورة لكفت الناس، لأنها شملت جميع علوم القرآن .

وأخرج الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب عن أبي حذيفة — وكانت له صحبة — أنه قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا التقيا لم يتفرقا، حتى يقرأ أحدهما على الآخر، سورة «والعصر» ثم يسلم أحدهما على الآخر»(١) أي : عند المفارقة — .

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢٠ ص ١٧٨ .

قال - تعالى - :

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

وللعلماء أقوال متعددة فى المقصود بالعصر هنا فمنهم من يرى أن المقصود به : الدهر كله ، لما فيه من العبر التى تدل دلالة واضحة على عظيم قدرة الله - تعالى - ، ولما فيه من الأحداث التى يراها الناس بأعينهم ، ويعرفونها عن غيرهم . .

فهم يرون ويسمعون كم من غنى قد صار فقيرا ، وقوى قد صار ضعيفا ، ومسرورا قد أصبح حزينا . . ورحم الله القائل .

أشاب الصغير وأفنى الكبير ، كر الغداة ومر العشى .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : « والعصر » أى : الدهر ، قاله ابن عباس وغيره . فالعصر مثل الدهر . . وأقسم به - سبحانه - لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها . . . .

ومنهم من يرى أن المقصود به : وقت صلاة العصر ، وقد صدر صاحب الكشاف تفسيره لهذه الآية بهذا الرأى فقال : أقسم - سبحانه - بصلاة العصر لفضلها ، بدليل قوله - تعالى - : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » - وهى صلاة العصر - ، وقوله - ﷺ - : من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِر أهله وماله » ، ولأن التكليف فى أدائها أشق لتهافت الناس فى تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار . . . »(١) .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٩٣ .

ومنهم من يرى أن المراد بالعصر هنا : عصر النبوة ، لأفضليته بالنسبة لما سبقه من عصور . . .

وقد رجح الإمام ابن جرير القول الأول فقال : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن ربنا أقسم بالعصر ، والعصر اسم للدهر ، وهو العشى ، والليل والنهار . . . »(١) .

وقوله — سبحانه — : « إن الإنسان لفى خسر . . . » جواب القسم ، والمراد بالإنسان : جنسه ويدخل فيه الكافر دخولا أوليا . والخسر مثل الخسران ، كالكفر بمعنى الكفران . .

أى : إن جنس الإنسان لا يخلو من خسران ونقصان وفقدان للربح في مساعيه وأعماله طوال عمره ، وإن كان هذا الخسران يتفاوت قـــوة وضعفا . . .

فأخسر الأخسرين هو الكافر الذى أشرك مع خالقه إلها آخر في العبادة ، وأقل الناس خسارة هو المؤمن الذى خلط عملا صالحا بآخر سيئا ثم تاب إلى الله — تعالى — توبة صادقة .

وجاء الكلام بأسلوب القسم ، لتأكيد المقسم عليه ، وهو أن جنس الانسان في خسر .

وقال — سبحانه — « لفى خسر » للإشعار بأن الإنسان كأنه مغمور بالخسر ، وأن هذا الخسران قد أحاط به من كل جانب ، وتنكير لفظ « خسر » للتهويل . أى : لفى خسر عظيم .

---

(١) تفسير ابن جرير حـ ٣٠ ص ١٨٨ .

وقوله – سبحانه – : «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . .» استثناء مما قبله، والمقصود بهذه الآية الكريمة تسلية المؤمنين الصادقين، وتبشيرهم بأنهم ليسوا من هذا الفريق الخاسر .

وقوله – تعالى – : «وتواصوا» فعل ماض، من الوصية وهى تقديم النصح للغير مقرونا بالوعظ .

والحق : هو الأمر الذى ثبتت صحته ثبوتا قاطعا . .

والصبر : قوة فى النفس تعينها على احتمال المكاره والمشاق . .

أى : أن جميع الناس فى خسران ونقصان . . إلا الذين آمنوا بالله – تعالى – إيمانا حقا، وعملوا الأعمال الصالحات، من صلاة وزكاة وصيام وحج . . وغير ذلك من وجوه الخير، وأوصى بعضهم بعضا بالتمسك بالحق، الذى على رأسه الثبات على الإيمان وعلى العمل الصالح . . وأوصى بعضهم بعضا كذلك بالصبر على طاعة الله – تعالى –، وعلى البلايا والمصائب والآلام . . التى لا تخلو عنها الحياة . .

فهؤلاء المؤمنون الصادقون، الذين أوصى بعضهم بعضا بهذه الفضائل ليسوا من بين الناس الذين هم فى خسران ونقصان، لأن إيمانهم الصادق وعملهم الصالح . . قد حماهم من الخسران .

قال بعض العلماء : وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على الوعيد الشديد، وذلك لأنه – تعالى – حكم بالخسارة على جميع الناس، إلا من كان متصفا بهذه الأشياء الأربعة، وهى : الإيمان، والعمل الصالح، والتواصى بالحق، والتواصى بالصبر، فدل ذلك على أن النجاة معلقة

بمجموع هذه الأمور ، وأنه كما يجب على الإنسان أن يأتى من الأعمال ما فيه الخير والنفع ، يجب عليه – أيضاً – أن يدعو غيره إلى الدين ، وينصحه بعمل الخير والبر ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن يثبت على ذلك ، فلا يحيد عنه ، ولا يزحزحه عن الدعوة إليه ما يلاقيه من مشاق . . »(١) .

نسأل الله – تعالى – أن يجعلنا من أصحاب هذه الصفات ؟

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة – مدينة نصر
١٣ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ
١٥ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

---

(١) تفسير جزء « عم » ص ٣١٢ للشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد – رحمه الله – .

(تفسير سورة)

الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٤ سورة « الهُمَزَة »

١ — سورة « الهمزة » من السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة « القيامة » ، وقبل سورة « المرسلات » ، وعدد آياتها تسع آيات .

٢ — ومن أهم أغراضها : التهديد الشديد لمن يعيب الناس ، ويتهكم بهم ، ويتطاول عليهم ، بسبب كثرة ماله ، وجحوده للحق .

وقد ذكروا أن هذه السورة الكريمة نزلت فى شأن جماعة من أغنياء المشركين ، منهم : الوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، وأبى بن خلف . . كانوا يؤذون النبى — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه ، ويشيعون الأقوال السيئة عنهم . .

وهذا لا يمنع أن السورة الكريمة تشمل أحكامها كل من فعل مثل هؤلاء المشركون ، إذ العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

وقد افتتحت السورة الكريمة بقوله — تعالى — :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ
أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا
ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾
إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

والويل : لفظ يدل على الذم وعلى طلب العذاب والهلكة . . وقيل : اسم لواد فى جهنم .

والهمزة من الهمز ، بمعنى الطعن فى أعراض الناس ، ورميهم بما يؤذيهم . . . .

واللمزة من اللمز ، بمعنى السخرية من الغير ، عن طريق الإشارة باليد أو العين أو غيرهما .

قال الجمل : الهمزة واللمزة : هم المشاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة الباغون العيب للبرىء ، فعلى هذا هما بمعنى واحد .

وقيل : الهمزة الذى يعيبك فى الغيب ، واللمزة الذى يعيبك فى الوجه وقيل : العكس .

وحاصل هذه الأقوال يرجع إلى أصل واحد ، وهو الطعن وإظهار العيب ، ويدخل فى ذلك من يحاكى الناس فى أقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا منه ، . » (١) .

و « همزة لمزة » خبره . وهمزة ولمزة وصفان لموصوف محذوف .

أى : عذاب شديد ، وخزى عظيم ، لكل من يطعن فى أعراض الناس ويغض من شأنهم ، ويحقر أعمالهم وصفاتهم ، وينسب إليهم ما هم برءاء منه من عيوب .

والتعبير بقوله : « همزة ولمزة » يدل على أن تلك الصفات القبيحة ، كانت عادة متأصلة فيهم ، لأن اللفظ الذى بزنة « فعلة » — بضم الفاء وفتح العين — يؤتى به للدلالة على أن الموصوف به ديدنه ودأبه الإتيان بهذا الوصف ، ومنه قولهم : فلان ضحكة : إذا كان يكثر من الضحك .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٥٨٩

كما أن لفظ « فعلة » — بضم الفاء وسكون العين — يؤتى به للدلالة على أن الموصوف به ، يكثر أن يفعل به ذلك ، ومنه قولهم : فلان ضحكة، إذا كان الناس يكثرون الضحك منه .

وقوله — سبحانه — : « الذى جمع مالا وعدده » زيادة تشنيع وتقبيح للهمزة اللمزة . .

ومعنى « عدده » : جعله عدته وذخيرته ، وأكثر من عده وإحصائه لحرصه عليه ، والجملة الكريمة فى محل نصب على الذم .

أى : عذاب وهلاك لكل إنسان مكثر من الطعن فى أغراض الناس، ومن صفاته الذميمة أنه فعل ذلك بسبب أنه جمع مالا كثيرا ، وأنفق الأوقات الطويلة فى عده مرة بعد أخرى ، حبا له ، وشغفا به ، وتوهما منه أن هذا المال الكثير هو مناط التفاضل بين الناس .

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى « جمَّع » — بتشديد الميم — وهو مبالغة فى « جمع » بتخفيف الميم .

وقوله — تعالى — : « يحسب أن ماله أخلده » صفة أخرى من صفاته القبيحة ، والجملة يصح أن تكون مستأنفة استئنافا بيانياً ، جوابه بالسؤال مقدر ، كأنه قيل : ما باله يجمع المال ويهتم به؟ فكان الجواب : يحسب أن ماله أخلده .

ويصح أن تكون حالا من فاعل « جمع » ، أى : هذا الجاهل المغرور جمع المال وعدده ، حالة كونه يظن أن ماله يخلده فى الدنيا ، ويجعله فى مأمن من حوادث الدهر . .

قال الأستاذ الإمام محمد عبده : أى أن الذى يحمل هذا الهمزة اللمزة على الحط من أقدار الناس ، هو جمعه المال وتعديده . . فكلما نظر إلى كثرة ما عنده منه ، انتفخ وظن أنه من رفعة المكانة ، بحيث يكون كل ذى

فضل ومزية دونه . . ويظن أن ما عنده من المال ، قد حفظ له حياته التى هو فيها ، وأرصدها عليه ، فهو لا يفارقها إلى حياة أخرى ، يعاقب فيها على ما كسب من سيء الأعمال . . »(١) .

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك سوء عاقبة هذا الجاهل المغرور فقال : « كلا لينبذن فى الحطمة . وما أدراك ما الحطمة . . » .

و « كلا » حرف زجر وردع ، والمراد به هنا إبطال ما توهمه هذا المغرور من حسبانه أن ماله سيخلده . والنبذ : الطرح للشيء والإلقاء به مع التحقير والتصغير من شأنه .

والحطمة من الحطم ، وهو كسر الشيء بشدة وقوة ، ويقال : رجل حطمة ، إذا كان شديدا فى تحطيمه وكسره ، والمراد بالحطمة هنا : النار الشديدة الاشتعال ، التى لا تبقى على شيء إلا وأحرقته . .

أى : كلا ليس الأمر كما زعم هذا الهمزة اللمزة ، من أن ماله سيخلده ، بل الحق أنه والله ليطرحن بسبب أفعاله القبيحة فى النار التى تحطم كل شيء يلقى فيها ، والتى لا يعرف مقدار شدتها واشتعالها إلا الله — تعالى — .

فالمقصود بالاستفهام فى قوله — تعالى — : « وما أدراك ما الحطمة » تهويل أمر هــذه النار ، وتفظيع شأنها ، وبيان أن كنهها لا تدركه عقول البشر . .

وقوله — سبحانه — : « نار الله الموقدة » بيان للحطمة وتفصيل لأمرها بعد إبهامها . .

أى : الحطمة هى نار الله — تعالى — الشديدة الإحراق ، وإضيفت

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٧٧ .

إلى الله – تعالى – ، لزيادة الترويع والتخويف منها ، لأن خالقها – عز وجل – هو الذي لا يعجزه شيء .

وقوله – تعالى – : « التي تطلع على الأفئدة » صفة أخرى من صفات هذه النار . وقوله « تطلع » من الاطلاع ، بمعنى الوصول إلى الشيء بسرعة ، والكشف عن خباياه ، والنفاذ إلى منتهاه . .

أي : سيلقى بهذا الشقي في نار الله – تعالى – الموقده ، التي تصل إلى أعماق الأفئدة والقلوب ، فتحيط بها ، وتنفذ إليها ، فتحرقها إحراقا تاما .

وخصت الأفئدة التي هي القلوب بالذكر ، لأن ألطف ما في الأبدان وأشدها تألما بأدنى أذى يصيبها ، أو لأنها محل العقائد الزائفة ، والنيات الخبيثة ، ومنشأ الأعمال السيئة ، التي استحق هذا الهمزة اللمزة بسببها العقاب الشديدة .

ثم وصف – سبحانه – هذه النار بصفة ثالثة فقال : « إنها عليهم مؤصدة » أي : إن هذه النار من صفاتها – أيضاً – أنها مطبقة ومغلقة عليهم ، بحيث لا يستطيعون الخروج منها ، فقوله « مؤصدة » اسم مفعول من قولك أوصدت الباب ، إذا أغلقته بشدة ، بحيث لا يستطاع الخروج منه . .

وقوله – تعالى – : « في عمد ممده » صفه رابعة من صفات هذه النار الشديده الاشتعال .

وقوله « عَمَد » – بفتحتين – جمع عمود كأديم وأدم ، وقيل : جمع عماد ، وقيل : هو اسم جمع لعمود ، وليس جمعا له . والمراد بها الأوتار التي تشد بها أبواب النار .

وقرأ بعض القراء السبعة : « فى عمد » — بضمتين — جمع عمود ، كسرير وسرر . .

والممددة : الطويلة الممدودة من أول الباب إلى آخره .

أى : أن هذه النار مغلقة عليهم بأبواب محكمة ، هذه الأبواب قد شدت بأوتاد من حديد ، تمتد هذه الأوتاد من أول الأبواب إلى آخرها ، بحيث لا يستطيع من بداخلها الفكاك منها . .

وبذلك نرى السورة الكريمة قد توعدت هؤلاء المغرورين الجاهلين ، الطاعنين فى أعراض الناس . . بأشد ألوان العقاب ، وأكثره إهانة وخزيا لمن ينزل به .

نسأل الله — تعالى — أن يعيذنا من ذلك ،

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهر — مدينة نصر

صباح الأحد ١٤ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧هـ

١٦ من نوفبر سنة ١٩٨٦ م

تفسير سورة

الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٥ سورة « الفيل »

١ — سورة « الفيل » وسماها بعضهم سورة « ألم تر . . . » من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها خمس آيات ، وكان نزولها بعد سورة « قل يا أيها الكافرون » ، وقبل سورة « القيامة » فهى السورة التاسعة عشرة فى ترتيب النزول من بين السور المكية .

٢ — ومن أهم مقاصدها : تذكير أهل مكة بفضل الله — تعالى — عليهم ، حيث منع كيد أعدائهم عنهم ، وعن بيته الحرام ، وبيان أن هذا البيت له مكانته السامية عنده — تعالى — ، وأن من أراده بسوء قصمه الله — تعالى — ، وتبشير النبى — ﷺ — بأنه — سبحانه — كفيل برعايته ونصره على أعدائه ، كما نصر أهل مكة على أبرهة وجيشه ، وتثبيت المؤمنين على الحق ، لكى يزدادوا إيمانا على إيمانهم ، وبيان أن الله — سبحانه — غالب على أمره . .

٣ — وقصة أصحاب الفيل من القصص المشهوره عند العرب ، وملخصها : أن أبرهة الأشرم الحبشى أمير اليمن من قبل النجاشى ملك الحبشة ، بنى كنيسة بصنعاء لم ير مثلها فى زمانها . . ، وأراد أن يصرف الناس من الحج إلى بيت الحرام ، إلى الحج إليها . . . ثم جمع جيشا عظيما قدم به لهدم الكعبة . . فأهلكه الله — تعالى — ، وأهلك من معه من رجال وأفيال . . وكانت ولادته — صلى الله عليه وسلم — فى هذا العام . . . »(١) .

---

(١) راجع سيره ابن اسحاق جـ ١ ص ٤٣ . وتفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٢٣٢

وفى شأنهم نزل قوله – تعالى – :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

والاستفهام فى قوله – تعالى – : ألم تر . . . » للتقرير بما تواتر نقله وعلمه – صلى الله عليه وسلم – وعلمه غيره علما مستفيضا ، حتى إن العرب كانوا يؤرخون بتلك الحادثة ، فيقولون : هذا الامر حدث فى عام الفيل ، أو بعده أو قبله . . والمراد بالرؤية هنا : العلم المحقق .

وعبر – سبحانه – عن العلم بالرؤية ، لأن خبر هذه القصة – كما أشرنا – كان من الشهرة بمكان ، فالعلم الحاصل بها مساو فى قوة الثبوت للرؤية والمشاهدة . . .

والمعنى : لقد علمت – أيها الرسول الكريم – علما لا يخالطه ريب أو لبس ، ما فعله ربك بأصحاب الفيل ، الذين جاءوا لهدم الكعبة ، حيث أهلكتهم إهلاكا شنيعا ، كانت فيه العبرة والعظة ، والدلالة الواضحة على قدرتنا ، وعلى حمايتنا لبيتنا الحرام . .

وأوقع – سبحانه – الاستفهام عن كيفية ما أنزله بهم ، لا عن الفعل ذاته ، لأن الكيفية أكثر دلالة على قدرته – تعالى – ، وعلى أنه – سبحانه – لا يعجزه شىء . .

وفى التعبير بقوله : « فعل ربك . . . » إشارة إلى أن هذا الفعل لا يقدر

عليه أحد سواه – سبحانه – ، فهو الذى ربى نبيه - صلى الله عليه وسلم - وتعهده بالرعاية ، وهو الكفيل بنصره على أعدائه ، كما نصر أهل مكة ، على جيوش الحبشة . . وهم أصحاب الفيل .

ووصفوا بأنهم « أصحاب الفيل » ، لأنهم أحضروا معهم الفيلة ، ليستعينوا بها على هدم الكعبة ، وعلى إذلال أهل مكة . .

والاستفهام فى قوله – تعالى – : « ألم يجعل كيدهم فى تضليل » للتقرير – أيضاً – ، أى : لقد جعل الله – تعالى – مكر أصحاب الفيل وسعيهم لتخريب الكعبة ، فى « تضليل » أى : فى تحير وإبطال وتضييع ، بأن تبرهم – سبحانه تتبيرا ، ودمرهم تدميرا .

والكيد : إرادة وقوع الإضرار بالغير فى خفية ، وسمى – سبحانه – ما فعله أبرهه وجيشه كيدا ، مع أنهم جاءوا لهدم الكعبة جهارا نهارا . . لأنهم كانوا يضمرون من الحقد والحسد والعداوة لأهل مكة ، أكثر مما كانوا يظهرونه ، فهم - كما قال - تعالى - : « قد بدت العداوة من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر . . . » .

والمقصود بالتضليل هنا : التضييع والإبطال ، تقول : ضللت كيد فلان إذا جعلته باطلا ضائعا .

ثم بين – سبحانه – مظاهر إبطاله لكيدهم فقال : « وأرسل عليهم طيرا أبابيل » .

والطير : اسم جمع لكل ما من شأنه أن يطير فى الهواء ، وتنكيره للتنويع والتهويل والأبابيل : اسم جمع لا واحد له من لفظه . وقيل هو جمع إبالة ، وهى حزمة الحطب الكبيرة ، شبهت بها الجماعة من الطير فى تضامها وتلاصقها .

أى : لقد جعل الله – تعالى - كيد هؤلاء المعتدين فى تضييع وتخسير

. . بأن أرسل عليهم جماعات عظيمة من الطير ، أتتهم من كل جانب فى تتابع ، فكانت سبباً فى إهلاكهم والقضاء عليهم ، « وما يعلم جنود ربك إلا هو » .

وجملة « ترميهم بحجارة من سجيل » بيان لما فعلته تلك الطيور بإذن الله - تعالى - ، وهى حال من قوله « طيرا » ، والسجيل : الطين اليابس المستحجر . . .

قال بعض العلماء : قوله : « ترميهم بحجارة من سجيل » أى : من طين مستحجر محرق . أو بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون فى السجيل وهو الديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن السجين هو الديوان الذى كتبت فيه أعمالهم . واشتقاقه من الإسجال بمعنى الإرسال .

وعن عكرمة : كانت ترميهم بحجارة معها كالحمصة ، فإذا أصاب أحدهم حجر منها ، خرج به الجدرى ، وكان ذلك أول يوم رئى فيه الجدرى بأرض العرب .

وقال ابن عباس : كان الحجر إذا وقع على أحدهم نفط جلده - أى : احترق - ، فكان ذلك أول الجدرى . وقيل : إن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام .

وقال ابن جزى فى تفسيره : إن الحجر كان يدخل من رأس أحدهم ويخرج من أسفله .

ووقع فى سائرهم الجدرى والأسقام ، وانصرفوا وماتوا فى الطريق متفرقين ، وتمزق أبرهة قطعة قطعة . . . »(1) .

---

(1) تفسير « صفوة البيان » ج ٢ ص ٥٦٩ .
للشيخ حسنين محمد مخلوف

وقوله - سبحانه - « فجعلهم كعصف مأكول » بيان للآثار القطيعة التي ترتبت على ما فعلته الحجارة التي أرسلتها الطيور عليهم بإذن الله - تعالى - .

والعصف : ورق الزرع الذي يبقى في الأرض بعد الحصاد ، وتعصفه الرياح فتأكله الحيوانات . أو هو التبن الذي تأكله الدواب . .

أي : سلط الله - تعالى - عليهم طيرا ترميهم بحجارة من طين متحجر ، فصاروا بسبب ذلك صرعى هالكين ، حالهم في تمزقهم وتناثرهم كحالة أوراق الأشجار اليابسة أو التبن الذي تأكله الدواب .

وهكذا نرى السورة الكريمة قد ساقت من مظاهر قدرة الله - تعالى - ما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، وثباتا على ثباتهم ، وما يحمل الكافرين على الاهتداء إلى الحق ، والاقلاع عن الشرك والجحود لو كانوا يعقلون . .

فنسأل الله - تعالى - أن يهدينا إلى صراطه المستقيم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر

صباح الثلاثاء ١٦ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ

١٨ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

(تفسير سورة)
قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٦ « سورة قريش »

١ — سورة « قريش » تسمى — أيضا — سورة «لإيلاف قريش» ، وهى من السور المكية عند جماهير العلماء ، وقيل مدنية ، والأول أصح لأنه المأثور عن ابن عباس وغيره ، وعدد آياتها أربع آيات وعند الحجازيين خمس آيات .

وكان نزولها بعد سورة « التين » وقبل سورة «القارعة» ، فهى السورة التاسعة والعشرون فى ترتيب النزول .

٢ — ومن أهدافها : تذكير أهل مكة بجانب من نعم الله — تعالى — عليهم ، لعلهم عن طريق هـــذا التذكير يفيئون إلى رشدهم ، ويخلصوا العبادة لخالقهم ومانحهم تلك النعم العظيمة .

قال — تعالى — :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

والإيلاف : مصدر آلفت الشىء إيلافا و « إلفا » إذا لزمته وتعودت عليه . وتقول : آلفت فلانا الشىء ، إذا ألزمته إياه . والإيلاف ـ أيضا ـ

اجتماع الشمل مع الالتئام، ومنه قوله — تعالى — : «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا . . .» .

ولفظ «إيلاف» مضاف لمفعوله وهو قريش، والفاعل هو الله - تعالى - : و«قريش» هم ولد النضر بن كنانة - على الأرجح - وهو الجد الثالث عشر للنبي — صلى الله عليه وسلم — .

قال القرطبي ما ملخصه : وأما قريش فهم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة ابن إلياس، بن مضر . فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي . .

وسموا قريشا، لتجمعهم بعد التفرق، إذ التقرش : التجمع والالتئام . . أو سموا بذلك لأنهم كانوا تجارا يأكلون من مكاسبهم، والتقرش : الكسب، ويقال : قرش فلان يقرش قرشا — كقتل — ، إذا كسب المال وجمعه . . .» (١) .

وقوله : «إيلافهم» بدل أو عطف بيان من قوله «لإيلاف قريش»، وهو من أسلوب الإجمال فالتفصيل للعناية بالخير، ليتمكن فى ذهن السامع كما فى قوله — تعالى — : «لعلى أبلغ الأسباب، أسباب السموات . . .» .

واللام فى قوله — تعالى — : «لإيلاف . . .» للتعليل، والجار والمجرور متعلق بقوله — تعالى — : «فليعبدوا . . .» .

وتقدير الكلام : من الواجب على أهل مكة أن يخلصوا العبادة لله — تعالى — ، لأنه — سبحانه — هو الذى جمعهم بعد تفرق، وألف بينهم، وهيأ لهم رحلتين فيهما ما فيهما من النفع والأمن .

وزيدت الفاء فى قوله — تعالى — : «فليعبدوا . .» لما فى الكلام من معنى الشرط، فكأنه — سبحانه — يقول لهم : إن لم تعبدونى من

---

(١) راجع تفسير القرطبي جـ ٢٠ ص ٢٠٢

أجل نعمى التى لا تحصى ، فاعبدونى من أجل أنى جعلتكم تألفون هاتين الرحلتين النافعتين فى أمان واطمئنان ، وأنى جمعت شملكم ، وألفت بينكم . . . » .

قال صاحب الكشاف : «لإيلاف قريش» متعلق بقوله : «فليعبدوا..» أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين .

فإن قلت : فلم دخلت الفاء ؟ قلت لما فى الكلام من معنى الشرط ، لأن المعنى : إما لا فليعبدوه لإيلافهم . على معنى أن نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه الواحدة التى هى نعمة ظاهرة .

وقيل المعنى : اعجبوا لإيلاف قريش . وقيل هو متعلق بما قبله — فى السورة السابقة — أى : فجعلهم كعصف مأكول . لإيلاف قريش وهذا بمنزلة التضمن فى الشعر ، وهو أن يتعلق معنى البيت بالذى قبله . . . . . » (١) .

وقوله — سبحانه — : «رحلة الشتاء والصيف» بيان لمظهر من مظاهر هذا الإيلاف الذى منحه — سبحانه — لهم . والرحلة هنا : اسم لارتحال القوم من مكان إلى آخر ، ولفظ « رحلة » منصوب على أنه مفعول به لقوله « إيلافهم » . . .

والمراد بهذه الرحلة : ارتحالهم فى الشتاء إلى بلاد اليمن ، وفى الصيف إلى بلاد الشام ، من أجل التجارة ، واجتلاب الربح ، واستدرار الرزق ، والاستكثار من القوت واللباس وما يشبههما من مطالب الحياة .

وقيل المراد برحلة الشتاء والصيف : رحلة الناس إليهم فى الشتاء والصيف للحج والعمرة فقد كان الناس يأتون إلى مكة فى الشتاء والصيف

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٨٠٠

لهذه الأغراض ، فيجد أهل مكة من وراء ذلك الخير والنفع ، كما قال — تعالى — : « ليشهدوا منافع لهم » .

وبعد أن ذكرهم — سبحانه — بنعمه ، أمرهم بشكره ، فقال : « فليعبدوا رب هذا البيت . . . » .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لهم ، فليخلصوا العبادة لله - تعالى - الذى حمى لهم البيت الحرام ، والكعبة المشرفة ، ممن أرادهما بسوء . .

« الذى أطعمهم من جوع » أى : الذى وسع لهم الرزق ، ومهد لهم سبيله ، عن طريق الوفود التى تأتى إليهم من مشارق الأرض ومغاربها .

والذى « آمنهم من خوف » أى : والذى أوجد لهم الأمن بعد الخوف ، والسعة بعد الضيق ، ببركة هذا البيت الحرام .

وتنكير « جوع » و « خوف » للتعظيم ، أى : أطعمهم بدلا من جوع شديد ، وآمنهم بدلا من خوف عظيم ، كانوا معرضين لهما ، وذلك كله من فضله — سبحانه — عليهم ، ومن رحمته بهم ، حيث أتم عليهم نعمتين بهما تكمل السعادة ، ويجتمع السرور .

ومن الآيات التى تشبه هذه الآية قوله — تعالى — : « أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم . . . » .

وقوله — سبحانه — : « أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا . . . » .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة — مدينة نصر
صباح الأربعاء ١٧ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ
١٩ من نوفمبر سنة ١٩٨٦

(تفسير سورة)

* (الماعون) *

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٧ سورة «الماعون»

١ – سورة «الماعون» تسمى - أيضاً - سورة «أريت» وسورة «الدين» وسورة «التكذيب»، وهى مكية فى قول الجمهور، وقيل هى مدنية . .

قال الآلوسى : هى مكية فى قول الجمهور . . وروى عن قتادة والضحاك أنها مدنية، وقال هبة الله المفسر الضرير : نزل نصفها - الأول - بمكة فى العاص بن وائل، ونصفها - الثانى - بالمدينة فى عبد الله ابن أبى المنافق .

وعدد آياتها سبع آيات فى المصحف العراقى، وست فى المصاحف الباقية . . .»(١) .

٢ ـ ومن أهدافها : التعجيب من حال المشركين، الذين كذبوا بالبعث، واعتدوا على اليتامى، وبخلوا بما آتاهم الله ـ تعالى ـ من فضله، وهجروا الصلاة، ومنعوا الزكاة . .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣٠ ص ٢٤١ .

قال - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾
وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾
الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾
وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

فالاستفهام فى قوله - سبحانه - « أرأيت » للتعجيب من حال هذا الإنسان الذى بلغ النهاية فى الجهالة والجحود . . ولتشويق السامع إلى ما سيذكر بعد هذا الاستفهام . .

والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ولكل من يصلح له . أى : أخبرنى - أيها الرسول الكريم - أرأيت وعرفت أسوأ وأعجب من حال هذا الإنسان الذى يكذب بيوم الدين ، أى : بيوم البعث والجزاء والحساب ويذكر ما جئت به من عند ربك من حق وهداية . .

مما لاشك فيه أن حال هذا الإنسان من أعجب الأحوال ، وعاقبته من أسوأ العواقب ! !

والرؤية فى قوله « أرأيت » يحتمل أن تكون بصرية ، فتتعدى لواحد هو الاسم الموصول ، كأنه - تعالى - قال : أأبصرت أسوأ وأعجب من هذا المكذب بيوم الدين . .

ويحتمل أن تكون علمية ، فتتعدى لاثنين ، أولهما الاسم الموصول

والثانى محذوف ، والتقدير : أعرفت الذى يكذب بالدين من هو ؟ إننا نحن الذين نعرفك صفاته ، وهى :

« فذلك الذى يدع اليتيم . . » أى : فذلك الذى يكذب بالبعث والحساب والجزاء ، من أبرز صفاته القبيحة . أنه « يدع اليتيم » أى : يقسو عليه ، ويزجره زجرا عنيفا ، ويسد كل باب خير فى وجهه ، ويمنع كل حق له . . .

فقوله : « يدع » من الدع وهو الدفع الشديد ، والتعنيف الشنيع للغير ...

« ولا يحض على طعام المسكين » أى : أن من صفاته الذميمة - أيضاً - أنه لا يحث أهله وغيرهم من الأغنياء ، على بذل الطعام للبائس المسكين ، وذلك لشحه الشديد ، واستيلاء الشيطان عليه ، وانطماس بصيرته عن كل خير .

وفى هذه الآية والتى قبلها دلالة واضحة على أن هذا الإنسان المكذب بالدين قد بلغ النهاية فى السوء والقبح ، فهو لقسوة قلبه لا يعطف على يتيم ، بل يحتقره ويمنع عنه كل خير ، وهو لخبث نفسه لا يفعل الخير ، ولا يحض غيره على فعله ، بل يحض على الشرور والآثام .

ولما كانت هذه الصفات الذميمة ، لا تؤدى إلى إخلاص أو خشوع لله - تعالى - ، وإنما تؤدى إلى الرياء وعدم المبالاة بأداء التكاليف التى أوجبها - سبحانه - على خلقه . .

لما كان الأمر كذلك ، وصف - سبحانه - هؤلاء المكذبين بالبعث والجزاء بأوصاف أخرى ، فقال : « فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون . ويمنعون الماعون » .

والفاء فى قوله : « فويل » للتفريع والتسبب ، والويل : الدعاء بالهلاك والعذاب الشديد .

وهو مبتدأ ، وقوله « للمصلين » خبره . والمراد بالسهو هنا : الغفلة والترك وعدم المبالاة . .

أى : فهلاك شديد ، وعذاب عظيم ، لمن جمع هذه الصفات الثلاث ، بعد تكذيبه بيوم الدين ، وقسوته على اليتيم ، وامتناعه عن إطعام المسكين .

وهذه الصفات الثلاث أولها : الترك للصلاة ، وعدم المبالاة بها ، والإخلال بشروطها وأركانها وسننها وآدابها . .

وثانيها : أداؤها رياء وخداعا ، لا عن إخلاص وطاعة لله رب العالمين كما قال ـ تعالى ـ « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا . . » .

وثالثها : منع الماعون : أى : منع الخير والمعروف والبر عن الناس . فالمراد بمنع الماعون : منع كل فضل وخير عن سواهم . فلفظ « الماعون » اسم مفعول ، من أعان يعين . والعون : هو مساعدة الغير على بلوغ حاجته . . فالمراد بالماعون : ما يستعان به على قضاء الحوائج ، من إناء ، أو فأس ، أو نار ، أو ما يشبه ذلك .

ومنهم من يرى أن المراد بالماعون هنا : الزكاة ، لأنه جرت عادة القرآن الكريم أن يذكر الزكاة بعد الصلاة .

قال الإمام ابن كثير : قوله : « ويمنعون الماعون » أى : لا أحسنوا عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خلقه ، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ،

ويستعان به ، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم ، فهؤلاء لمنع الزكاة ومنع القربات أولى وأولى . .

وسئل ابن مسعود عن الماعون فقال : هو ما يتعاوره الناس بينهم من الفأس والقدر »(١) .

وهكذا نرى السورة الكريمة قد ذمت المكذبين بيوم الدين ذماشديدا حيث وصفتهم بأقبح الصفات وأشنعها .

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يعيذنا من ذلك . . ؟

القاهرة ـ مدينة نصر

صباح الأربعاء ١٧ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧هـ

١٩ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥١٦ .

تفسیر سورة

الکوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٨ « سورة الكوثر »

سورة « الكوثر » وتسمى — أيضا — سورة « النحر » ، تعتبر أقصر سورة فى القرآن الكريم ، وهى من السور المكية عند الجمهور ، وقيل مدنية . .

قال بعض العلماء : والأظهر أن هذه السورة مدنية ، وعلى هذا سنسير فى تفسير آياتها ، وعلى القول بأنها مكية عددها الخامسة عشرة . فى عداد نزول السور ، نزلت بعد سورة « العاديات » ، وقبل سورة « التكاثر » . وعلى القول بأنها مدنية ، فقد قيل أنها نزلت فى الحديبية . وعدد آياتها ثلاث آيات بالإتفاق »(١) .

والسورة الكريمة بشارة للنبى — صلى الله عليه وسلم — بأن الله — تعالى — سيعطيه الخير الجزيل ، والذكر الخالد .

قال — تعالى — :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

والكوثر : فوعل من الكثرة ، مثل النوفل من النفل ، ومعناه : الشىء البالغ فى الكثرة حد الإفراط ، والعرب تسمى كل

(١) تفسير التحرير والتنوير ج٣٠ ص٥٦١ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور

شيء كثر عدده ، وعظم شأنه : كوثرا . وقد قيل لأعرابية بعد رجوع ابنها من سفر ، بم آب ابنك ؟ قالت : آب بكوثر . أي : بشيء كثير . .

قال الإمام القرطبي : ما ملخصه واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطيه النبي — صلى الله عليه وسلم — على ستة عشر قولا : الأول : أنه نهر في الجنة ، رواه البخاري عن أنس ، ورواه الترمذي — أيضا — عن ابن عمر . . . الثاني : أنه حوض النبي — صلى الله عليه وسلم — في الموقف . . . الثالث : أنه النبوة والكتاب . . . الرابع : أنه القرآن . . الخامس : الإسلام . .

ثم قال — رحمه الله : — : قلت : أصح هـــذه الأقوال الأول والثاني ، لأنه ثابت عن النبي — صلى الله عليه وسلم — ، نص في الكوثر . . . وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أعطيه — صلى الله عليه وسلم — زيادة على حوضه . . . (١) .

وافتتح — سبحانه — الكلام بحرف التأكيد ، للاهتمام بالخبر ، وللإشعار بأن المعطى شيء عظيم . . أي : إنا أعطيناك بفضلنا وإحساننا — أيها الرسول الكريم — الكوثر ، أي : الخير الكثير الذي من جملته هذا النهر العظيم ، والحوض المطهر . . فابشر بذلك أنت وأمتك ، ولا تلتفت إلى ما يقوله أعداؤك في شأنك .

والفاء في قوله — تعالى — : « فصل لربك وانحر » لترتيب ما بعدها على ما قبلها . والمراد بالصلاة : المداومة عليها .

أي : ما دمنا قد أعطيناك هذه النعم الجزيلة ، فداوم على شكرك لنا ، بأن تواظب على أداء الصلاة أداء تاما ، وبأن تجعلها خالصة لربك

(١) راجع تفسير القرطبي جـ ٢٠ ص ٢١٨ وابن كثير جـ ٧ ص ٥١٩

وخالقك ، وبأن تواظب – أيضا – على نحرك الإبل تقربا إلى ربك، كما قال – سبحانه – : « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

ثم بشره – سبحانه – ببشارة أخرى فقال : «إن شانئك هو الأبتر» والشانىء : هو المبغض لغيره . يقال : شنأ فلان فلانا شنئا ، إذا أبغضه وكرهه . .

والأبتر فى الأصل : هو الحيوان المقطوع الذنب . والمراد به هنا الإنسان الذى لا يبقى له ذكر ، ولا يدوم له أثر .

شبه بقاء الذكر الحسن بذنب الحيوان ، لأنه تابع له وهو زينته ، وشبه الحرمان من ذلك ببتر الذيل وقطعه .

والمعنى : إن مبغضك وكارهك – أيها الرسول الكريم – هو المقطوع عن كل خير ، والمحروم من كل ذكر حسن .

قال الإمام ابن كثير : كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : دعوه فإنه رجل أبتر لاعقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره ، فأنزل الله - تعالى - هذه السورة .

وقال السدى . كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا : بتر ، فلما مات أبناء النبى – صلى الله عليه وسلم – قالوا : بتر محمد فأنزل الله هذه الآية .

وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر إذا مات انقطع ذكره ، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره ، وحاشه

وكلا ، بل أبقى الله ذكره على رءوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمرا على دوام الآباد ، إلى يوم الحشر والمعاد ، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم التناد »(١) .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من أهل شفاعته يوم القيامة -

القاهرة - مدينة نصر
مساء الأربعاء ١٧ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ
١٩ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥٢٥

(تفسير سورة)

الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٩ « سورة الكافرون »

١ - « الكافرون » تسمى - أيضا - سورة « المقشقشة » أى : المبرئة من الشرك ، وسورة « العبادة » وسورة « الدين » .

وهى من السور المكية عند الجمهور ، وكان نزولها بعد سورة « الماعون » وقبل سورة « الفيل » .

وقيل : إنها مدنية ، وعدد آياتها ست آيات .

٢ - وقد ذكروا فى سبب نزولها روايات منها ما ذكره ابن اسحاق عن ابن عباس ، أن جماعة من زعماء المشركين أتوا إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقالوا له : هلم فلنعبد إلهك مدة ، وأنت تعبد آلهتنا مدة ، فيحصل بذلك الصلح بيننا وبينك . . فنزلت هذه السورة .

٣ - وقد ذكر الإمام ابن كثير بعض الأحاديث التى تدل على أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ بها كثيرا فى صلاة ركعتى الفجر ، ومن ذلك ما أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ سورة « الكافرون » وسورة « قل هو الله أحد » فى ركعتى الفجر . . . » (١)

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥٢٧

قال - تعالى - :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ (١) لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ (٢) وَلَآ أَنتُمۡ
عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ (٣) وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ (٤) وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ
مَآ أَعۡبُدُ (٥) لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ (٦)

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين جاءوك ليساوموك على أن تعبد آلهتهم مدة ، وهم يعبدون إلهك مدة أخرى . قل لهم على سبيل الجزم والتأكيد « لا أعبد » أنا الذى تعبدونه من آلهة باطلة ، ولا أنتم عابدون الإله الحق الذى أعبده ، لجهلكم وجحودكم ، وعكوفكم على ما كان عليه آباؤكم من ضلال .

وافتتحت السورة الكريمة بفعل الأمر « قل » للاهتمام لما سيأتى بعده من كلام المقصود منه إبلاغه إليهم ، وتكليفهم بالعمل به .

ونودوا بوصف الكافرين ، لأنهم كانوا كذلك ، ولأن فى هذا النداء تحقيرا واستخفافا بهم .

و « ما » هنا موصولة بمعنى الذى ، وأوثرت على « من » ، لأنهم ما كانوا يشكون فى ذات الآلهة التى يعبدونها ، ولا فى ذات الإله الحق الذى يعبده النبى - صلى الله عليه وسلم - . وإنما كانوا يشكون فى أوصافه - تعالى - ، من زعمهم أن هذه الأصنام ما يعبدونها إلا من أجل التقرب إليه ، ويقولون : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » مع أن الله - تعالى - منزه عن ذلك ، فالمقصود من « ما » هنا : الصفة ، وليس الذات ، فكأنه قال :

لا أعبد الباطل الذى تعبدونه ، وأنتم لجهلكم لا تعبدون الإله الحق الذى أعبده . .

وقوله - تعالى - : «ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد..» تأكيد وتقرير لما اشتمل عليه الكلام السابق ، و «ما» هنا مصدرية ، فكأنه قيل : ولا أنا عابد عبادتكم ، ولا أنتم عابدون عبادتى .

فالآيتان السابقتان تنفيان الاتحاد بينه - صلى الله عليه وسلم - وبينهم فى المعبود ، وهاتان الآيتان تنفيان الاتحاد فى العبادة ، والمقصود من ذلك المبالغة التامة فى البراءة من معبوداتهم الباطلة ، ومن عباداتهم الفاسدة ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - ومن معه من المؤمنون ، لا يعبدون إلا الله - عز وجل - ، وهم بذلك يكونون قد اهتدوا إلى العبادة الصحيحة .

وقوله - تعالى - : « لكم دينكم ولى دين » تذييل مؤكد لما قبله . والدين : يطلق بمعنى العقيدة التى يعتقدها الإنسان ويدين بها ، وبمعنى الملة التى تجرى أقواله وأفعاله على مقتضاها ، وبمعنى الحساب والجزاء ، ومنه قولهم : دنت فلانا بما صنع ، أى : جازيته على صنيعه .

واللفظ هنا شامل لكل ذلك ، أى : لكم - أيها الكافرون - دينكم وعقيدتكم التى تعتقدونها ولا تتجاوزكم إلى غيركم من المؤمنين الصادقين فضلا عن رسولهم ومرشدهم - صلى الله عليه وسلم - ، ولى دينى وعقيدتى التى هى عقيدة التوحيد ، والتى بايعنى عليها أتباعى المؤمنون ، وهى مقصورة علينا ، وأنتم محرومون منها ، وستقرون سوء عاقبة مخالفتكم لى .

وقدم - سبحانه - المسند على المسند إليه ، لإفادة القصد والاختصاص. فكأنه قيل : لكم دينكم لا لغيركم ، ولى دينى لا لغيرى ، والله - تعالى - هو أحكم الحاكمين بينى وبينكم .

وبذلك نرى السورة الكريمة ، قد قطعت كل أمل توهم الكافرون

عن طريقه الوصول إلى مهادنة النبى - صلى الله عليــــه وسلم - ، وإلى الاستجابة لشيء من مطالبهم الفاسدة ؛ وإنما هو - صلى الله عليه وسلم - بريء براءة تامة منهم ومن معبوداتهم وعباداتهم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

صباح الجمعة ١٩ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ

٢١ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

تفسير سورة

النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

١١٠ سورة « النصر »

١ — سورة « النصر » تسمى — أيضاً — سورة : إذا جاء نصر الله والفتح » ، وتسمى سورة « التوديع » وهي من السور المدنية ، قيل : قيل : نزلت عند منصرف النبي — ﷺ — من غزوة خيبر ، وقيل نزلت بمنى في أيام التشريق ، والنبي — ﷺ — في حجة الوداع ، وقيل نزلت عند منصرفه — ﷺ — من غزوة حنين . .

وكان نزولها بعد سورة « الحشر » ، وقبل سورة « النور » ، وهي ثلاث آيات . .

٢ — وقد تضافرت الأخبار رواية وتأويلا ، على أن هذه السورة تومىء إلى قرب نهاية أجل النبي — ﷺ — . . .

وقد ذكر الإمام ابن كثير جملة من الآثار في هذا المعنى منها ما أخرجه البيهقي عن ابن عباس قال : لما نزلت سورة « إذا جاء نصر الله والفتح » ، دعا رسول الله — ﷺ — فاطمة وقال : « قد نعيت إلى نفسي ، فبكت ثم ضحكت ، وقالت : أخبرني أنه نعيت إليه نفسه فبكيت . ثم قال : « اصبري فإنك أول أهلي لحاقا بي » فضحكت .

وأخرج البخاري عن ابن عباس قال : كان عمر — رضي الله عنه — يدخلني مع أشياخ بدر ، فكان بعضهم قد وجد في نفسه — أي : تغير وغضب — وقال : لما ذا يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله . فقال عمر : إنه ممن علمتم . فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم . . فقال : ما تقولون في قوله — تعالى — « إذا جاء نصر الله والفتح . . . » ، فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره ، إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم . . فقال

عمر : أكذلك تقول يابن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله - ﷺ - ، أعلمه له . . فقال عمر : لا أعلم منها إلا ما تقول » .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس أنه قال : «آخر سورة نزلت من القرآن هذه السورة »(١) .

٣ - والسورة الكريمة وعد منه - تعالى - لنبيه - ﷺ - بالنصر والفتح وبشارة بدخول أفراج الناس فى دين الله ، وأمر منه - سبحانه - بالمواظبة على حمده واستغفاره . .

قال - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

والنصر : التغلب على العدو ، والإعانة على بلوغ الغاية ، ومنه قولهم : قد نصر الغيث الأرض ، أى : أعان على إظهار نباتها . .

والمراد به هنا : إعانة الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - على أعدائه ، حتى حقق له النصر عليهم .

والفتح : يطلق على فتح البلاد عنوة والتغلب على أهلها ، ويطلق على

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥٢٩ .

الفصل والحكم بين الناس ، ومنه قوله - تعالى - : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » . .

والمراد به هنا : فتح مكة ، وما ترتب عليه من إعزاز الدين ، وإظهار كلمة الحق . .

قال الإمام ابن كثير . والمراد بالفتح هنا فتح مكة قولا واحدا ، فإن أحياء العرب كانت تتلوم - أى : تنتظر - بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبى ، فلما فتح الله عليه مكة ، دخلوا فى دين الله أفواجا ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت - أى : اجتمعت - جزيرة العرب على الإيمان ، ولم يبق فى سائر قبائل العرب إلا مظهـــر للإسلام ، ولله الحمد والمنة . .

والأفواج : جمع فوج ، وهو الجماعة والطائفة من الناس . وقوله « فسبح . . . » جواب إذا .

والمعنى : إذا أتم الله - عليك - أيها الرسول الكريم - وعلى أصحابك النصر ، وصارت لكم المكانة العليا على أعدائكم ، وفتح لكم مكة ، وشاهدت الناس يدخلون فى دين الإسلام ، جماعات ثم جماعات كثيرة بدون قتال يذكر . .

إذا علمت ورأيت كل ذلك ، فداوم وواظب على تسبيح ربك ، وتنزيهه عن كل مالا يليق به ، شكرا له على نعمه ، وداوم - أيضاً - على طلب مغفرته لك وللمؤمنين . .

« إنه » عز وجل - « كان » وما زال « توابا » أى : كثير القبول لتوبة عباده التائبين إليه ، كما قال - سبحانه - : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » . .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده التائبين توبة صادقة نصوحا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر مساء الجمعة ١٩ من ربيع الأول سنة ١٤٠٨ هـ

٢١ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

(تفسير سورة)

المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

١١١ سورة « المسد »

١ — سورة « المسد » تسمى — أيضا — بسورة « تبت . . . » وبسورة « أبي لهب » ، وبسورة « اللهب » وهي من أوائل السور التي نزلت بمكة ، فهي السورة السادسة في ترتيب النزول ، وكان نزولها بعد سورة « الفاتحة » ، وقبل سورة « التكوير » ، وهي خمس آيات .

٢ — وقد ذكروا في سبب نزول هذه السورة روايات منها : ما أخرجه البخاري عن ابن عباس ، أن النبي — صلى الله عليه وسلم — خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى « يا صباحاه » ـ وهي كلمة ينادى بها للإنذار من عدو قادم ـ ، فاجتمعت إليه قريش ، فقال : « أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : نعم . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ تبالك ، فأنزل الله — تعالى — هذه السورة .

وفي رواية : أنه قام ينفض يديه وجعل يقول للرسول — صلى الله عليه وسلم — : تبالك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ، فأنزل الله — تعالى — هذه السورة (١) .

وأبو لهب : هو أحد أعمام النبي — صلى الله عليه وسلم — ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم . . . وامرأته هي : أروى بنت حرب ابن أمية ، وكنيتها أم جميل .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥٢٤

روى أنها لما سمعت ما نزل فى زوجها وفيها من قرآن ، أتت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق ، وفى يدها فهر - أى : حجر - ، فلما وقفت أخذ الله - تعالى - بصرها عن رسوله - صلى الله عليه وسلم - فقالت : يا أبا بكر ، بلغنى أن صاحبك يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ... ثم انصرفت . فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - : «ما رأتنى ، لقد أخذ الله بصرها عنى»(١)

قال - تعالى - .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾
سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾
فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

ومعنى «تبت» هلكت وخسرت ، ومنه قوله - تعالى - : «وما كيد فرعون إلا فى تباب» وقوله - سبحانه - : «وما زادوهم غير تتبيب» .

وقوله : «وتب» أى . وقد تب وهلك وخسر . فالجملة الأولى دعاء عليه بالهلاك والخسران ، والجملة الثانية : إخبار عن أن هذا الدعاء قد استجيب ، وأن الخسران قد نزل به فعلا .

أى : خسرت وخابت يدا أبى لهب ، وقد نزل هذا الهلاك والخسران به ، بسبب عداوته الشديدة للحق ، الذى جاء به النبى - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه - سبحانه - .

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ٢٣١

والمراد باليدين هنا : ذاته ونفسه ، من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل ، كما فى قوله - تعالى - : « ذلك بما قدمت يداك » .

ويجوز أن يكون المراد باليدين حقيقتهما ، وذلك لأنه كان يقول : يعدنى محمد - صلى الله عليه وسلم - بأشياء ، لا أدرى أنها كائنة ، يزعم أنها بعد الموت ، فلم يضع فى يدى شىء من ذلك ، ثم ينفخ فى يديه ويقول : تبا لكما ما أرى فيكما شيئا .

وقوله - سبحانه - : «ما أغنى عنه ماله وما كسب» كلام مستأنف للانتقال من ذمه والدعاء عليه بالهلاك . . إلى بيان أن ماله وجاهه . . لن يغنى عنه من عذاب الله - تعالى - شيئا .

أى : أن أبا لهب لن يغنى عنه ماله الكثير ، وكسبه الوفير من حطام الدنيا . . لن يغنى عنه شيئا من عذاب الله - تعالى - ، أو شيئا من انتشار رسالة الله - تعالى - فى الأرض ، فإن الله - سبحانه - ناصر نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، ومؤيده بروح منه .

والتعبير بالماضى فى قوله : « ما أغنى . . . » ، لتحقيق وقوع عدم الإغناء .

والراجح أن « ما » الأولى نافية ، والثانية موصولة . أى : ما أغنى عنه شيئا ماله الذى ورثه عن أبيه ، وأيضا ما أغنى عنه شيئا ماله الذى جمعه واكتسبه هو بنفسه عن طريق التجارة وغيرها .

وقوله - سبحانه - : « سيصلى نارا ذات لهب » بيان للعاقبة السيئة التى تنتظره ، بعد هذا الذم والتأنيب والوعيد . أى : سيلقى بأبى لهب فى نار شديدة الحرارة ، تشوى الوجوه والأبدان ، ووصف - سبحانه - النار بأنها «ذات لهب» لزيادة تقرير المناسبة بين اسمه وكفره ، إذ هو معروف بأبى لهب ، والنار موصوفة بأنها ذات لهب شديد .

ثم أعقب - سبحانه - ذلك ، بذم زوجه التى كانت تشاركه العداوة

لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : ولو أنه حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد » .

وقوله : « وامرأته » معطوف على الضمير المستتر العائد على أبى لهب فى قوله « سيصلى » ، وانتصاب لفظ « حمالة » على الذم بفعل مضمر ، لأن المقصود به هنا الذم . وقرأ الجمهور « حمالة » - بالرفع - على أنه صفة لها ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هى حمالة الحطب .

والمقصود بقوله - تعالى - « حمالة الحطب » الحقيقة ، فقد روى أنها كانت تحمل بنفسها حزمة الشوك والحسك والسعدان ، فتنثرها بالليل فى طريقه - صلى الله عليه وسلم - ، لإيذائه به ويصح أن يكون المراد بهذه الجملة الكناية عن مشيها بين الناس بالنميمة ، وإشاعة السوء حول الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فإنه يقال لمن يمشى بالنميمة ليفسد بين الناس ، إنسان يحمل الحطب بين الناس ، أى : أنه يفسد بينهم .

ويصح أن يكون المقصود بهذه الجملة : حملها للذنوب والخطايا ، من قولهم : فلان يحطب على ظهره ، إذا كان يكتسب الذنوب والخطايا ، فاستعير الحطب لذلك .

وقد رجح الإمام ابن جرير القول الأول ، لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه فى طريق النبى - صلى الله عليه وسلم (١) .

وقوله - سبحانه - : « فى جيدها حبل من مسد » زيادة فى تبشيع صورتها ، وتحقير هيئتها .

والجيد : العنق . والمسد : الليف المتين الذى فتل بشدة . يقال : حبل ممسود ، أى : مفتول فتلا قويا .

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ٣٠ ص ٢٢٠

والمعنى : سيصلى أبو لهب نارا شديدة ، وستصلى معه امرأته التى تضع الشوك فى طريق النبى - صلى الله عليه وسلم - هـــذه النار المشتعلة - أيضا - ، وسيزيد الله - تعالى - فى إذلالها وتحقيرها ، بأن يأمر ملائكته بأن تضع فى عنقها حبلا مفتولا فتلا قويا ، على سبيل الإذلال والإهانة لها ، لأنها كانت فى الدنيا تزعم أنها من بنات الأشراف الأكابر .

روى عن سعيد بن المسيب أنه قال : كان لها قـــلادة ثمينة فقالت : لأبيعنها ولأنفقن ثمنها فى عداوة محمد - صلى الله عليه وسلم - فأبدلها الله عنها حبلا فى جيدها من مسد النار .

والذى يتأمل هذه السورة الكريمة ، يراها قد اشتملت على أوضح الأدلة ، وأبلغ المعجزات الدالة على صدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، فإن الله - تعالى - قد أخبر بشقاء أبى لهب وامرأته ، وبأنهما سيصليان نارا ذات لهب . . وقد علما بما جاء فى هذه السورة من عقاب لهما . . ومع ذلك فقد بقيا على كفرهما حتى فارقا الحياة ، دون أن ينطقا بكلمة التوحيد ، - ولو فى الظاهر - ، فثبت أن هذا القرآن من عند الله ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه عن ربه - عز وجل - .

نسأل الله - تعالى - أن يلحقنا بعباده الصالحين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

مساء الجمعة ١٩ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ

٢١ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

(تفسير سورة)

٭ (الإخلاص) ٭

بسم الله الرحمن الرحيم

١١٢ تفسير سورة «الإخلاص»

١ – سورة «الإخلاص» من السور ذات الأسماء المتعددة، وقد ذكر لها الجمل فى حاشيته عشرين اسما، منها أنها تسمى: سورة التفريد، والتجريد، والتوحيد، والنجاة، والولاية، والمعرفة، والصمد، والأساس، والمانعة، والبراءة... »(١).

٢ – وقد ورد فى فضلها أحاديث متعددة، منها ما أخرجه البخارى عن أبى سعيد الخدرى، أن رجلا سمع رجلا يقرأ هذه السورة، ويرددها، فلما أصبح ذكر ذلك للنبى - صلى الله عليه وسلم -، فقال: «والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»(٢).

قال بعض العلماء ومعنى هذا الحديث: أن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام: ثلث منها الأحكام، وثلث منها وعد ووعيد، وثلث منها الأسماء والصفات. وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات.

٣ – وقد ذكروا فى سبب نزولها روايات منها: أن المشركين قالوا: يا محمد، انسب لنا ربك، فأنزل الله - تعالى - هذه السورة الكريمة(٣).

وجمهور العلماء على أنها من السور المكية، وأن نزولها كان بعد سورة «الناس»، وقبل سورة «النجم»، أى: أنها السورة الثانية والعشرون

---

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٦٠٢.

(٢) راجع القرطبى جـ ٢٠ ص ٢٤٧.

(٣) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥٢٨.

فى ترتيب النزول . ويرى بعضهم أنها مدينة ، والأول أرجح ، لأنها جمعت أصل التوحيد ، وهذا المعنى غالب فى السور المكية .

وعدد آياتها خمس آيات فى المصحف الحجازى والشامى ، وأربع آيات فى الكوفى والبصرى .

قال — تعالى — :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)

وقد افتتحت بفعل الأمر « قل » لإظهار العناية بما بعد هذا الأمر من توجيهات حكيمة ، ولتلقينه - صلى الله عليه وسلم - الرد على المشركين الذين سألوه أن ينسب لهم ربه .

و « هو » ضمير الشأن مبتدأ ، والجملة التى بعده خبر عنه . .

والأحد : هو الواحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وفى كل شأن من شئونه ، فهو منزه عن التركيب من جواهر متعددة ، أو من مادة معينة ، كما أنه - عز وجل - منزه عن الجسمية والتحيز ، ومشابهة غيره . .

وفى الإتيان بضمير الشأن هنا : إشارة إلى فخامة مضمون الجملة ، مع ما فى ذلك من زيادة التحقيق والتقرير ، لأن الضمير يشير إلى شىء مبهم تترقبه النفس ، فإذا جاء الكلام من بعده زال الإبهام ، وتمكن الكلام من النفس فضل تمكن .

وجىء بالخبر نكرة وهو لفظ « أحد » ، لأن المقصود الإخبار عن الله — تعالى — بأنه واحد ، ولو قيل : الله الأحد ، لأفاد أنه لا واحد

سواه، وليس هذا المعنى مقصودا هنا، وإنما المقصود إثبات أنه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله.. ونفي ما زعمه المشركون وغيرهم، من أنه - تعالى - مركب من أصول مادية أو غير مادية، أو من أنه له شريك في ملكه..

وقوله - سبحانه -: «الله الصمد» أي: الله - تعالى - هو الذي يَصْمُدُ إليه الخلق في حوائجهم، ويقصدونه وحده بالسؤال والطلب.. مأخوذ من قولهم صمد فلان إلى فلان، بمعنى توجه إليه بطلب العون والمساعدة..

قال صاحب الكشاف: «والصمد فَعَل بمعنى مفعول، من صمد إليه إذا قصده، وهو - سبحانه - المصمود إليه في الحوائج. والمعنى: هو الله الذي تعرفونه وتقرون بأنه خالق السموات والأرض، وخالقكم وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها، وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق، لا يستغنون عنه، وهو الغني عنهم..»(١).

وجاء لفظ «الصمد» محلى بأل، لإفادة الحصر في الواقع ونفس الأمر فإن قصد الخلق إليه - سبحانه - في الحوائج، أعم من القصد الإرادي، والقصد الطبيعي، والقصد بحسب الاستعداد الأصلي، الثابت لجميع المخلوقات، إذ الكل متجه إليه - تعالى - طوعا وكرها..

وقوله - سبحانه -: «لم يلد» تنزيه له - تعالى - عن أن يكون له ولد أو بنت، لأن الولادة تقتضي انفصال مادة منه، وذلك يقتضي التركيب المنافي للأحدية والصمدية. أو لأن الولد من جنس أبيه، وهو - تعالى - منزه عن مجانسة أحد..

وقوله: «ولم يولد» تنزيه له - تعالى - عن أن يكون له أب أو أم -

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨١٨.

لأن المولودية تقتضى - أيضاً - التركيب المنافى الأحدية والصمدية ، أو لا قتضائها سبق العدم ، أو المجانسة ، وكل ذلك مستحيل عليه - تعالى - فهو سبحانه - : « الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم » .

وقوله - عز وجل - : « ولم يكن له كفوا أحد » تنزيه له - تعالى - عن الشبيه والنظير والمماثل . .

والكفؤ : هو المكافىء والمماثل والمشابه لغيره فى العمل أو فى القدرة .

أى : ولم يكن أحد من خلقه مكافئا ولا مشاكلا ولا مناظرا له - تعالى - فى ذاته أو صفاته ، أو أفعاله ، فهو كما قال - تعالى - : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

وبذلك نرى أن هذه السورة الكريمة قد تضمنت نفى الشرك بجميع ألوانه . . .

فقد نفى - سبحانه - عن ذاته التعدد بقوله : « الله أحد » ، ونفى عن ذاته النقص والاحتياج بقوله : « الله الصمد » ، ونفى عن ذاته أن يكون والدا أو مولودا بقوله : « لم يلد ولم يولد » ، ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه بقوله : « ولم يكن له كفوا أحد » .

كما نراها قد تضمنت الرد على المشركين وأهل الكتاب ، وغيرهم من أصحاب الفرق الضالة ، الذين يقولون ، بالتثليث ، وبأن هناك آلهة أخرى تشارك الله - تعالى - فى ملكه .

وبغير ذلك من الأقاويل الفاسدة ، والعقائد الزائفة . . « سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا » .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر

صباح الأحد ٢١ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ه

٢٣ / ١١ سنة ١٩٨٦ م

تفسير سورة

الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

١١٣ « سورة الفلق »

١ ـــ سورة « الفلق » تسمى ـ أيضاً ـ سورة « قل أعوذ برب الفلق » وتسمى هي والتي بعدها بالمعوذتين ، وكان نزولهما على الترتيب الموجود في المصحف . .

ويرى الحسن وعطاء وعكرمة أنهما مكيتان ، ويرى قتادة وجماعة أنهما مدنيتان . .

قال الآلوسي عند تفسيره لهذه السورة : هي مكية في قول الحسن . . ومدنية في رواية عن ابن عباس .

وفي قول قتادة وجماعة ، وهو الصحيح ، لأن سبب نزولها سحر اليهود . . . »(١) .

وقد سار السيوطي في إتقانه على أنهما مكيتان ، وأن نزول سورة الفلق كان بعد نزول سورة « الفيل » وقبل سورة « الناس » ، وأن نزول سورة « الناس » كان بعد سورة « الفلق » ، وقبل سورة « الصمد » .

٢ ـــ وعدد آياتها خمس آيات ، والغرض الأكبر منها : تعليم النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ كيف يستعيذ بالله ـ تعالى ـ من شرور الحاقدين والجاحدين والسحرة والفاسقين عن أمر ربهم . .

قال — تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

والفلق : أصله شق الشيء عن الشيء ، وفصل بعض عن بعض ، والمراد به هنا : الصبح ، وسمى فلقا لانفلاق الليل وانشقاقه عنه ، كما فى قوله — تعالى — : فالق الإصباح ، أى : شاق ظلمة آخر الليل عن بياض الفجر . .

ويصح أن يكون المراد به ، كل ما يخلقه الله — تعالى — من مخلوقات كالأرض التى تنفلق عن النبات ، والجبال التى تنفلق عن عيون الماء . .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - أعوذ وأستجير وأعتصم ، بالله - تعالى - الذى فلق الليل ، فانشق عنه الصباح ، والذى هو رب جميع الكائنات ، ومبدع كل المخلوقات . .

قل أعوذ بهذا الرب العظيم « من شر ما خلق » أى : من شر كل ذى شر من المخلوقات ، لأنه لا عاصم من شرها إلا خالقها - عز وجل - ، إذ هو المالك لها ، والمتصرف فى أمرها ، والقابض على ناصيتها ، والقادر على تبديل أحوالها ، وتغيير شئونها . .

[illegible] ب ، والغاسق : الليل عندما

يشتد ظلامه ، ومنه قوله - تعالى - : أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل . . » أى : إلى ظلامه . .

وقوله « وقب » من الوقوب ، وهو الدخول ، يقال : وقبت الشمس إذا غابت وتوارت فى الأفق . . أى : وقل أعوذ به - تعالى - من شر الليل إذا اشتد ظلامه ، وأسدل ستاره على كل شىء ، واختفى تحت جنحه ما كان ظاهرا . .

ومن شأن الليل عندما يكون كذلك ، أن يكون مخيفا مرعبا ، لأن الإنسان لا يتبين ما استتر تحته من أعداء . .

ثم قال — سبحانه — : « ومن شر النفاثات فى العقد » وأصل النفاثات جمع نفاثة ، وهذا اللفظ صيغة مبالغة من النفث ، وهو النفخ مع ريق قليل يخرج من الفم . .

والعُقَد : جمع عُقْدة من العَقد الذى هو ضد الحل ، وهى اسم لكل ما ربط وأحكم ربطه .

والمراد بالنفاثات فى العقد : النساء السواحر ، اللائى يعقدن عقدا فى خيوط وينفثن عليها من أجل السحر . .

وجىء بصيغة التأنيث فى لفظ « النفاثات » لأن معظم السحرة كن من النساء .

ويصح أن يكون النفاثات صفة للنفوس التى تفعل ذلك ، فيكون هذا اللفظ شاملا للذكور والإناث .

وقيل المراد بالنفاثات فى العقد : النمامون الذين يسعون بين الناس بالفساد ، فيقطعون ما أمر الله به أن يوصل . . وعلى ذلك تكون التاء فى « النفاثة » للمبالغة كعلامة وفهامة

أى : وقل — أيضاً — أستجير بالله — تعالى — من شرور السحرة والنمامين ، ومن كل الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . .

ثم ختم — سبحانه — السورة الكريمة بقوله : « ومن شر حاسد إذا حسد » والحاسد : هو الإنسان الذى يتمنى زوال النعمة عن غيره . والحسد : حقيقة واقعة ، وأثره لاشك فيه ، وإلا لما أمر الله — تعالى — نبيه — ﷺ — أن تستعيذ به من شرور الحاسدين . .

قال الآلوسى : وقوله : « ومن شر حاسد إذا حسد » أى : إذا أظهر ما فى نفسه من الحسد ، وعمل بمقتضاه بترتيب مقدمات الشر ، ومبادى الأضرار بالمحسود قولا وفعلا . . . »(١) .

وقد نهى النبى — صلى الله عليه وسلم — عن الحسد فى أحاديث كثيرة منها قوله : لاتباغضوا ولا تحاسدوا . . » .

ومنها قوله : « إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات ، كما تأكل النار الحطب » .

هذا ، وقد تكلم العلماء كلاما طويلا عند تفسيرهم لقوله — تعالى — : « ومن شر النفاثات فى العقد » عن السحر ، فنهم ذهب إلى أنه لا حقيقة له وإنما هو تخييل وتمويه . .

وجمهورهم على إثباته ، وأن له آثارا حقيقية ، وأن الساحر قد يأتى بأشياء غير عادية ، إلا أن الفاعل الحقيقى فى كل ذلك هو الله — تعالى . .

(١) راجع تفسير الآلوسى ﺣ ٣٠ ص ٢٨٤ .

وقد بسطنا القول فى هذه المسألة عند تفسيرنا لقوله - تعالى - فى سورة البقرة : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر . . »(١) .

نسأل الله - تعالى - أن يعيذنا من شرار خلقه ؟

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر

مساء الثلاثاء ٢٣ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ

٢٥ من نوفمبر سنة ١٩٨٦ م

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة البقرة من ص ٢٨٧ إلى ص ٣٠٢ .

(تفسير سورة)

الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

١١٤ سورة «الناس»

١ – سورة «الناس» كان نزولها بعد سورة «الفلق»، وتسمى سورة المعوذة الثانية، والسورتان معا تسميان بالمعوذتين، كما سبق أن أشرنا. وعدد آياتها ست آيات . .

قال – تعالى – :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾
مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ
ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

أى : قل – أيها الرسول الكريم – أعوذ وألتجىء وأعتصم «برب الناس» أى : بمربيهم ومصلح أمورهم، وراعى شئونهم . . . إذ الرب هو الذى يقوم بتدبير أمر غيره، وإصلاح حاله . .

«ملك الناس» أى : المالك لأمرهم ملكا تاما، والمتصرف فى شئونهم تصرفا كاملا . .

«إله الناس» أى : الذى يدين له الناس بالعبودية والخضوع والطاعة

لأنه هو وحده الذى خلقهم وأوجدهم فى هذه الحياة ، وأسبغ عليهم من النعم مالا يحصى . .

وبدأ ـ سبحانه ـ بإضافة الناس إلى ربهم ، لأن الربوبية من أوائل نعم الله ـ تعالى ـ على عباده ، وثنى بذكر المالك ، لأنه إنما يدرك ذلك بعد أن يصيرعا قلا مدركا ، وختم بالإضافة إلى الألوهية ، لأن الإنسان بعد أن يدرك ويتعلم ، يدرك أن المستحق للعبادة هو الله رب العالمين .

قال الجمل : وقد وقع ترتيب هذه الإضافات على الوجه الأكمل ، الدال على الوحدانية ، لأن من رأى ما عليه من النعم الظاهرة والباطنة ، علم أن له مربيا ، فإذا درج فى العروج . . علم أنه ـ تعالى ـ غنى عن الكل ، والكل راجع إليه ، وعن أمره تجرى أمورهم ، فيعلم أنه ملكهم ، ثم يعلم بانفراده بتدبيرهم بعد إبداعهم ، أنه المستحق للألوهية بلا مشارك فيها . . »(١)

وإنما خصت هذه الصفات بالإضافة إلى الناس مع أنه ـ سبحانه ـ رب كل شىء ـ على سبيل التشريف لجنس الإنسان ، ولأن الناس هم الذين أخطأوا فى حقه ـ تعالى ـ ، إذ منهم من عبد الأصنام ، ومنهم من عبد النار ومنهم من عبد الشمس . . إلى غير ذلك من المعبودات الباطلة ، التى هى مخلوقة له ـ تعالى ـ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قيل : « برب الناس » مضافا إليهم خاصة ؟ قلت : لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس فى صدور الناس . فكأنه قيل : أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم ، الذى يملك عليهم

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٦١١ .

أمورهم ، كما يستغيث بعض الموالى إذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخدومهم ووالى أمرهم .

فإن قلت : « ملك الناس . إله الناس » ما هما من رب الناس ؟ قلت : هما عطفا بيان ، كقولك : سيرة أبى حفص عمر الفاروق . بين بملك الناس، ثم زيد بيانا بإله الناس . .

فإن قلت : فهلا اكتفى بإظهار المضاف إليه الذى هو الناس مرة واحدة؟ لأن عطف البيان للبيان ، فكان مظنة للإظهار دون الإضمار . . »(١)

وقوله ـ سبحانه ـ : « من شر الوسواس الخناس » متعلق بقوله «أعوذ» .

والوسواس : اسم للوسوسة وهى الصوت الخفى ، والمصدر الوسواس ـ بالكسر ـ ، والمراد به هنا : الوصف ، من باب إطلاق اسم المصدر على الفاعل ، أو هو وصف مثل الثرثار .

و « الخناس » صيغة مبالغة من الخنوس ، وهو الرجوع والتأخر . والمراد به : الذى يلقى فى نفس الإنسان أحاديث السوء .

وقوله : « الذى يوسوس فى صدور الناس » صفة لهذا الوسواس الخناس ، وزيادة توضيح له . .

وقوله : « من الجنة والناس » زيادة بيان للذى يوسوس فى صدور الناس ، وأن الوسوسة بالسوء تأتى من نوعين من المخلوقات : تأتى من الشياطين المعبر عنهم بالجنة . . وتأتى من الناس .

وقدم ـ سبحانه ـ الجنة على الناس ، لأنهم هم أصل الوسواس ، إذ أنهم مختفون عنا ، ولا نراهم ، كما قال ـ تعالى ـ : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . . » .

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص٨٢٣ .

فلفظ الجنة ـ بكسر الجيم ـ مأخوذ من الجن ـ بفتح الجيم ـ، على معنى الخفاء والاستتار .

والمعنى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ أعوذ وأعتصم وأستجير ، برب الناس ، وما لكهم ومعبودهم الحق ، من شر الشيطان الموسوس بالشر والذى يخنس ويتأخر ويندحر ، إذا ما تيقظ له الإنسان ، واستعان عليه بذكر الله ـ تعالى ـ . .

والذى من صفاته ـ أيضاً ـ أنه يوسوس فى صدور الناس بالسوء والفحشاء ، حيث يلقى فيها خفية ، ما يضلها عن طريق الهدى والرشاد .

وهذا الوسواس الخناس ، قد يكون من الجن ، وقد يكون من الإنس فعليك ـ أيها الرسول الكريم ـ أن تستعيذ بالله ـ تعالى ـ من شر النوعين جميعاً .

قال ـ تعالى ـ : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا . . » .

قال قتادة : إن من الجن شياطين ، وإن من الإنس شياطين ، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن .

وقال الإمام ابن كثير : هذه ثلاث صفات من صفات الله ـ عز وجل ـ الربوبية ، والملك ، والألوهية .

فهو رب كل شىء ومليكه وإلهه ، فجميع الأشياء مخلوقة له . . فأمر ـ سبحانه ـ المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ، من شر الوسواس الخناس ، وهو الشيطان الموكل بالإنسان ، فإنه ما من أحد من بنى آدم ، إلا وله قرين يزين له الفواحش . . والمعصوم من عصمه الله .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ما منكم من أحد إلا قد وكل به قرينه » ، قالوا :

وأنت يارسول الله ؟ قال : « نعم ، إلا أن الله – تعالى – أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير »(١) .

ومن الأحاديث التي وردت في فضل هذه السور الثلاث : الإخلاص والمعوذتين ، ما أخرجه البخاري عن عائشة – رضي الله عنها – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة ، جمع كفيه ثم ينفث فيهما فيقرأ هذه السور ، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بها على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات »(٢) .

وبعد : فإلى هنا أكون – بحمد الله وفضله وكرمه وتوفيقه – أكون قد انتهيت من هذا التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، بعد أن قضيت في كتابته زهاء خمسة عشر عاماً . .

وإني لأضرع إلى الله – عز وجل – أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، كما أضرع إليه – سبحانه – أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا ، وبهجة أرواحنا .

وأن يوفقنا للعمل بما فيه من هدايات ، وآداب ، وأحكام ، ومواعظ .. وأن يذكرنا منه ما نسينا ، وأن يعلمنا منه ما جهلنا ، وأن يجعله في ميزان حسناتنا يوم نلقاه « يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم » .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥٥٨ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥٤٦ .

كما نسأله – تعالى – أن لا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، وأن يغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، وأن يزيدنا من التقى والهدى والعفاف والغنى ، وأن يؤتينا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة . .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ،

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة – مدينة نصر

كتبه الراجى عفو ربه

صباح الجمعة ٢٦ من ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ

محمد سيد طنطاوى ٢٨ من نوفمبر ١٩٨٦ م

مفتى الديار المصريه

فهرس إجمالى لتفسير جزء تبارك وعم

رقم السورة	اسم السورة	رقم الصفحة
٦٧	سورة الملك	١
٦٨	« القلم	٤٣
٦٩	« الحاقه	٩٢
٧٠	« المعارج	١٢٥
٧١	« نوح	١٥١
٧٢	« الجن	١٨٠
٧٣	« المزمل	٢٠٩
٧٤	« المدثر	٢٤١
٧٥	« القيامة	٢٧٤
٧٦	الإنسان	٢٩٦
٧٧	« المرسلات	٣٢٧
٧٨	سورة عم يتساءلون	٣٤٦
٧٩	« النازعات	٣٦٧
٨٠	« عبس	٣٩٥
٨١	« التكوير	٤١٦
٨٢	« الانفطار	٤٣٦
٨٣	« المطففين	

رقم السورة	اسم السورة	رقم الصفحة
٨٤	سورة الانشقاق	٤٦٨
٨٥	« البروج	٤٨١
٨٦	« الطارق	٤٩٧
٨٧	« الأعلى	٥٠٩
٨٨	« الغاشية	٥٢٤
٨٩	« الفجر	٥٣٨
٩٠	« البلد	٥٥٩
٩١	« الشمس	٥٧٩
٩٢	« الليل	٥٨٩
٩٣	« الضحى	٦٠٢
٩٤	« الشرح	١١٦
٩٥	« التين	٦٢٨
٩٦	« العلق	٦٣٨
٩٧	« القدر	٦٥٢
٩٨	« البينة	٦٦٠
٩٩	« الزلزلة	٦٧٢
١٠٠	« العاديات	٦٨٠
١٠١	« القارعة	٦٨٧
١٠٢	« التكاثر	٦٩٣

تابع الفهرس

رقم السورة	اسم السورة	رقم الصفحة
١٠٣	سورة العصر	٧ ٢
١٠٤	« الهمزة	٧٠٧
١٠٥	« الفيل	٧١٦
١٠٦	« قريش	٧٢١
١٠٧	« الماعون	٧٢٦
١٠٨	« الكوثر	٧٣٣
١٠٩	« الكافرون	٧٣٩
١١٠	« النصر	٧٤٥
١١١	« المسد	٧٥٠
١١٢	« الإخلاص	٧٥٦
١١٣	« الفلق	٧٦٢
١١٤	« الناس	٧٦٨

١٧ ش الباب الأخضر المشهد الحسيني
القاهرة ت ٩٤٦٠٠٨